هنري ترويّا

سلسلة روايات نور العادلين

صوفيا أو نهاية المعارك

ترجمة

علي باشا

دار علاء الدين

علي مولا

Henri Troyat

كاتب ومؤلف روسي الأصل كان يسمى (ليف تاراسوف) ولد في موسكو عام ١٩١١ ، وهاجر مع أسرته إلى فرنسا في عام ١٩١٨ ، نال شهادة الإجازة في الحقوق وبدأ سيرته الأدبية بعملين هما:

Faux Jour (1935)

و(1938) L'Araigne التي حاز بفضلها على جائزة غونكورت Prix Goncourt في العام ذاته.

نشر سلسلة من الروايات الرومانسية التي عاصرت التاريخ الروسي آنذاك منها:

Tant que la Lumière durera (1947 - 50).

La Lumière des Justes (1959-63).

Le Pain de l'Etranger (1984).

Les Héritiers de l'Avenir (1968-70).

أما عمله(1946) Les Vivants فقد كتب للمسرح.

نشر أيضاً عدداً من بيوغرافيات مشاهير وأعلام روس منها:

Dostoevsky (1940).

Peter the Great (1979).

Maupassant, Zola, Verlaine (1993).

Flaubert, and Baudelaire (1994).

أصبح عضواً في الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٥٩.

للمزيد من زاد المعرفة وكتب الفكر العالمي

اضغط (انقر) على الرابط التالي

www.alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الإسكندرية

صوفيا

أو

نهاية المعارك

Henri Troyat

SOPHIE OU LA FIN DES COMBATS

La Lumière des Justes

هنري تروَيّا

صوفيا أو نهاية المعارك

سلسلة روايات نور العادلين

ترجمة

علي باشا

منشورات دار علاء الدين

- صوفيا أو نهاية المعارك.
- تأليف: هنري تروَيّا.
- ترجمة: علي باشا.
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- جميع الحقوق محفوظة لدار علاء الدين.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين:**
  - الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.
  - المتابعة الفنية والإخراج: أُسامة راشد رحمة.
  - التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير.
  - الغلاف: م. محمد طه.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

الجزء الأول

١

فُتح الباب أمام «صوفيا»، فاجتازت العتبة، وهي تترنّح من شدة العاصفة. كانت الرياح والثلج تتدفع في الرواق بقوة اضطرت معها «نتاليا فونفيزين» أن تنحني كثيراً لكي تغلق مصراع الباب. وقد لفت جسمها البدين بمئزر مصنوع من الفانيلا الصفراء. وقد احمر وجهها الممتلئ بسبب الجهد الذي بذلته. وبينما كانت تدفع المزلاج، استندت «صوفيا» على الجدار، وضغطت بيديها على صدرها، كانت تلهث وتلتقط أنفاسها، وقد أحنت رأسها تحت قبعتها الثقيلة المصنوعة من جلد الثعلب. وبعد برهة انتصبت، حدّقت بـ «نتاليا» بدهشة، وقالت لها:

- كيف ذلك، ألم تستعدي بعد؟!

- لم أظن أنك ستأتين في هذه العاصفة الثلجية!

- ارتدي ملابسك بسرعة! يجب أن نذهب!

- في هذا الطقس الفظيع؟ سيكون في ذلك شيء من الجنون! سنذهب غداً!

- غداً، يكون قد فات الأوان على ذلك! ألم توفدي «ماتريونا» إلى مركز الفرز؟

- بلى! لا بد أن تكون الآن هناك، ومعها «الزوّادة» ولكن لا بأس بذلك، فإذا رأت أننا لم نذهب، فهي ستدرك السبب، وتعود إلى البيت..

وهذا القدر من التراخي أغاظ «صوفيا» فهي عندما تتخذ قراراً لا تستطيع أن تتخلى عنه أو تتأخر في تنفيذه دون أن تشعر بألم حقيقي. لذلك، قالت وهي تتجه نحو الباب:

علي مولا

- إيه، لا بأس! سأذهب إذن بمفردي.

فصاحت «نتاليا»:

- أوه! كلا! انتظريني! أحتاج لخمس دقائق فقط!

واندفعت مسرعة إلى غرفتها، فلحقت بها «صوفيا» وساعدتها على ارتداء ملابسها. ثم خرجتا سوية وقد شبكتا ذراعيهما، وأحنت كل منهما ظهرها كثيراً، لاتقاء عنف العاصفة.

كانت حبات الثلج وذراته القاسية تتطاير في الهواء وتوخز خديهما بشدة، كطلقات المدفع الرشاش. وعيناهما وقد تراقصت ندفات الثلج أمامهما، لم تعودا تميزان شيئاً، على بعد عشر خطوات أمامهما. ولكنهما كانتا تعرفان الطريق جيداً، ولذلك فإنهما لم تخشيا من الضياع وعدم الوصول إلى مركز الفرز، فقد ذهبتا إليه كثيراً. فحالما كانت تتوقف قافلة من المساجين في «توبولسك» وهي في طريقها إلى سجن الأشغال الشاقة. كانت زوجات «متمردي كانون الأول» الموجودات في الإقامة الإجبارية في هذه المدينة، يسرعن لإيصال بعض النقود والأطعمة إلى أولئك المساجين. وكان رجال الشرطة يتساهلون، ويغضون النظر عن أعمال الإحسان هذه، لأنها موجهة لمجرمين عاديين.

أما اليوم، وللمرة الأولى، فالأمر يتعلق بمجرمين سياسيين: مجموعة من الشباب المجانين، تجاسروا، السنة الماضية، بعد ربع قرن من محاولة «متمردي كانون الأول» على التآمر ضد القيصر. ويقال أنّ رئيسهم «ميشيل بيتراشيفسكي» كان اشتراكياً يعتنق مذهب «شارل فورييه» وقد وشى بهم أحد الجواسيس، فزج بهم، مثلهم في ذلك مثل سابقيهم، في زنزانات سجن قلعة «القديس بطرس والقديس بولس»، وبعد أن أمضى هؤلاء البؤساء ثمانية أشهر في ذلك السجن الرهيب، حكم عليهم بالإعدام. ولكن، بمهزلة غريبة، فقد أبلغوا وهم في ساحة تنفيذ حكم الإعدام، أنّ عقوبتهم

قد خفضت واستبدلت بالسجن المؤبد. وهذه المغامرة المحزنة أثارت مشاعر الباقين على قيد الحياة، من متمردي الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» سنة ١٨٢٥. ولم يكادوا يسمعون بوصول هؤلاء المساجين إلى «توبولسك» حتى أخذوا يبحثون عن وسيلة للاتصال بهم.

ولأنّ «ماتريونا» مرضعة أطفال «آل فونفيزين» السابقة، كانت على علاقة طيبة من أحد ضباط الصف في حرس مركز فرز المساجين، فقد كلفتها «نتاليا» بالحصول على إذن، لها ولـ «صوفيا»، بمقابلة هؤلاء الذين أطلقوا عليهم، منذ ذلك الحين اسم الـ «بيتراشيفسكيين».

وإذا فشلت في مسعاها، فإنهما ستلجآن إلى من هو أعلى رتبة.

تعثرت «نتاليا» بكتلة متجمدة، فانحنت والتصقت ركبتها بالأرض.

فقالت لها «صوفيا» وهي تساعدها على النهوض:

- تشجعي! ها قد وصلنا تقريباً

- سترين بأنّ ذلك سيكون دون جدوى!

- هل تشعرين بالخوف؟

فانتفضت «نتاليا» متحمسة، بعد هذه الإهانة، وقالت:

- هيا بنا!

فانطلقتا بعناد وإصرار عبر الرياح الجليدية التي كانت تلسع وجهيهما. وأخذت المنازل تتباعد، رازحة تحت أسطحة ضخمة، ثقيلة وبيضاء. وبدا من خلال ندفات الثلج المتطايرة جدار طويل وضخم: إنها القلعة، وفيها السجن.. فشعرت «صوفيا» بتسارع خفقان قلبها. ودهشت لكونها لا تزال تشعر بالحماسة بعد أن تعرضت للكثير من التجارب والمحن.

فبعد أن توفي «نيقولا» منذ سبعة عشر عاماً، أخذت تتحمل أحداث الحياة وتعاني منها أكثر من أن تشارك وتؤثر فيها بشكل فعال وحقيقي. ولكنها، بنوع من الانضباط الداخلي، في كل مرة تكون فيها على وشك

الاستغراق في اليأس، تشعر بانتفاضة تعتريها، فتلقي نظرة حولها، وتنشط لاكتشاف مسوغ جديد للحياة. وعندما يتبين لها أن هنالك من هو بحاجة إليها، فإنّ هذا الاكتشاف هو أفضل وسيلة للدفاع عنها وحمايتها من خمول العزلة والوحدة. وما كان يجذبها في تلك اللحظة، نحو المساجين السياسيين الذين يمرون في «توبولسك»، ليس أفكارهم السياسية «فمنذ زمن طويل، كانت قد تخلّت عن ذلك الهوس الليبرالي»! بل فكرة الآلام والمعاناة التي تنتظرهم في السجن. كانت ترثي لهم وتنسى حزنها. وفضلاً عن ذلك، فهي تضطر إلى الاعتراف بأن السلطات قد أبدت نحوها كثيراً من الحلم. حقاً، إنها لم تستطع أبداً الحصول على الحق بالعودة إلى روسيا، على الرغم من كل الرسائل التي بعثت بها إلى الإمبراطور، ولكنّ المسؤولين، مراعاةً منهم لحزنها وحدادها، فقد سمحوا لها بمغادرة «ميرتفي كولتوك» تلك القرية الصغيرة النائية، وأن تأتي للإقامة، أولاً في «تورنسك» ومنها نقلت، بعد خمس سنوات إلى «كورغان» وبعد عشر سنوات نقلت من تلك القرية إلى «توبولسك»، حيث التقت، بفرحة كبرى، ببعض أصدقائها القدامى وبزوجاتهم: «فان» و «بولين أنانكوف»، «ميشيل» و «نتاليا فونفيزين»، «سفيستوف»، «سيمينوفّ»، «يوري ألمازوف» والدكتور «وولف» وكانوا يجتمعون كأصدقاء، تارة عند أحدهم وتارة عند الآخر، فيستعرضون ذكريات «تشيتا» و «بيتروفسك». ويطلعون بعضهم على رسائل «متمردي كانون الأول» الذين تشتتوا في أرجاء سيبيريا الواسعة. جميعهم كانت قد انتهت مدة سجنهم، وأخذوا يمضون فترة شيخوختهم آنذاك، وهم نصف أحرار، ونصف سعداء، تحت رقابة الشرطة. فيا له من خمول ورتابة، بعد لهيب الحماسة والاندفاع! كان يبدو لـ «صوفيا» أنّ ليست هنالك طباع مهما كانت متهورة ومندفعة، يمكنها أن تقاوم القدرة الخارقة والعجيبة على الامتصاص والابتلاع، التي تتمتع بها هذه البلاد، وذكرها

ذلك بإسفنجه يمر بها على لوحة رسمت بالألوان المائية، فأخذت ألوانها، الواحد بعد الآخر، تشحب وتبهت ويزول بريقها. ألا يمثل ذلك مثالاً معبراً عن ذلك الذهول الخفي وعن تبدل حالات النفس وتغير بل وزوال ألوانها؟

وقالت «نتاليا» وقد توقفت:

- لديّ انطباع بأنهم قد ضاعفوا عدد الخفراء.

فقالت «صوفيا» وهي تعود لتمسكها من ذراعها:

- إنهم يفعلون ذلك، في كل مرة يصل فيها سجناء جدد.

اجتازنا المدخل، ودخلنا إلى مركز الحرس الذي كان معتماً وتنتشر فيه رائحة الملفوف. وقرب المدفأة، كان يجلس ضابط صف بدين، كان شاربه يلامس خديه المترهلين. وكانت المربية «ماتريونا» تتمايل أمامه، وقد بدت قوية البنية موردة الخدين، ترتدي معطفاً مزيناً بالفرو. وتحمل سلة في كل يد. وقد أخذ الجنود ينظرون إليها برغبة واشتهاء. ولكن كان واضحاً أنّ ضابط الصف هو الذي يحظى باهتمامها. وصاحت وهي تنحني كثيراً، تحية واحتراماً:

- ها هما السيدتان، قد وصلتا، بالفعل! وهما ستقولان لك مثلي، إنهما لم تأتيا إلاّ بدافع الشفقة والإحسان.

فغمغم صف الضابط، متذمراً:

- الشفقة، الشفقة والإحسان، ماذا يعني ذلك؟. لو كنت تطلبين مني مقابلة سجناء عاديين، كما هي العادة، لما رفضت طلبك. ولكن الآن، مع مساجين سياسيين، فأنا مضطر لأكون أكثر قسوة وتشدّداً!

فقالت له «صوفيا»:

- نحن لا نريد شيئاً سوى إعطائهم بعض المأكولات، والأناجيل. فسألها الضابط، وقد راودته الشكوك بسبب لهجة الزائرة:

- ألن تتحدثين معهم باللغة الفرنسية؟

فأجابته:

- أعدك بأنني لن أفعل ذلك.

- لأنّ اللغة الفرنسية! أوه! لا ، لا ، أيتها الآنسة!..

وأخذ يقهقه ملء شدقيه. ثم توقفت ضحكته، وبدا وكأنه أخذ يحلم وقد فتح فمه قليلاً، وأخذ يحدّق بالسقف. وكانت تلك هي اللحظة المناسبة: فوضعت «صوفيا» ورقة نقدية من ذات العشرة روبلات، على المنضدة بعد أن طوتها أربع طيات.

فتظاهر ضابط الصف بأنه لم يرها والتفت نحو «ماتريونا» التي كانت تتمايل وهي تداعب بكلتا يديها طرف صدارتها المطرزة، وقالت له:

- وماذا بعد؟ يا «نيسيفور مارتينتيش» ماذا قررت؟

نحن تحت رحمتك، نساء ضعيفات!

فقال:

- حسن! ولكن ليس أكثر من عشر دقائق. وسيرافقكنّ أحد رجالي.

وبينما كان يتكلم، تناول الورقة النقدية بخفة ومهارة ووضعها في جيبه.

وذهب أحد الحراس ليفتح الأبواب. فتبعته النساء الثلاثة. واجتزن خلفه باحة واسعة، وسبقهن وهو يسير في أحد الممرات، ثم سحب بعض المزاليج، وفجأة وجدت النساء أنفسهن في قاعة منخفضة السقف، معتمة، وتغصّ بالناس. وعبر الضوء الشاحب الذي كان يأتي من نافذة مزودة بقضبان حديدية، كان يتزاحم جمع من الرجال، من مختلف الأعمار نحيلي الأجسام، طويلي اللحى، ويرتدون الأسمال البالية. فأجالت «صوفيا» نظراتها على الوجوه التي تتزاحم أمامها، وقد هبت على أنفها رائحة كالرائحة التي تنتشر في حدائق الحيوانات. في كل مرة، ترى فيها محكومين بالسجن مع الأشغال الشاقة، كانت تشعر بالانزعاج نفسه

الناتج عن الخجل، بل عن الشعور بالعار، وبالشفقة. كان المحكومون بالسجن المؤبد قد حُلق الشعر عن نصف رؤوسهم «بالطول» من الجبين وحتى قفا الرقبة. والمحكومون بالسجن لمدد محددة، حلقت مقدمة رؤوسهم «بالعرض» من إحدى الأذنين إلى الأذن الأخرى.

وعلى وجوه الجميع دمغة طبعت بالحديد الأحمر المحمي بالنار، إشارة إلى كونهم مجرمين عاديين، ارتكبوا جرائم يعاقب عليها القانون العام.

وعبثاً فتشت «صوفيا» عن وجه ينم عن الذكاء، بين تلك الأقنعة البهيمية التي تنم عن الغباء والرذيلة والشقاء. ولا بد من أن المساجين السياسيين يقيمون في مكان آخر. ومع تمتمة الأصوات كانت تختلط قرقعة السلاسل التي كانت تُسحب وتُجر على الأرض. وكانت «صوفيا» وهي تسمع هذه الضجة المألوفة بالنسبة لها، كانت تشعر بعودة ماضيها كله إلى ذاكرتها:

السنوات الأولى من سجن الأشغال الشاقة... «نيقولا» وهو يقف أمامها، والقيود الحديدية في رجليه.. كان يتحرك وحلقات السلاسل ترسل رنيناً ضعيفاً، بين ساقيه...

ومرت بذاكرتها إحدى الذكريات الأكثر دقةً ووضوحاً، فانزعجت منها، كأنها لفحة حارة عصفت بوجهها.

كان هنالك أحد الكتبة، جالساً تحت النافذة، وأمامه سجل كبير، أخذ يؤشر فيه على بعض الأسماء. وكان، هو نفسه، أحد المساجين السابقين، وعلى جبينه وشم مكون من بعض الأحرف. وهمس له الحارس في أذنه بعض الكلمات، فضحك الاثنان ضحكة مدوية، ثم سأل الكاتب:

- من هو الذي تريدان مقابلته؟

فقالت له «صوفيا»:

- «بيتراشيفسكي»
- إنه في مستوصف السجن.
فانتاب «صوفيا» الذهول لبرهة من الوقت، لأنه لم يخطر على بالها أي اسم آخر، فاستنجدت بـ «نتاليا»، بنظرة وجهتها إليها. فترددت هذه واحمر وجهها، وقالت صوت ضعيف:
- إذن... إذن، «دوروف»!
- من؟
فرددت «نتاليا» الاسم:
- «دوروف»!
ولكي تعطي مزيداً من الوزن والأهمية لطلبها، أضافت بسرعة:
- إنه أحد أقاربي!
وفكرت «صوفيا» بشيء من العطف: «لكم تسيء الكذب!» فأخذ الكاتب يردد، وهو يمر بإصبعه الضخم والوسخ على عمود الأسماء الأيسر في السجل:
- «دوروف»! «دوروف»!..
وأخيراً، قال: آه! ها هو! في الزنزانة رقم «٢»!
وبدا مندهشاً، هو نفسه من النظام والترتيب الذي يسود سجلاته وأوراقه.
واستأنف الكلام، وهو يدقّ بيده على سجله:
- كل شيء موجود هنا، كل شيء! أعطوني ألف إبرة، وسأصنفها، وأسجلها، ولن تضيع منها إبرة واحدة!
ووقف الحارس، أمام جمع المساجين، وصاح:
- إيه! أنتم، ماذا بكم؟ ابقوا في أماكنكم!
فانصاع له المساجين، وابتعدوا من أمام الزائرات. فمررن وقد أحنين رؤوسهن، بين صفين من «المتسولين» المقيدين. وتبينت «صوفيا» كل تلك

النظرات التي يوجهها إليها أولئك الرجال الذين كانوا ينسحبون، كما لو أنها، وهم يبتعدون، كانت هي تبعد عنها الشبكة التي كانت تحتجزها. كان رائحتهم، رائحة الفقر، رائحة السجن، رائحة الشعب الروسي، التي يمكن معرفتها وتمييزها بين ألف رائحة!

وسرت تمتمة تنم عن التذمر أو التوسل والرجاء. ففتشت «صوفيا» بسرعة في حقيبة يدها، أخرجت بعض النقود، ووزعتها كيفما اتفق. متحاشية أن ترفع نظرها نحو من كانت تقدم لهم الصدقة والإحسان.

ووقف الحارس أمام أحد الأبواب، وفتحه بواسطة مفتاحين مختلفين وصاح بأعلى صوته:

- «دوروفّ»! نطلب «دوروفّ»!

ودعا السيدات للدخول. فاجتزن العتبة بتأنٍ وحذر. كان الغبش يسود قاعة السجن. وبجانب الجدار، كان الرجال مستلقين على أسرة صغيرة وسيئة. نهض أحدهم، واقترب وهو يجر سلاسله فقالت له «صوفيا»:

- أتينا لنؤدي لك زيارة صداقة. فأنت السيد «دوروفّ» أليس كذلك؟

فأجابها، متمتماً:

- نعم.

لم يحلقوا له شعر رأسه. كان طويل القامة نحيل الجسم، نظرته محمومة وأثر التعب والخضوع، بادٍ على وجهه.

وقال:

- وأنتنّ، يا سيداتي، هل أستطيع أن أسألكن من تكونن؟

ولماذا أحظى باهتمامكنّ؟

فذكرت «صوفيا» اسمها واسم «نتاليا»

فصاح بأعلى صوته:

- ماذا قلت؟ «أوزاريف»، «فونفيزين»؟ إذن أنتما موجودتان بالفعل؟ فأنا، لكثرة ما سمعت أحاديث عن «متمردي كانون الأول» وعن رفيقاتهم الرائعات، انتهى بي الأمر لاعتبارهم كشخصيات أسطورية، بل خرافية! آه، لو تعلمن إلى أية درجة يقدّرونكنّ في روسيا! وأنتنّ هنا؟ بعد خمسة وعشرين سنة من العذاب والمعاناة، وتأتين لمساعدة من حل محلكم، وتابع المهمة بعدكم؟!

شكراً! شكراً جزيلاً!

وخنقته العبرات، فقبل يدي المرأتين. وقالت «صوفيا» في سرها، وقد انقبض صدرها: «يا إلهي! كم هو فتيّ!» فقد تصورت، وهي قادمة أنها ستلتقي برجال في مثل سنها، واكتشفت أنهم فتيان كان يمكن أن يكونوا أولادها. وتبادر أيضاً إلى ذهنها: «لم يكن «نيقولا» أكبر سناً منهم عندما ألقي عليه القبض». وجميع خلايا جسمها أخذت ترتجف. واقترب منهم أربعة من رفاق «دوروفّ»، وقد جذبهم صياحه، بينما ظل الخامس مستلقياً على سريره.

فقال «دوروفّ»:

- أعرّفكما على «سبيشنفّ»، «لفوف»، «غريغوريف»، و «تول» لقد ألقي القبض علينا وحوكمنا سوية. ولكن لن يسعفنا الحظ، مثلما أسعف «متمردي كانون الأول» بتمضية وقتنا في السجن بين سجناء سياسيين. فعددنا ليس كبيراً لكي يتاح لنا ذلك. وسيرسلوننا إلى إحدى القلاع، لكي نسجن مع القتلة واللصوص!

كانت تبدو في وجهه بعض التشنجات العصبية اللا إرادية.

وقالت «نتاليا»:

- إننا نريد مساعدتكم، فماذا نستطيع أن نعمل من أجلكم؟

- لا شيء، لا شيء!... لقد أتيتما، ومجرد مجيئكم أمر رائع وخارق للعادة!... هل علمتما هنا، كيف، وبكم حكم علينا، وكيف جرت عملية إعدامنا التي لم تنفذ، يوم ٢٢ كانون الأول «ديسمبر» الماضي؟

كان الجنود قد اصطفوا على شكل مربع، في الباحة. وربط «بيتراشيفسكي» و «موبيلّي» و «غريغورييف» على أعمدة الإعدام المعيبة. وعصّبت أعينهم، وسدد الجنود بنادقهم نحوهم. وفجأة، أمر معاكس: لا تطلقوا النار! وتلا محضر المحكمة العقوبة الجديدة: النفي إلى سيبيريا بدلاً من الإعدام...

فقالت «صوفيا»:

- نعم، لقد علمنا بذلك، فقد كتب لنا بعض الأصدقاء ورووا لنا كل ما حدث.

- بهذه السرعة؟

- الأخبار تصل بسرعة في سيبيريا، شريطة، ألا يعهد بنقلها إلى دوائر البريد!

وقال «غريغورييف»:

- عندما فكوا كتفي، كدت أجن: أخذت أضحك، وأبكي...

وقال «سبيشنيف»:

- أما أنا، فقد أسفت لأني لم أعدم آنذاك، في ذلك المكان.

فصاح الرجل الذي بقي مستلقياً على سريره:

- كيف يمكنك أن تقول هذا؟ فهو كلام ينم عن الغباء والجبن! فالحياة، كيفما كانت، هي رائعة. والحياة في أي مكان هي الحياة. والحياة هي في داخلنا، وفي نفوسنا، وليست في العالم الذي يحيط بنا!

فنظرت «صوفيا» خلسة إلى الرجل المجهول، ولاحظت أن وجهه غير وسيم وينم عن المرض. شعره أشقر ومشعث، أنفه مشوه الشكل، شاربه

صغير. وكان وهو يتكلم قد انزلق عن سريره. واقترب من المجموعة حاملاً سلاسله بيده، على مستوى ركبتيه.

فقال «دوروف»:

- أعرفكم على، رفيقي «فيدور ميكايلوفيتش دوستويفسكي». كان أمامه مستقبل أدبي باهر. ربما قرأتم كتابه: «الناس الفقراء»؟

فقالت «صوفيا»:

- كلا، إني آسفة، فأنا لم أقرأه..

وقال الحارس:

- أرجو أن تسرعن يا سيداتي، فلا ينبغي أن يراكنّ المفتش هنا.

فأشارت «نتاليا» إلى «ماتريونا»، ففتحت هذه سلّتيها: كانت إحداهما تحتوي نقانق وبسكويت، والأخرى فيها الأناجيل.

وقالت «نتاليا»:

- ليس معنا سوى خمسة أناجيل، وأنتم ستة!

فقال «سبيشنيف»:

- اطمئني، فأنا بغنى عن قراءة هذا الكتاب! إني ملحد!

أما الآخرون، فأخذوا الأناجيل بامتنان. وضم «دوستويفسكي» الكتاب المقدس إلى صدره. وكانت نظرته تتصف بقوة وإشراق، يصعب تحملهما.

وقالت «نتاليا» بصوت خافت:

- يوجد ورقة نقدية من ذات العشرة روبلات، مخبأة في شق موجود في أغلفة الكتب.

ولأن الحارس أخذ يتذمر، فقد طلب المساجين، أنفسهم، من النساء أن ينصرفن، تجنباً لحدوث أية مشكلات.

وعندما خرجن، كنّ أكثر تأثراً من أن يستطعن التكلم. وكانت كل منهن تستعيد انطباعاتها وهي تمشي. وكانت العاصفة قد هدأت، وأخذت

ندفات الثلج تتساقط بهدوء على المدينة التي اكتست ثوباً أبيض اللون. وبعيداً، هنا وهناك، كان يلمع ذهب إحدى قباب الكنائس التي تغشاها ستارة شفافة. وفجأة، توقفت «صوفيا» وقالت:

- ما رأيك بهذه الزيارة التي قمنا بها؟

فأجابتها «نتاليا»، بأعلى صوتها:

- إنك قد؟ أصبت، وألف مرة، الحق معك! لقد زال ما كان بي، ولم أعد أشعر بالضيق أو بالتعب!

- يجب أن نرتب أمورنا ونتدبر الأمر، بحيث نستطيع مقابلتهم في جو أكثر اطمئناناً، فماذا لو تحدثنا بذلك إلى «ماشا»؟

كانت «ماشا» هذه، واسمها الحقيقي: «ماري فرانتزيف» ابنة ممثل الحكومة في «توبولسك». وهي تشعر بكثير من المودة نحو «متمردي كانون الأول»، وكانت دائماً تؤيدهم وتساندهم في مشاريعهم الخيرية.

فقالت «نتاليا»:

- نعم، بالطبع! لماذا لم نفكر بذلك، من قبل؟ فهي سوف تتوسط لنا لدى والدها. وإذا أراد والدها أن يقول كلمة، بهذا الشأن إلى مفتش السجن..

فنظرت كل منهما إلى الأخرى ببهجة وسرور، وتابعتا السير بمزيد من النشاط والقوة. كانت «ماتريونا» تسير خلفهما، وهي تحمل بيديها سلتيها الفارغتين. كانت «ماري فرانتزيف» تقيم في منزل يقع بالقرب من الحديقة العامة.

★★★

في اليوم التالي، بناءً على موافقة ممثل الحكومة، دعا مفتش السجن السيدتين «فونفيزين» و «أوزاريف» لمقابلة المحكومين السياسيين في منزله، وحصلت المقابلة تحت مراقبة أحد الضباط، الذي كان يتظاهر، طوال الوقت أنه ينظر إلى الخارج عبر النافذة. وكان هنالك شيء من الغرابة في

وضع هؤلاء المساجين بأسمالهم البالية وهم يجلسون في ذلك الصالون. والسلاسل التي تقيد أرجلهم، مدلاة بين قوائم الأرائك الأنيقة وقد أخذوا يتكلمون بأصوات خجولة ومتهدجة. ثم انسحب الضابط، فتشجعوا على التكلم بقوة. فسألتهم «صوفيا» عن آرائهم السياسية. فأثارتها إجاباتهم وبعثت الاضطراب في نفسها: فلم يكن لديهم المفهوم نفسه عن الثورة، الذي كان لدى متمردي الرابع عشر من كانون الأول سنة ١٨٢٥. فبالنسبة لهم، لم يعد الأمر يتعلق بتحرير العبيد وفرض نظام حكم دستوري في روسيا وحسب، كما كان يتمنى، فيما مضى، متمردو كانون الأول، بل بإلغاء الملكية الفردية، وإقامة مجتمع كل فرد فيه يعمل من أجل المجموع، والمجموع يعمل من أجل الفرد ولصالحه، وأن يتاح للشعب بأن يحكم نفسه بنفسه.. وكان، «بيتراشيفسكي» على الخصوص - ذو اللحية السوداء والنظرة النارية - هو الذي يعرض ويؤيد هذه الأفكار. كان قد غادر غرفة التمريض، وبدا بصحة جيدة، وكان يذكر، بكل مناسبة: «شارل فورييه»، «برودون»، و «سان سيمون»، «هيرزين» و «باكونين»... وكان رفاقه يؤيدونه، بإيماءات خفيفة من رؤوسهم. وتبادر إلى ذهن «صوفيا»: «إنهم أيضاً أكثر جنوناً مما كنّا نحن فيه من جنون». وعاد الضابط، وعند ذلك، أخذوا يتحدثون بتعقل، عن أمور أخرى. وعند الساعة الرابعة، أرسلت زوجة المفتش، من يقدم الشاي للضيوف. وظهور «السماور» على المنضدة، أثار الاضطراب لدى الرجال، الذين كانوا قد نسوا من زمن طويل عذوبة الحياة العائلية. وكتم «دوروف» آهةً، و «دوستويفسكي» التفت إلى جهة أخرى، وقال «سبيشنيف» متأوهاً:

- أوه! لم يكن ينبغي ذلك!..

وأخذت «نتاليا فونفيزين» و «صوفيا» تملآن الكؤوس، وتقدمان الحلوى و «الكاتو».

- «فيدور ميكايلوفيتش» أنت لم تأخذ كفايتك، تناول أيضاً قطعة أخرى من «البسكويت»..

والمساجين، الذين كانوا جائعين، وشبه متجمدين من شدة البرد، كانوا يحاولون التصرف بلباقة. وأخذوا يشربون ببط وهدوء، ويتناولون القليل مما يقدم لهم. وقد أثارت محافظتهم على كبريائهم رغم بؤسهم الشديد، الشفقة عليهم، لدى «صوفيا». وأخذت تفكر بأنه في أي بلاد في العالم. لا يمكن أن يحصل مثل هذا المشهد.

ومن بين هؤلاء المساجين جميعهم، كان «دوروف» هو الذي يبدو لها أكثر جاذبية، بسبب تناسق ملامحه ونظرته الوديعة والحانية، وكان هنالك جانب يلفت النظر، لم يكن بينهم أحد ينتمي إلى الطبقة الارستقراطية أو إلى أسرة كبيرة معروفة. فقد هبطت روح التحرر درجة في التسلسل الطبقي الاجتماعي. والأفكار التحررية التي أتت من الأعلى، ربما شقت لها طريقاً، إلى الأعماق، في يوم من الأيام، لتصل إلى أدنى طبقات البشرية. عند ذلك، يكون الشعب وقد استنار أخيراً، لن يعتمد على أحد من أجل القيام بالثورة. فهل كان علينا أن نأمل ذلك أم أن نخشاه؟ وقدمت «نتاليا فونفيزين» الشاي لضابط الحرس، الذي تناول منها كأسين متتالين. بعد ذلك، ولكي يشكر السيدتين على تكريمهما له، فقد غادر الغرفة مرة أخرى. ولم يكد يغلق الباب خلفه، حتى استأنف «بيتراشيفسكي» الكلام عن الحياة السعيدة التي سينعم بها بنو البشر، في المستقبل، ضمن التجمعات الإنتاجية التي سيتحول فيها العمل إلى بهجة وسرور، والطاعة إلى حرية تامة، وكان هذا الحديث الحماسي يسلّي «صوفيا» ويدخل السرور إلى نفسها، ولكنها ظلت تشعر بالأسف لأنها لم تنخدع به. وكانت قلة تصديقها تذكرها بسنها. فماذا كانت بالنسبة لهؤلاء الشباب؟

سيدة عجوز، آمنت، فيما مضى، بالثورة، ولكنّ ثلاث وعشرين سنة في سيبيريا، قضت على حماستها. ولا بد أنهم يجدونها متخلفة في أفكارها بقدر ما هي متخلفة في ملابسها. والحرية لم تعد تمارس هكذا، لدى الشباب.

وعاد الضابط بعد عشر دقائق. وقد أتى، هذه المرة، لكي يقتاد المساجين إلى سجنهم. فنهضوا بانصياع. ودست لهم السيدتان مزيداً من البسكويت والسكاكر، في جيوبهم:

- ليرعاكم ويحرسكم الله! سوف نكتب لكم!

وابتعدت قرقعة السلاسل، في الممر. وظلت «صوفيا» و «نتاليا» لوحدهما، وقد أحنتا رأسيهما أمام المنضدة الخالية، والتي لم يعد عليها شيء. وأتت زوجة مفتش السجن، وسألتهما، وعلى شفتيها ابتسامة مجاملة، فيما إذا كانت الأمور قد سارت على ما يرام. فشكرتاها على حسن ضيافتها، وأسرعتا بالانصراف بدورهما. فقد كان هنالك من ينتظرهما في منزل «آل أنانكوف» لسماع تقريرهما عن تلك الزيارة التي قامتا بها.

***

وعندما وصلت «صوفيا» إلى غرفة الانتظار، كانت أول نظرة لها هي التي ألقتها على المشجب. وفي وسط بعض المعاطف البسيطة والعادية المعلقة جنباً إلى جنب على علاقات المشجب، عرفت «فروة» الدكتور «وولف» فشعرت بفرحة عارمة. فالصداقة الحانية التي كان يبديها لها، منذ أن أقامت في «توبولسك» كانت تمد حياتها ببعض الحرارة. وأخذت «نتاليا» تلح عليها كي تدخل بسرعة إلى الصالون، ولكنها استمهلتها لكي تصلح هندامها أمام المرآة. ولم يعجبها تماماً الوجه الذي بدا لها:

خدان يلوح عليهما التعب، ونظرات تنم عن الغيظ والكآبة، بين أهداب وجفون ذابلة، وفم عليه ابتسامة حزينة، ومن طرف قبعة الفرو كانت تلوح

بعض خصل الشعر الأسود الذي أخذت تخالطه خيوط فضية اللون. ولحسن الحظ، فإن قامتها ظلت نحيفة واحتفظت برشاقتها السابقة، كما أنّ عنقها ظل مستقيماً ولم ينحن ومع أنها بلغت السابعة والخمسين، كانت تبدو وكأنها لم تتجاوز الخامسة والأربعين. ورفعت رأسها، هزت كتفيها، ولاح في عينيها البريق الذي ينم عن الرغبة في نيل الإعجاب، واجتازت العتبة، وهي تشبك ذراعها بذراع «نتاليا». وفي الحال، أحاطت بهما وجوه أصدقائهما ومعارفهما. كان هناك جميع «متمردي كانون الأول» الذين يقيمون في منفى «توبولسك». فاقتادت «بولين أنانكوف» القادمتين الجديدتين نحو مائدة عليها بعض الأطعمة والمشروبات. فتجمع الحاضرون حولهما، عبر ضجة أحدثها نقل الكراسي. اعتذرتا عن تناول الشاي، بحجة أنهما سبق لهما أن تناولتاه. ولكن اعتذارهما ضاع عبر موجة عارمة من الأسئلة:

- هيا! ماذا هنالك؟ كيف حالهم؟ ماذا قالوا لكما؟..

فأخذتا تتحدثان، وإحداهما تقاطع الأخرى، وهما ترويان لهم ما حصل في المقابلة التي أجريتاها مع جماعة «آل petracheutsy» «آل بيتراشنستيين». وأثناء كل ذلك الحديث، لم تكفّ «صوفيا» عن مراقبة الدكتور «وولف»: كان وجهه الذي لوحته سمرة خفيفة، يزينه شارب ضخم أشيب، ولكنّ حاجبيه ظلا أسودين. وخلف عدستي نظارته، المستديرتين، كانت تشع من عينيه نظرة تنم عن الذكاء واللطف. وعدة مرات، شعرت «صوفيا» بحصول تماس بالأفكار بينها وبينه، بسرعة ودقة انبثاق إحدى الشرارات. وعندما أخذت تتحدث عن أفكار «بيتراشيفسكي» السياسية، ضاعف الرجال من انتباههم، ومن اهتمامهم بالحديث.

فليس هنالك من شك، بأن بعض الكلمات والتعابير قد احتفظت بقدرتها على إثارة مشاعرهم. فكانوا يصغون لأصداء معارك فتوتهم

وشبابهم. وبشكل مفاجئ، بدوا، في نظر «صوفيا» شيوخاً، وقد تقدمت بهم السنّ كثيراً. بمن فيهم الدكتور «وولف» أيضاً. فهي لم يسبق لها أبداً أن رأتهم، هكذا، وبهذه الصورة: «إيفان أنانكوف»، سيد بدين، عاطل عن العمل، خامل وكسول، صموت، لا يتكلم إلا نادراً. و «يوري ألمازوف» يحني وجهاً مثلث الشكل كوجه المومياء، تحت رأس داهمه الصلع. و «بيير سفيستونوف» فقد أسنانه الأمامية، وبدا فمه كالقمع بين ذقنه البارزة وأنفه المدبب. فكيف كان يمكن أن يبدو «نيقولا» لو أنه لم يمت في التاسعة والثلاثين من عمره؟ هذا ما تساءلت عنه «صوفيا». ربما كان لمصلحة حبهما، كليهما، كان من الأفضل ألاّ تراه يشيخ وتتقدم به السن، وألا يراها وهي تشيخ وتتقدم بها السن؟ ولأن هذه الفكرة قد أدهشتها، فقد كفت عن الحديث، وتركت «نتاليا» تتابعه، بدلاً منها. فقويت اللهجة وتعالت الأصوات.

قال «إيفان أنانكوف» مغمغماً، وهو يلتهم محتوى ملعقة من المربى:

- إن نظريات هؤلاء التعساء تعود للاشتراكية الأكثر أوهاماً وطوباوية!

فأمن «سنيستنوف» على ما قاله «إيفان»، قائلاً:

- بالضبط، فقد كنا نحن، على أية حال أكثر قرباً من الواقع ومن الحالة الراهنة في روسيا!

فأبدى «يوري ألمازوف» هذه الملاحظة:

- الواقع، والحالة الراهنة في روسيا، عبارة عن سلطة قوية، فوق شعب ضعيف، وهي تتحكم به. وبنية بلادنا الجغرافية تفرض ذلك. وليس هنالك مجال للخروج من هذا الوضع!

فسأله الدكتور «وولف» وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

- إذن، أنت من رأيك أنه لا ينبغي تغيير أي شيء؟

- ربما! لقد أخطأنا! وجماعة «بيتراشيفسكي» أخطؤوا أيضاً! وأقول فيما بيننا تماماً، إني لا أرى لماذا يجب علينا أن نشكرهم. فمؤامرتهم لن تعمل إلا على تقوية حذر القيصر، من كل ما هو ليبرالي، ويمت بأية صلة إلى الحرية. وإذا كان، فيما مضى، قد بقي لدينا أمل غامض وضعيف بالعودة إلى روسيا، في يوم من الأيام، فيمكننا الآن أن نعلن الحداد على ذلك الأمل!

فصاح «ميشيل فونفيزين»:

- ما هذا الكلام؟ أيمكن أن تكون قد أصبحت من مؤيدي الحكم الفردي والاستبدادي؟

فقال «سيمنوف» بحدة، وهو يدق بملعقة على طرف المنضدة:

- أيها السادة، أيها السادة، إني أطلب أن تسمحوا لي بالكلام!

وبشكل مفاجئ، وبدقة ووضوح عجيبين، تصورت «صوفيا» «نيقولا» وقد أخذ يشارك في النقاش، مشرق الوجه، أسنانه بيضاء. ثم انطفأ وغاب كل شيء حولها. كان «يوري المازوف» على صواب ومحقاً فيما قاله: فثورة سنة ١٨٤٨ في فرنسا، والانتفاضات الشعبية في الدويلات الألمانية، ومشروع الهنغاريين، الجنوني للتحرر من نير النمساويين، كل هذه الأمور والأحداث أقنعت القيصر أن سم النظريات الجديدة يوشك أن يصل إلى روسيا. واكتشاف جمعية سرية ثانية في «سان بطرسبورغ»، لا يمكن إلا أن يجعله أكثر تشدداً حيال الباقين على قيد الحياة، من أعضاء الجمعية الأولى. وتبادر إلى ذهن «صوفيا»: «سأمضي بقية حياتي في سيبيريا». وبعد سنوات طويلة من الثورة والتمرد، فقد اعتادت، شيئاً فشيئاً، ودون شعور واضح بذلك، أخذت تألف هذه الخاتمة المحزنة. وعصفت برأسها رائحة الشاي والحلوى، فشعرت بشيء من الغثيان. وأرادت «بولين أنانكوف» أن تملأ لها كأسها، فهمست «صوفيا» في أذنها:

- كلا، شكراً لك.

وأجالت نظراتها نحو الدكتور «وولف». ولكن نظراتهما لم تلتقيا. كان الدكتور يصغي لمشيل فونفيزين، الذي كان يقول بحماسة، وهو يدعك منشفته:

- إن ما يعزيني عن كل هذا، هو أن تضحيتنا لم تذهب سدى، ولم تكن، تماماً، دون جدوى! وربما كان لدى جماعة الجيل الجديد، أفكار أكثر طموحاً وتقدمية من أفكارنا: فهم اشتراكيون، شيوعيون، ومن أنصار ومؤيدي مبادئ «فورييه» ولكنهم ما كان يمكنهم أن يكونوا أي شيء أبداً. لو لم نكن قد اجتمعنا، نحن، يوم الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» في ساحة مجلس الشيوخ، وجابهنا بصدورنا مدافع الدوق الأكبر «نيقولا بافلوفيتش»!

فقال «يوري»، بلهجة تنم عن المرارة:

- نعم، لقد قدمنا لهم خدمة تمهيد الطريق أمامهم إلى سيبيريا!

فقال «إيفان أنانكوف» وهو يتثاءب:

- سيستأنف آخرون حمل المشعل!

وقالت «بولين» متأوهة:

- يا لهم من مساكين!

كانت قد أصبحت بدينة جداً، مع تقدمها في السن وفي «عجينة» وجهها الكثيفة، بدت عيناها الصغيرتان منكمشتين كحبتي زبيب.

وانفجر «سفيستنوف» ضاحكاً:

- يبدو أنك تعتبرين أن الثوريين في روسيا، سيظلّون يستحقون الرثاء، على الدوام!

- نعم، بالطبع.. ألست محقة في ذلك؟..

فقال الدكتور «وولف» بلهجة تنم عن الحكمة:

- لا أحد يحتاج للأمل لكي يعمل، ولا للنجاح، لكي يثابر ويستمر بالعمل!.

فصاحت «نتاليا»:

- ما أجمل هذا الكلام!

- العبارة ليست لي، ولا من بنات أفكاري!

- لمن هي إذن؟

- هي لـ «غليوم دورانج» على ما أعتقد.

- وهل نجح؟

- نعم، بتجميع الكثير من الأعداء حوله، وبالموت قتلاً. فقالت «بولين»، وهي تشير إليه بإصبعها، مهددة ومتوعدة:

- أنت ما زلت، كما كنت دائماً، يا دكتور، شديد العزم، تهزأ بالمشكلات وبالصعاب!

وبدا الدكتور «وولف» مزهواً لمحافظته على هذه السمعة رغم مرور السنين. و «صوفيا» وهي تتأمل أصدقاءها كيف يعيشون، وبأية طريقة يتصرفون، فقد حصل لديها انطباع، بأنهم جميعهم، كانوا يمثلون آنذاك، ويقومون بدور شبابهم وفتوتهم، وإن كان لم يعد لديهم لا الأجسام ولا الطباع التي تؤهلهم للقيام بهذا الدور. ولكن، مثلهم في ذلك مثل المعتادين على ارتياد أحد المسارح الذين لا يلاحظون التجاعيد على وجوه الممثلين، الذين يجسدون، بالنسبة لهم، منذ ربع قرن عشاق المسرحيات التي يشاهدونها.

وبهذا الشكل، ولكثرة ما كان يلتقي متمردو كانون الأول مع بعضهم، ويستعيدون سوية، ذكرياتهم، أخذوا يعتبرون بعضهم كما كانوا فيما مضى، وكما لم يعودوا آنذاك، وفي وسط هذا الوهم الذي يستولي على الجميع، كانت «صوفيا» تعاني وتتألم بسبب وعيها ونفاذ

بصيرتها، وكان عليها أن تجاري المحيطين بها. وكانت «نتاليا فونفيزين» تتصور آنذاك إمكانية الكتابة إلى جماعة «البيتراشيفسكيين» ومراسلتهم وأن تصبح «عرّابة» لهم:

- في كل مكان يمرون به يجب أن يجدوا بعض «متمردي كانون الأول» لكي يساعدوهم. يجب أن نشكل سلسلة لتقديم العون والحسنات..

فتمتم «سيستينوفّ»:

- إنك قديسة!

وساد الغبش جو الغرفة، وأخذت الوجوه تفقد معالمها وظلت تلمع عبر ذلك الجو القاتم بعض الزخارف الذهبية، التي تزين الأيقونة وجانب «السماور». ودخلت إحدى الخادمات لتشعل المصابيح. وأخذ السادة ينظرون إلى ساعاتهم. ولأن الوقت أصبح متأخراً، اقترح الدكتور «وولف» على «صوفيا» أن يرافقها إلى منزلها.

٢

بعد نصف ساعة من مغادرة الزحافة بـ «توبولسك» توقفت بجانب الطريق. كانت الرياح هادئة، ولكن البرد كان قارساً. وأخذت «صوفيا» و «نتاليا» وكل منهما تلتصق بالأخرى، تتطلعان نحو قارعة الطريق البيضاء، الممتدة بعيداً حيث تضيع معالمها عبر الضباب. وحسب المعلومات التي حصلتا عليها قبل بضعة أيام في مركز فرز وتوزيع المساجين، فإن قافلة أخرى من المحكومين السياسيين، ستسافر، عند الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم إلى قلعة «أومسك». ورجال الدرك الذين سيرافقونها وعدوا بألا يعترضوا على إجراء مقابلة بين السيدتين والمساجين، بجانب الطريق، بعد أن حصلوا على رشوة مجزية. ولم تكن «صوفيا» تدري بالضبط لماذا تحرص إلى تلك الدرجة على رؤية أولئك الشباب قبل رحلتهم الطويلة التي ستقصيهم، طوال سنوات عديدة، عن العالم. وكان يبدو لها، بشكل غامض، أنها مدينة نحوهم بشيء ما، كما لو أنها كانت مسؤولة بصورة غير مباشرة عن حلمهم السياسي وعن نتائج وعواقب ذلك الحلم. والمحن والتجارب التي تعرضت لها، هي و «نيقولا»، جعلتها تصبح متضامنة إلى الأبد مع جميع الذين يعانون الآلام في روسيا. وكثيراً ما فكرت، بأن الموت وحده يستطيع أن يخلصها من هذه الشفقة المربكة والمضنية. وتعبت عيناها من التفرس في الطريق المقفر وفي البرية العارية. وكان سائق الزحافة قد جمع جسمه تحت معطفه لكي يقاوم البرد. وقد ظل أحد حصاني الزحافة هادئاً، بينما أخذ الآخر يشخر وينخر، يهز رأسه، ويرسل بخاراً من منخريه. وكانت الشذرات الفضيّة تتلألأ في

علي مولا

الجو الهادئ. وأخذت «صوفيا» تشعر بأن وجهها أخذ يتفتت ببطء، ففركت أنفها وأذنيها لإنعاشها وتدفئتها.

وقالت «نتاليا»، وهي تتأوّه:

- لقد تأخروا كثيراً! ولن نستطيع انتظارهم هكذا، بضع ساعات!...

فصاحت «صوفيا»:

- اسمعي! إنه رنين الأجراس!...

وبالفعل، كان يأتي من أعماق الصمت، صوت شبيه بصوت تصادم قطع الجليد، لم يكن يسمع جيداً في البداية، ثم تصاعد وقوي، وفي الوقت نفسه برزت من ذلك الفراغ السديمي عربتان مندفعتان بسرعة كبيرة، ثم توقفتا بالقرب من عربة السيدتين. كانت كل منهما تقل سجيناً ودركياً. فقفزت «صوفيا» و «نتاليا» على الثلج اللين، واقتربتا من المسافرين. فنزلا من العربة، هما أيضاً، حاملين سلاسلهما بأيديهما: كانا: «دوروف» و «دوستويفسكي». وهما يرتديان ملابس السجن الفضفاضة، ويعتمران قبعتين من الفرو، لهما أطراف تحمي الأذنين. وبدت لحية «دوروف» بيضاء، مغطاة بطبقة من رذاذ الثلج المتجمد. وبرز أنف «دوستويفسكي» المدبب، أزرق، في وجهه الشاحب. وقبلا اليدين اللتين امتدتا نحوهما وسألتهما «نتاليا»:

ورفاقكما، أين هم؟

فأجابها «دوروف»:

- تتوزع الرحلات على عدة أيام. حاولوا أن ترونهم، هم أيضاً وحسب المعلومات التي حصلنا عليها، ليس لكما، لسوء الحظ، الحق بمراسلتنا..

فقالت «صوفيا»:

- هذا في البداية، دون شك، ولكن، فيما بعد، تتراخى شيئاً فشيئاً شدة وقسوة النظام والانضباط..

ونادت «نتاليا» أحد الدركيين، وناولته رسالة للأمير «غورتشاكوف» حاكم سيبيريا الغربية، الذي يقيم في «أومسك» فهي على صلة ودية مع هذه الشخصية العالية المقام، ولم تكن تشك بأنها ستبدي بعض العطف وحسن الالتفات نحو الشباب الذين توصيها بهم.

فأقسم الدركي أن الرسالة سوف تسلم بأيدٍ أمينة إلى المرسلة إليه، ولكنه توسل للسيدتين بأن يختصرا وداعهما للسجينين.

فقالت «نتاليا» وهي ترسم إشارة الصليب أمام «دوروف» و «دوستويفسكي»:

- فليبارككما الله!

فأحنيا رأسيهما.

وقال «دوروف» بصوت مبحوح:

- شكراً، شكراً على كل ما قدمتماه لنا!

وصعد كل من الرجلين عربته. فانطلق صوت من بين شفتي «صوفيا»:

- كونا واثقين من نفسيكما ومن أننا، ربما سنلتقي بكما مرة أخرى!..

كان صوتها يتقطع. ولم تعد تعرف أين أصبحت في مجال وظروف حياتها. أليس هؤلاء من «متمردي كانون الأول»، في طريقهم إلى سجن الأشغال الشاقة. والأحصنة، وقد أيقظتها ضربات السياط، انطلقت وهي تهز رؤوسها الكبيرة الداكنة. بينما كان الثلج يتطاير حول حوافرها. وخارج صندوقي العربتين، انحنى وجهان لكي ينظرا إلى الوراء. وظلت «صوفيا» و «نتاليا» تلوحان بأيديهما لفترة طويلة، ثم، وبعد أن تعبتا من توجيه التحية إلى الفراغ، عادتا حزينتين إلى زحافتهما.

فسألهما السائق:

- أنعود إلى المدينة؟

فأجابته «نتاليا»:

- نعم، وبسرعة، إني أشعر وكأني قد تجمدت!..

عادت العربة أدراجها. وبعد أن أمضت «صوفيا» عشر دقائق في جولة عبر أفكارها المضطربة، بدا لها فجأة أن نوراً قد أضاء ذهنها. والحقيقة البدهية التي ظلت تنكرها وتكابر ضدها، زمناً طويلاً، أخذت تفرض نفسها عليها، دون جهد ودون ألم، وبهدوء إشراق الشمس على الثلج الأبيض. وحتى ذلك الحين كانت تعتبر أن إقامتها في «توبولسك» مؤقتة. دون أن تؤمن، بالحقيقة، أنها ستغادر المنفى بعد وقت قصير، كانت راضية بالإقامة في «إيسبا» بائسة كائنة بالقرب من الحي الأوربي. وترى أن إقامتها فيها مريحة تقريباً، كما لو أنها وهي ترفض تأمين الرفاهية لنفسها، قد تآمرت مع القدر الذي يحاول إبقاءها في ذلك المكان.

وكان يجب انتظار وصول جماعة «البيتراشيفسكيين» إلى المدينة، لجعلها تتخلص من أوهامها. وكانت أحاديثها معهم قد انتزعت منها، ليس الأمل بالعودة إلى روسيا، وحسب، بل أيضاً مجرد الرغبة بالتطلع وإلقاء نظرة إلى تلك الجهة. وللمرة الأولى، منذ بداية إبعادها وتحديد إقامتها الإجبارية، فقد اقتنعت باختيار سيبيريا مقراً لإقامتها.

حتى إنها كانت تقول في سرها، بشيء من الكبرياء، إنها قد اختارتها، بملء إرادتها، وبكل حرية. وكان هنالك منزل معروض للبيع، يقع بالقرب من الحديقة العامة. ولكن ثمنه، بالحقيقة، باهظ. ولكنها إذا اشترته، فهي ستصبح قريبة من أصدقائها، الذين كانوا كلهم يسكنون في ذلك الحي. وأن يكون لها بيت ظريف ومريح. دون أن تستمر في العيش، كمن يستعد، من لحظة إلى أخرى، لأن يحزم حقائبه! وشعرت بدفقة من العطف والحنان نحو أولئك التعساء، الذين برحيلهم إلى سجن الأشغال الشاقة، ساعدوها على استعادة توازنها. «دوروف» «دوستويفسكي»... إنها ستظل تذكر هذين الاسمين.

ومع كل ارتجاجة، كان رأسها يتمايل على حشوة المسند. وقدرت أنها ستصل إلى مسكنها في المدينة، تماماً في الموعد المحدد لإعطاء درس اللغة الفرنسية لابنة مدير البريد. وكان نجاحها كمدرسة، كبيراً جداً، لدرجة أنها كانت ترفض قبول بعض الطلاب. وقد بدأت العمل بالتعليم بسبب الفراغ وعدم وجود أي عمل لديها، عندما كانت لا تزال تقيم في «كورغان».

وهناك، كان يقيم أيضاً في المنفى، بعض «متمردي كانون الأول».

وجن جنونهم جميعاً، عندما علموا، في أوائل شهر حزيران «يونيو» سنة ١٨٣٧ بقرب وصول ابن القيصر البكر «أليكسندر نيقولافيتش» إلى المدينة! وكانت «صوفيا» التي تهدهدها اهتزازات العربة، تستعيد في ذاكرتها ذلك الحشد الكبير من الناس الذين يرتدون أفضل وأجمل ما لديهم من ملابس، ويسيرون عند الغسق، على الطريق العام، لكي يستقبلوا الدوق الأكبر، ولي العهد، ووارث العرش القيصري. وأخذ الباعة المتجولون يبيعون الشموع والفوانيس. وقناديل الزينة، الصغيرة، وأخذت تنبعث من كل مكان الأضواء الخافتة، كما يحصل في ليلة عيد الفصح. ويقال أن تلك أول مرة يذهب فيها إلى سيبيريا أحد أفراد الأسرة الإمبراطورية. وكان الناس البسطاء من عامة الشعب ينتظرون قدومه وكأنه حدث عجيب وخارق للعادة. وكانت الساعات تمر دون أن تخمد حماسة الجماهير. وبعد منتصف الليل بقليل، أخذ الصياح يدوي من بعيد: «هوراه! مرحى!». ومر ساعيان على صهوة جوادين يعدوان بسرعة كبيرة، وخلفهما سارت العربات المختلفة الأشكال، محدثة ضجة كبيرة. وفي إحداها كان وريث العرش، الذي لم ير أحداً ولم يره أحد. وبعد ذلك أطفئت الشموع والفوانيس، وعاد الناس إلى المدينة وهناك علموا أن صاحب السمو الإمبراطوري، وقد أتعبته الرحلة، قفز من عربته إلى السرير الذي هيئ له في منزل الحاكم.

وفي اليوم التالي، أرسل «متمردو كانون الأول» إلى ولي العهد عرائض، يلتمسون فيها العودة إلى روسيا. وكان الشاعر «جوكوفسكي» الذي يرافق الدوق الأكبر، قد تحدث معهم مطولاً ووعدهم بدعم وتأييد مطلبهم. وفي المساء أقيم قداس احتفالي، عند الساعة السادسة. وبناء على أمر صاحب السمو الإمبراطوري، فقد شهد هذا القداس، جميع المبعدين السياسيين. وكان المشهد يشكل لوحة غريبة: جمهور من الموظفين بملابسهم الرسمية الزاهية، وفي إحدى الزوايا «متمردو الرابع عشر ومن كانون الأول». وابن «نيقولا الأول» واقف، وحده، أمام المذبح. كان في التاسعة عشرة من عمره، في تلك الفترة. وبدا نحيلاً، طويل القامة، تنم هيئته عن الوداعة والتعب. وكانت «صوفيا» تراه جيداً، عبر فتحة بين كتفي اثنين من مرافقيه. وعندما تحدث الكاهن في صلاته، عن الدعاء لراحة وأمن وسلامة «المرضى، البؤساء والمساجين..» التفت سموه نحو «متمردي كانون الأول»، ورسم إشارة الصليب ببطء، وهو ينظر إليهم. وغادر المدينة في المساء نفسه، تاركاً وراءه أملاً كبيراً. وقد اعتقدت «صوفيا» كما اعتقد الآخرون جميعهم، أن القيصر سوف يتأثر بالتقرير الذي سيقدمه له «الدوق الأكبر» وسيسمح بعودة المحكومين السياسيين إلى روسيا. ولم يطل انتظارهم لجواب القيصر:

«فيما يتعلق بهؤلاء السادة، فإن طريقهم إلى روسيا، يمر بالقوقاز.» وتطبيقاً لهذا القرار، فقد التحق بالجيش، كجنود عاديين: «لورير»، «نريشكين»، «ناظيموف»، «ليخاريف»، «روزين» وكثيرون غيرهم. غالبية هؤلاء إن لم يكونوا كلهم، كان لا بد من أن يقتلوا في الحرب أو أن يموتوا بمرض التيفوس. وعلى الرغم من خيبة الأمل الشديدة، هذه، فقد ظلت «صوفيا» توجه الرسائل إلى الإمبراطور وإلى الإمبراطورة، وإلى «بنكندروف» وإلى «أورلوف»، بمعدل رسالة كل سنة، على وجه التقريب.

ودائماً، دون أية نتيجة. أما الآن، فأنها لم تعد تكتب أية رسائل، هذا ما قررته. وانحنت نحو «نتاليا» وهمست في أذنها:

- أتعلمين؟ لقد اتخذت قراراً مهماً! سأنتقل لكي أصبح قريبة منكم!

فصاحت «نتاليا»:

- آه! لكم يسعدني ذلك! يجب أن نقترب من بعضنا ونضيق حلقتنا وهكذا نستطيع تبادل المعلومات بسهولة، أما الآن، وبسبب البعد، فتظل الكثيرات منا يجهلن بعض الأمور.

ومرت في ذهن «صوفيا» ذكرى الذين ماتوا: «ألكسندرين مورافييف» و «كاميليا لودانتو»، «ايفاشيف»، «فادكوفسكي»، «ايوشنيفسكي»، «كوهلبيكر» الأخوان «بوريسوف»، والجنرال «ليبارسكي»... وكان حاكم السجن قد توفي في شهر أيار «مايو» سنة ١٨٣٧. وسار في موكب جنازته جميع السجناء الذين كانوا لا يزالون معتقلين في «بيتروفسك» وودعوه كما يودعون صديقاً عزيزاً عليهم. ومع مرور الزمن، أصبحت «صوفيا» تقدر بشكل أفضل بساطة وأريحية هذا الخادم السابق والعجوز للنظام الإمبراطوري. وكان قد كتب لها، بعد وفاة «نيقولا» معزياً، رسالة رقيقة، تعبر عن العطف والمودة!.. وأخذت تبحث في ذاكرتها عن العبارات التي وردت في رسالته، ولكن حركة الهواء على وجهها، وبياض السهل المنبسط أمام عينيها، منعاها من التفكير، كما كانت تريد أن تفعل. وبعيداً، على المرتفعات التي تطل على نهر «الايرتيش» أخذت تبدو أسطحة منازل المدينة، التي يغطيها الثلج، والتي ترتفع فوقها قباب أجراس وأبراج القلعة القديمة.

ورافقت «نتاليا» «صوفيا» إلى مسكنها، حيث كانت «دوناشا» الخادمة، تقف على عتبة الباب:

- أسرعي يا سيدتي! هنالك من ينتظرك!

فعانقت «صوفيا» «نتاليا» على عجل، وأسرعت نحو البيت، فالتقت بالصغيرة «تاتيانا» ابنة مدير البريد، وهي تقف متأبطة دفاترها. كانت في الثالثة عشرة من العمر، وجهها مستدير تبدو فيه بقع النمش، وعيناها زرقاوان ولكنهما باهتتان جداً.

فقالت «صوفيا»، وهي تدخلها إلى الغرفة المريحة الوحيدة، في «الإيسبا»:

- اجلسي، يا ابنتي. سنبدأ الدرس في الحال. ماذا أعطيتك لتحفظيه؟

فأخذت «تاتيانا» تفكر، رفعت نظرها نحو السقف، وقالت بصوت رتيب:

«حطاب مسكين، يحمل حزمة كبيرة من أغصان الأشجار...» كانت تلفظ الكلمات الفرنسية بلكنة روسية خشنة ورخيمة، في آن معاً، بحيث أن «صوفيا» وجدت صعوبة بالامتناع عن الابتسام. كان اجتهاد تلميذتها يثير لديها العطف والسرور. وكأنه تكريم ساذج وبسيط يقدم لفرنسا. وكان يبدو لها أن مما يدعو إلى السرور والإعجاب، أن يرغب أصغر موظف في أعماق سيبيريا، تعليم أبنائه لغة «لافونتين» وتلقينهم مبادئ الثقافة الفرنسية. ولأنها تعيش في المنفى منذ سنوات عديدة، فقد اكتسبت حساسية مرضية حيال كل ما يذكرها بوطنها. وإذا كانت قد ابتسمت فيما مضى، ساخرة من بعض المهاجرين المهووسين، الذين يجمعون التذكارات، فقد أصبحت، هي نفسها، مثلهم الآن، تجمع بعض التحف والأواني التذكارية، وتقص الصور من المجلات لكي تخلق حولها جواً من بلاد لن تعود إليها أبداً. وكانت جدران غرفتها مزينة بملصقات وبصور تمثل مختلف حرف ومهن باريس، القديمة. وعلى منضدة العمل، يوجد عدة أعداد من مجلة:

«le petit courrier des domes» وهي مجلة نسائية. وساعة الجدار كانت على شكل ديك من البرونز يقف على طبل، وعلى قاعدته الرخامية نقش هذا الشعار: «صياحه سوف يوقظ العالم». وعلى أسكملة صغيرة، وضعت نشرة مزينة بالصور، لمعزوفة موسيقية بعنوان: «وادي أورليان» وهي لرقصة «فالس»،

تباع لصالح الغرقى في نهر اللوار». وكل واحدة من هذه المقتنيات، كلفت «صوفيا» كثيراً من الحيل والمساعي المتتابعة. والحقيقة، هي أنها كانت ترغب بالحصول على بعض الصور والمطبوعات المتعلقة بثورة شباط «فبراير» سنة ١٨٤٨، ولكن، كان من المستحيل العثور على وثائق من هذا النوع في روسيا. وكان عليها أن تكتفي بالريبورتاجات والتقارير التي تنشرها الصحف، بعد أن تفتحها الرقابة وتخفف من لهجتها.

والحقيقة هي أن هذه الجمهورية الثانية، التي تكونت نتيجة لانتفاضة شعبية خيرة، كانت تبدو غريبة بالنسبة لها، عن بعد، وهي لم تكن تستطيع أن تتفهم كيف أن أبناء وطنها بعد أن قضوا على نظام الحكم الملكي يمكن أن ينتخبوا رئيساً للدولة، أحد أفراد أسرة «بونابرت»، الأمير «لويس نابليون بونابرت». علم مثلث الألوان، «المارسييليز» النشيد الوطني القديم، خطابات مدوية ومؤثرة في المجلس التشريعي، كل هذا حسن وجميل، ولكن لماذا، بدلاً من ذلك، لم ينتخب لإدارة شؤون البلاد، رجل ذو فكر ليبرالي متحرر، ممن هم فوق جميع الشبهات، من أمثال «ليدرو رولان»، أو «لامارتين»؟ وبالتأكيد، كان من المستحيل إعطاء رأي حازم بهذا الموضوع، إذا كان المرء يعيش بعيداً عن باريس. كان ينبغي الغوص في ذلك الغليان المضطرب من العواطف والأهواء المتناقضة، لكي يستطيع المرء أن يرى الأمور بوضوح. والوقائع والأخبار التي تنشرها الصحف تقرأ بسرعة، وبسرعة تنسى، ونجاحات وفضائح ملهى ومسرح «الكوميدي - فرانسيز»، والصور الكاريكاتورية الخبيثة، والألبسة الأنيقة والمثيرة، والجهر بالعقيدة الدينية أو بالرأي السياسي، والكلام الحلو والطيب، والعربات الجملية في «ممشى الأكاسيا»، صوت المطرقة وهي تدق على السندان، والمسحاج الذي يرسل صوتاً يشبه الصفير، في الضواحي، والأغاني التي تتردد في الشوارع، وصياح بائع الماء، وموسيقى الاستعراضات

العسكرية، وقرقعة عربات الأومنيبوس» العامة، وفوق كل هذه البلبلة، التي تحصل كل يوم، هنالك الإحساس العجيب، بأن جميع الآراء مباحة، ويسمح بإعلانها، وأن ضحكة قوية يمكن أن تكون كافية لإسقاط تمثال عن قاعدته، كان كل هذا هو ما فقدته «صوفيا» بمغادرتها لفرنسا. وأخذت تفكر بذلك من جديد، بحزن وأسى، بينما كانت ابنة مدير البريد، واقفة أمامها، تقرا متلعثمة وهي تهز رأسها:

«يأتي الموت، فيشفي من كل شيء،

ولكن، مهلاً، علينا ألا نتحرك من مكاننا:

نحن نفضل تحمل الألم، على الموت،

هذا هو شعار بني البشر».

فتمتمت «صوفيا»:

- حسن جداً!

وبدأت «تاتيانا» بشرح الكلمات، ولم تكن غبية، فبعد أن أعطت تفسيراً لكلمة «أغصان»، و «كلمة حمل» و «كوخ» و «حزمة» أرادت أن تعرف إذا كان صحيحاً، كما يدعي «لافونتين» أن الناس يفضلون تحمل الألم على الموت.

فقالت «صوفيا» وعلى شفتها نصف ابتسامة:

- ليس كلهم!

كانت تفكر بأولئك الذين خاطروا بحياتهم، في باريس عند الحواجز، وفي «سان بطرسبورغ»، في ساحة مجلس الشيوخ. فهل تهرب من سيبيريا وتعود إلى فرنسا.. لقد فكرت فيما مضى بهذا المشروع. ولكن كان من المستحيل ثني إرادة القيصر. ومن دون جواز سفر، سوف يتم توقيفها في أول محطة استراحة. وعلاوة على ذلك، ألم تقرر، قبل لحظة، أن تقيم في بيت أفضل من بيتها، يقع بالقرب من بيت « آل فونفيزين» و «آل أنانكوف»؟

وقالت الفتاة:

- نعم، فالجنود، مثلاً، يفضلون الموت في ساحة القتال، على الانكسار والهزيمة!

- بعض الجنود.

- الأبطال!

- تماماً.

- أنا أكره الأبطال.

- لماذا؟

- لا أدري. فهم يمنعون الآخرين من أن يعيشوا مطمئنين، أمّا أنا، فالذي يعجبني، هو البيت، الأسرة، الخياطة، والأطفال الصغار. هل عرفت بعض الأبطال؟

- نعم.

- أيهم؟

فشعرت «صوفيا» بالاضطراب، فتحت كتاباً على المنضدة، وقالت باختصار:

- سنجري تمرين إملاء. هذا نص كتبه «لابروبير»... هل وجدته؟.. «مينالك» ينزل على درج منزله، يفتح الباب لكي يخرج، ثم يغلقه...»

وبينما كانت تتكلم بهدوء وبطء، عادت إلى التفكير بمشروع انتقالها وأخذت الأرقام تجمع، في ذهنها. لم يكن يقلقها المبلغ الذي ستدفعه. فهي لا ينقصها شيء بفضل واردات ملكية «كشتوفكا» كان عميد الطبقة الارستقراطية في «بسكوف» يرسل لها حصتها، بانتظام، كل ثلاثة أشهر. ولكنها لم تتلق أية رسالة من «سيرج» الذي تعتبره ابن شقيقتها، بشكل جعلها تكاد تعتقد أنه كان يجهل، أو يتجاهل وجودها! فهو لم يكتب لها حتى بمناسبة وفاة «نيقولا». ومن المؤكد أن والده يخضعه لسلطته. فكم

عمره الآن؟ ثلاث وعشرون سنة.. كلا! أكثر! خمس وعشرون!» فشعرت بشيء من الخوف وظلت خلال لحظة، فاغرة الفم. ولأن الصمت قد طال أمده، فقد رفعت «تاتيانا» نظرها عن دفترها. كانت ملامح وجهها تعبر عن فضول يمازجه العطف والمودة. كان واضحاً أن «صوفيا» تثير اهتمامها واستغرابها. كان يروى الكثير عن متمردي كانون الأول، في المدينة! ودون أن يعرف الأطفال، تماماً، ماذا ينسب لهم وبماذا يعيبهم الناس، كانوا يعتبرونهم أناساً متميزين، أكثر علماً وأكثر بؤساً من الآخرين، جماعة من المنبوذين يتمتعون بموهبة اللغات، الرياضيات، وإتقان الكتابة والإملاء. واستأنفت «صوفيا»:

- «..... يرى أن سيفه موضوع على الجانب الأيمن، وأن جراباته نازلة إلى كعبيه، وقميصه فوق سرواله...»

- وما هو السروال، يا سيدتي؟

- سروال قصير، يصل إلى الركبتين.

وعادت الريشة إلى الانزلاق على الورق. وتبادر إلى ذهن «صوفيا» أنه يوجد في أكثرية البلدات السيبيرية، آنذاك أحد متمردي كانون الأول، يقوم بتعليم أبناء الوجهاء المحليين. حتى إن بعضهم قد افتتحوا مدارس لهذه الغاية. ومع ذلك، وبظلم فريد من نوعه، فإذا كان المحكومون السياسيون قد تحولوا إلى مربين ومعلمين، فإن أولادهم، كانوا، في معظم الحالات، لا يزالون يعتبرون عبيداً للتاج. وفي سنة ١٨٤٢ أعلن الإمبراطور أنه مستعد لقبول أبناء وبنات أعدائه السابقين في المؤسسات المدرسية الحكومية، شريطة أن يتم تسجيلهم ليس باسم أو كنية أسرهم: «تروبتزوكوي»، «فولكونسكي»، «دافيدوف»، «أنانكوف». بل باسم والدهم، كالعبيد الفلاحين «الموجيك»! فرفض أهل الأطفال، بالإجماع هذه الحظوة المذلة، واستمر الأطفال بالدراسة وتلقي التعليم في المنازل تحت إشراف ذويهم،

وبشكل أفضل مما كان يتاح لهم ذلك في أماكن أخرى. أخيراً، وفي سنة ١٨٤٥، بعد وفاة «بنكندورف»، حصل خلفه الكونت «أليكسي أورلوف» من القيصر «نيقولا الأول» على الموافقة بإلغاء الإجراءات الظالمة والتعسفية التي تشمل «الجيل الجديد». ونتيجة لذلك، فقد حصلت «الكسندرا» و «ليزا» و «تروبتزوكوي» ثم «نيلي فولكونسكي» على حق الدخول إلى معهد الفتيات، في «ايركوتسك» بينما قبل «ميشيل فولكونسكي» وابنا «آل أنانكوف» كطلاب داخليين في المعهد الرياضي، الكائن في هذه المدينة نفسها.

ولكن، كما هي الحال دائماً في روسيا، فإن هذا الإجراء الذي يتسم بالشفقة والرحمة، كانت ترافقه تقييدات سيئة، تحد من قيمته. وهكذا، فإن «بولين أنانكوف» التي تألمت لفراق ولديها، لم تستطع أبداً أن تنتزع من السلطات في «توبولسك» جواز مرور لكي تذهب لتراهما. لأن أقل تنقل كان يتطلب أختاماً وتواقيع. والرسائل كانت تفتح وتحتجز أحياناً لمدة أسبوع في مكتب البريد. وكان يحدث، بناء على وشاية من مجهول، أن يحضر أحد رجال الشرطة إلى منزل أحد متمردي كانون الأول، ويلقي بعض الأسئلة الفارغة، ثم ينصرف وعلى شفتيه ابتسامة تنم عن التهديد والوعيد. ممنوع اقتناء بندقية صيد. ممنوع إرسال صور خاصة من سيبيريا إلى روسيا. ممنوع تعليم المبارزة بالسيف للأطفال.. وفجأة، أخذت «صوفيا» تتساءل فيما إذا كان مدير البريد لا يسأل «تاتيانا» عند عودتها إلى البيت. عما رأته وسمعته في بيت السيدة التي تعلمها اللغة الفرنسية. وهي كانت تعتقد أنها تستقبل تلاميذاً، ولكنهم كانوا جواسيساً صغاراً، هؤلاء الذين يجلسون إلى منضدتها ويكتبون ما تمليه عليهم.

- و «شوهد مرة، يصدم جبهته بجبهة رجل أعمى، فتشابكت سيقانهما وسقط معه، منقلبين، كل منهما في جهة..»

فأرسلت «تاتيانا» ضحكة، صافية، بريئة جداً، جعلت «صوفيا» تطمئن وتنبذ مخاوفها. وفي هذا العالم المرعب الذي يسوده السأم، وتكثر فيه الوشايات، كان عليها أن تقاوم الميل إلى تصور وجود بعض الأعداء في كل مكان.

وصاحت الفتاة:

- كم هذا ظريف وعجيب، يا سيدتي! وهل لا يزال «لابروبير» على قيد الحياة؟

- كلا، لقد مات منذ أكثر من مئة وخمسين سنة.

- لم أكن أظن أنه يمكن البقاء ظريفاً وعجيباً، زمناً طويلاً. بعد الموت!

أعادت «صوفيا» قراءة النص، وصححت الأخطاء. وكانت «تاتيانا» تقف وراءها، منحنية إلى الأمام، لكي ترى بشكل أفضل، وكانت أنفاسها تتردد خلف عنق مدرستها. بينما كان عطر فتاة صغيرة منفعلة، ينتشر حول «صوفيا». فشعرت، مرة أخرى بالأسف لأنها ليس لها طفل، وأن عملها يقتصر على تعليم وتربية أطفال الآخرين. وقالت:

- سبع غلطات، هذه ليست نتيجة باهرة!

فأحنت «تاتيانا» رأسها. وانتهى الدرس. وقد بدأ يسمع وقع أقدام ولدي «سوما توخوف» في غرفة الانتظار، ووالدهما هو أغنى فلاح في المنطقة. ورافقت «صوفيا» تلميذتها «تاتيانا» إلى الباب، وأدخلت الصبيين، أحدهما في العاشرة والثاني في الثانية عشرة، من العمر: وجهان حسنان موردان من شدة البرد لفلاحين صغيرين. كانا في بداية دراستهما للغة الفرنسية. وبينما أخذا يبذلان الجهد لحفظ تصريف أحد الأفعال الفرنسية، كانا يلعبان بتحريك العظيمات الصغيرة التي كانت في جيوبهما. وكان على «صوفيا» أن تصادرها منهما. وبعد ذلك، أتى دور زوجة القيّم على المؤسسات الخيرية،

ذات الشعر المجعد، والملابس الأنيقة، التي كانت تأتي لتتعلم بعض الكلمات الفرنسية لكي تستخدمها في أحاديثها، وحسب. وكانت تغيظ «صوفيا» بحركاتها وتمتماتها وضحكاتها.

وأخيراً، عند الساعة الثانية عشرة والنصف، ساد في البيت الهدوء التام. وعلى المنضدة التي أزيلت عنها الكتب والدفاتر. وضعت «دونياشا» طبقاً من اللحم البارد. مضافاً إليه الملفوف الحامض. و «صوفيا»، وقد اعتادت منذ زمن طويل، على تناول وجباتها، لوحدها، لم تعد تنزعج من الفراغ والصمت اللذين يحيطان بها. كانت تتناول طعامها بسرعة، دون أن تفكر بما يحتويه من غذاء، ويسرها أحياناً، أن ترى، عندما ترفع رأسها أشباح المارة، التي تلوح عبر زجاج النافذة، الذي تغطيه طبقة رقيقة ومعرّقة من الجليد. كانت ملعقتها تغوص في مربى فاكهة عديم الطعم، أضيف له الحليب، عندما بدا لها أنها عرفت خيال رجل، ياقته مرفوعة، وقبعته عريضة. ثلاث دقات على الباب: أنها لم تكن مخطئة! وغمرتها فرحة عارمة.

وتمتمت وهي تنحني نحو المرآة:

- اذهبي، وافتحي الباب، يا «دونياشا»

أزاحت خصلة شعر عن صدغها، وشدّت قميصها وأصلحت وضعه تحت زنارها، والتفتت، وعلى شفتيها ابتسامة عريضة، نحو الدكتور «وولف» الذي دخل ووجهه يشع سعادة وحبوراً، وصاح:

- لقد قابلت «بولين» للتوّ! وقالت لي إنك تريدين شراء المنزل الصغير، القريب من منزلها! فهل هذا صحيح؟.

فأجابته «صوفيا»:

- نعم، أعتقد أنه من الأفضل أن اشتري ذلك المنزل، لأن مسكني هذا سيئ جداً!..

- لا سيما وأنت هنا، بعيدة عنا أكثر مما ينبغي! لا تدعي هذه الفرصة تفوتك. هيا، اشتري! وانتقلي! بسرعة!...

وشعرت كأن يداً وضعت على كتفها، فازداد ضيقها وحرجها.

وسألته:

- هل تناولت غداءك؟

- بالتأكيد! لقد تناولته بين موعدين، كما هي عادتي.

- ولكنك تتناول بالطبع كأساً من شراب «توت العليق»؟

فأراد أن يرفض، ولكن «صوفيا» ألحت في عرضها. وكان لديها انطباع، بأنه أمر مهم جداً بالنسبة لها أن يتذوق الدكتور «وولف» هذا الشراب. ولكن، أين الزجاجة؟ فمنذ زمن طويل لم تمسها!.. وفتحت خزانة الأواني، ورفعت غطاء الصندوق الخشبي، ثم أسرعت إلى المطبخ...لا شيء!

فأخذ الدكتور «وولف» يضحك:

- لا تتعبي نفسك إلى هذا الحد!

فانتابها غيظ شديد: «إنه سيعتقد أني فوضوية، وإني لا أعرف حتى ما لدي في البيت!» واتخذ هذا الهم في ذهنها أبعاداً مأساوية. فوبخت «دونياشا» لأنها، بالتأكيد قد رمتها، سهواً.

فأجهشت الفتاة في البكاء.

فقالت لها «صوفيا»:

- ساعديني، بدلاً من أن تتباكي!

والدكتور «وولف» كان يسمع كل شيء! وهذا أمر مؤسف! وأخيراً عثرت «دونياشا» على الزجاجة الثمينة، عندما أزاحت حزم الحطب من وراء المدفأة. فجلبتها «صوفيا» وهي مزهوة بفوزها ووضعتها على المنضدة. وكان على الدكتور «وولف» أن ينصاع ويلبي الدعوة. وبعد أول جرعة، قال:

- إنه شراب لذيذ، حقاً!

وأخذت تنظر إليه وهو يحتسي شرابها بسرور، وقد انتابها شعور خفي بالامتنان: رجل في بيتها، جالس بارتياح على الأريكة، والكأس في يده - كان هذا المشهد يشبع ويسد لديها حاجة أنثوية، قديمة قدم الأرض، لأن تنذر نفسها وتكرسها لتأدية بعض المهمات المادية البسيطة، ولتأمين الراحة والرفاهية للذكر الذي أتعبه العمل.

وأرغمته على أن يحتسي كأساً أخرى.

فسألها:

- متى ستنتقلين؟

فأجابته، ضاحكة:

- لكم أنت في عجلة من الأمر! إني، حتى الآن، لم أقرر ذلك تماماً. وأود زيارة المنزل، مرة أخرى...

- أتريدين أن نذهب إليه سوية، الآن؟

كان الصوت فتياً، مرحاً، لا علاقة له بالرجل الأشيب الجالس أمام «صوفيا» التي تبينت هذه الازدواجية وبدا لها أنها، هي نفسها، أيضاً، لها روح تركض مسرعة، وجسم لا يستطيع أن يتبعها ويلحق بها.

واستأنف الدكتور «وولف» الكلام:

- «بولزوخين» صاحب البيت، هو أحد زبائني، وستحصلين منه على ما تريدين! ولكن ربما كنت لست مستعدة للذهاب الآن؟!

فقالت، وهي ترفع رأسها:

- بلى، تماماً، فأنا ليس لدي أي درس حتى الساعة الخامسة.

وشعرت بأنها شبيهة بإحدى تلميذاتها، وقد وعدت بفرصة للاستراحة.

★★★

المنزل الصغير كان مكوناً من ثلاث غرف خربة، في الطابق الأرضي، ومن قاعة كبرى للعب «البلياردو» في الطابق الأول. وعبر النوافذ، كان يرى

شارع عريض تحيط به من الجانبين واجهات خشبية مطلية بألوان زاهية. كان هذا هو الحي الأوربي، الرسمي، حي الموظفين. ولم يغفل مالك المنزل لفت النظر إلى ذلك، لكي يبرر رغبته بالحصول على ثمن مرتفع لذلك المنزل الذي كان في حالة سيئة. كان ينحني كثيراً، وهو ممتقع الوجه ويتنفس بصعوبة. وكان وهو يتكلم، ينظر بقلق إلى الدكتور «وولف»، الذي كان، بالطبع يمسك بزمام مجموعة من الأمراض، يمكنه أن يطلقها عليه في أية لحظة. وعندما لامه الطبيب على طمعه ورغبته الشديدة بالربح، تمتم بأنه لا يريد سوى مناقشة السعر، وأنّ تنزيله ممكن دائماً، ومن تنزيل إلى تنزيل، ظل يوافق عليه المالك لكي لا يفقد الحظوة لدى رجل تتوقف عليه صحته، وربما حياته، قبل أخيراً بالثمن المعقول جداً والبالغ ألف ومئتي «روبل». وطلب منه الدكتور «وولف» أن يوقع على ورقة، لكي يتأكد بأنه لن يسحب كلامه. وانصرف الرجل وهو يغمغم، مطمئناً بعض الشيء، وفي الوقت نفسه كان غاضباً، كما لو أنه قد أنقذ حياته، ولكنه خسر بعض نقوده.

وعندما أصبحت «صوفيا» وحدها مع الدكتور «وولف» شكرته على تدخله، وأخذت تفكر بالإصلاحات والتغييرات التي يمكن إجراؤها. وكانت تروح وتجيء بحزم وتصميم، وتدور حول نفسها، تأمر جداراً بأن يتراجع قليلاً، ونافذة بأن تكتسي بستارة، وأرضية الغرفة، الخشبية بأن تستعيد بريقها ولمعانها.

- هنا، سأضع المنضدة، وخزانة الأواني، الضخمة... وأمام النافذة أضع الأريكتين... وغرفتي، ستكون هذه!...

فقال لها الدكتور «وولف»:

- عليك أن تكوني حذرة، فهذه الغرفة، بابها متجه نحو الشمال.

- معك الحق، فهذا صحيح. ولكنّ الغرفة الأخرى صغيرة جداً، إلاّ إذا أزيل هذا الجدار...

فريّت الدكتور «وولف» على الجدار، وتفحصه وكأنه يتفحّص مريضاً، وأخيراً، قال:

- يمكنك أن تزيليه، فهو ليس سوى حاجز خشبي!

ثم أخرج قلماً ودفتراً صغيراً من جيبه، واقترح على «صوفيا» أن يرسم في الحال مخططاً جديداً للمنزل. وأخذت تقدّر قياسات الغرف، بخطوات واسعة قامت بها. وكان يسجل على مخططه الأرقام التي كانت تعلنها له. وهذه المشاركة الودّية كانت تزعجها وتسحرها في الوقت نفسه. فهي تدرك أنها بإشراك هذا الرجل باهتمامات وترتيبات منزلها الذي ستقيم فيه في المستقبل، تكاد تعامله كما لو أنه كان بالحقيقة يشاركها في حياتها. ولو أنها زارت هذا المنزل مع زوجها لما كان حديثهما مختلفاً. وكان يعود لها أمر الكف عن هذه اللعبة. ولكن لم يكن لديها الشجاعة لكي تفعل ذلك. وقالت وهي تلقي نظرة على المخطط:

- كل شيء واضح تماماً، فلديك موهبة لرسم المخططات، لم أكن أتصورها!

وانتقلا إلى الغرفة المجاورة. ومن جديد، أخذت تمشي أمامه وهي تعدّ:

- الطول، ست خطوات، هل تتابع التسجيل؟

كان ينظر إليها بحدّة، لدرجة أنها أدركت أنه بعيد جداً عن أمور الهندسة المعمارية.

وقال بصوت غامض، خالٍ من أية نبرة:

- وكم خطوة العرض؟

وكان عليها هذه المرة أن تتمالك نفسها لكي تستطيع أن تضع رجلاً أمام الأخرى. وكانت أكثر حركاتها مرونة وبساطة تنقصها العفوية، ولا تبدو طبيعية. كانت تفكر بالتأثير الذي تحدثه عليه، وهي تأخذ قياسات الغرفة.

فتمتمت، عندما وصلت إلى الزاوية المقابلة:

- أربع خطوات ونصف.

وفجأة، قالت في سرها إنّ هذا المنزل أكثر اتساعاً ممّا ينبغي، بالنسبة لامرأة، تقيم لوحدها. والدكتور «وولف» من جهته، كان يقيم في غرفة، استأجرها، في مسكن عقيد متقاعد، يقع في آخر الشارع. وفي تلك الغرفة، كان ينام ويتناول طعامه، ويستقبل مرضاه، دون أن تبدر منه أية شكوى تتعلق بسكنه، فلماذا لا تتخلى له عن الطابق الأول، ليجعل منه مختبراً ومستوصفاً... فأفرحتها هذه الفكرة، ثم أثارت القلق في نفسها: لم يكن لديها الحق أن تدخل رجلاً إلى بيتها، مراعاة واحتراماً لذكرى «نيقولا»، وليس لأنها تشك بنفسها، ولكنها لا تريد أن تمنح ذريعة للناس لكي يلوثوا ماضيها بتقولاتهم وثرثراتهم.

وقال، وهو يتبعها إلى غرفة الانتظار:

- ستكون إقامتك بالحقيقة مريحة جداً، هنا.

وصعدا الدرج، ودخلا قاعة، بدت ستائرها وقد حالت ألوانها، وتصدع الخشب الذي يغطي جانباً من جدرانها، وغطّت أرضيتها الخشبية طبقة من الغبار الرمادي. وفي وسطها «بلياردو» قديم، بدا منخفضاً على قوائمه القصيرة، غطاؤه ممزق، وعليه بقع من الشمع.

فصاح الدكتور «وولف»:

- رائع! بالإذن منك، سأحضر، من وقت لأخر، لكي أدفع الكرات لتتصادم مع بعضها ولكي أتسلى وأرتاح.

فشعرت «صوفيا» بانفعال لم تكن تتوقعه، وقد فاق الحد، فقالت، متلعثمة:

- نعم، بالطبع! احضر، دائماً، وكلما رغبت بذلك! فهذه القاعة... ستكون، تقريباً، قاعتك!...

لو أنّ الدكتور «وولف» أجاب بكلمتين لطيفتين، ودّيتين، أو أبدى أيّ تعليق كان، ربما كانت تمالكت نفسها وهدأت، ولكنه لم يقل شيئاً، وظل يحدّق بها بشدة وبمحبة وحنان. وحيال هذه النظرات الثاقبة والنفّاذة، كان كل ما يمكنه أن يهدأ لديها، أخذ يتحول إلى غرابة وشذوذ. وتصورته وهو يلعب البلياردو، على ضوء مصباح مزوّد «بكمة» خضراء اللون، وهو ينزل الدرج، يشعل «سيجاراً»، ينادي «دويناشا»، يفتح الغرفة، كما لو أنه في بيته. وبعد أن كادت تعترف لنفسها بأنها مضطربة، فضلت التهرب وإهمال مشاعرها وعواطفها الخاصة، لكي تهتم بعواطف ومشاعر الآخر: «كيف ينظر إليّ؟! إنه، بالتأكيد مغرم بي! وسيبوح لي بذلك! وماذا لو طلب مني أن أتزوجه؟» وحاولت تغيير مجرى أفكارها، ولكنها عجزت عن ذلك.

بعد وفاة «نيقولا» بثلاث سنوات عرض عليها «يوري ألمازوف» الزواج. فرفضت، دون تردّد. ولولا شيء من الحياء، لقهقهت ضاحكة، وسخرت من الشاب الطيب، الذي يعتبر نفسه مؤهلاً، بسبب صداقته لرفيقه في السجن، ليكون له الحق، بل وليكون عليه الواجب، بأن يحل محله مع أرملته. أما اليوم، فإنّ المشكلة مختلفة؛ إذ إنّ الدكتور «وولف» ليس أيّاً كان، وليس شخصاً عادياً كـ «يوري ألمازوف»، فهو هادئ، لطيف، ذكي وشجاع. وقد تصرف على الدوام حسب المفهوم الذي كونته «صوفيا» لنفسها عن هذا الرجل الشهم، الطيب القلب. كانت معجبة به، ولا تريد أن تسبب له ألماً. ومجرد تفكيرها بأنّ عليها أن ترفض طلبه، وأن تقول: كلا، يجعلها تشعر بالبرد يسري في أوصالها. ومع ذلك، كان لا بد لها، دون شك، من أن ترفض أن تتزوجه، فهي لا تستطيع أن تنتسب لرجل آخر، بعد «نيقولا» حتى ولو كان هذا الرجل الآخر من أسرة «متمردي كانون الأول» الكبيرة. وعلاوة على ذلك، فقد أصبحت مسنّة، وشاخت وذوت. وهذا

الزواج سيبدو سخيفاً، مثيراً للسخرية. وشعرت بكتلة صغيرة مترهلة تحت ذقنها، فمدّت عنقها: «بالطبع، يمكنني أن أساعده في ممارسة مهنته، وأستطيع العناية بمرضاه، وأستطيع... وأستطيع....» وفجأة تزيّنت حياتها وتنوّرت، واكتسبت بعداً ومعنى، غير عاديين. كانت تستحوذ عليها الحاجة التي تشعر بها الأم للتنظيم، والمساعدة والعمل: فها هي تدهن الفطائر بالزبدة، وتهيئ الضمادات. والمهم، على الخصوص، أنها محبوبة، وهنالك رجل طيب يحبها! وخرجت من هذه الدوّامة، متعبة الذهن، شاردة النظرات. ولم تدم تلك الرحلة سوى ثلاث ثوانٍ. وقبالتها، كان الدكتور «وولف» لا يزال يتأملها برزانة تنم عن المحبة والعطف. فهل سيحزم أمره، ويبوح لها بحبه؟ كانت تأمل ذلك وتخشاه، في آن واحد. وهز رأسه، وقال:

- أتدرين بماذا أفكر؟

فتسارعت بشدّة دقات قلبها.

وتابع كلامه:

- يجب عليك أن تحوّلي هذه القاعة إلى مكتبة. اتركي «البلياردو» في مكانه، ويمكنك أن تضعي حوله الكتب المجلدة، وذات الأغلفة الظريفة.

فأخفت خيبتها خلف ابتسامة مغتصبة:

- هذه فكرة جيدة! ولكن ليس لدي ما يكفي من الكتب!

- يمكنني أن أحضر لك كتبي. فأنا لا أجد مكاناً أضعها فيه!

- وإذا احتجتها؟

- سأحضر لأقرأ بها هنا! في منزلك!

فعاودها الشعور العذب بنسيان تقدمها في السن، ومغادرة الأرض. وزالت كتلة اللحم المترهلة التي كانت تحت ذقنها، وانزاحت وطأة التعب عن منكبيها. «لماذا يكون ممنوعاً على مخلوقين مثلنا أن يوحدا حياتيهما؟ لقد أحب، فيما مضى المسكينة «أليكسندرين مورافييف» وأنا أحببت «نيقولا».

والاثنان ماتا. ولن ننكر ماضينا إذا حاولنا أن ننشئ سوية سعادة جديدة». أمسك يدها ورفعها إلى شفتيه:

- عزيزتي «صوفيا» لكم تسرني رؤيتك، سعيدة ومتحمسة جداً لمسكنك الجديد! ويبدو لي أنك لكي تشعري بالسعادة، يجب أن يكون لديك مشروع تعملين به وتتجزينه!

فقالت، وفي صوتها نبرة تنم عن الحزن والأسى:

- نعم، نعم!

ولاحظت، بدهشة، أن جو الغرفة أصبح أكثر نوراً وضياءً، وأن أشعة شمس الشتاء قد برزت من بين الغيوم والضباب، وذرات الغبار الذهبية أخذت تتراقص بين تلك الأشعة. وأن لغطاء «البليارد» لمعان وبريق العشب الأخضر اليانع. فشعرت برغبة شديدة بأن تضحك، وأن تتنفس بعمق، وتملأ رئتيها بالهواء النقي، وأن تمشي على الثلج، وقالت:

- ماذا لو خرجنا؟ لقد أصبح الطقس جميلاً!

فنظر إليها مندهشاً، كما لو أنه كان قد فقدها في أحد الأروقة، ووجدها بين عمودين، وفي مكان لم يكن ينتظرها فيه، ولا يتوقع أن يجدها هناك. فأدركت أنه يسرّ برؤيتها، وأنها تثير اهتمامه وتشغل باله، واكتشفت في قرارة نفسها، فتنة وسحر ودلال شبابها، وبدا لها أن كل ذلك يرقد هناك بخمول ودون أن يستخدم.

ونزلا على الدرج، وخرجا إلى الشارع، الذي كان أبيض، لامعاً براقاً، تشوبه ظلال زرقاء عند أسفل جدران المنازل. وأرضه زلقة. فكوّر الدكتور «وولف» ذراعه، واستندت عليه «صوفيا» بكل ما استطاعت من خفة. وسألها:

- إلى أين نذهب؟

فأشارت بذقنها:

- إلى هناك...

لم يكن في «توبولسك» أي مكان للتنزه، سوى الجانب المرتفع في المدينة، والقلعة. والسور ذو الفتحات، الذي تعلوه بعض الأبراج، يضم الكاتدرائية، الكنيسة، الدير، مقر الأسقف، قصر الحاكم، بعض الثكنات والسجن المركزي. فتجولا، خلال بضع دقائق بين تلك المباني القديمة. وكان البرد القارس والجاف والشمس المشرقة، يضفيان على تلك المباني طابعاً فيه شيء من الجمال والبهجة.

وقال الدكتور «وولف» مقترحاً:

- لا بدّ لنا من تحية الجرس.

فوافقت «صوفيا» بإيماءة من رأسها، وهي تبتسم. ودخلا إلى باحة الأسقفية، حيث كان يوجد جرس «أوغليتش» الشهير، الذي أعلن إشارة التمرد والثورة، سنة ١٥٩١.

وبعد أن تغلب القيصر «بوريس غودونوف» على زعماء التمرد، واعتقلهم، ثم أبعدهم إلى سيبيريا، أرسل إلى هناك أيضاً، في الوقت نفسه، الجرس المجرم، الذي أساء إلى الذات الملكية.

ولكي تكون العقوبة قاسية وتامة، فقد حرم الجرس من مدقه، وجُلد في إحدى الساحات العامة. وكان «متمردو كانون الأول» يطلقون عليه اسم: «عميد المنفيين».

توقفت «صوفيا» والدكتور «وولف» أمام الكتلة البرونزية الثقيلة، وأثناء ذلك، سمعا سعالاً خلفهما، فقد خرج شرطي من مخبئه، وأخذ يراقبهما. وفي كل مرة يجازف بعض متمردي كانون الأول بالحضور إلى تلك الباحة، كان يتبع خطواتهم أحد ممثلي النظام. فهل كان المسؤولون في المراكز العليا يخشون أن يصبح جرس «أوغليتش»، موضوع إجلال وعبادة، بالنسبة للمحكومين السياسيين؟

وفي أي وقت آخر، ربما كان يحلو لـ «صوفيا» أن تغيظ المراقب، باستخدامها عبارات مزدوجة المعنى، ولكنها، هذه المرة، كان لديها، على الخصوص، الرغبة، بالبقاء على انفراد مع الدكتور «وولف» وبأن تتناسى أنهما منبوذان. ولذلك همست في أذنه:

- تعال، فهذا الجرس لن يقول لنا شيئاً. فقد انتزعوا لسانه!

وابتعدا، فتبعهما الشرطي، ويداه خلف ظهره، لبضع خطوات. وبعد ذلك لم يعودا يشعران بوجوده. وعند مرورها بقرب الأسوار القديمة، بدا لهما، في المنخفض الحي الشعبي، حي الفقراء، بمنازله المتلاصقة والمتداعية، وأسواقه الضيقة، كما بدت لهما السهوب البيضاء، الممتدة على مدى النظر، والتي يخترقها نهرا «توبول» و «ايريتش» اللذان تجمدت مياههما.

وبالقرب من القلعة، كانت الحديقة العامة، وهي شبيهة بجميع الحدائق التي تزين مدن الأقاليم والمقاطعات، في روسيا: غابة صغيرة من أشجار السندر، وفي وسط الحديقة، «كشك» يستخدم كمقهى ومطعم، وهو مغلق في فصل الشتاء. وعلى الشرفة التي تطل على الطريق، انتصبت مسلة رخامية، تخليداً لذكرى القوزاقي «يرماك» فاتح سيبيريا في فترة «١٥٨١-١٥٨٤». وكان بعض الأولاد يدورون حول هذا النصب التذكاري ويتضاربون بكرات الثلج.

ولمحت «صوفيا» مقعداً تغمره أشعة الشمس. فنظفه الدكتور من طبقة الجليد الرقيقة التي كانت تغطية، ومدّ عليه وشاحاً «صوفيا» مزركشاً، بمثابة بساط تحتهما، وجلسا، جنباً إلى جنب، وأمامهما منظر يتلألأ عبر سحابة شفافة من الضباب. وكانت الريح قد هدأت ولم تعد «صوفيا» تشعر بالبرد على وجهها. وأخذت تفكر: «بعد أربعة أشهر تذوب الثلوج والجليد، فتجري الأنهار، ويحلّ فصل الربيع! عند ذلك تدب الحياة من جديد في جميع أحياء المدينة. وتتحرك غابة من سواري السفن الشراعية في الميناء الذي تحرر من عقال الجليد.

وتزهر السهوب التي تبدو منبسطة، لا تحدها حدود. وتخرج السيدات من الخزائن قبعات القش. وتأتي جوقة موسيقية عسكرية، فتعزف ألحانها في الحديقة. ويعلن مسرح «تويولسك» عن تقديم مسرحية، «ايفيجيني في أوليد» أو مسرحية أخرى، على شاكلتها. وأكون قد انتقلت للإقامة في منزلي الجديد، بمفردي، أو ربما متزوجة...»

وكان عليها أن تتنفس بعمق لكي تستردّ هدوءها. لم يكن أحد ينادي «وولف» باسمه الأول: «فيرديناند» فهو لم يكن اسماً روسياً. وتمتمت:

- «فيرديناند بوغدا نوفيتش»، لقد احتجزتك لفترة طويلة دون شك، فلا بد أنّ لديك مواعيد ولقاءات...

فقال:

- إن اللقاء الذي أقوم به الآن، هو أكثر أهمية من جميع اللقاءات الأخرى.

فشعرت «صوفيا» بالخوف من هذا الالتزام السريع، وأدارت رأسها. كان ينبغي إيجاد موضوع آخر للحديث. فتذكرت السجينين البائسين اللذين كانا ينزلقان في الزحافتين، من محطة استراحة، إلى محطة أخرى، عبر السهول البيضاء، نحو سجن الأشغال الشاقة. وما كانت تشعر به من السعادة آنذاك جعلها تتساهما. فأية أنانية مخيفة هذه التي تكمن في النفس الأكثر أهلية للشعور بالشفقة والرحمة! وتمتمت وكأنها تتكلم في أحد الأحلام، أثناء نومها:

- أين هما الآن؟

فسألها الدكتور «وولف»

- من هما؟

- «دوروف» و «دوستويفسكي».

- صحيح، أنا لم أسالك عن أخبارهما، فهل رأيتهما، صباح اليوم؟

- نعم. لقد كانا هادئين، وشجاعين... وأكثر شجاعة مني، أنا التي شاهدتهما عند رحيلهما! فكم من الرجال يجب أن يظلوا يفقدون الحرية، لكي يصبح، ذات يوم، جميع الرجال أحراراً؟

فقال الدكتور «وولف»:

- لن يصبح أبداً جميع الرجال، أحراراً، لأنهم، من جهة أخرى، ليس لديهم رغبة قوية بذلك! والذين يشعرون بشكل حقيقي بحب الحرية، هم نادرون جداً. وغالبيتهم، كل واحد منهم، يفضل أن يشبه جاره وأن يفكر مثل جاره، بل وألا يفكر أبداً!

- أنت ساخر، وتستهين بالأعراف والتقاليد، ولا تعيرها أي اهتمام!

- ساخر، أستهين بالأعراف والتقاليد؟ كلا. ولكن، ربما كنت مستنيراً، وقد تخلصت من بعض الأوهام. وكلما أمعنت التفكير، كلما تأكد لي أننا عندما نطلب من نظرائنا وأبناء جنسنا أن يتصرفوا على هواهم وكما يحلو لهم، فإننا نقع في تناقض مع طبيعة الإنسان التي تقضي بالتجمع على شكل جمهور. ولو انتزعنا السلطة من القيصر، وأعطيناها للشعب، فسوف يسرع الشعب ليقدمها إلى أيّ شخص آخر. لآن الشعب لديه أعمال أخرى أفضل من القيام بحكم نفسه. فعليه أن يعمل، وأن يأكل، وأن ينام، وأن يلهو ويحب، وعليه أيضاً أن ينجب أطفالاً...

- أنت تتكلم عن الشعب الروسي!

- إنه الشعب الوحيد الذي أعرفه. ولكني أفترض أن الشعب الفرنسي، هو أيضاً...

فهزت «صوفيا» رأسها:

لا تخطئ. إذ إن مفهوم التجمع الجماهيري، هو سلافي أو بالأحرى أسيوي. فهنا يشعر الناس ويتأثرون بقوة التيارات البشرية الكبرى، وبقدرتها الساحقة، أما في فرنسا فعلى النقيض من ذلك، إذ إن كل فرد

يعتبر نفسه أنه هو الوحيد الذي يعرف الحقيقة ويمسك بها. وهذا هو الميدان المغلق الذي تتجابه فيه جميع الآراء الممكنة والمحتملة. إنه وطن التفاوتات والاختلافات الجنونية. والمستودع الذي يزخر بأفكار المستقبل...

فقال الدكتور «وولف»،

- أحب أن أسمعك وأنت تتحدثين عن فرنسا، فخداك يصبحان، عند ذلك، موردين تماماً. ومنخراك يخفقان...

فظنّت أنه يهزأ بها، فكل هذا الثناء لا يناسب امرأة في مثل سنها. ولكنه كان يغمرها بنظرة تتسم بكثير من السذاجة والمودة، بحيث إنها تبينت حقيقة الأمر. فهو لم يكن يرى منها سوى ما يريد أن يراه. وبسرعة، أزالت الخطين الصغيرين العموديين اللذين أحدثهما الانتباه، بين حاجبيها. وكانت الشمس تبهر ناظريها، فأحنت جبينها قليلاً.

وقال لها الدكتور «وولف»:

- هل سيأتي يوم، لن تأسفي فيه على مغادرة بلادك؟

فأجابته:

- كلا بالتأكيد، ولكني تعلّقت كثيراً بروسيا، وأكاد أقول، بسيبيريا، على وجه التقريب...

فقال بصوت متهدّج:

شكراً لك، فقد أتحت لي فرحة كبرى.

فارتعشت ورفعت ياقتها بيد مرتجفة.

فصاح، بأعلى صوته:

أنت تشعرين بالبرد! والذنب ذنبي في هذا!

ما كان ينبغي لنا أن نجلس على هذا المقعد!

فوضعت يدها على رسغه العريض والعظمي:

- كلا، أنا بخير ومرتاحة تماماً، ولكنّ الوقت قد تأخر، وتلاميذي ينتظرونني الآن. فهل تريد أن نذهب؟

ونهضا، فطارت بعض عصافير الدوري، وهي تزقزق بعد أن كانت تبحث عن رزقها وعن شيء تأكله، حول المسلّة.

وأدركت «صوفيا» أن الدكتور «وولف» لن يقول لها شيئاً مهماً وحاسماً، بعد ذلك. فقد فوّت الفرصة التي سنحت له، ليفعل ذلك... وشعرت بالارتياح، بعد أن كانت قد تمنت أن يبوح لها بحبه. وفكرت، بحزن وأسى: «إني، أنا نفسي، أجهل ماذا أريد» وخرجا من الحديقة. وفي الشارع مرّا بعدة أشخاص، من معارفهما.

وأجابتهم «صوفيا» بلطف على تحياتهم. كانت مزهوة، بأن تُرى وهي تسير، مستندة على ذراع الدكتور «وولف».

٣

العمـال الـذين كـانوا يثرثـرون وهـم يقـضمون بـذور عبـاد الـشمس، استأنفوا العمل بسرعة، عندما فوجئوا بوصول «صوفيا».

فتمتمت وهي تنحني نحوه «نتاليا» و «بولين» اللتين كانتا ترافقانها:

- مـاذا قلـت لكمـا؟ حالمـا أديـر ظهـري، يكتّفـون سـواعدهم! كانـت التصليحات قـد بـدأت منـذ شـهر ونـصف، ومـع ذلـك فلـم يكـد النجـارون يصقلون الأرضية الخشبية وينجزون إصلاح الأبواب.

أما عمال البناء فكانوا لا يزالون يطلون بالجص عوارض السقف.

ولم يكـن هـؤلاء العمـال حـرفيين يتقنـون حـرفهم، بـل مـن المجـرمين العاديين السابقين الذين أنهوا مدة عقوبتهم في السجن، وأخلي سبيلهم. كان يصل إلى المدينة، كل يوم اثنين، مجموعة صغيرة من المبعدين. فيسرع، في الحـال، سـكان «توبولـسك» إلى باحـة الـسجن، ليختـاروا الرجـال الـذين يحتاجونهم لكي يعملوا عندهم.

والتعرفـة عـشرة روبـلات في الـشهر. والـذين لا يختـارهم أحـد كـانوا يرسـلون إلى القـرى المجـاورة. وتفقـدت «صـوفيا» منزلهـا وعمالهـا، بانزعـاج. كـان هنالـك شـخص ضـخم الجثـة، كـبير البطن وملـتح، يحـرك المسيّعة بخمول واضح، بالقرب منه رجل أحدب، يدق المسامير، باسترخاء في لوحة خشبية. فقالت «صوفيا» وهي تتأوّه:

- لن يكون هذا المنزل جاهزاً، في عيد الفصح!

فقال العامل البدين الملتحي:

- بلى، يا سيدتي! سترين، كل شيء يسير بشكل جيد، وستكون الأمور على ما يرام! وعلاوة على ذلك، فقد وعدنا الدكتور أنه سيرسل لنا رجلين، غداً، لمساعدتنا في العمل!

- أرأيت الدكتور؟

- لقد أتى صباح اليوم، وألقى نظرة على سير الأعمال.

فاحمر وجهها. إذ إنّ الاهتمام الذي يوليه «فيرديناند وولف» لمشروع سكنها، بدا لها بمثابة تصريح مقنع بالحب. وكانت «نتاليا» و «بولين» تراقبانها بخبث. فهل تبينتا الميل الذي كانت تشعر به نحو الطبيب؟ ومع ذلك فإنهما لم يبوحا لبعضهما بالحب. وعلاوة على ذلك، فإن هذه الكلمة لا تنطبق على الشعور الهادئ والقوي الذي كان يربط أحدهما بالآخر.

وقالت:

- وماذا لو انتقلت إلى هنا، قبل انتهاء الأعمال؟ أستطيع الإقامة في الطابق الأرضي، بينما ينجز العمال الإصلاحات في الطابق الأول...

فصاحت «بولين»

- سيكون الوضع غير مناسب، ولا يطاق: الضجيج، والغبار! عليك أن تتريثي! فالسعادة الحقيقية هي دائماً ثمرة الصبر الطويل!

فتراءت لـ «صوفيا» نية السخرية في هذه الجملة. فمنذ بعض الوقت، أخذت جميع الأحاديث تبدو لها ملأى بمعاني مضمرة.

وكانت مزهوة وخجلة، في آن واحد، من جو الخطوبة، هذا، المزيف.

وقالت:

- ومع ذلك، فإن لديّ انطباعاً بأني إذا كنت موجودة هنا من الصباح وحتى المساء، فإن الأعمال ستسير بشكل أسرع.

فقالت «بولين»:

- وتلاميذك؟ كيف تستطيعين عند ذلك استقبالهم؟

كلا، فأنا أرى...

وسكتت، وقد عقلت المفاجأة لسانها. فقد بدا دركي على عتبة الباب، وسأل وهو يؤدي التحية العسكرية:

- السيدة «أوزاريفّ»؟

وبدا طويل القامة، قوي البنية، أحمر الوجه.

فقالت «صوفيا»: أنا هي.

- تفضلي واتبعيني إلى مكتب الحاكم.

فاستولى عليها خوف جعلها تشعر بالبرد يسري في أوصالها:

- إلى مكتب الحاكم؟ ولماذا؟

كان عدم جدوى هذا السؤال، واضحاً جداً، بحيث إنها، دون أن تنتظر جواباً عليه، أضافت:

- حسن جداً. عد إلى غرفة الانتظار. وسآتي في الحال.

فأدى الدركي التحية. من جديد، وخرج.

فصاحت «نتاليا»، وهي توجه نظراتها نحو السقف:

- آه! يا إلهي، ماذا يريدون منك أيضاً؟

فقالت «بولين»:

- إن هذا، بالتأكيد، بسبب لقاءاتكما مع جماعة «بتراشيفسكي»!

فقالت «صوفيا»:

لو كان الأمر بسبب تلك اللقاءات، لما انتظروا شهرين تقريباً، لتنبيهي إلى وجوب التقيد بالنظام!

وقالت «نتاليا»

- الحق معك، أنا، بالأحرى، أظن أنهم سيلومونك بشأن النصوص التي تعلمينها للأولاد!

- أساطير «لافونتين»؟

- نعم، إن بعضها مخرب جداً!

فقالت «صوفيا» وعلى شفتيها ابتسامة تنم عن الرضوخ:

- سنرى تماماً، ماذا هنالك!

ورافقتها «نتاليا» و «بولين» إلى القلعة. وفي الطريق، همستا لها بعبارات التشجيع. فلن تتركانها تتخبط بمشكلتها بمفردها، فهما ستخبران جميع الأصدقاء، الذين سيستعينون بممثل الحكومة، بواسطة «ماري فرانتزيف»... ووراء النساء الثلاث اللواتي كن يسرن خبباً على الثلج، كان يمشي الدركي، الطويل القامة، وهو يحدّق في الفضاء وذراعاه يتأرجحان. وأمام قصر الحاكم. كان لا بد من الافتراق.

فباركت «نتاليا» «صوفيا» بإشارة الصليب، بينما كانت عيناها تطفحان بالدموع:

- ليكن الله في عونك، يا عزيزتي!

ووجدت «صوفيا» نفسها في غرفة انتظار، عارية الجدران، باردة الجو.

وبعد خمس دقائق، استقبلها الحاكم «أنجيلك» في مكتبه. كانت النار مشتعلة في مدفأة رخامية، وعلى الجدران المطلية باللون الأخضر، علقت صور ولوحات إطاراتها ذهبية اللون، ولكن لم يكن يمكن تبين ماذا تمثل تلك اللوحات، لأن ألوانها أثر عليها الدخان. كان «أنجيلك» قصير القامة، بديناً، يضع على عينيه نظارة فضية، وبطنه البارز كالبرميل الصغير تحمله ساقان معوجتان.

وقال، مخاطباً «صوفيا»:

- خلال المهمات القاسية والصعبة التي أقوم بها، تمر لحظات مشرقة ومفرحة، واعتبر هذه اللحظة، أحداها.

فاعتقدت «صوفيا» أنه يجاملها بهذه العبارة، وافتر ثغرها عن ابتسامة مغتصبة. كانت تجلس على حافة الأريكة، وقد جلّست ظهرها، وأخذت تحدق بالحاكم، وهي تتساءل، أية ضربة يتهيأ ليوجهها لها.

واستأنف الكلام، قائلاً:

- إنك الدليل الحي، على أنه في عالم مسيحي، لا ينبغي أن يستسلم المرء أبداً لليأس. ففي حين يبدو أن كل شيء قد ضاع، تتقشع الغيوم، فجأة، تسطع الشمس، وتبدو السعادة واضحة للعيان!

فسألته «صوفيا»:

- ماذا عليّ أن أفهم من كلامك، يا صاحب السعادة؟

فقال «إنجيلك» وهو يغمز بعينيه:

- ألم تدركي، ما أعني؟

- كلا، وأؤكد لك، أني لم أدرك شيئاً...

- إنه أمر عزيز على قلبك، وتهتمين به منذ زمن طويل. أمر كنت تطلبينه من القيصر، في جميع رسائلك...

فحصل فراغ كبير في صدر «صوفيا». وخشيت كثيراً من السؤال الذي همت بطرحه، وأخيراً تمتمت.

- أعودتي إلى روسيا؟

فصاح «أنجيلك» بأعلى صوته:

- بالتأكيد! عودتك إلى روسيا! يبدو أنه لم يعد لديك أمل بهذه العودة، اعترفي بذلك...

فقالت، بصوت خالٍ من أية نبرة:

- كلا!

فانتفخت أوداجه، وبرقت عيناه، أسنانه وذقنه، وقال وهو يضغط على كلماته:

- إني أبلغك أنّ صاحب الجلالة، وقد اطلع على عريضتك الأخيرة، بتاريخ ١٣ تشرين الأول «أكتوبر» ١٨٤٩ ومراعاة لكونك فرنسية ولأن زوجك توفي منذ سبع عشرة سنة، قررّ السماح لك بالعودة إلى روسيا.

فظلّت «صوفيا» برهة منذهلة، كما لو أنها لكثرة ما ظلت تأمل هذا الحدث، قد فقدت القدرة على أن تفرح به. وأراها الحاكم ورقة، زينت بصورة العقاب الإمبراطوري. فقرأت، بصورة تلقائية اسمها في وسط الوثيقة. هذه الصفحة الكبيرة، المكتوبة بخط اليد، هي لها وحدها!

وغمغمت:

- هذا لا يصدّق!... لماذا الآن؟... ولماذا تأخر الأمر إلى هذا الحد؟...

- لا يمكن أن يبدو متأخراً، أو أن يفوت الوقت، من أجل عمل الخير، كما يقال في فرنسا! وأنا أعتقد، أن تسلم الكونت «أليسكي أورلوفّ» منصب المرحوم الكونت «بنكندورف»، كان مواتياً لك. وعلى أية حال، يجب عليّ أن أبلغك بأنك لن يكون لك الحق بالإقامة في «سان بطرسبورغ» ولا في موسكو، وعليك أن تقيمي بشكل دائم في ملكيتك «كشتوفكا»، ولن تستطيعي التنقل إلا في مدى خمسة عشر «فيرست»: «Verstes»[1]

وبينما كان يتكلم كانت «صوفيا» تشعر بأن حزناً لا يمكن دفعه، ولا تحمله، أخذ ينتابها. وتفكيرها بالمنزل الذي اشترته، قبل بضعة أيام، جعلها تفقد الشجاعة والصبر. وأخذت ترى أعزّ مشاريعها يتحول إلى العدم. وبين أنقاضه، يقف «فرديناند وولف» مندهشاً، فارغ اليدين، لا حول له ولا قوة. فلماذا كتبت كل تلك الرسائل للإمبراطور؟ وماذا تأمل أن تجد في روسيا عند عودتها إليها؟ «ابن أخت» لا يعرفها إلا بالاسم، ملكية ليس فيها من هو بحاجة إليها. وبذهابها إلى هناك، فهي تنفي نفسها مرة ثانية.

فبلدها الآن هو سيبيريا، وأسرتها هي المكونة من بعض «متمردي كانون الأول» الذين تقاسمت معهم الآلام، طوال ثلاث وعشرين سنة.

١ـ «فرست»: مقياس روسي للطول يساوي: «١٠٦٧» متراً. ـالمترجم

ومستقبلها - ربما كان مع أحدهم... وإذا كانت قد تابعت أساساً تلك المساعي، فذلك لأنها كانت متأكدة من رفض السلطات لمطلبها.

ولكن هاهي قد وافقت عليه، وكأنها تعاقبها بهذه الموافقة على تلبية طلبها. وشعرت بأن الحاكم يتوقع أن يسمع منها عبارات الشكر والامتنان. ولكن وجهها ظل جامداً متجهماً، وتمتمت:

- أشكرك... إني متأثرة جداً...

ولحسن الحظ، فإن «أنجليك» عزا ارتباكها لشدة تأثرها وانفعالها، وقال:

- وأنا أهنئك، يا سيدتي، فأنت أول شخص ينال مثل هذه الحظوة من صاحب الجلالة. وآمل أن تستطيعي تقديم الدليل على أنك تستحقينها، وجديرة بها. فمتى تنوين السفر؟

فأجابته «صوفيا»:

- إني لا ادري، بعد، متى أستطيع أن أسافر، فكل هذا جديد جداً، بالنسبة لي! امنحني بعض الوقت، لأتمالك نفسي وأستردّ روعي...

- بالتأكيد! فليس هنالك أي داع للعجلة!...

ورافقها إلى الباب، بكل الرعاية والمجاملة التي تستحقهما سيدة متميزة. وعند العتبة، كانت لا تزال لديها القدرة على الابتسام. ولكنها، عندما أصبحت في الشارع، داهمتها أفكارها بعنف شديد، لدرجة أنها لم تعد ترى شيئاً حولها. لقد كانت قرارات القيصر تصدر في غير محلها، وفي وقت لا يتفق مع الطلبات والتوسلات التي توجه إليه. وكان يعلم جيداً أنه يرهق «صوفيا» عندما يمنحها الحرية بعد أن أصبحت في السابعة والخمسين من عمرها. فهل يمكن أن يرغم أحد ما على شرب كأس من الماء، لا يشعر برغبة شربه، بحجة أنه طلبه فيما مضى، عندما كان يموت عطشاً، في الصحراء؟ ومع ذلك، فهي تستطيع أن ترفض هذه الحظوة،

وربما رفضتها! تحت مغبّة الظهور بمظهر ناكرة الفضل والجميل. فالفضيحة لا تخفيها: «سأبقى، وسأقيم في منزلي الجديد. وسيأتي «فيرديناند وولف» إلى منزلي ليلعب «البلياردو» ويطالع، يفكر ويتأمل، ويرتاح من عناء العمل...»

وخرجت من القلعة، يحدوها الأمل ويعصف بها الغضب. وأول فكرة خطرت لها هي الذهاب إلى «آل فونغيزين» لتطلعهم على تفاصيل مقابلتها مع الحاكم.

كانوا ينتظرونها: «نتاليا» وزوجها، «بولين» و «إيفان أنانكوف»، «بيير سفيستتوف» و «يوري ألمازوف». ولكن «فيرديناند وولف» لم يكن هناك. كان قد استدعي على عجل لمعالجة أحد المرضى في إحدى القرى البعيدة. وهكذا يكون الأمر أفضل! فهي ستكون أكثر استعداداً وراحة في شرح الخيبة التي منيت بها. وفي الردهة الريفية ذات المفروشات وقطع الأثاث الضخمة والمسودة، وبجدرانها المطلية باللون البنفسجي، كان الجو يبعث على الكآبة والقلق. وبدافع من العادة، كان الحاضرون يتوقعون أخباراً سيئة، ويتهيئون لسماعها. وعندما أعلنت «صوفيا» عن الحظوة التي حصلت عليها، شعر الجميع بصدمة قوية وبفرح شديد، وتغيرت ملامح جميع الوجوه.

وصاحت «بولين»:

- يا عزيزتي، هذا أمر مفاجئ، وغير مؤمّل!

وكانت هذه إشارة لتظاهرة اتسمت بالفرحة والبهجة وحاولت «صوفيا» عبر الصيحات والنداءات المتضاربة التي دوختها، أن تؤكد لهم أنها لم تكن راضية ولا مسرورة بهذا الحل. فلم يصغوا لها، وأخذوا يباركون لها ويهنئونها ويعانقونها، ويبكون على كتفيها.

وقالت «نتاليا» بصوت مرتعش، وهي تجفف دموعها بمنديلها:

- حاملة البشرى السعيدة! حمامة سفينة نوح! نعم، أنت حمامة تلك السفينة!

في تلك اللحظة، حصل اضطراب في ذهن «صوفيا»، فقد رأت نفسها متورطة في سوء تفاهم مخيف: فهي لا تستطيع أن تخيب أمل جميع هؤلاء الناس الطيبين، فكما فعلت هي، كانوا قد طلبوا هم أيضاً وتوسلوا أن يسمح لهم بالعودة إلى روسيا. فبقبولها الحظوة الإمبراطورية، تخلق سابقة، يمكنهم، فيما بعد أن يطالبوا بها. وبرفضها، فهي تجازف بإغاظة القيصر، وبأن تنزع منه، إلى الأبد، الرغبة بمساعدتهم، وبأن يكون لطيفاً معهم. فأي وزن لأمورها البسيطة التي تفضلها، كامرأة وحيدة، إزاء آمال كل تلك الأسر الروسية الكبيرة، والمتعددة الأفراد، المبعدة عن أرض آبائها وأجدادها، وكل أولئك الأبناء والبنات، الذين ولدوا في المنفى، والذين لم يعودوا يستطيعون حتى إلى التطلع لحمل أسماء أسرهم؟!

وسألتها «بولين»:

- أسعيدة أنت؟

فتمتمت «صوفيا»:

- بالطبع، أنا سعيدة!

كانت تبتسم مرغمة، وجنتاها ملتهبتان، وفي حلقها غصّة.

وصاحت «نتاليا» وهي تضم يديها، وكأنها تصلي:

- آه! كم أغبطك! سوف تبدين في العالم الحر، وكأنك بعثت إلى الحياة، بعد موتك! وسترويين أخبارنا إلى جميع أصدقائنا! وللمرة الأولى، سوف يستطيع أحد جماعتنا أن يروي قصة معيشتنا على حقيقتها، وكيف كانت حياتنا هنا!

وقالت «بولين»، متأوهة:

- لقد انتشرت كثير من الأكاذيب عنا وعن أوضاعنا!

فهي لا تستطيع، دون شك، أن تنسى تلك الرواية الشنيعة التي كتبها «أليكسندر دوماس» تحت عنوان: «مدرب استعمال السلاح» والتي نشرت في باريس، ووصلت نسخ منها إلى «توبولسك». وقد رويت فيها قصة مغامرتها مع «إيفان أنانكوف» بصورة معيبة. والكاتب الذي لا يعرف أحد من أين استقى معلوماته، صورها كفتاة فرنسية متحررة، هامت حباً بمدرب المبارزة بالسيوف، ثم أخذت تبيع مفاتنها إلى شاب روسي ثري، ومن الطبقة الأرستقراطية، ولكنه فاسد ومنحرف الأخلاق. ولذلك فإن الكاتب كان يستحق أن يلقن درساً. ولكن كيف؟ فهو يقيم في الطرف الآخر من العالم. وكيف يمكن إرسال الرسائل من سيبيريا إلى فرنسا؟

واستأنفت «بولين» الكلام:

- سوف تصويبن آراء الناس الذين حصلوا على معلومات خاطئة، وتهيئين الأذهان لفكرة عودتنا جميعاً!

فسألها «يوري ألمازوف»، وتعابير وجهه تنم عن لهفة تثير الشفقة:

- أتعتقدين حقاً، إننا نحن أيضاً، نستطيع العودة؟

- لم أكن أعتقد ذلك قبل هذه اللحظة! ولكن، بما أن القيصر قد سمح لصديقتنا بالعودة، فنحن نستطيع أن نأمل ذلك! فهي تفتح الطريق لعودة الآخرين!...

كان هذا الكلام يزيد من خضوع «صوفيا» التي كانت تفكر، وتقول في سرها: «ها قد أصبح الآن، يستحيل عليّ التراجع، إنهم كلهم يدفعونني سوية، من ظهري، لم يعد هنالك منزل صغير، ولا قاعة «بليياردو»... يجب عليّ أن أسافر وأن أبدو مسرورة. مسرورة بفرحتهم، لأني، أنا، لا أشعر بأية فرحة بأكثر من أني لا أشعر بالحرية في الوقت الذي منحني إياها القيصر».

وقال «إيفان أنانكوف» بلهجة الحالم:

- من يدري فيما إذا كنا لن نلتقي جميعاً في روسيا، بعد سنتين، أو ثلاث سنوات؟

فصاحت «نتاليا أليكسندروفتيش»! سيكون ذلك أجمل من أن يتحقق! وإني لأخشى، فيما إذا فكرت بذلك، أن أجعل الله يسأم مني، ويحرمني من عطفه ورعايته! امرأة تسافر إلى روسيا! اشرحوا لي كيف يحصل هذا!

وأمسكت بيد «صوفيا» وضغطت بها على خدها:

- لكم أودّ أن أكون في رأسك يا عزيزتي! وأن أعرف ماذا يحصل فيه!...

فقالت «صوفيا» وهي تتخلّص منها بلطف وهدوء:

- يمكن، عند ذلك، أن تصابي بخيبة أمل شديدة!

وقال «يوري ألمازوف» متذمراً:

- أنا سعيد لأنك حصلت على حق العودة إلى روسيا، وتعيس لأنك ستغادرين «توبولسك» وتتركيننا، فهي من دونك ستصبح موحشة!

فقال «بيير سفيستتوف»:

- وماذا في ذلك، إذا كنا جميعنا سنرحل من هنا عما قريب؟!

وبالطبع، كانوا يؤكدون ذلك فيما بينهم للتخفيف من الحزن الذي يسببه الفراق. وشعرت «صوفيا» بأن غياب «فيرديناند وولف» هو بمثابة نقص في الهواء وفي الضياء. وفتح الباب الذي يفصل الصالون عن غرفة الطعام، على مصراعيه، فبدت منه مائدة عامرة، يتربع «السماور» في وسطها. فأنعش الهمم هذا المنظر. وجذبت «نتاليا» «صوفيا» من ذراعها لكي تجعلها تتبعها. واحتست السيدات الشاي، بينما احتسى الرجال نبيذ «مادير». كان الجميع يتبادلون الابتسامات، وعيونهم مغرورقة بالدموع، كما يحصل في المأدبة التي تقام في المأتم، بعد الجنازة. وعند الساعة السادسة، أدعت «صوفيا» وقد أنهكتها شدة التأثر والانفعال، أنّ لديها درساً، لكي تعود إلى البيت.

***

وفي صباح اليوم التالي، استيقظت باكراً جداً، دون أن تكون قد نامت، تقريباً، ارتدت ملابسها، شربت كأساً من الشاي، وجلست، لأنها لم يكن لديها أي عمل، أمام النافذة، وأخذت تصغي للضجة التي تحدثها «دونياشا» وهي تعمل في المطبخ، واستغرقت في التفكير برحلتها المقبلة وهي شاردة النظرات، ولأنّ هذا الحل لا يمكن تجنّبه فأخذت تحاول تقبله. ولم تكن قد استطاعت أبداً العودة لزيارة قبر زوجها، في «ميرتفي كولتوك» ولم تتمكن من الحصول على إذن بأن تنقل رفاته من هناك إلى أي مكان آخر. فهو سيبقى أذن هناك، إلى الأبد، بالقرب من ضفة بحيرة «بايكال». ولكنها، ستجد في «كشتوفكا» أفضل من صليب فوق مرتفع صغير من الأرض: ستجد هناك روح «نيقولا» منتشرة في جو المنزل والبراري. ثم، سيكون هنالك أيضاً «سيرج» الذي لا تعرفه الآن، والذي ربما شكل لقاؤها به فاتحة لعهد جديد من البهجة والمرح في حياتها الرتيبة. «سيرج» الذي لا يمكن أن يكون لا مبالياً، بارد القلب حيالها لأنه يحمل في قلبه دم «نيقولا». «سيرج» الذي أحبته، وهو طفل، كما لو أنه كان ابنها!... ولكي تتأكد وتطمئن بشأن الفرصة التي ستتاح لها، أخذت تستعيد ذكرى البيت القديم، بأعمدته البيضاء، الممشى الذي تحيط به أشجار الصنوبر الخضراء، والمقعد الريفي الطويل. والمستنقع الصغير، هناك، والقرى البائسة المجاورة. وكم من الأموات الذين رحلوا، فامتزجوا وتساووا مع أوراق تلك الأشجار، والأراضي المحروثة، ومرايا المياه الصافية! وهناك في هذه الأماكن، تخيم المرارة العذبة التي خلفتها الأيام السعيدة التي ولّت. نعم، ستكون بخير هناك، وهي تعيش بين ذكريات «نيقولا» و «ماري»، بل و «ميشيل بوريسوفيتش» أيضاً. وستعيد وصل خيط مصيرها، بعد انقطاعه، بصورة مأساوية، في سيبيريا. كانت بعض دفاتر التلاميذ تنتظر، ملقاة على المنضدة، فتصفحت أحدها، واستعرضت جملاً طفولية، وفجأة توقفت،

فقد قفزت إلى ذهنها فكرة: لا بدّ أنّ «فردیناند وولف» قد علم أنها تلقّت الإذن بالسفر، وإذا كان لم يأتِ ليحدثها عن ذلك صباح اليوم، فذلك لأنه دون شك مشغول بمرضاه. فقررت أن تذهب لمقابلته. وكثيراً ما كانت تزوره: لمناقشة بعض الأمور الأقل أهمية من موضوع سفرها.

وعشر دقائق يمضيانها في التحدث، بين موعدين، من مواعيده مع مرضاه، كانت تكفي لإضفاء النور والبهجة على أيامها. والدرس الذي موعده الساعة الحادية عشرة؟ تباً له، سترسل «دونياشا» لإبلاغ «تاتيانا» وولدي «سوما توخوف» بألاّ يحضروا من أجل الدرس. وبسرعة، ارتدت ملابسها المناسبة للخروج، رتبت شعرها، وانتعلت حذاءً مبطناً باللباد. كان يقيم في الطرف الآخر من الحي الأوربي، فحثت «صوفيا» الخطى، ومشت بسرعة، خوفاً من أن تصل متأخرة. وعندما وصلت إلى باب منزل الدكتور: لم تعد ساقاها تحملانها، وشعرت بأن قلبها يخفق في فمها.

وكان هنالك خادمة، ملتفة بكثير من الوشاحات والقمصان والتنانير بحيث إنها بدت لها وكأنها كرة من الخرق. أدخلتها هذه الخادمة إلى غرفة صغيرة، حيث كان يجلس خمسة أشخاص، متلاصقين، جنباً إلى جنب، على كراسٍ مصفوفة بجانب الجدار. وهم من الفلاحين البائسين. وكان الحزن بادياً على وجوههم، يتألمون وهم صامتون، وفي أعينهم نظرة تنم عن الخضوع الذليل كتلك التي تبدو في عيون الحيوانات الأهلية. وخلف الباب، كان «فيردیناند وولف» يتكلم وهو يضغط على كلماته، لكي يفهمها أي شخص بسيط. وهذا الصوت بلا وجه أثر في «صوفيا»، كما لو أنها وهي تسمعه، قد اكتشفت سراً، بشكل مفاجئ. وفتح الباب فجأة، فبدا «فيردیناند وولف» وهو يرافق عجوزاً تطبق على كيس نقودها يداً نحيلة وصفراء، كرجل الدجاجة.

وعندما لمح «صوفيا» ابتسم، وهمس بالفرنسية:

- أوه! أنت أتيت؟!... الحقيقة، إني كنت أنوي أن أذهب لأراك بعد الانتهاء من فحص مرضاي!..هيا، ادخلي بسرعة!...

فدخلت إلى مكتب صغير، يغصّ بالكتب والقوارير. وأمسكت بخناقها رائحة «الفينول»: «حمض الكربوليك». المحبرة كانت جمجمة من الجص. وكان هنالك سلة ملأى بالشاش والقطن وبقايا الضمادات الملوثة بالدم الغامق اللون. وفي بعض الأماكن كان الورق ينفكّ عن الجدران. وكان هنالك حاجز واقٍ يخفي جانباً من سرير صغير. بدا لها جو الغرفة بارداً، وكأنها غرفة طالب فقير، تقدمت به السن، مهمل، ليس لديه نقود ولا امرأة.

وبينما كانت «صوفيا» تجلس على أحد الكراسي المخصصة للمرضى، شمرّ «فيرديناند وولف» عن ساعديه، سكب ماء في طشت صغير وغسل يديه. ثم قال:

- لقد أطلعتني «بولين» على الخبر المهم، فلا بدّ أنك مسرورة جداً!

كان وجهه المتجهم، بتجاعيده المحزنة ونظرته المتعبة، كل هذا كان يكذب اللهجة الحماسية والمرحة التي تكلم بها، ويتعارض معها. ونشف يديه بمنشفة حواشيها حمراء، بينما كانت «صوفيا» تشعر بالانزعاج، فجأة لتواجدها أمامه، كزائرة. فماذا سيتصور؟ واضطرت إلى التزام الهدوء، وقالت:

- بالتأكيد، أنا مسرورة! وحزينة في آن واحد! فأنا تحزنني مغادرة «توبولسك»، ومفارقة مجموعتنا الأخوية، البالغة اللطف والمودة! ولكن لا يمكن رفض الحرية!

فغمغم:

- نعم، نعم، هذا صحيح.

واستغرقا، وهما متقابلان، في صمت عميق. وبعد برهة،

قال، مستأنفاً كلامه، بلهجة أكثر ثباتاً وحزماً:

- وعلاوة على ذلك، فأنك إذا رفضت حظوة الإمبراطور وعفوه، فلن يتركوك، عند ذلك، في «توبولسك» فليس من عادة القيصر أن يتلقى إهانة من هذا النوع، دون أن يردّ عليها في الحال. ولكي يعاقبك على عدم استجابتك لبادرة حلمه، فسوف يوعز بأن يُخصص لك مكان آخر لإقامتك، في إحدى القرى النائية، الضائعة هناك، فيما وراء بحيرة «البايكال»!...

لم تكن قد فكرت بذلك، ولم يخطر على بالها، فهو مبرر آخر للسفر. وبدا لها أن كل شيء يتحالف ضدها. وألقى «فيرديناند وولف» المنشفة المدعوكة، جانباً، وجلس وراء المنضدة. وأضاف، قائلاً:

- هكذا أفضل، لو أنك ستبقين، لما كنت أوتيت الشجاعة على الاستمرار في الصمت. وما كان يمكن أن أقوله لك، ربما خرب كل شيء بيننا..

فتمتمت:

- إني لا افهم ماذا تعني يا «فيردیناند بوغدا نوفيتش». ولكن الحقيقة هي أنها فهمت جيداً، ماذا يعني بكلامه، لدرجة أنها شعرت بصعوبة في التنفس.

فأضاف:

- نعم، يا «صوفيا»، ولتكن لدينا الشجاعة لمواجهة الأمور بصراحة: لا بد أنك كنت سترفضين. وأصبح أنا تعيساً جداً...

بينما الآن، وهكذا كما ترين، نحن أصدقاء، بل صديقين ودودين ومخلصين، كما كنا فيما مضى..

فوافقت بارتعاشة من جفونها. ومرت الثواني ببطء. كانا يحدقان خلالها ببعضهما بقوة، وكل منهما يغرف من عيني الآخر، مبرراً للحب وللألم. أخيراً، تمتمت «صوفيا»:

- عندما أفكر بالمنزل الذي اشتريته، والذي كنت أتحرق شوقاً للإقامة فيه!..

فقال لها:

- لن تجدي صعوبة في بيعه.

- لن أبيعه، لأن ما وضعته فيه من روحي وقلبي أكثر وأغلى من أن أتركه لأناس أجهلهم. وبالإضافة إلى ذلك، فلست بحاجة لنقود. وقد فكرت...

وترددت قليلاً، ثم قالت بهدوء:

- لقد فكرت بأنه لا يوجد مستوصف في «توبولسك»، وأن هذا المنزل يمكن أن يكون مفيداً جداً لك لاستقبال مرضاك...

فبدرت منه حركة تنم عن الدهشة، وأخذ يتأملها بمزيد من الانتباه عبر عدستي نظارته، وهذا الوضع جعله يبدو كشيخ تقدمت به السنّ كثيراً. وقال:

- إذا كان ذلك من أجل مرضاي، فأنا موافق. أنت طيبة جداً..

فأحنت جبينها. فهي لا تفعل ذلك بدافع من طيبة القلب ولم تفكر بالمرضى وهي تهدي منزلها لـ «فيرديناند وولف»، وكل ما هنالك أنه كان يحلو لها أن تعرف أنه بشكل أو بآخر، يعيش في بيتها، وأنها يمكنها أن تتصوره هكذا، على الدوام، ومن بعيد.

كان يداعب بأصابعه المبقّعة بالحموض، ريشة إوزة. وقد فقدت سترته أحد أزرارها. وبعد قليل، سيتناول طعامه على عجل، على جانب من المنضدة، بين رأس الميت والكتب.

وسعل أحدهم وراء الباب. فتذكرت «صوفيا» المرضى الذين ينتظرون. ولأنها لم يعد لديها ما تقوله، نهضت.

فسألها:

- هل ستحضرين مساء اليوم إلى منزل «آل أنانكوف»؟

- نعم، بالطبع.

وعندما انحنى ليقبل يدها، لمحت بشرة جمجمته، بين شعره الذي أصبح قليل الكثافة، وهذه العلامة التي تدل على تقهقر وضعف الحالة البدنية، جعلتها تضطرب، وفي الوقت نفسه، زادتها تأكداً من أن زواجهما، بعد أن تقدمت بهما السن، يمكن أن يبدو مثيراً للسخرية وباعثا على الحزن والأسى. وحجبت بصرها غشاوة من الدموع، فخرجت مسرعة دون أن تلتفت إلى الوراء.

٤

كانت الطرقات سالكة بصعوبة أثناء ذوبان الثلوج، فقررت «صوفيا» أن تؤجل سفرها إلى آخر شهر أيار «مايس». فهكذا، سوف تستطيع، على الأقل، أن تمضي فترة عيد الفصح، في «توبولسك» مع أصدقائها. وكما يفعلون كل سنة، فهم يزدرون بأبهة الطقوس التي تبدو في الكاتدرائية، ويصغون لقداس منتصف الليل، في كنيسة السجن الصغيرة. التي يغص جناحها بالمساجين المقيدين بالسلاسل. وفي لحظة الجثو والسجود، تختلط قعقعة السلاسل مع أناشيد المنشدين والمرتلين. وعندما يعلن الكاهن قيام السيد المسيح، تتعالى وتقوى فجأة القعقعة، وتتأرجح من اليسار إلى اليمين، جميع الرؤوس القبيحة والحليقة، في عناقٍ أخوي: وهكذا، يتعانق القتلة، اللصوص والمزورون، عبر ضوء الشموع الخافت، ودخان البخور: وهكذا يحتفل معذبو الجحيم، بالآمال ويمجدونها.

وعند خروج «صوفيا» ورفاقها من الكنيسة يمرون بين صفين من المساجين الذين يحملون البيض المسلوق الملون بأيديهم لكي يبيعوا هذه الهدايا الصغيرة التي قدمتها لهم إدارة السجن، لمن يرغب بشرائها وقد هيّأ «آل فونفيزين» حفل عشاء. حيث احتسى الجميع، مع المقبلات الشمبانيا والفودكا. وتناولوا بعد ذلك لحم الخنّوص «الخنزير الرضيع» التقليدي مع الخردل. وكان ستة من الخدم يقومون بخدمة مائدتين، إحداهما للأشخاص الكبار، والثانية للأولاد الصغار، الذين اجتمعوا كلهم في «توبولسك» لقضاء عطلة عيد الفصح. وكان الأولاد، الذين كان يعاملهم

رفاقهم في المدرسة على أنهم «أبناء المساجين»، يبدون هادئين، وقد ارتدوا ملابس العيد، وأخذوا يتحدثون فيما بينهم ويروون بعض الحوادث المدرسية، بصوت خافت، ولكن بمثل الحماس الذي كان يناقش به ذووهم مشكلات السياسة الأوربية. وعند تناول الحلوى، جرى تبادل الأنخاب، وأخذ البعض يغنون. وكانت «صوفيا» تنظر، من الجانب الآخر من المائدة إلى «فيرديناند وولف» الذي كان يبتسم بحزن وأسى، وهو يرفع كأسه. وشرب الجميع نخب «صوفيا» متمنين لها رحلة سعيدة. وردت عليهم بأنها ليست مستعجلة بالسفر. وانتهت السهرة في الساعة الرابعة صباحاً.

وفي اليوم التالي، استدعى الحاكم «أنجيلك» «صوفيا» إلى مكتبه، وقال لها:

- لقد علمت، بدهشة كبيرة، أنك أكدت، خلال حفل عشاء لدى «آل فونفيزين»، عدم استطاعتك تحديد موعد سفرك.

فشحب وجه «صوفيا». من هو الذي نقل ذلك الكلام للحاكم؟

أحد الخدم، هو الذي فعل ذلك، دون شك.

فقالت له:

- هذا صحيح.

- وهو أمر يؤسف له! فإذا تأخرت بالسفر، فإن صاحب الجلالة يمكن أن يستاء من عدم إسراعك للاستفادة من الحظوة التي منحك إياها. ولأنك ترددين، فسأحسم الأمر، نيابة عنك: وعليك أن تغادري «توبولسك»، في الثاني عشر من شهر أيار «مايس»، المقبل.

فعصفت في قلب «صوفيا» موجة من البرد، وتمتمت:

- هذا... هذا غير ممكن!

- ولماذا؟

- لن أكون مستعدة أبداً للسفر آنذاك!

- بلى! سيكون لديك مزيد من الوقت لترتيب أمورك، وتحضير حقائبك. وسيرافقك دركي، في رحلتك.

فشعرت بانتفاضة تسري في جسمها:

- ولماذا يجب أن يرافقني دركي؟ فأنا لست مجرمة!

- ليس هنالك من هو متأكد من هذا أكثر مني، يا سيدتي، ولكن النظام صريح وحاسم. فلا يمكن أن تسافري بمفردك، لأنك استدعيت من المنفى، شريطة أن تقيمي بشكل دائم، في ملكيتك أي في «كشتنوفكا». والدركي المرافق عليه أن يصطحبك من هنا إلى المكان الجديد الذي ستستقرين فيه. وأن يحصل، بعد ذلك على وثيقة، تزيل عنه المسؤولية، من الحاكم العام لمقاطعة «بسكوف» الذي سيؤول إليه في المستقبل أمر مراقبتك.

- إنها لغريبة هذه الحرية التي تمنح لي هكذا!

- بشأن الحرية، كما بشأن كل شيء، لا بد من اللجوء إلى التعلم، قال ذلك «أنجيلك» وعلى شفتيه ابتسامة ذات مغزى، وأضاف: نحن نقود خطواتك الأولى، قبل أن ندعك تسرعين السير، كما يحلو لك. فهل هنالك أمر طبيعي أكثر من ذلك؟

وسأوعز بتنظيم جواز سفرك، ورخصة مرورك. وسيكونان تحت تصرفك، منذ الغد.

وغادرت مكتبه، مستاءة، تشعر بالغيظ وبالتعاسة، كما لو أنه، ببضع كلمات، قد قرب لها موعد استحقاق دين، عليها أن تدفعه، بينما كانت تراه بعيداً.

ويوم الأحد التالي، أقام «آل أنانكوف» حفلا راقصاً للشباب. كانت ابنتهم الكبرى «أولغا» جميلة جداً. وأخذ مهندس في مصلحة المناجم، وملازم في فوج الخيالة، يراقصانها، كل منهما بدوره، وعلى التوالي.

وأخذت السيدات، وهن ينظرن إليهم يطلقن التكهنات عن مشروع للخطبة. وكانت الفرقة الموسيقية مؤلفة من سجناء سابقين. وقد تنازل الحاكم «أنجيلك» فقبل الدعوة لحضور هذا الحفل، واعتبر حضوره بمثابة فوز ونجاح لمتمردي «كانون الأول». كان يجلس بالقرب من المائدة، بجانب صاحبي المنزل. أما «فيرديناند وولف»، من جهته، فلم يستطع الحضور، لأنه استدعي، في آخر لحظة، لمعالجة مريض في حي التتار البعيد. لذلك كانت «صوفيا» تشعر بالوحدة. وكان صخب الموسيقا يصم أذنيها، وتدهشها المتعة التي تشعر بها الفتيات، وهن يدرن ويصبن بالدوخة والدوار، بين سواعد الشبان الذين يراقصونهن. كانت نظراتها الشاردة تجول بين ذلك الحشد وتتوقف في جولتها، عند فستان وردي أو أزرق، عند يدٍ في قفاز أنيق، أو عند عينين تشعان بهجة وحبوراً، عند شريطة خضراء في شعر أشقر، أو عند قلادة جميلة على بشرة ناصعة البياض. وكل هذا كان يبدو لها وكأنه ينتمي إلى عالم عبثي، وغير معقول، ولكنه سعيد، ومبررات العيش فيه مختلفة تماماً، عن مبررات العيش لديها. وعند منتصف الليل، وكانت تهم بالانصراف، دخل «فيرديناند وولف» وأخذ يلقي النظرات حوله، وهو بادي القلق. فأدركت أنه يبحث عنها، وشعرت بالارتياح. وعندما لمحها انفرجت أسارير وجهه، واتجه نحوها، متجنباً الثقلاء والمزعجين الذين حاولوا احتجازه. لم يكن قد تحدث إليها ثانية عن عواطفه، بعد الحديث الذي دار بينهما في مكتبه. ولكن «صوفيا» كان لديها انطباع بأن امتناعهما عن إبداء أية إشارة إلى ما كان يمكن أن يحصل، يزيد كل منهما من شدة وخطورة الاضطراب الذي يعاني منه، والذي يود إخفاءه وكتمانه.

وعندما أصبح أمامها، أخذ يحدثها عن أمور بسيطة، لا أهمية لها، ثم، تحول حديثهما، بطبيعة الحال إلى مناقشة عمليات الإصلاح التي كان

العمل فيها مستمراً في البيت الصغير والقاعة الكائنة في الطابق الأول، حولت إلى مهجع، سيوضع فيه ستة أسرة. وكانت «صوفيا» تأسف قليلاً بسبب ذلك. فهي كانت تود أن تستطيع تصور «فيرديناند وولف» وهو يلعب «البلياردو» مع بعض أصدقائه، في المساء، بعد الانتهاء من عمله ومن زياراته للمرضى. وبالنسبة لباقي الأمور، فقد كانت مسرورة بها وراضية عن القرار الذي اتخذته. وفي كل يوم كانت تذهب لكي تتفقد ورشة العمل، كما لو أنها كانت، شخصياً، معنية ومهتمة جداً بنجاح العمل في هذا المشروع.

وكل شيء كان يجب أن ينتهي بتاريخ ١٥ حزيران «يونيو»، ولن تكون موجودة عند تدشين المستوصف.

ولذلك قال «فيرديناند وولف»:

- إن في هذا، من الظلم أكثر مما ينبغي! يجب أن أتكلم مع الحاكم بشأن ذلك، وأنا متأكد أني إذا شرحت له ظروفنا ومبررات طلبنا، فإنه سيمنحنا مهلة شهر!

وعلى الرغم من احتجاج «صوفيا» واعتراضها على مسعاه، فقد ذهب لمقابلة الحاكم الذي كان يدخن «السيجار» ويحيط به بعض السادة المجاملين. فاستجاب الحاكم لدعوته، ورافقه وهو يمشي متثاقلاً على ساقيه القصيرتين، وبطنه بارز إلى الأمام، والابتسامة على شفتيه. ولكنه، في حضور «صوفيا»، بدا متصلباً جداً، كما كان عندما قابلته. وقال:

- عليكما أن تثقا بخبرتي الطويلة وأن تعتمدا عليها: فعندما يتخذ قرار ما، فإن تأخير تنفيذه يزيد من فرص المتاعب والمعاناة منه وبسببه. وعلاوة على ذلك، فأنا لم أعد أستطيع تغيير أي شيء. فقد أبلغت التاريخ المحدد للسفر، إلى العاصمة. وهنالك الآن، من ينتظر وصولك إلى روسيا، يا سيدتي!

وانحنى قليلاً، وأدار ظهره، تاركاً «صوفيا» و «فيرديناند وولف» واقفين وحدهما، ومتقابلين. وكانت الموسيقا تصدح بلحن «الفالس». وأزواج

الراقصين والراقصات، يدورون بخفة ورشاقة، حول أنفسهم، تحت الأضواء الخافتة التي ترسلها الشموع غير المتساوية في أطوالها، وقد خلا بالهم من الهموم، وغمرتهم البهجة والسعادة. وأتى تيار هواء من نافذة مواربة. فخرج «فيرديناند وولف» و «صوفيا» ووقفا على درج المدخل. فغمرتهما برودة تلك الليلة الربيعية.

وقالت «صوفيا»:

- لم يعد هنالك سوى ثمانية أيام!

فغمغم «فيرديناند وولف» وقد انتابه غيظ مفاجئ:

- «أنجيلك» معه الحق، ومصيب فيما قاله: ومن الأفضل أن تسافري غداً!

ومرت ضحكات الراقصين خلف ظهريهما. و «صوفيا» التي وجهت نظرها نحو السماء، كان لديها إحساس بأنها تسقط في الفراغ. وأتت «بولين» لتستدعي الطبيب، لأن إحدى الفتيات قد التوت قدمها وهي ترقص.

٥

ويوم الثاني عشر من أيار «مايو»، قرع دركي، عند الفجر. باب منزل «صوفيا»، وهو شاب لم يتجاوز الثلاثين من العمر، طويل القامة، قوي البنية، لوحت وجهه الشمس، وشاربه الأسود مشعث الشعر. قال لها بأنه يدعى «دوبروليوبوف» وأن لديه أمراً بمرافقة السيدة «أوزاريف»، حتى نهاية رحلتها. ومراعاة لها فقد أوصى الحاكم بأن تخصص لهما عربتان: فاستقلت الأولى بمفردها واستقل حارسها العربة الثانية. وخطة السير التي حددتها السلطات أوضحت أن مسافة تقرب من ألف «فيرست»، سيقطعها المسافران في البر، من «توبولسك» إلى «بيرم». وهناك، سيكون على «صوفيا» ومرافقها أن يستقلا زورقاً، سيسير في مجرى نهر «الكاما»، ثم يتجه صعوداً في نهر «الفولغا»، لكي يوصلهما، في أسبوع إلى مدينة: «نيجني - نوفغورود». ولن يكون عليهما بعد ذلك، سوى استئناف السير براً، من محطة استراحة إلى محطة أخرى، لكي يصلا إلى «سان بطرسبورغ»، ومنها إلى «كشتوفكا» في مقاطعة «بيسكوف». وهكذا فإن الرحلة كلها سوف تستغرق مدة تقرب من الشهر! وقد سبق لـ «صوفيا» أن قامت بهذه الرحلة ذهاباً، واستغرق قيامها بها أكثر من شهر، يوم ذهبت لتلتحق بـ «نيقولا» في «تشيتا»، ولكنها، في تلك الفترة، كانت لا تزال شابة، تحدوها آمال كبار ومثيرة، وتنبض كل جوارحها إخلاصاً لقضية عظيمة. أما اليوم، فهي تسافر، دون حماسة أو اندفاع، نحو ما لا تدري بماذا أو بمن ستلتقي. فما تركته هنا أهم بكثير مما ستجده هناك! وودعت «دونياشا» التي أجهشت بالبكاء، كما ودعت بعض جيرانها،

ودهشت لأن أياً من أصدقائها لم يأت ليعانقها قبل رحيلها. حقاً، لقد أقاموا لها بالأمس حفلة على شرفها، وتكريماً لها، لدى «آل فونفيزين»، وشرب الحاضرون وبكوا، وغنوا، ولكنها اعتقدت أنها سترى، مرة أخرى، هؤلاء الأصدقاء، صباح اليوم. وانزعجت لظنها أن محبتهم لها قد زالت وعندما وصلت بالقرب من مزرعة «بود - تشوفاشي» بدا لها تفسير السر الخفي: كانوا جميعاً مجتمعين عند ضفة النهر، قرب الزورق الذي ستستقله لكي تعبر نهر «الايريتش». حتى أن اثنين من تلاميذها، تكبدا مشقة الحضور: الصغيرة «تاتيانا» وأحد أبناء «سوما توحوف». وتسامح الدركي، فوافق على أن تتبادل مع أصدقائها عبارات الوداع، والتوصيات والقبلات الأخيرة.

ولم يأت «فيرديناند ولف». ولكن خادمته العجوز كانت هناك، وسلمت «صوفيا» ورقة مطوية أربع طيات، ومختومة بالشمع الأسود، فدستها «صوفيا» في جيبها. كانت السماء الزرقاء والصافية، إلا من بعض السحب البيضاء، تطل من الأعالي على أسطحة منازل المدينة البعيدة. ومياه النهر تجرف قطع الجليد الصغيرة. وعلى ضفتي النهر الإسفنجيتين، أخذت تنبت وتنتصب الحشائش الغضة الخضراء.

وقال الدركي:

- سيدة «أوزاريف»، أرجوك، فصاحب الزورق ينتظرنا!

فتمتمت «صوفيا»:

- دقيقة، دقيقة أخرى، فقط!

واندفعت «نتاليا» نحوها، كالظمآن نحو الماء، وضمتها بعنف، وربتت على ظهرها، بللتها بالدموع، وغطتها بإشارات الصليب ثم انتقلت «صوفيا» إلى ما بين ذراعي «بولين» و «ماشا فرانتزيف»، و «أولغا أنانكوف» وكل منهن كانت تهمس لها في أذنها عبارات الوداع العذبة، وبدا الرجال حيالها شديدي التأثر أيضاً، ولكنهم كانوا أقل ثرثرة من النساء، و «يوري

المازوف» الذي يدعي أنه ما زال «مغرماً ومعذباً» ساعدها في الصعود إلى العربة، وقبل يديها الاثنتين، وهو يتمتم:

- شبابي، إنه شبابي الذي يرحل!

وكانت في عجلة من أمرها لتبتعد، كي تستطيع قراءة رسالة «فيرديناند وولف». وأخيراً، ابتعد الزورق الذي يقلّ العربتين، عن الضفة. فأخذ الشق بين الماضي والحاضر، يزداد اتساعاً، تحت نظرات «صوفيا». ورفاق الأمس، الباقون في المنفى، لم يعودوا، منذ الآن سوى ذكريات. وظلت تلوح بمنديلها، حتى اللحظة التي نزلت فيها العربتان على ضفة النهر الأخرى. عند ذلك، انطلقت الأحصنة على الطريق، بعد أن ظلت محتجزة لبعض الوقت.

ففتحت «صوفيا» رسالة «فيرديناند وولف»، وقرأت، رغم ارتجاج العربة:

«صديقتي العزيزة واللطيفة»

«إني لن أنسى أبداً، ماذا كنت بالنسبة لي. وإذا تابعت العمل، والعيش، فسيكون ذلك لكي أبدو جديراً بثقتك. اعذريني لأني لم أحضر، صباح اليوم ربما ما كنت سأستطيع تحمل فضول أصدقائنا الذي يتسم بالشفقة. ماذا سيحصل لك بعيداً عني؟ فليحفظك الله، يا «صوفيا»! سأصلي دائماً من أجلك. إني بائس جداً. فقد حصل فجأة فراغ كبير في حياتي! أستودعك الله، وداعاً، يا «صوفيا»!

«فيرديناند وولف»

فأحنت رأسها، وأخذ الحزن ينتابها متزايداً بسرعة، فغمرها وأخذ بخناقها. ثم، وبعملية غريبة، امتزج شعور بالسعادة مع يأسها. فاستسلمت لهذا الشعور الحلو المر، إلى تلك الطمأنينة التي تتسم بالكآبة كذلك الشعور الذي يوحي به أحياناً فضاء واسع أجرد.

★★★

كانت «صوفيا» وهي تسير في الاتجاه المعاكس على الطريق الذي سارت عليه قبل ثلاث وعشرين سنة، تتذكر ببالغ التأثر بعض مراحل رحلتها الأولى. ولكن، آنذاك كان رفيقها هو «نيكيتا» الذي كان شبابه ينير الدنيا، وليس هذا الثقيل، هذا الدركي عديم الجدوى، المتدثر ببزة زرقاء. كان «دوبروليوبوفّ»، قليل الكلام، ولكنه يتمتع بشهية شديدة للطعام. كان يملأ بطنه في محطات الاستراحة، ويهضم في العربة كل ما يأكله. وهذا لم يكن يمنعه، من أن يراقب بعينين صغيرتين كعيني صغار الخنازير، أبسط تحركات «صوفيا» أثناء تبديل الأحصنة في مراكز البريد. فهل كان يخشى أن يراها تهرب سيراً على الأقدام في تلك السهوب الواسعة، أو أن تندس في عربة مسافر آخر؟ وقد لامته، ذات يوم، لكونه يعاملها كسجينة في حين أنها قد أصبحت امرأة حرة. فأجابها دون أن ينفعل أو يغضب:

- أنت لستِ حرة ولا سجينة، أنت سجينة حرة. فبدت هذه العبارة لـ «صوفيا»، تمثل الانعكاس، التفسير الصحيح للواقع الروسي. وشرح لها «دوبروليوبوف» أيضاً بأن مركزه في سلك الدرك، يتوقف على الدقة وعلى الطريقة الصحيحة التي ينفذ بهما مهمته:

- أنت تعتبرينني حارساً، ولكني، أنا، تحت رحمتك، يا سيدتي.

فلو حدث لك أيّ شيء، فإن رؤسائي لن يغفروا لي ذلك. ولهذا، فإني أرجوك أن تساعديني في هذه القضية. فإذا سار كل شيء كما ينبغي، فسنكون، أنت وأنا، راضين تماماً..

فسألته:

- أهذه هي أول رحلة تقوم بها إلى «سان بطرسبورغ»؟

- إنها الرحلة السابعة عشرة.

- ودائماً كمرافق لأحد الأشخاص؟

- كلا، كنت أحمل، في بعض الرحلات الأخرى، بريداً يتضمن رسائل رسمية، برقيات وبيانات وتقارير للوزراء!

قال ذلك وقد بدا مزهواً بهذا العمل. وأضاف:

ولكن تلك الرحلات كانت مملّة وأقل ظرفاً، لأني أكون وحيداً لا يرافقني أحد!

ومع اقترابهما من جبال «الأورال» أخذ يزول البرود الذي كان يتصف به الدركي، بل وبدأ يبدي بعض الظرف والملاطفات. وكانت «صوفيا» تجده أصغر سناً من أن يصلح ليكون حارساً لها. ولقلة الأحصنة، كان عليهما أن يمضيا ليلة في «ايكاتيرانبورج»، على مقاعد مركز الاستراحة. وفي الصباح، عند تناول الشاي في القاعة العامة غمغم «دوبروليوبوف» بلهجة تنم عن الارتباك:

- إني أتساءل لماذا نسافر في عربتين!

فلم تفهم، في الحال، ماذا يقصد بذلك، وقالت:

- هكذا حسن جداً.

- حسن جداً، ولكنه يكلف غالياً!

فاغتاظت:

- وهل أنت الذي تدفع النفقات؟

- كلا، بالتأكيد، فالدولة هي التي تدفعها! وأنا أحمل المبلغ اللازم لتسديد كل المصاريف والنفقات. ولكني لو استطعت الاقتصاد فسيكون المبلغ الذي اقتصده بمثابة ربح لي. ورواتبنا، نحن رجال الدرك، زهيدة، ووالديّ متقدمان في السن، ولي أخت عاجزة. فهل يزعجك حقاً، ركوبي في عربتك؟ ولم نعد بعيدين كثيراً عن «بيرم»!

فظلت حائرة، برهة، ثم هزت كتفيها:

- لا مانع لدي، إذا كنت تريد ذلك!

فقال لها بلهجة تنم عن التأثر والسرور:

- إني أشكرك.

وفي الحال، طلب طعاماً مؤلفاً من لحم الخنزير والبيض المسلوق، وطلب قدحاً رابعاً من الشاي.

كانت عربة «صوفيا» فسيحة تماماً، بحيث يستطيع اثنان الركوب فيها مع أمتعتهما. وجلس «دوبروليوبوف»، قبالتها، على أكياس من القش، أحنى رأسه وبدأ يشخر. فلا بد من أن ذكريات الطعام كانت تعطر فمه. وكان شاربه يرتعش، متعة وسروراً. وأخذت «صوفيا»، تتأمله وهو نائم وتفكر بأصدقائها الذين فارقتهم والذين لن تراهم بعد الآن أبداً. وأخذ مصير متمردي كانون الأول يبدو لها أكثر غرابة، على البعد. ففي فترة شبابهم، كانوا يعتقدون أن مهمتهم هي النضال حتى الموت من أجل قناعاتهم ومعتقداتهم السياسية، وعندما تقدمت بهم السن، أخذوا يتخلّون عن بطولاتهم لكي يتفرغوا لاستصلاح الأراضي والعقول. وبفضلهم، فقد رأى سكان سيبيريا، العتاة، للمرة الأولى، بدهشة وذهول، أناساً يحبون قراءة الكتب وكتابة الرسائل. ويتحمسون للأفكار أكثر من تحمسهم للمال، أناساً لم يعد لديهم لا ثروة ولا وضع اجتماعي مرموق، ومع ذلك، فكان يستحيل على أحد أن ينكر تأثيرهم الفعال على مجاوريهم. فأين كانت القرية البائسة التي تنفي إليها الإدارة أحد هؤلاء المتمردين فيمكن أن يكون المرء واثقاً، أن هذا المتمرد سيكون مفيداً جداً: فهو سيؤسس مكتبة، وسيعلم الأطفال.

وتذكرت «صوفيا» بسرور فكرة مهندس مساح من سكان «كورجان»:

«إنه لأمر يؤسف له ألا يكون قد ألقي القبض على المزيد من المتمردين، سنة ١٨٢٥! فلو ازداد عددهم بضع مئات، من نوعهم هذا، لأصبحت سيبيريا

في طليعة البلدان المتحضرة! فابتسمت، وقالت في سرها إن الأجيال القادمة ربما اعتقدت أن مجد «متمردي كانون الأول» الحقيقي، ليس ناجماً عن كونهم، تمردوا وثاروا، ذات يوم، ضد القيصر، بل لأنهم كرسوا بقية حياتهم لمكافحة خمول وجهل أبناء وطنهم فرجل كـ «فيرديناند وولف»، مثلاً، هو ثوري قليل الأهمية، ولكن جميع الذين جاوروه وتعاملوا معه، مدينون له بما اكتسبوا منه من الفوائد المعنوية والأخلاقية. ومثله في ذلك أيضاً مثل: «بوشين»، «لونين» و «بوكجيو»... والوحيدون الذين انحطوا قليلاً، هم الذين تزوجوا بنساء وضعهن أدنى من وضعهم. تلك كانت حالة «بسارجين»، «أبولنسكي» و «كوهلبيكر»، الذين دفعهم الملل، الضعف، والشعور بالعزلة والوحدة، إلى الزواج بقرويات أو بمربيات أطفال.

وكان هنالك أيضاً بعض الذين تورطوا في الإدمان على تعاطي المشروبات الكحولية، ومعاناة المتاعب والشقاء، ولكن هؤلاء كانوا قليلي العدد. وبصورة إجمالية، فإن الجميع تقريباً قد تغلبوا على محنة النفي الإبعاد، وتجاوزوها كما ينبغي وبكل نبل وكرامة، وكانت «صوفيا» تشعر، وهي عائدة إلى روسيا، أنها تركت وراءها بلد النفوس النبيلة، لكي تقترب من بلد الأكاذيب، والغيرة والحسد، والجبن والنذالة حيال السلطة الحاكمة. فهل ستستطيع التنفس، في ذلك الجو المغلق الذي فسد هواؤه، بعد أن عرفت وتذوقت الهواء النقي في جو سيبيريا الصحي؟ صحيح، إنها لن تبقى سوى فترة قصيرة من الوقت في «سان بطرسبورغ»، وأنها، في «كشتوفكا» ستكون بعيدة، وفي منأى عن كل الدسائس والمؤامرات!

كان الطريق يمر في منطقة ليست جبلية، ولكنها متموجة، تكثر فيها المستنقعات والبحيرات الصغيرة. ثم اتجه الطريق صعوداً، عند مدخل غابة كثيفة. فاستيقظ الدركي، ألقى نظرة حوله، وقال:

- نحن نجتاز الآن ملكية «آل ديميدوف»

وبعد ما يقرب من ساعة، جرى تبديل الأحصنة، وتناول المسافران وجبة طعام، خفيفة، واستأنفا السير على رنين أجراس العربة. وقبل أن ينام «دوبروليوبوف» من جديد، تمتم:

- لا نزال نسير في ملكية «آل ديميدوف»!

فتصورت «صوفيا» نفسها، وهي طفلة صغيرة، وقد انحنت على كتاب للصور: «Le Chant Botte - الهر الذي ينتعل جزمة»، وقد بدت فيها «أي في تلك الصور» أملاك المركيز «دي كاراباس» الشاسعة: مقاطعة بكاملها يملكها شخص واحد بمفرده.

وما كان يبدو غير معقول ولا يمكن أن يصدق في فرنسا، كان طبيعياً وعادياً جداً في روسيا.

لا يزال هنالك كيلومترات وكيلومترات في ذلك الطريق الوعر الذي ينتشر فوقه الغبار، عبر قرقعة العجلات، ورائحة الجلد الساخن. وكانت «صوفيا» وهي تشعر بفراغ ودوي في رأسها، تنتظر بفارغ الصبر الوصول إلى محطة الاستراحة التالية. وتجشأ الدركي بهدوء وفتح عينيه. كانت معدته منتظمة كالساعة: فهو يستيقظ دائماً قبل الوصول إلى محطة الاستراحة، بعشر دقائق. وفجأة أخذت السماء تبدو مظلمة فوق ذرى الأشجار الحراجية، السوداء وغير المتساوية.

وفجأة، برز بناء مركز البريد، الضخم، بكتلته الكبيرة المكونة من جذوع الأشجار، شبيهاً بجبل من قطع الأخشاب المكدسة فوق بعضها.

فقال الدركي:

- هنا، أكلت فيما مضى طعاماً مكوناً من لحوم الطيور البرية.

واندفعت العربة إلى الباحة، فقفز خدم الإسطبل، وأمسكوا برؤوس الأحصنة التي سحبتهم معها إلى أن توقفت العربة.

★★★

عند وصول «صوفيا» والدركي إلى «بيرم»، علما أن السفينة لن تبحر إلى «نيجني - نوفغورود» إلا بعد أربعة وعشرين ساعة. وبسرعة كان ينبغي البحث عن غرفة لقضاء تلك الليلة. فوجداها في فندق: «الكلوب» «النادي». سرير، ولكن بلا وسادة ولا مسند ولا شرشف فاستلقت «صوفيا» ونامت وهي مرتديه كل ثيابها على فراش لم يعجبها.

ونام الدركي في القاعة العامة. وفي اليوم التالي، أرادت أن تزور المدينة، فأبلغها مرافقها أنه مضطر لأن يتبعها في جميع تنقلاتها. وهكذا، فقد خرجت، يتبعها الدركي، منتصب القامة، يفتل شاربه ويجول بنظراته في كل الاتجاهات.

لم يكن هنالك ما يستحق المشاهدة في هذه البلدة الريفية الكبيرة: شوارع عريضة مستقيمة، أرصفتها مغطاة بألواح خشبية. وحواجز من الأوتاد الطويلة، حول مربع مكسو بالأعشاب، وبعض أشجار السندر. منازل صغيرة من الخشب، كلها متشابهة وعلى نمط واحد، لكل منها درج أمام مدخله. وعلى نوافذها ستائر من القماش الرقيق وبعض أصص الزهور خلف درفاتها الزجاجية المزدوجة. كان ذلك اليوم هو الأحد، وجميع المارة يسرعون نحو الحديقة العامة الكائنة على ضفة نهر «الكاما»، وهناك المماشي والممرات، المزروعة على جانبيها أشجار الزيزفون والدردار والمران، والتي توجه مسيرة جمهور المتنزهين:

بعضهم من المسلمين بأرديتهم الطويلة، والبعض من فتيات التتار بقاماتهن المشوقة والمرنة، وبين أولئك المتنزهين يوجد بعض الضباط ببزاتهم الرسمية الخضراء، وبعض البرجوازيين الذين يرتدون «الريدنفوت» السوداء ويعتمرون القبعات العالية والمستديرة، وسيدات روسيات يرتدين أثواباً على الزي الباريسي... وتبعت «صوفيا» وخلفها «دوبروليوبوف» حركة المتنزهين، ترشقهما من كل الجهات النظرات الفضولية. واتجها بعد ذلك

نزولاً نحو المرفأ. حيث كانت سفينة بخارية تناور كي تقترب من الشاطئ وتصطف بجانب رصيف الميناء. والدخان يتصاعد من مدخنتها. وعنفاتها تدفع الماء بقوة. لم تكن «صوفيا» قد رأت مثلها فيما مضى. عندما كانت البحرية لا تزال تستخدم السفن الشراعية. وهذه المشاهدة جعلتها تلاحظ مدى الزمن الذي أمضته في المنفى. ألا يقال أيضاً أنه سيصبح من الممكن قريباً، السفر بالقطار من موسكو إلى «سان بطرسبورغ»؟ كان تقدم العلم مذهلاً، وإذا سارت الأمور على هذا الإيقاع وبهذه السرعة، فسوف يجن جنون الناس، فخراً وزهواً. كانت السفينة تجر وراءها مقطورة ضخمة، في جانبيها نوافذ زودت بقضبان حديدية، وخلف تلك القضبان، كانت تتزاحم وجوه شاحبة: مساجين آخرون! ورسا السجن العائم بجانب الرصيف. وعلى ظهر السفينة أخذ بعض الجنود يتزاحمون، بينما كان الضباط يصدرون لهم الأوامر، بصوت عالٍ. وأخذ البحارة يفتحون النوافذ والكوى. وكما تخرج الدودة من الثمرة، خرج موكب من المساجين الذين كانوا يسيرون ببطء شديد، في الهواء الطلق. يمكن أن يكونوا مئتين أو ثلاثمائة. كانت وجوههم النحيلة، والملتحية، تحمل تعابير التعب والإرهاق الناجمين عن رحلة شاقة وطويلة. ونزلوا واجتازوا العبارة ثم اصطفوا، أربعة، أربعة. كانوا يرتدون معاطف رمادية اللون، وعلى ظهور بعضهم خيطت قطعة قماش على شكل «معين» صفراء اللون.

فتساءلت «صوفيا»:

- لا بد أنهم من السجناء العاديين الذين ارتكبوا بعض الجرائم والمخالفات التي يدينها القانون العام.

فقال «دوبروليوبوف»:

- نعم، اطمئني: فليس بينهم أي سجين سياسي!

- وإلى أين سيقتادونهم؟

- إلى مركز التجمع، بانتظار ترحيلهم إلى «ايكاتيرانبورج».

- وهل يصل دائماً كثير من المساجين إلى «بيرم»؟

- يصل إليها المساجين مرتين في الأسبوع، خلال فصل الصيف وبالفعل، يبدو أن ذلك المشهد أصبح عادياً بالنسبة للمارة وللمتسكّعين، لأنهم كانوا ينظرون دون أي اهتمام أو مبالاة إلى السجناء وهم ينزلون من مقطورتهم، على رصيف الميناء، وقد أحاط بهم الجنود، والحراب في أفواه بنادقهم. وسار في مقدمة الموكب ضابط، على صهوة جواده، بينما تعالت طقطقة السلاسل وهي تتأرجح بين أرجل المساجين. وتوزع الجمهور، متجهاً نحو «كشك» الموسيقا الذي كانت تتصاعد منه ألحان رقصة «البولكا». وعلى سبيل التسلية، اقترح «دوبروليوبوف» على «صوفيا» وهو يراقبها بطرف عينه، الذهاب لزيارة السفينة التي سيستقلانها في اليوم التالي، وكانت ترسو في الطرف الآخر من الرصيف.

***

لم يكن في السفينة سوى ثلاث مقصورات خاصة، والثلاثة كانت مشغولة. وقنعت «صوفيا» بأن تحجز مكاناً لها على إحدى الأرائك في القاعة العامة لتمضية الليل هناك. وكانت هذه القاعة تستخدم في آن معاً كمطعم ومهجع وغرفة للتدخين. وفي الطابق المتوسط بين السطحين تجمع مسافرو الدرجة الثالثة الذين كانت تفوح من أسمالهم البالية، الروائح الكريهة، وفوق هذا الطابق، كانت تنبسط فسحة مسطحة، لا يصعد إليها سوى حاملي بطاقة الدرجة الأولى أو الثانية. وفي أعلى مكان من ظهر السفينة، هنالك «كشك» أي ظلة مزججة، تسمح بتأمل المناظر، دون التعرض لأشعة الشمس. وهناك جلست «صوفيا» بعد أن رتبت حوائجها وأمتعتها. وكانت تحب أن تتفرد وتخلو بنفسها؟ ولكن «دوبروليوبوف» الذي كان يتبعها كظلها، صعد وجلس بالقرب منها على المقعد. كانت مياه النهر تجري بين

ضفتيه المكسوتين بالأشجار وبالأعشاب والحشائش الخضراء. وعبر هدير الآلات، الرتيب، وصوت تلاطم المياه على عنفات السفينة، كان يسمع، آتياً من بعيد، تغريد الطيور والعصافير. ولأن السفينة تستخدم الحطب كوقود، كان للدخان الذي تدفعه الرياح نحو سطح السفينة، رائحة لطيفة. وكان هيكل السفينة يتأرجح بحركة خفيفة.

واستسلمت «صوفيا» للتأمل وللأحلام المتلاحقة، وفجأة لاحظت أن الدركي قد مال واستند على كتفها، وبدت عليه أمارات الضيق والانزعاج. وأخذ يجفف العرق عن جبينه ويفك أزرار ياقته، ويبلع لعابه بقوة وصعوبة. وبدا وجهه شاحباً، رمادي اللون.

فسألته «صوفيا»

- ألست بخير، وعلى ما يرام؟

فتمتم «دوبروليوبوف»:

- ليس تماماً. في كل رحلة، يحدث لي هذا. فأنا لا أطيق السفر في السفن.

- مع أن هذه السفينة لا تهتز بقوة.

فقال، متأوهاً:

اهتزازها الخفيف يكفي لإزعاجي. ربما لو تناولت بعض الطعام... ونهض على ساقيه المتعبتين، ونزل إلى القاعة العامة. ولأن الوقت كان ظهراً، فقد تبعته «صوفيا». لم يكن هنالك مواعيد محددة لتناول وجبات الطعام، ولا مائدة مشتركة للمسافرين. وكل منهم يستطيع أن يتناول طعامه عندما يرغب بذلك. وبعد أن أكل «دويروليوبوف»، وشرب، بدا أكثر ضيقاً وانزعاجاً، وأسرع إلى الخارج لكي يقضي حاجة طبيعية. ووجدته «صوفيا» بعد ذلك، في «الكشك» مستلقياً باسترخاء على المقعد الطويل، فنشقته بعض الأملاح. ووضعت له على جبينه منديلاً مبلّلاً بالماء

البارد. وكان هذا الوضع مزرياً بالنسبة لأحد رجال الأمن. الذي تمتم عدة مرات:

- لقد لحق بي العار، إن هذا معيب بالنسبة لي!

ثم أخذ يألف، شيئاً فشيئاً، حركة السفينة واهتزازها، فزرر ياقته وجلس، نظره مشوش وحلقه جاف. وبعض المسافرين الذين رأوا، من بعيد، ما أصابه، حولوا نظرهم عنه، خوفاً من أن يلومهم ويوبخهم على فضولهم. والبزة الرسمية هي التي أوحت لهم بالخوف وليس الشخص الذي يرتديها.

كانت ترتفع على ضفتي نهر «الكاما» التلال والروابي الجميلة المنظر المتوجه بالقرى الظريفة. وفي وسط أحد المروج، بدت طبقة رقيقة من الثلج، محاطة بالزهور. وأوراق أشجار الحور والسندر التي أخذت تتفتح، كانت تنثر نقاطاً يانعة الخضرة في جو صافٍ ومزرق. ومن بعيد كانت تبرز، من وقت لآخر بعض قوارب الصيادين، الشراعية، أو إحدى الطوافات الضخمة القادمة من الغابة، متجهة نزولاً مع التيار بحمولتها الثقيلة المكونة من الألواح الخشبية وجذوع الأشجار، وفوق كل ذلك الخشب والحطب المعد للبناء وللتدفئة، المنضم إلى بعضه بانتظام وقوة، تنتصب «إيسبا» خشبية، يقيم فيها النوتيون وأسرهم. وعندما تتجاوزهم السفينة البخارية، ترتفع الطوافة، بفعل موجة قوية، فيلوح بعض الأطفال الذين يرتدون القمصان الحمراء، بأيديهم، وهم يصرخون بأصواتهم الحادة.

ونحو الساعة السادسة مساءً، رست السفينة قرب أحد الأرصفة، لكي تجدد مؤونتها من المحروقات. وكانت بعض النسوة هن اللواتي يقمن بنقل الحطب. شابات أو مسنات، سحنتهن لوحتها الشمس، وربطت كل واحدة منهن منديلاً للرقبة، تحت ذقنها، وأخذن يعملن جيئة وذهاباً من الضفة إلى السفينة في نقل أكداس من قطع الحطب، على نقالات، إلى السفينة. وعندما كن يصلن إلى قرب الفتحة المركزية يرمين فيها حملهن، فيتدحرج

إلى قاع السفينة. محدثاً قرقعة «تيهور»، أو كأنه جرف ينهار. وقد تجمع أكثر سكان القرية المجاورة، على الضفة.

وأخذ الرجال ينظرون إلى زوجاتهم أو بناتهم، وهن يعملن، دون أن يقدموا لهن أية مساعدة. وكان هنالك أيضاً بعض الباعة، وهم حفاة وأرجلهم تغوص في الغبار، أخذوا يعرضون، على صناديق خشبية: شراب «الكفاس»: «Kwos»، الحليب، السمك المجفف، والحلوى الشعبية الرخيصة والسيئة. ونزل بعض مسافري الدرجة الثالثة، لكي يتمونوا، بشرائهم ما يحتاجونه من تلك المواد المعروضة للبيع.

وعند الساعة الثامنة، كان الجو لا يزال مضيئاً. وكان ضوء بنفسجي مبهم يتعذر وصفه يشع من مياه «الكاما» البراقة والمتلألئة. والحشرات أخذت تدندن حول أحد المصابيح. وفي أدغال العليق والشجيرات المنتشرة على الضفتين، أخذت تغرد البلابل، ولم تكن «صوفيا» قد سمعت، قبل ذلك، هذا العدد الكبير من هذه الطيور الجميلة وهي تغرد. وعادت إحدى المسافرات، إلى السفينة، وذراعاها مثقلان بأزهار الزنبق.

فتساءلت «صوفيا»:

ألديّ، يا ترى، الوقت، كي اذهب وأجلب بعض هذه الزهور الجميلة، كما فعلت هذه السيدة؟

فصاح «دوبروليوف»:

- عن أذنك، أنا الذي سأذهب!

واندفع نحو الضفة، واختفى في غبش المساء، وغاب فترة طويلة، لدرجة أن «صوفيا» اعتقدت أنه لن يعود. وأخذت تتساءل بقلق ماذا يمكن أن يحصل إذا ما أقلعت السفينة، قبل عودته. كانت جميع الأوراق معه: وهي، إدارياً، لن يكون لها وجود، من دون جواز سفرها، ورخصة مرورها. وكانت النساء اللواتي نقلن الحطب، قد تجمعن بعد انتهاء عملهن، على

الرصيف لكي يتناولن أجرتهن من قبطان السفينة، التي أخذت محركاتها وآلاتها، تدور، وأخذ الاهتزاز الذي تحدثه، يتصاعد عبر السطح حتى يبلغ سيقان المسافرين. فجن جنون «صوفيا»، وأخذت تتفرس بالضفة المظلمة، وتصلي بكل قواها لكي يعود إليها الدركي الذي يرافقها. وقرع الجرس، وتعالى رنينه فوق رأسها، وبينما أخذ اليأس يستولي عليها، وبدت كزوجة هجرها زوجها وتخلى عنها، وإذا بالدركي يبرز فجأة، وهو يركض بخطوات سريعة على جسر العبور، حاملاً أربع غرسات مزهرة من الزنبق: هي كل ما استطاع أن يجده! فشكرته، وهي تشعر بارتياح شديد. وابتعدت السفينة عن الضفة، محركة المياه ببطء وهدوء. ثم زادت من سرعتها، وأحاط بها طوق من الزبد المتلألئ. وكان الدخان الكثيف ينبعث من مدخنتها بقوة. ومن مساوئ استعمال الحطب كوقود، أنّ كمية الشرارات الكثيرة التي كانت تنبعث نحو السماء، تسقط على سطح السفينة. وعبر ظلام الليل وهدوئه، كانت تبدو السفينة وكأنها تعرض لحفلة من الحفلات التي تطلق فيها الأسهم النارية. ومن وقت لآخر، كانت إحدى النساء ترسل صراخاً خافتاً، وتطفئ بيدها شرارة سقطت على فستانها. ولم تعد ترى ضفتا النهر، وأشعلت مصابيح البترول في السفينة. وأخذ «دوبروليوبوف» يشكو من الجوع. فبعد أن شفي من الغثيان الذي أصابه أخذ يحلم بوجبة دسمة وشهية، على «الطريقة السيبيرية».

ولحقت به «صوفيا» إلى القاعة العامة، واكتفت بطلبها الشاي والخبز والمربى. أما هو، بالمقابل، فقد التهم حساءً منعشاً ومبرداً طبخت فيه بعض الخضار كالملفوف، وسبحت فيه قطع من السمك المدخن، ومكعبات كبيرة من الثلج. وبعد ذلك تناول قطعة كبيرة من سمك نهر «الفولغا» التي يرافقها الجزر وزهرة «الكبر»، كما تناول أيضاً اللحم المطبوخ بالمرق، وحلوى خثيرة التوت التي كانت كثيفة إلى درجة تظل معها الملعقة عالقة

بشكل عمودي، وبعد أن روى كل تلك المأكولات ببضعة كؤوس من جعة «قازان» الصهباء، ذات الزبد الفوار، اتكأ الدركي على مسند كرسيه، ووجهه يشع نضارة وتألقاً. وأدركت «صوفيا» أنه إذا كان قد حقق وفراً، من متابعة بقية الرحلة في عربة واحدة، فإنه لم يفعل ذلك لمساعدة ذويه المعوزين، بل لكي يؤمن لنفسه وجبات شهية، وربما كان أولئك الأهل لا وجود لهم أصلاً، إلا في مخيلته. وأعجبت بالبساطة الصادقة التي يتصف بها هذا الشره. ولأن أكثرية المسافرين تجمعوا لكي يتناولوا طعام العشاء في وقت واحد، فقد تواجد كثير من الناس حول الطاولة الكبيرة الكائنة في وسط القاعة. وأخذوا يأكلون وهم متلاصقون جنباً إلى جنب، دون أن يعرف أحدهم الآخر.

وكان بعض الخدم، وهم من التتار، بلباسهم الأسود الرسمي، وصداراتهم البيضاء، يقدمون الأطعمة، من خلف ظهور الجالسين إلى المائدة. وكانت الأحاديث آنذاك تتجاوب وتتقاطع، تحت السقف المنخفض، في جلبة وهرج ومرج كما يحدث في الاحتفالات الشعبية. وكانت تختلط برائحة أبخرة الطعام، الكثيفة الرائحة المنبعثة من مصابيح البترول التي كان يتصاعد الدخان من فتائلها. ولم تكن تدخل من النوافذ المفتوحة أية نسمة من الهواء. فشعرت «صوفيا» بالانزعاج، وصعدت إلى سطح السفينة، هي ومرافقها.

كان الظلام دامساً، بحيث كان يصعب التمييز بين الماء والسماء وعبر ذلك الظلام، كانت العنفات وهي تدور تثير موجات من الزبد، والمدخنة تبصق شرارات ذهبية اللون.

وتنفس الدركي الصعداء، وقال:

- في «نيجني - نوفغورود» يمكننا أن نرتاح يوماً أو يومين، إذا أردت ذلك. وهناك يوجد فنادق جيدة. والمدينة جميلة وشرحة. ولكن، ربما كنت على عجلة من أمرك، كي تصلي إلى مقر إقامتك الجديد.

فقالت «صوفيا»:

- أوه! كلا.

- لا أحد ينتظرك هناك؟

- لا أحد.

فرحلتك، إذن، محزنة، أليس كذلك؟

فلم تجبه. فهل يجب أن تكون تستحق الشفقة حتى يفكر الدركي بأن يرثي لحالها؟! وعادت لذاكرتها رسالة «فيرديناند وولف»: «ماذا سيحدث لك، وأنت بعيدة عني؟ فشعرت بالخوف من المستقبل. وقالت:

لقد تأخر الوقت، أنا نازلة.

فتبعها «دوبروليوبوف» على الفور. كان العديد من المسافرين قد استلقوا آنذاك، وهم بكامل ملابسهم على المراقد في القاعة العامة بينما كان آخرون لا يزالون يشربون الشاي ويلعبون الورق. ولم يعد هنالك سوى بضعة مصابيح مشتعلة. فاستلقت «صوفيا» على مرقد مغطى بالجلد، وغطت ساقيها بحرام صغير، ثم وضعت حقيبتها الصغيرة. كوسادة تحت رأسها. وتمدد «دوبروليونوف» على المرقد المقابل، ثم جمع جسمه واستغرق في النوم، ولم يكد يغمض عينيه حتى بدأ يشخر. فغبطت «صوفيا» هذا الإنسان الفظ على الراحة التي يتمتع بها بعد أن يملأ بطنه ويشبع. بينما كانت هي تتقلب في جميع الاتجاهات، وقد جفاها النوم، ولم يغمض لها جفن. وكان الناس الذين يجلسون حول المنضدة الكبيرة يتكلمون ويتحدثون بصوت عال، ويضحكون دون أن يهتموا بأولئك الذين يريدون أن يناموا. وكان بينهم أربعة من كبار التجار، يحتسون الشمبانيا محتفلين بصفقات رابحة، كانوا، على ما يبدو قد عقدوها. ثم أخذوا يغنون. ولم يعترض أو يحتج عليهم أحد. وكان دخان الغلايين والسجائر ينتشر كسحابات تحلق بين الأعمدة الرفيعة التي تحمل السقف.

وعند الساعة الثانية صباحاً، لم يعد هنالك سوى بضعة أشخاص يلعبون الورق ويقرعون المنضدة بقوة، وهم يطلقون الشتائم والتجديفات. وأخيراً، استلقى هؤلاء أيضاً وناموا. فأتى أحد البحارة وأطفأ المصابيح. وظلت وحدها القناديل الصغيرة الزرقاء والحمراء، المعلقة بجانب الإيقونات ترسل ضوءها الخافت. ولكي تريح «صوفيا» أعصابها المتوترة، أخذت تحاول أن تحسب بعد كم من الوقت ستصل إلى «كشتوفكا»: ما يزال عليها أن تمضي ستة أيام في السفينة، ثم ثمانية أيام بالعربة، ثم... وتلخبطت في حساباتها، فأهملت الاهتمام بالنتيجة. وكانت تشعر وهي تحني وجهها نحو الحاجز، أن عقلها قد استرخى وخدر وأن أعضاءها قد انحلت وتفككت. وبعد ذلك بقليل، لم يعد يعكر السكون حولها، سوى صوت تنفس المسافرين، الأجش، وضجة الآلات القوية، وصوت جريان شلال من الماء ناتج عن دوران العنفات ذات الشفرات القوية، دون توقف في ذلك الماء.

★★★

ونزلت «صوفيا» ومرافقها من السفينة في «نيجني - نوفغورود» في اليوم الأول من حزيران «يونيو» عند الظهر، عبر عاصفة هوجاء. وبينما أخذت ترتب حوائجها في غرفة صغيرة، ولكنها نظيفة، في أحد الفنادق، مزودة بسرير جيد وأغطية نظيفة، ذهب الدركي إلى مكتب الحاكم، من أجل التأشير على جواز المرور. لأنه يجب عليه أن يحصل على هذه التأشيرة، عند المرور في جميع المراكز المهمة، لكي يتاح للسلطات التأكد من أن الرحلة تتم حسب خطة السير، وفي المواعيد المحددة لها. وبعد ذلك سيذهب ليستأجر عربة وأحصنة، من أجل استئناف السفر في اليوم التالي، براً، باتجاه موسكو.

وبعد أن اغتسلت «صوفيا» من رأسها حتى أخمص قدميها بالماء الساخن والصابون في طشت كبير، وغيرت ملابسها، جلست بالقرب من النافذة. كان المطر ينهمر على الزجاج، ويشوه انهماره المنظر ويشوش الرؤية.

وفجـأة انقـشعت الغيـوم، وتوقـف المطـر، وأخـذت أسـطحة المنـازل تـتلألأ تحت أشعة الشمس. فأرادت «صوفيا» أن تستغل تحسن الطقسي لـكي تـزور المدينـة. فهنالـك كـثيرمـن المعـالم والأشـياء الـتي يمكـن مـشاهدتها فيهـا: المعرض، الكريملين، الكاتدرائية، ودير «بيتثيرسكي»!...

وكانـت تستعد للخـروج، عنـدما قُـرع بـاب غرفتهـا: إنـه «دوبرليوبـوف»، وقد بدا متجهم الوجه، مشغول البال.

فسألته «صوفيا»:

هل كانت زيارتك لمكتب الحاكم موفقة، وجرت على ما يرام؟

فقطب حاجبيه:

نعـم وكـلا. لـديّ خبر سـيئ، بالنسبة لـك: لقـد تـوفي أحـد أقاربـك وهـو يدعى: «سيدوفّ».

وعلى الفور، فكرت بـ «سيرج»، فانقبض صدرها، وتمتمت وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة.

«ابن أختي»؟... «سيرج»... «سيرج فلاديميروفيتش سيدوف»؟...

فأجابها:

كلا. الأب: «فلاديمير كريوفيتش».

فتبـدد قلـق «صـوفيا» علـى الفـور، واعترتهـا بعـد ذلـك حالـة مـن الـذهول. فرحيل هذا الرجل لم يعد يسدّ حتى الحاجة إلى الانتقام التي عذّبتها بقسوة شديدة، خلال زمن طويل.

وكيف مات؟

فأبدي «دوبر ليوبوفّ» تكشيرة مزدوجة بأنفه وشاربه:

إنها قصة قذرة! يبدو أن بعض فلاحيه قد قتلوه، الشهر الماضي.

وقد علم الحاكم بذلك عن طريق برقية رسمية، وأوصاني بـأن أنقـل لـك الخبز بلطف وهدوء. وهو يريد أن يراك.

فقالت:

سأذهب إليه، بل إني ذاهبة إليه في الحال...

ولكنها لم تتحرك. فقد بدا لها أنّ جريمة القتل، هذه، سبق لها أن شاهدتها، بل عاشتها في حياة أخرى. وهي نهاية معروفة. تكررت الآن ويعاد ذكرها. ولم يكن من الممكن أن تنتهي حياة «فلاديمير كاربوفيتش سيدوف» بشكل آخر. وحصل لديها انطباع، بسرعة البرق، أنها توصلت إلى التماس مع قفا العالم والاطلاع على ما في داخله من خفايا وأسرار. واتخذت رحلتها معنى لم يكن عنّ لها ولا خطر على بالها، قبل ذلك. «سيرج» يتيم. والطريق سالك وميسور. وراودتها موجة من الأمل رفعت من معنوياتها: «يا إلهي ماذا حدث لي؟ إني سعيدة!»

هذا ما كانت تفكر به، وهي ترتجف.

وكان الدركي ينظر إليها، مندهشاً، وهي تبتسم، ونظراتها شاردة في الفضاء.

الجزء الثاني

١

لوحة صغيرة، امّحى بعض ما كتب عليها، علقت بها نظرة «صوفيا» فقرأت: «كشتوفكا». فساد في كل أعضاء جسمها صمت التهيّؤ. كان هنالك، صفّان من أشجار الصنوبر، الداكنة والقديمة، أخذا يتباعدان أمامها، كما في اليوم، الذي سارت فيه للمرة الأولى في هذا الممر. يوم وصلت من فرنسا مع زوج شاب كان عليه أن يقدمها لوالده، ويجري التعارف بينهما. كانت عربتهما تهتز وتتمايل بين أخاديد ذلك الممر. وكانت ترتدي رداءً مزيّناً بفرو السنجاب. كان «نيقولا» يشدّ على ذراعها بعطف وحنان وهو بادي القلق. ونظرت إليه فرأت مكانه دركياً، له شارب خشن أسود، في وجهٍ يتلألأ فيه العرق.

وسألها «دوبرو ليوبوف»:

- إنها ملكية جميلة جداً، كم هو عدد سكانها؟

فتمتمت:

- لا أدري.

كانت صور الحاضر والماضي تتصادم وتتلاطم في ذهنها في حركة كحركة ارتداد الأمواج عند اصطدامها بصخور الشاطئ. وعرفت هناك مفرق طرق وبقربه صخرة تغطيها الطحالب، وسقف غرفة الحمّام، وكل هذه الأشياء البسيطة كانت تثير في ذهنها الكثير من الذكريات التي كانت تملأ ذلك الجو. كيف ستلتقي بـ «سيرج» وكيف ستجده؟ لقد حاولت كثيراً أن تتصوره رجلاً، ولكنها تظل تراه وكأنه لا يزال في

سريره الصغير. ولا بد من أن يكون الفتى المسكين قد تأثر كثيراً وحزن بسبب موت والده. كانت قد كتبت له لتعبر له عن تعازيها، وتخبره بقرب وصولها. وعند المرور بمدينة «بسكوف»، قابلت الحاكم، هي والدركي الذي يرافقها: كل شيء كان نظامياً. وهزتها ارتجاجات قوية. فالطريق فيه على الدوام كثير من الحفر، في هذا المكان. وخرج كلب من بين النباتات المتشابكة بجانب الطريق، وتبعه كلب آخر، وأخذا يركضان وهما ينبحان، بجانب العربة. وبدا بعض القرويين عند منفذ أحد الدروب، ونزعوا قبعاتهم تحية للزائرة القادمة إلى المنزل. وربما كانوا أبناء أولئك الذين اعتنت بهم فيما مضى. وأخيراً، وفي فجوة من الضوء، برز المنزل. هذه الواجهة بملاطها الوردي، القديم الذي ترك الزمن آثاره عليه، وهذا السطح الأخضر، وهذه الأعمدة البيضاء، كانت تنادي «صوفيا»، من كل نوافذها، كأنها وجه يستقبلها عند وصولها. وأخذت تتفرس، في المجموعة من الأشخاص الذين يقفون أمام درج المدخل، وقد اعتراها انفعال شديد: لم يكن هنالك سوى الخدم. فهل كان «سيرج» غائباً. وتوقفت العربة وقد تصاعد منها الصرير. فقفز منها «دوبرو ليوبوف» وأسرع بعض الخدم لتناول الأمتعة. ونزلت «صوفيا» أيضاً. وفجأة شعرت بضعف في ساقيها، وأنّ قلبها، قد توقفت نبضاته: فقد فتح للتو، الباب المزدوج الذي يطل على الدرج، وبدا «نيقولا» وهو يتقدم نحوها. «نيقولا» ابن الخمسة والعشرين سنة، طويل، ممشوق القامة، عريض المنكبين، ذو وجه صبوح ومتناسق، تعلوه غمرة من الشعر الأشقر. كان يرتدي «ردانغوت» سوداء، ياقتها من المخمل، ربطة عنقه سوداء، وحذاؤه أيضاً أسود. فعرفته، وهو لم يعرفها. فهل تقدمت بها السن، وشاخت إلى هذه الدرجة؟ وانتابها دوّار حيال هذا العائد من العالم الآخر، الهادئ، الذي لا يبدو عليه أيّ تأثر. ثم تمتمت، وهي محطمة القلب والأعصاب:

- «سيرج»!... آه! يا إلهي، لكم تشبهه!...

قبّل يدها ودعاها للدخول، كما دعا الدركي، أيضاً. فرأت وكأنها تنظر إليها عبر سحابة من الضباب، أدوات وتذكارات الصيد: البنادق والسكاكين والسيوف، التي تزين جدران الرواق. ثم دخلت إلى مكتب عمها. الستائر نفسها، بلونها الأخضر الغامق تحيط بالنوافذ، وعلى منضدة العمل، بدت وهي تتلألأ، ثقّالة الأوراق المعدنية، نفسها. كان يستحيل عليها أن تنظر إلى هذه الأداة دون أن تتصور أصابع «ميشيل بوريسّوفيتش» النحيلة وهي تتلمسها وتداعبها، بصورة تلقائية، فيما مضى. وجلست «صوفيا» باسترخاء على إحدى الأرائك: لم يكن هنالك أي من الأشخاص الذين عرفتهم في «كشتوفكا» موجوداً الآن لكي يستقبلها: «نيقولا»، «ماري»، «ميشيل بوريسّوفيتش»... لقد ماتوا، ماتوا، ماتوا كلهم!...

وسألها «سيرج» باللغة الفرنسية:

- هل أتعبتك الرحلة يا خالتي؟

فارتعشت: إنه صوت «نيقولا»، ربما أقوى نبرةً. ولكن «سيرج» لا يجيد التحدث بالفرنسية كخاله، وهو يتحدث بها بلكنة روسية قوية. وسرّت منه لأنه تعلم هذه اللغة، وكأنه فعل هذا مجاملة لها.

وتمتمت:

- نعم، وبخاصةً في مرحلتها الأخيرة...

وكانت، وهي تقول ذلك، تراقبه بانتباه شديد، محاولة أن تتصفح وجهه. لم يكن فيه شيء من ملامح أمه. ولا شيء من أبيه أيضاً، بلى، تلك الحدقتان الصغيرتان الداكنتان والثابتتان، وتلك الثنية التي تنم عن الازدراء والاستخفاف، في كل جانب من فمه. أما الباقي، كل الباقي، فكان من «نيقولا». وتبادر إلى ذهنها باستغراب أنّ هذا الهوس بإجراء المقارنات هو أحد عيوب السيدات العجائز. وسعل الدركي ليذكّر بوجوده. كان يقف عند

عتبة الباب، وقد أسدل ذراعيه، وهو بادي الانزعاج. وأرادت أن تطلب له طعاماً، ولكنه رفض: لأنه يريد أن يسافر، على الفور، إلى «بسكوف»

فقالت له:

- إيه، حسناً! وداعاً، لقد كنت، بالنسبة لي، رفيقاً لطيفاً جداً، في الرحلة التي قمنا بها سوية.

فبدا السرور على وجه الدركي. وناولته «حوالة حكومية» بقيمة عشرين «روبل»، وافترقا كصديقين قديمين. وعندما أغلق الباب، التفتت «صوفيا» نحو «سيرج». كانت، بصورة عفوية، قد خاطبته بصيغة المفرد، وبلا تكليف، عندما رأته في البداية. ولكنها لم تجرؤ على متابعة ذلك، وقالت:

- كنت أنتظر أن أكون لوحدي معك، كي أتحدث إليك بصراحة. لا بد أنك حزين جداً، يا «سيرج»! فالذي حدث فظيع جداً!

كان يسند ظهره على المكتبة، ويداه في جيبيه، وينظر إلى مقدمة حذائه: وسيماء وجهه تنم عن عزة النفس والبرود. وكان هذا التحفظ يعجب «صوفيا».

واستأنفت الكلام:

- كيف حدث ذلك؟ كل ما قاله لي حاكم «بسكوف» هو أنّ الفلاحين استدرجوا والدك إلى كمين...

- نعم، إلى قرب «كوخ» الاستحمام، زاعمين أنهم يريدون أن يروه السقفية الخشبية التي يريدون إصلاحها... وهناك، قتلوه، خنقاً... كانوا ثلاثة... كان يتكلم ببطء، دون أية نبرة، كرجل يرفض أن يستسلم لعواطفه.

فسألته «صوفيا»:

- واستطعتم معرفتهم؟

- بكل سهولة. فقد حضرت لجنة التحقيق إلى المكان واستجوبت جميع القرويين، جميع الخدم وجميع المعارف والمقربين. والجناة عُرفوا بسرعة. وهم الآن في سجن «بسكوف» وأظن أنهم سيحاكمون، الشهر المقبل...

وساد صمت عميق. وقطب «سيرج» حاجبيه، والتقط أنفاسه. وترددت «صوفيا» في متابعة الحديث، خوفاً من أن تعذبه وتثير حزنه. ولكنه، عاد إلى الحديث، هو، بصورة تلقائية، قائلاً وهو يصرّ على أسنانه:

- أوغاد! وحوش مفترسة!

وجحظت عيناه، كما لو أنه كان يتأمل مشهداً مخيفاً قريباً جداً، ومع ذلك، كان هو وحده الذي يستطيع رؤيته.

وسألته «صوفيا»:

- ولماذا قتلوا أباك؟

- كان قاسياً مع الفلاحين. كان قاسياً ولكنه كان منصفاً، عادلاً. وكثيراً ما نصحته بأن يلزم الحذر، ولكنه لم يكن يصغي لي. كان هو الذي يدير الأملاك، بعد موت جدّي. وعندما بلغت سن الرشد، أخذت أساعده كأحسن ما أستطيع. كنا متفاهمين بشكل جيد، بل بشكل جيد جداً. يا له من رجل متميز! إن ذكاءه، حيويته، سطوته كانت تفرض تأثيره ونفوذه على الجميع! ومنذ رحيله، فإني أتبين كل يوم أكثر فأكثر، كم كان وجوده مفيداً لي...

هذا التكريم الذي قُدم لـ «سيدوف» من قبل ابنه أربك «صوفيا» وكان عليها أن تتوقعه، ومع ذلك فقد أغاظها، لاسيما وأنّ ليس لها الحق بأن توضح لـ «سيرج» خطأه. وفجأة، قالت لنفسها إنه لا يعرفها إلا عن طريق أحاديث وحكايات والده. فأية مساوئ وفظائع نسبها لها ولـ «نيقولا»، في تلك الأحاديث؟ وكان مما يدعو إلى الدهشة أن يستقبلها بالمجاملة والترحاب، بعد الصورة التي، دون شك، رسمها له عنها. فهو إذن، حسن التهذيب. وماذا تتمنى الآن، أكثر من ذلك؟ ولن تكون هذه هي المرة الأولى التي تستقبل فيها بصورة عدائية في «كشتوفكا». ولكنها عندما كانت تجابه «ميشيل بوريسّوفيتش» كانت شابة، متحمسة، متمردة وعاشقة

محبة. أما اليوم، فهي تشعر أنّ جسمها أصبح ثقيلاً، وعظامها تؤلمها، حيال هذا الفتى الخالي البال، الذي لا يبالي ولا يكترث بشيء.

قال، وهو ينحني قليلاً أمامها:

- لقد جعلتهم يهيئون لك غرفتك.

فشكرته «صوفيا»، قائلة في سرها: «هيا! كل شيء يمكن أن يكون أكثر سهولة ويسراً مما كنت أتصور.»

وتبعته، كان يدلها على الطريق، برعاية ومداراة، كما لو أنه كان يفعل ذلك لامرأة غريبة:

- من هنا، يا خالتي.

وعلى الدرج، قال لها أيضاً: «أرجو أن تنتبهي، فالدرجات عالية قليلاً! » كما لو أنها لم تكن قد عرفت ذلك قبله.

وعندما فتح باب الغرفة التي كانت قد أقامت فيها، سابقاً، هي و «نيقولا»، انتابها ضيق شديد. كانت قطع الأثاث قد تغيرت أماكنها. والستائر حالت ألوانها وبدت باهتة. كل شيء كان يبدو أصغر وأقل حجماً. وأكثر قدماً وتلفاً عما كانت صورته في ذاكرتها. وألقت نظرة على السرير، على المنضدة الموجودة بجانبه، على الأيقونة، وعلى الشمعدان النحاسي، فعصفت بها وهزتها الذكريات، وكان عليها أن تعض شفتيها لكي لا تتفجر بالبكاء.

وقال لها «سيرج»:

- ألست بحاجة إلى أي شيء؟

وبإيماءة من رأسها، أجابت بالنفي، على سؤاله.

فانسحب بهدوء، كما لو أنه فعل ذلك لكي يتركها، وقد أخذت تتحدث مع أحدٍ ما.

☆☆☆

في المساء، التقت «صوفيا» و «سيرج»، على انفراد، لتناول طعام العشاء. جلس كل منهما على طرف المائدة الكبيرة. كان بعض الخدم الذين لا تعرفهم يقومون بالخدمة. كان الطعام وفيراً، دسماً، مبهراً ومفلفلاً، كما في عهد «ميشيل بوريسوّفيتش». وبشكل مفاجئ حصل لدى «صوفيا» انطباع بأنها لم تعد وحدها مع «ابن أختها» وأنّ وجبة الطعام قد اجتذبت ضيوفاً آخرين، فجلسوا بجانبها حول المائدة: عمها، «نيقولا»، «ماري»، وأنّ الجميع كانوا مسرورين لكونهم التقوا بها من جديد، فشعرت في تلك اللحظة بسعادة عجيبة وغريبة. ثم سألت «سيرج»:

- ماذا حصل مع السيد «لوسور»؟

- لقد مات، بعد وفاة جدي بسنة.

- و «فسّيليسّا»؟ المربية «فسّيليسّا»؟

- ماتت، أيضاً.

- و «أنتيب»؟

- إنه في القرية، لا يزال على قيد الحياة، ولكنه أصبح عجوزاً، ولم يعد يملك قواه العقلية.

- والأب «جوزيف»؟

- لقد مات، أيضاً، في السنة التي اجتاح فيها وباء الكوليرا، هذه المنطقة.

وسألت «صوفيا» بعد ذلك عن أسماء أخرى، وشعرت في نهاية الأمر، أنها تحاول تحريك كومة من الرماد. فعادت إلى «ميشيل بوريسوّفيتش» وأرادت أن تعرف أية صورة يحتفظ بها «سيرج» لجده.

فقال:

- كنت، بالكاد، قد بلغت الخامسة أو السادسة من العمر، عندما توفي، لذلك فأنا أتصوره، بغموض شديد، رجلاً تقدمت به السن، محني

الظهر، عارضاه كثيفان أبيضان، وعلى عينيه نظارة ضخمة. كان يسمح لي بأن ألعب بريشه وأدوات مكتبه، وعلبة سجائره، وببيادق شطرنجه. وهذا كل ما هنالك...

ففكّرت بالانتباه الشديد، والزهو والعطف والحنان، وبكل تلك المشاعر والعواطف التي لا بد أنّ «ميشيل بوريسوّفيتش» كان يوليها لحفيده، وإلى النذر اليسير من الذكرى التي احتفظ بها هذا الأخير، من كل ذلك التفاني: قسوة لا مبالية، يبديها، دون اكتراث، الشباب الذين لا يكبرون ويرتفعون إلا وهم ينسون أو يتناسون أولئك الذين سبقوهم. أوشكا على الانتهاء من تناول الطعام، بينما أخذت «صوفيا» تزداد شعوراً بالعزلة، وبأنها أصبحت وحيدة، كما لو أنّ جميع الناس الذين كانوا في مثل سنها، قد رحلوا عن هذه الدنيا.

بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء، قدم لها «سيرج» ذراعه، فقبلت الاستناد عليه للذهاب إلى المكتب، حيث أشعل أحد الخدم المصابيح، لأنّ الظلام كان قد خيم. الجو حار، وبعض الفراشات تدخل بسرعة جنونية من النافذة المفتوحة. وعلى موقد صغير تشتعل فحمات تنبعث منها رائحة قوية تطرد البعوض. وطلب «سيرج» الأذن بتدخين الغليون. وتأملته «صوفيا» وهو يضرب زناد القداحة، ويسحب بعد ذلك، الدخان ليملأ فمه، فتذكرت الطفل الرضيع الذي أحضرته بين ذراعيها إلى المنزل، في ليلة عاصفة، انهمر فيها المطر، وهبّت الرياح. وماذا يعرف عن أمه؟ هل قيل له، فقط، أنها شنقت نفسها؟

وتمتمت:

- كان عمرك بضعة أشهر، عندما رحلت عن «كشتنوفكا» ولا بد من أنّ طفولتك لم تكن سعيدة. هل العجوز «فسّيليسّا» هي التي ربّتك؟

- كلا. إنه أبي.

- أعني... كممرضة؟...

- نعم، هي وكثيرات غيرها! ولكني لا أتذكر أسماءهنّ.

وجمّعت «صوفيا» جسمها وهي تجلس على أريكة، كان غطاؤها الجلدي البارد يلتصق بكتفيها.

وقالت:

- لقد أحببت أمك كثيراً. وقد كلفتني، قبل موتها، أن أعتني بك كأنك ابني. ولم أستطع أن أنفذ لها رغبتها لأني كان علي أن أنضمّ إلى زوجي في سيبيريا. كانت امرأة تتمتع بحساسية، لا مثيل لها، حانية وحارقة، في آن معاً...

فابتسم «سيرج»، وغمغم:

- نعم، أعتقد أنها لم تكن متّزنة تماماً.

فاغتاظت «صوفيا» وتمتمت:

- لماذا تقول هذا؟

- إني لم أفعل سوى ترديد ما يرويه الجميع.

- الجميع؟ أم أنه والدك هو الذي كان يفعل ذلك؟

- والدي، بين الآخرين، نعم. وأمي، على أية حال، قتلت نفسها بسبب قصة سخيفة. فلم يكن عليها أن تيأس هكذا، وإلى هذه الدرجة، لأن أبي وجد نفسه مضطراً لبيع بعض الفلاحين لتسديد ديونه!

كانت تنظر إلى كل شيء بمزيد من العاطفة! وقد سبق لها أن حاولت الانتحار عشرين مرة!

كانت «صوفيا» تصغي لهذه الأكاذيب المتوالية، التي كانت، بالنسبة لـ «سيرج» تتسم بقوة الحقيقة، وتتألم لأنها لا تستطيع أن تكذبه وتوضح له خطأه على الفور، مع وجود فرصة وأمل لها، بأن يصدقها. وفيما بعد، ستحاول إقناعه. مسكينة «ماري» لقد أخفقت في كل شيء، حتى في

موتها، وربما كانت عقوبتها القصوى، الازدراء الذي يحيط به ابنها ذكراها!

وقالت «صوفيا»:

- لا يمكن أن نحكم على الأشخاص ونقيّمهم، إذا لم نكن قد عرفناهم بصورة مباشرة.

- عندما يستحيل علي تكوين رأي من تلقاء نفسي، فإني أتبنّى رأي الناس الذين يحظون بثقتي.

- ولا تخشى أبداً من الوقوع في الخطأ؟

- يوجد شهادات لا تقبل الجدل ويتعذّر دحضها، شهادات تؤيدها الوقائع والأحداث!

فقالت «صوفيا» متأوهة:

- وهذا أمر مقلق جداً، بالنسبة لي.

- لا أفهم لماذا يكون الأمر هكذا، يا خالتي.

- إذا كنت تتقبّل، دون مناقشة، ما يقوله المحيطون بك، فمن المرجّح، أنك لن تشعر بأية مودة أو عطف نحو أولئك الذين اتُفق على تسميتهم بـ «متمردي كانون الأول».

فتوتّرت، فجأة، ملامح «سيرج» وقست نظرته، وقال:

- بالفعل، أنا لن أكتمك بأني أشعر ببعدي الشاسع عن هؤلاء السادة.

- دون أن تشاطرهم آراءهم، يمكنك أن تشفق عليهم، وتحزن لمصيرهم!

فاعتدل في وقفته، وقال:

- اعذريني يا خالتي، فأنا أرفض أن أرثي لأناس أرادوا أن يغرقوا روسيا بالدماء والنيران لكي يحققوا أطماعهم وطموحاتهم الشخصية. فأنا صديق للنظام. ومن الطبيعي أن تبعد الحكومة الأشخاص الذين كادوا يثيرون الاضطراب في حياة المجتمع.

فتأملته بدهشة مشوبة بالحزن. أهذا حقاً هو ابن أخت «نيقولا» الذي يتكلم هكذا؟ إنّ «ميشيل بوريسّوفيتش» نفسه، ما كان ليتفوّه بكلام أكثر رجعية، من هذا الكلام. فماذا لو كان جميع شباب روسيا مثل هذا الفتى؟!... وتمالكت نفسها، عندما تذكرت أنّ «نيقولا» عندما تعرفت عليه في باريس، كان لديه، هو أيضاً، أفكار مناهضة للتحرر ولليبرالية.

ولكي تغيّر مجرى الحديث، سألته:

- ما هو نمط حياتك، وكيف تقضي أوقاتك في «كشتوفكا» هل تلتقي بكثير من الجيران؟

فأجابها « سيرج»:

- ألتقي بأقل عدد ممكن منهم! فهم لا يستحقون الاهتمام!

- أعتقد أني أتذكر، مع ذلك أنه يوجد بينهم من هم ذوي عشرة طيبة وجديرون بالمرافقة. وخالك كان على صلة قوية، فيما مضى، مع «فاسّيا فولكوفّ».

فقال «سيرج»:

- هذا لا يدهشني، إذ إن «فولكوف» معروف في المنطقة أنه جمهوري. حتى إنه، على ما يبدو، قد اعتراه قلق شديد، في الفترة التي نظرت فيها المحكمة في قضية «متمردي كانون الأول». ولكنهم لم يلقوا عليه القبض.

- وأمه؟

- إنها تعيش معه، وأخواته تزوجن، ويقمن في موسكو، وجميعهن مجنونات!

ودون أن تغضب «صوفيا» سألت «سيرج» عن أخبار بعض معارفه الآخرين. وفي كل مرة كان يجيبها بلهجة حاسمة، وبخبث واضح. وعلى مسافة ثلاثين «فرست» في كل الاتجاهات، لم يكن هنالك كائن بشري نجا من شره، أو حظي بعفوه. ونسبت سبب هذا التصلب، إلى مرحلة الشباب،

والغرور الذي تتميز به هذه المرحلة. كان يريد بأي ثمن، أن يبدو أمامها، رجلاً حازماً، متميزاً. ودخلت من النافذة نسمة باردة، رافقها حفيف أوراق الأشجار التي حركتها الرياح.

وقالت «صوفيا»:

- لا أستطيع أن أصدق أني عدت إلى «كشتوفكا». فرغماً عني، يبدو لي أنّ سيبيريا لا تزال خلف هذه الجدران. فقد تركت فيها أصدقاء أوفياء جداً.

فسألها، بلهجة ساخرة:

- أتأسفين لمغادرتك «توبولسك»؟

فأجابته، وهي تحدّق بقوة في عينيه:

- كان هنالك أشخاص كثيرون يتحلون بالمروءة.

- المروءة ترف يتحلى به أولئك الذين ليس لديهم أي عمل!

- وهل لأنه كان لديك كثير من العمل، لم تردّ على رسائلي؟

- لم أكن أعرفك.

- هذا لا يبرر عدم الرد على الرسائل.

- بلى، بالنسبة لي، يا خالتي. أما الآن، وبعد أن رأيتك، فقد أصبح الأمر مختلفاً: فإذا قُدّر لنا أن نفترق من جديد، فإني لن يفوتني أن أكتب لك! ولكننا لن نفترق بعد الآن! أولاً، لأنّ ليس لك الحق بأن تغادري «كشتوفكا» وثانياً، لأنّ لدينا هنا مصالح مشتركة. فهذه الملكية تخصك بقدر ما تخصني. وعليّ أن أطلعك على بعض الحسابات!

كان كريهاً جداً، لدرجة أن «صوفيا» توصلت إلى أن تجده مسلياً.

- هذا صحيح، ولكن لدينا الوقت الكافي، للعمل والغوص في الحسابات.

- كلا، كلا، أنا ألحّ... وأصر على أن تتبيني، منذ الآن، العناية التي أوليناها للسجلات...

وفتح سجلاً، أمام «صوفيا» على منضدة صغيرة. فرأت أرقاماً متراصّة ومصفوفة بجانب بعضها: «النفقات، الإيرادات... الأخشاب المقطوعة....».

كان «سيرج» يشرح لها، وهو منحنٍ فوق كتفها، سير العمل في الملكية. ولم تكن تصغي إليه وهي تنظر إلى الكتابة: جافة، رفيعة ومدببة، يتخللها، في بعض الأماكن شطب ضخم بالحبر، يخدش الورق:

- هل أبوك هو الذي كتب هذا؟

- كلا، أنا الذي كتبته، فإذا أردت أن تدققي...

فقالت، وهي تغلق السجل:

- غداً.

- ولماذا؟

- الجو هادئ في الخارج! ولا أريد إضاعة هذه البرهة الجميلة!

فأعاد السجل إلى مكانه. وأرهفت هي، السمع للأصوات الصادرة من المنزل: طقطقة الأواني الآتية من بعيد، فرقعة قطع الأثاث التي تعبث بها الديدان، دقات الساعة، المنتظمة. كان سحر الماضي وفتنته، يعملان عملهما ويؤثران عليها. وعندما رفعت بصرها رأت «سيرج» جالساً وراء المكتب، وبدا لها في غير زمنه وأنه يشكل مغالطة تاريخية. وقد أخطأ في اختيار الفترة الزمنية، فعمله ليس هنا، ثم أدركت أنها هي التي لم تكن في مكانها. وقطع اللعبة، بل عناصر الموضوع لم تنتظم جيداً. وبذلت جهداً لكي تستقر وتنسجم بكليّتها مع الوقت الحاضر والوضع الجديد. كان «سيرج» يبتسم وهو صامت، وقد اختفت من وجهه تعابير الخبث والشر. فهو يصبح ودوداً عندما لا يثيره أحد، أو يسفّه آراءه ويعارضه فيها. فلا شك أنه لم يكن واثقاً تماماً من نفسه كي يتحمل المعارضة والمعاكسة. وعنفه كان عبارة عن دفاع صبياني، ومع ذلك، فهو يتحلى بالشجاعة وبالصدق والصراحة. وسندت «صوفيا» رأسها على مسند الأريكة، وأغمضت

عينيها، وحاولت إراحة ذهنها، وعدم التفكير في أي شيء. كان هنالك بومة تنعق على إحدى الأشجار القريبة، وهنالك من يمشي في الغرفة، وخشب الأرضية يرسل صريراً، تحت وقع قدميه. يمكن أن يكون هذا «نيقولا»، أو السيد «لوسور»، أو «ميشيل بوريسوّفيتش»... كلا، هي تعرف أنه «سيرج». وتعلم ذلك دون أن تشعر بأي انزعاج أو استياء. فقد دخل إلى حياتها، هو أيضاً، بكل مساوئه وعيوبه. وقد أصبح لها أسرة، من جديد. فشعرت برضى غريب يتنامى لديها. وقالت:

- لقد تأخر الوقت! أنا ذاهبة لأنام.

فأراد «سيرج» أن يساعدها في النهوض عن الأريكة. فأبعدته بحركة من يدها، ونهضت بحيوية، لوحدها، خوفاً من أن يعتبرها سيدة عجوزاً.

٢

بعد أن تناولا طعام الغداء، ظل «سيرج» في مكتبه ولديه سجلات الملكية بينما صعدت «صوفيا» إلى غرفتها. لم تكن تستطيع أن تنتظر أكثر من ذلك لكي تكتب إلى «فيرديناند وولف». لقد أربكها اختيار بداية للرسالة. فكيف يجب أن تبدأها؟ وفجأة تذكرت الطريقة التي كانا يستخدمانها في أحاديثهما، وجرت ريشتها بسرعة على الورقة. روت له كيف انتهت رحلتها، ووصولها إلى «كشتوفكا». وانطباعاتها الأولى... كان أمامها، جاداً وحزيناً، وهو يصغي إليها. سألته عن أخباره. والحقيقة هي أنها كان عليها أن تنتبه وتراقب نفسها لكي لا تضع أكثر مما ينبغي من العطف والمحبة في أسئلتها. وكتبت أيضاً إلى «بولين أنانكوف»، إلى «نتاليا فونفيزين» وإلى «ماري فرانتزيف»، وغداً، سيحمل سائق العربة البريد إلى «بسكوف». فمتى يمكن أن تتلقى أجوبة رسائلها؟ في هذا المجال، الحكمة تقضي بألاّ يأمل المرء شيئاً.

وذهبت لتقوم بنزهة في الحديقة، فشاهدت من جديد العرّيشة وحرشة أشجار السندر، الصغيرة، ومجموعة أشجار الكستناء الضخمة التي يزيد عمرها على مئة سنة، وعادت محملة بالذكريات التي تتسم بالحنين إلى الماضي السعيد، متجهة نحو البناء الذي يقيم فيه الخدم. وبدا هؤلاء، الذين رأتهم هناك، جميعهم جدداً، معظمهم كانوا شباباً بصحة جيدة، ومظهرهم حسن. فلا بدّ أن المسنين قد أعيدوا إلى قراهم. وإذا كانت «صوفيا» لا تزال تجهل أسماء جميع الخدم، فإنهم من جهتهم، كانوا

يعرفون من هي، وأخذوا يبدون لها كل الاحترام. وكان «سيرج» قد خصص لها كخادمة، قروية شقراء، بدينة ومرحة، تدعى «زوي» وهي زوجة: «دافيد»، سائق العربة.

كان الطقس جميلاً جداً، لدرجة أنّ «صوفيا» رغبت أن تقوم، على الفور، بجولة في القرى التابعة للملكية، وطلبت من «دافيد» أن يهيئ العربة. وبعودتها إلى محيط وإطار شبابها، فقد استعادت بصورة تلقائية عادة ولهجة إصدار الأوامر. وبدا لها أنه من الطبيعي أن ترى حولها بعض الخدم، يجاملونها، يتزلفون إليها ويتسابقون لخدمتها. وصعدت إلى العربة، وعندما انطلقت الخيل في الطريق، التفتت فلمحت «سيرج» قرب إحدى نوافذ المكتب، واقفاً، ينظر إليها وهي تغادر المنزل.

بعد أن تجاوزت العربة أشجار الحديقة، الأخيرة، بدا الطريق ممتداً عبر برية منبسطة، بالكاد تبدو متموجة بعض الشيء. وكانت حقول القمح، الجودر «الشيلم» والذرة الصفراء، تركض على يمين ويسار الطريق. تتخللها مجموعات صغيرة من الأشجار. وبعد ذلك مرّ حقل من البطاطا، فتذكرت كيف احتاج الأمر، فيما مضى إلى تهديد الفلاحين بالجلد بالقضبان لإجبارهم على زراعة هذه «النبتة الشيطانية» المستوردة من الخارج. وبصورة إجمالية، كانت الأراضي المزروعة والمستثمرة أكثر اتساعاً، مما كانت عليه، في زمن «ميشيل بوريسوّفيتش» وبدا لها أنّ إدارة «سيرج» ووالده للملكية، كان لها أثر حسن. وكانت «صوفيا» وهي مستسلمة لاهتزازات العربة، لا تكل ولا تمل من تأمل حقول هذه الملكية. فهذه الثروة، ونزهتها التي تقوم بها بحرية واضحة، والسلطة التي تملكها مع «ابن أختها» على ما يقرب من ألفي فلاح من العبيد، كل هذا يتناقض مع المنع الذي فرضه عليها الحاكم، من الابتعاد أكثر من خمسة عشر «فيرست» عن «كشتنوفكا». وعادت إلى ذاكرتها فكرة الدركي: «أنت سجينة حرة! »

وضحكت من هذا الوضع المزدوج والملتبس. وتراقصت أمام عينيها بعض أشجار السندر ذات الأوراق الرقيقة. وتلألأت مياه نهر، في منخفض من الأرض. وبدت بيوت الفلاحين «الإيسبات» في قرية «شتكوفو» تحيط بها الحقول المزروعة بدوار الشمس. وفوجئت بعض القرويات اللواتي كن يتحدثن في وسط الشارع، بوصول العربة، فأسرعن بالدخول إلى بيوتهن. وفيما مضى، عندما كانت «صوفيا» تزور القرية، كان السكان يتجمعون حولها بمودة ومحبة. ودهشت لهرب أولئك القرويات، فسألت السائق:

- لماذا ذهبن، هكذا بسرعة؟

فغمغم:

- إيه! لقد خفن.

- وممّا خفن؟

- ومن يدري؟! النساء عندنا وجلات، يخفن من أي شيء، إنهن غبيّات!

ومن أول الشارع إلى آخره كانت الأبواب تُغلق، كما لو أنّ «صوفيا» كانت تجلب الموت في طيات فستانها. ونزلت من العربة، واتجهت نحو أول بيت، ودفعت الباب بقوة، فوجدت نفسها أمام عائلة ترتجف خوفاً: امرأتان، إحداهما عجوز متقدمة في السن، والأخرى أقل منها تقدماً في السن، وحولهما مجموعة من الأطفال في أسمال بالية، تعبّر نظراتهم عن براءة مؤثرة. وكان الجدّ مستلقياً بجانب الموقد، يرقد مع لحيته المشعّثة. وعلى كل هذا يخيم الغبش، الوسخ، ورائحة، كرائحة الوكر الذي يزدحم فيه ساكنوه. وخلال برهة، لم يكن يُسمع سوى طنين الذباب الذي يشعر بنشوة السعادة، في ذلك الجو. وذكرت «صوفيا» اسمها، ومن أين هي قادمة، فاغرورقت عينا المرأتين بالدموع، وأجهشتا بالبكاء. ونهض الجد العجوز، ركع، ثم ذهب لينادي الجيران. وبعد قليل تجمع هؤلاء حول البيت، وكان على «صوفيا» أن تخرج لكي يروها. كان جميع الرجال

والنساء الأصحاء، يعملون في الحقول. ولكن الشيوخ والعجزة كانوا كثيرين. وهنا وهناك، عرفت «صوفيا» بعض الوجوه التي علتها التجاعيد. وهذه الوجوه الذابلة، المغضّنة، كانت كقطع النقود التي يمكن أن نتبيّن قيمتها، على الرغم من التلف الذي طرأ على معدنها. وأخذ اسم، ثم آخر، تدفعه الذاكرة إلى شفتيها:

- آه! يا إلهي، ولكن هذا «أغافون»!... وهذه «مارتا»! وهذا «أرسين»!...

وفي كل مرة، كان الذي أو التي تناديه، ذاكرة اسمه، يصيح بأعلى صوته، يرسم إشارة الصليب، ويكثر من عبارات الشكر والامتنان.

- وهذا هو «مكسيميتش»!

- كلا، يا سيدتي. أنا ابنه! كنت في العاشرة من العمر عندما سافرتِ!

- وهذا، من يكون؟ أنا أعرفك!... «نيكانور»!... أليس كذلك؟

- هو بعينه! فليباركِكِ الله، يا سيدتي! فأنت لم تتغيري!

وأيده الجميع بهدوء وبلهجة تنم عن الاحترام:

- كلاّ، كلاّ، إنها لم تتغير!

- ما تزال كما كانت، جميلة! وطيبة!

وقالت إحدى النساء وهي تنتحب:

- وذلك المسكين «نيقولا ميكايلوفيتش»؟!

وتابعت المجموعة الشكوى والتأوه، وزادت عليها بقوة!

- ليرحمه الله! كان سيداً لا مثيل له، ولن نحظى بمثله بعد اليوم! لقد تألم وعانى كثيراً في سيبيريا، من أجلنا! وأنت أيضاً تألمت يا سيدتنا! فأنتما، كلاكما، قدّيسان!

فتأثرت «صوفيا» كثيراً، عندما رأت أن الفلاحين لم ينسوها. ومع ذلك، فإنها لم تكن قد استطاعت أن تعمل سوى القليل مما كانت ترغب بعمله من أجل خيرهم وسعادتهم. كانوا محرومين جداً من العطف، لدرجة

أن العناية التي قدمتها لهم في الماضي أخذت أبعاداً كبيرة في ذهنهم وظلت راسخة في ذاكرتهم. ولاحظت أن نظراتهم الموجهة نحوها تتسم بالاستغراب والذهول، وشعرت بأن أسطورة قد نسجت حولها، في غيابها، وأنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً حيال ذلك. وبقدر ما يكون المرء فقيراً، يكون بمزيد الحاجة إلى الإيمان بالملائكة. وابتسمت، وقد اعتراها بعض الانزعاج، وبسطت لهم ذراعيها، فانهالت القبلات على يديها. فقالت، متأوهة:

- لقد مات الكثيرون! كم هنالك من الأموات؟ أموات كثيرون! فقالت «مارتا»: لقد أودت الكوليرا بالكثيرين هنا. بدءاً بوالدنا الصغير «ميشيل بوريسوفيتش»! فليدخله الله جناته! فهو هنالك الآن، مع ابنته وابنه!

حيال كل هؤلاء الناس الذين كانوا يرسمون إشارة الصليب، يباركون اسم عمها ويترحمون عليه، فكرت «صوفيا» أن الفلاحين قد صفحوا بسرعة عن قسوة سيدهم. ولكونها تشجعت بما أبدوه نحوها من عطف ومودة، فقد أرادت أن تتحدث إليهم عن مقتل «فلاديمير كاربوفيتش سيدوف» وفي الحال تجهمت وجوههم وتغيرت ملامحها. وحول البعض أنظارهم، وأطرق آخرون في الأرض، حتى يخيل لمن يراهم أن «صوفيا» كانت تسألهم عن شخص لا يعرفونه أبداً. وأخيراً تشجع العجوز «مكسيميتش» الذي كان قد أصبح نحيلاً، هزيلاً كحزمة من الحبال، وقال، مبدداً ذلك الصمت:

- إنها مصيبة كبيرة!

وبصق بين قدميه.

فسألته «صوفيا»:

- هل القتلة من قريتكم؟

فأجابها «مكسيميتش»:

- نعم!

- وهل أعرفهم، أنا؟

- كلا، إنهم شباب: «أوسيب» الأصهب، «فيدكا» و «مارك»...

- ولماذا فعلوا ذلك؟

- الله وحده يعلم لماذا فعلوا ذلك، أو ربما الشيطان هو الذي يعلم هذا!

- ألهم أقارب بينكم، ألهم عائلة وأولاد؟

- زوجة «أوسيب» الأصهب، في الحقل... وهؤلاء، هم أهل «فيدكا» و «مارك»...

فلمحت «صوفيا» قروية تحاول أن تختبئ خلف الآخرين، وفلاحاً أعور طويل القامة، على وجهه أثر الجدري، وقد أحنى رأسه. فاقتربت وسألته بصوت خافت:

- هل سبق أن حدث مع أحد أبنائك قصص كهذه، من قبل؟..

- كلا، يا سيدتي، أبداً!

- ماذا قالوا، عندما ألقي عليهم القبض؟

- لا أدري... ليس من المناسب التحدث عن هذه الأمور، يا سيدتي.. أرجو أن تعذريني..

كانت بعض النسوة قد أخذت تبتعد عن المجموعة، والقلق بادٍ على وجوههن. فأدركت «صوفيا» أنها لو ألحت عليهم بالحديث في هذا الموضوع لهرب الجميع.

وتساءلت:

- إني لا أرى «أنتيب»، فهو يسكن هنا، أليس كذلك؟

فقال «أغافون»:

- نعم، ولكنه ذهب ليجمع بعض الحطب، اذهب وناده، يا «ميتكا»! فانطلق صبي، بسرعة كبيرة، لدرجة أن رجليه الحافيتين كانتا تقرعان

مؤخرته. وكعادتها، أخذت «صوفيا» تمر على البيوت منتقلة من بيت إلى آخر، هنا واست شيخاً مريضاً، وهناك داعبت بعض الأطفال الراقدين في أسرتهم، وقامت بزيارة الأب «هيلاريون» الذي حل محل الأب «جوزيف».

الكاهن الجديد كان شاباً، بدا لها حزيناً نحيلاً، بلحية صغيرة، سوداء ومدببة، وكأنها غطست بالقار. وزوجته كانت بدينة، صحتها تكفي امرأتين. وحولها، بدت قطع الأثاث نظيفة ولماعة، وبعض عصافير «الكناري» الصفراء اللون، تغرد في قفصها، وكثير من الأغطية والأسمطة المطرزة، تغطي جميع المساحات المسطحة، تشير إلى العمل الدؤوب الذي تقوم به ربة البيت، في قضاء وتمضيه الوقت. وقد استقبلها الأب «هيلاريون» بأدب متحفظ، يتسم باللطف والمداراة. وكان واضحاً، أنه حذر، يرتاب بهذه الفرنسية المخلصة للبابا، وهي، علاوة على ذلك، عائدة من سجون سيبيريا. وبعد أن حدثها عن أبرشيته، وذكرت حادثة قتل «فلاديمير كريوفيتش سيدوف» الفظيعة، تبادل مع زوجته نظرة تنم عن الرعب. ولم تستطع «صوفيا» أن تنتزع منهما كلمة عن كيفية حدوث المأساة ولا عن الأسباب التي دفعت القتلة لارتكاب تلك الجريمة.

وقال الأب «هيلاريون»:

- أرجو من الله ألا يحول نظره عن قريتنا المتواضعة، بعد حدوث تلك الجريمة الفظيعة، وهذا هو كل ما أطلبه!

ورافق «صوفيا» مودعاً، حتى وهو يدفعها قليلاً وبلطف، لكي تسرع بالخروج. وعندما وصلت إلى خلف الكنيسة، بالضبط. كان «أنتيب» قد وصل أيضاً إلى هناك، وهو يقفز قفزاً بجانب الولد الذي ذهب ليناديه. إنه «أنتيب» الذي أصبح نحيلاً، جافاً، وشعره ولحيته الشقروان، أصبحا الآن ببياض الثلج. وعندما رأى «صوفيا» تقلصت جميع تجاعيد وجهه، وكان فمه يضحك وعيناه تبكيان. وركع على ركبتيه أمامها، وقبل ذيل

فستانها. فأنهضته وطلبت منه أن يرافقها إلى بيته: كانت تريد أن تتحدث إليه، على انفراد.

كان يسكن في آخر القرية. في «إيسبا» أصغر وأوسخ من بقية الإيسبات. ولكي تستطيع «صوفيا» أن تجلس، مسح المقعد بكمه، وطرد دجاجة كانت تنقر الحبوب تحت المنضدة. كان أكثر انفعالاً وتأثراً من أن يستطيع الكلام، أو أن يتلفظ بكلمة واحدة. كان يقف أمام سيدته، يحرك شفتيه، وهو يشهق وينتحب بصوت ضعيف:

فقالت له «صوفيا»:

- إيه، حسن! يا صديقي المسكين «أنتيب» ها نحن قد اجتمعنا، من جديد! لم أكن أعتقد أن من الممكن أن أراك ثانية، في يوم من الأيام!

فقال، وهو يئن ويتأوه:

- ولا أنا، يا سيدتي، لقد تقدمت بك السن، وأنا أيضاً، أصبحت شيخاً عجوزاً! ولكن ليست الشيخوخة هي الثقيلة التي يصعب حملها! إنه البؤس! إنها المصائب! لا أستطيع أن أنظر إليك دون أن أتذكّر عزيزنا «نيقولا ميكايلوفيتش» وأفكر به، بشمسنا المنيرة! وما هي الحياة، وأية قيمة لها بالنسبة للكلب، عندما يكون صاحبه قد أصبح في باطن الأرض؟ ليس هنالك صاحب ثانٍ بالنسبة للكلب! الكلب يستلقي أمام القبر، وينتظر أن تنتهي أيام حياته، وأن يحين أجله!

كانت الدموع تنهمر من عينيه وتسيل على خديه الوسخين، وترسم عليهما خطين مورّدين.

- عندما علمنا أن «نيقولا ميكايلوفيتش» قد فارق الحياة، القرية كلها سكرت، وظلت دائخة طوال يومين.

- هذا ما قاله، عندما استأنف الكلام، وهو ينتحب.

فسألته «صوفيا»:

- كيف أبلغكم الخبر «فلاديمير كريوفيتش سيدوفّ»؟

فكفّ «أنتيب» فوراً عن البكاء، وعيناه الصغيرتان، اللتان كانتا لا تزالان مغرورقتين بالدموع، بدا فيهما بريق الحنق والغيظ:

- وهل تظنين أن هذا كان سيكلف نفسه عناء إبلاغنا أيّ شيء! لقد علمنا ذلك من خدم المنزل، نقلاً من الفم إلى الأذن. وهذه هي أضمن طريقة...

وفجأة، وجّه لكمة إلى جبينه، وتابع كلامه، بلهجة حماسية مشوبة بالمغالاة:

- يا لك من مغفل! كنت قد أقسمت أن تدافع عن السيد الشاب، وتحميه طوال حياته. وقد خدمته واعتنيت به في المخيمات، ورافقته في ميادين القتال، وتبعته إلى فرنسا المنحرفة والضالة: «اعذريني يا سيدتي!» والآن هو يرقد تحت صليب، في جهة ما، تقع في آخر الدنيا، بينما أنت لا تزال تدفئ قوقعتك، كعبد، تحت أشعة الشمس! فأين العدل؟! لو أنكِ تركتني أرافقك إلى سيبيريا، يا سيدتي، لكان اختلف الوضع، ولسارت الأمور بطريقة أخرى!

- ولكن... أنت الذي لم تشأ أن ترافقني، يا «أنتيب»!

قالت له «صوفيا» هذا، وهي تبتسم، وأضافت:

- تذكّر! فقد أخذت تتوسل إلى «ميشيل بوريسّوفيتش» لكي لا يرسلك إلى سيبيريا لتقيم مع المساجين المحكومين بالأشغال الشاقة!

فتلاشت حماسة «أنتيب» وأخذ يحك رأسه، وهو يغمغم:

- أحقاً؟ إنّ هذا غريب! كل شيء كان مختلفاً في رأسي الكبير! نسيت، أصبحت أنسى كثيراً!... إنها السنّ... على أية حال، كان عليك أن ترغميني على الذهاب إلى هناك معك، يا سيدتي!... ولو ذهبت لأدّيت لك من الخدمات أكثر مما أداه ذلك المسكين «نيكيتا»، عليه رحمة الله!

فسألته «صوفيا»:

- وهل سمعت بوفاته، هو أيضاً؟

- بالتأكيد! بما أنه كان من «شتكوفو» كان لا بد من شطب اسمه من سجل الأبرشية. والسيد هو الذي يقرأ الرسائل، والفلاح العبد، «الموجيك» يعرف كل شيء قبله!

فسألته:

- وأهل «نيكيتا»؟

فأشار «أنتيب» بيده، كأنه يطرد ذبابة، وقال:

- الكوليرا.

- الاثنان؟

- نعم... والده وخالته... أوه! إنهما لم يكونا شابين... وتنهد، كما يفعل بسطاء الشعب، عندما يذكرون ميتاً. فقالت «صوفيا» في سرّها، إنه لم يسبق له أبداً أن كان على هذه الدرجة من نفاذ البصيرة.

وسألته:

- لم تعد تشتغل في «كشتوفكا»، أليس كذلك؟

فبدرت منه نظرة تنم عن الخبث، وقال:

- الرأس، الرأس مخبّل، لا يمكن الاعتماد عليّ كخادم. لقد أعادوني إلى القرية. وهنا، أنا بخير!

- والآخرون؟

- ماذا؟ من هم الآخرون؟

- الفلاحون الآخرون، هل هم بخير أيضاً، ومسرورون؟

- وهل سبق لك أن رأيت فلاحاً مسروراً، يا سيدتي؟

- تبدو الأراضي مزروعة ومستثمرة بشكل أفضل مما كانت عليه فيما مضى.

- بالنسبة لهذا، نعم. ولكن من ذا الذي يستفيد منه؟

وتصاعد الغناء في البرية، وأخذ يقترب، كانت تنشده مجموعة تسير مقتربة نحوهما. فقال «أنتيب»:

- هؤلاء هم أهالي قريتنا، عائدون من العمل.

فنهضت «صوفيا» فتحت الباب، ورأت على الطريق، قرويين قادمين، وهم يسيرون بالصف كالجنود، حاملين المعاول والفؤوس والبلطات، على أكتافهم، وخلفهم كانت تسير النساء، كل منهن خمارها على كتفيها، وهي تدفع عربة نقل صغيرة. وجميع الوجوه كانت تلمع من العرق الذي يغطيها، وملامحها مشدودة ومتوترة من التعب، وفي النظرات تعبير ينم عن البلادة والبله. وكان أربعة رجال، يحملون الهراوات ويحيطون بالمجموعة.

فسألت «صوفيا»:

- من هؤلاء؟

- هؤلاء، يسمونهم «السواقون». والسيد هو الذي يختارهم من خارج القرية. ويدفع لهم أجرة لكي «يسوقوا» الفلاحين إلى العمل ويراقبوهم، طوال الوقت، وهكذا لن يستطيع أحد أن يتباطأ في عمله!...

- ما هذا الذي ترويه؟ أبداً، لم يكن هنالك شيء مثل هذا فيما مضى...

- إيه كلا، يا سيدتي! فيما مضى كنا أحسن حالاً: كان السيد العجوز يغضب، يصرخ، يهدّد بالجلد بالسوط، يوجّه صفعة أو صفعتين، ثم تهدأ العاصفة، ولا يصاب أحد بأذى بعد ذلك. أما اليوم، مع السادة الجدد، فلم يعد هنالك غضب. كل شيء يحصل بكل برود. و «السوّاقون» موجودون هنا، لتطبيق القاعدة: «اعمل، وإلاّ فإنّ الهراوة ستدغدغ أضلاعك! »

تردّدت «صوفيا» في تصديق «أنتيب»، فسمعته كانت، على الدوام، أنه كذاب.

وسألته «صوفيا»:

- هل قتل الفلاحون «فلاديمير كريوفيتش» لأنه كان قاسياً معهم؟

- هذا ممكن تماماً! ونحن، من جهتنا، لسنا هنا، ولم نخلق على هذه الأرض لكي نحكم ونقيّم، بل لكي نتحمل ونعاني!

بين شعر لحيته، الأبيض، كان فمه يضحك، أحمر ومبلّل وفي عينيه بريق تتطاير منه الشرارات. وهزّ رأسه، كما لو أنه يرتدي طاقية مزوّدة بأجراس صغيرة:

- آه، يا رأسي، يا رأسي الصغير!

وانصرفت «صوفيا» وتركته، بعد أن وعدته بأنها ستعود بعد فترة وجيزة، تبادلت بعض الكلمات، في الشارع مع العمال العائدين من الحقول، وصعدت إلى العربة. و «السواقون» - نصف دزينة - كانوا جالسين على الرصيف، عند مدخل القرية، يثرثرون وهم يقضمون بذور دوار الشمس. وحيّوا «السيدة» التي تبادر إلى ذهنها:

إنهم لو كانوا من العمال الكادحين، لما أبدوا لها هذا القدر من التهذيب.

كان «سيرج» ينتظرها، للذهاب إلى مائدة الطعام. وقد ارتدى «ريدنغوت» سوداء اللون، مع صدرية بنفسجية، أزرارها من الأحجار الكريمة الأرجوانية. وربطة عنق الحداد، بثلاثة أدوار تسند ذقنه. وكان وجهه ناعماً، زاهي اللون. وسأل «صوفيا» وهو يجلس أمامها في غرفة الطعام، المفتوحة نوافذها على الحديقة:

- هل قمت بنزهة جميلة، يا خالتي؟

فقالت:

- رائعة!

كان الخدم يمرون بسرعة خلف ظهرها. أخذت قليلاً من السمك في صحنها. لم تكن هي التي رتبت مأكولات الوجبة. ينبغي أن تطلب فيما بعد أن يكون لها الحق بأن تفعل ذلك. وعلى الرغم من أنها ردّدت كثيراً بينها وبين نفسها أنها في بيتها، في هذا المنزل، ولكنها كانت تشعر في كل

لحظة، وطوال الوقت، تحت نظرات «ابن أختها» أنها مدعوة، ضيفة، دخيلة. وتناولا الطعام وهما صامتان، كل منهما حبيس أفكاره الخاصة، ومنغلق على نفسه، ثم، أثناء تبديل بعض الأطباق، قال «سيرج» بالفرنسية:

- كيف وجدتِ الملكية؟

فأجابته:

- لم يتح لي بعد الوقت الكافي، لأكوّن رأياً بشأنها، ولكن يبدو لي أنّ الأراضي مستثمرة جيداً.

فقال، بلهجة تنم عن الزهو والافتخار:

- خلال خمس سنوات، ضاعفنا إنتاج القمح، والذرة الصفراء والحنطة السوداء، ورفعنا إلى ثلاثة أضعاف إنتاج البطاطا! والخضروات التي تنتجها أراضينا، كالخيار والشوندر والفول هي الأفضل في المنطقة! وفواكهنا...

فقاطعته، بلطف وهدوء:

- وماذا عن فلاحينا؟

- إنهم يتكاثرون كالأرانب! ألفا نفس، في زمن جدي! ألفان وسبعمائة وخمسون، حالياً! فهذه نتيجة رائعة!

- لا شك في ذلك، ولكني وجدتهم متعبين، قلقين، ... ومن هم أولئك «السواقون» الذين عيّنتهم في القرى؟ إنهم يذكرونني بالحراس القساة الذين يحرسون المساجين في سيبيريا!

- أنت تعطينهم من الأهمية والقسوة أكثر مما ينبغي، إنهم ليسوا سوى مراقبين.

- مسلحون بالهراوات!

- إجراء لمجرد التخويف. الفلاح العبد «الموجيك» كسول بطبيعته، إذا لم تخوّفيه وتهدّديه فإنه يختلق ألف ذريعة لكي لا يعمل.

- هل هذه الفكرة من والدك؟

- كلا، إنها مني. ولكنّ والدي أيدها بحماسة. أظن أن الفلاحين قدموا لك شكواهم بهذا الخصوص؟!

فقالت، بسرعة:

- أبداً، وعلى الإطلاق.

- سيفعلون ذلك، ذات يوم، فلا تصغي إليهم، لأني أعتقد أنك شديدة الحساسية وقلبك رقيق، وهذه صفات لا تصلح لشيء، إذا كنا ندير شؤون ملكية واسعة. والوضع المثالي، هو أن يكون أحدنا قلبه قاسٍ، وعقله عادل ومنصف.

- وهل أنت هكذا، وفي هذا الوضع؟

فأجابها، وهو يبدي الجدية والوقار، بصورة مفاجئة:

- نعم، أعتقد ذلك.

وأحضر أحد الخدم طبقاً من حلوى الفاكهة، وأتى آخر وأشعل الشموع في شمعدانين. كانت الليلة حارة الجو، يسود فيه الهدوء والرطوبة وكانت «صوفيا» تشعر بوطأة ملابسها على منكبيها.

وقال «سيرج»:

- ينبغي أن ننظم معيشتنا. وأنا لا أظن أنك تحرصين كثيراً على الاهتمام والعمل بالزراعة وبأمور استثمار الملكية...

- بأمور استثمارها، كلا، ولكن بشؤون الفلاحين العبيد، وبأوضاعهم، نعم، إني أهتم بها.

فتجهم وجهه، وقال لها:

- إنّ فلاحينا لا ينقصهم شيء، وأنا أؤكد لك هذا!

- ربما ينقصهم شيء من الرأفة...

- سيعتبرون رأفتك ضعفاً، كلا، كلا، يا خالتي، دعي جانباً أحلامك الإنسانية! وأنا أراك بوضع أفضل، وأنت تديرين المنزل وتشرفين على

شؤونه. فأنت امرأة والقضايا المنزلية والمعيشية هي من اختصاصك، وليست الأمور والمشكلات الزراعية هي التي تستطيعين تحمل أعباءها...

ففضلت عدم مجادلته ومعاكسته، في الحال، ولذلك، قالت:

- ليس هنالك ما يدعو للعجلة، وسنرى فيما بعد، ماذا على كل منا أن يعمل.

- كما تشائين، يا خالتي.

وردّت خصلة شعر عن صدغها، وفي الحال صفّق «سيرج» فبرزت خادمة من الغبش، وأخذت تحرك مروحة أمام وجه «صوفيا» لتلطيف الجو حولها. وكانت المروحة مشبعة بعطر الياسمين. وهذه الرائحة القوية، ذات المذاق الحلو، بعض الشيء، تقزّزت منها «صوفيا» فكشّت وانقبضت أساريرها.

فسألها:

- ألا تحبين هذا؟

- كلا، وأعترف بصراحة أني لا أحبه.

عند ذلك، صرخ باللغة الروسية:

- توقفي، أيتها الغبية!

فذهبت الفتاة، تركض بسرعة.

وتبادر إلى ذهن «صوفيا»: «أنه، على الخصوص، سيئ التهذيب».

٣

كان يبدو لـ «صوفيا» أنها لن تكل ولن تمل أبداً من اكتشاف جمال «كشتوفكا» وسحرها. وكانت الأيام تمر بسرعة كبيرة، لدرجة أنها كانت تدهش، كل مساء، لكونها تقريباً لم تعمل شيئاً، ومع ذلك فقد كانت تشعر أنها مطمئنة وسعيدة. كانت تدير وتوجه الخدم في أعمالهم، تشرف على مستودعات المواد الغذائية، وعلى صناديق وخزائن الألبسة والشراشف والمفروشات، ترتب تحضير المأكولات، وتدقّق حسابات العجوز «زينايید» التي خلفت «فسّيليسا» في وظيفة وكيلة شؤون تموين ونفقات المنزل. ولكنها كانت تمضي معظم وقتها في القيام بنزهات في الحقول وبزيارة بعض القرى. وكان فصل الصيف يمر مع حرارة شمسه، ورائحة الأرض المشققة وطنين الذباب والحشرات الأخرى. المواسم جيدة، والقمح والحنطة السوداء، لم يسبق لهما، كما يقول المتقدمون في السن أن نبتا بهذه الغزارة وبهذه الكثافة، وكانت سنابل الشوفان ترتعش في تموجات طويلة مع هبات الرياح. وفي البراري الواسعة القريبة من النهر، كانت الحشائش والأعشاب نامية جداً ولا بد من حشها وجمعها كعلف للحيوانات. وكان الفلاحون منهمكين بالعمل. وكانت «صوفيا» توقف عربتها بجانب الطريق لكي تنظر إليهم وهم يعملون. كانوا يتقدمون على خط مائل، وبريق مناجلهم يلقي أمامهم موجات وأكواماً من الخضرة. وفي النهاية، بدا المشهد غريباً، يصعب التعرف عليه، بعد أن جُزّ غطاؤه الأخضر

الذي كان يستره، وقد جدّد شبابه، كمن أزال لحيته وصار حليقاً أمرد. ولحسن الحظ، فإنه لم يهطل سوى مطر خفيف في الأيام التالية. فأتت النساء بملابسهن المتعددة الألوان لمساعدة الرجال في جمع الأعشاب المقطوعة وتكديسها. ثم بدأت العربات رحلاتها ذهاباً وإياباً بين الحقل والمستودعات. وبعد ذلك آن أوان الحصاد، فشارك به جميع سكان القرى. واصطفت حزم القمح الذهبية على مدى النظر. وكان «سيرج» يراقب بنفسه، تلك العملية. وبدا «السواقون» كرجال الدرك الأشدّاء. وكان المحصول جيداً وغزيراً جداً، لدرجة أنّ المالك وعد بتوزيع المشروبات الروحية، بعد عيد صعود العذراء. وطلب من «صوفيا» أن ترافقه إلى كنيسة «شتكوفو»، في ذلك اليوم. وحضرت معه القداس. وكانت وهي تقف في الصف الأول بين النساء، وقد تولّد لديها شعور بأنها كدرع يحمي ألف روح أرثوذكسية، عاملة، نشيطة وغامضة. وعندما خرجت، بعد الصلاة، مع «ابن أختها» إلى الباحة، انحنت جميع الرؤوس أمامهما. وكان هذا القدر الكبير من الاحترام يجعلها تشعر بالضيق والحرج، ولكنها لم تكن تستطيع أن تغيّر أخلاق وعادات هؤلاء الناس الذين اعتادوا منذ عدة قرون على العبودية. وساعدها «سيرج» على الصعود إلى العربة، جلس إلى جانبها، وتمتم:

- هل قلت لك بأنّ عليّ أن أتغيب غداً؟ سأذهب إلى «بسكوف» لتأدية الشهادة في قضية الذين قتلوا أبي.

فارتعشت «صوفيا». ومنذ الوقت الذي قبع فيه الفلاحون الثلاثة في السجن، فقد انتهى بها الأمر إلى الاقتناع بصورة لا شعورية أنّ قضيتهم قد سويت، وانتهى أمرها.

وتمتمت:

- وهل سيحاكمون غداً؟

- إيه! نعم. لقد طال انتظار تلك المحاكمة، ولم تحصل بما ينبغي من السرعة! آمل أن تكون العقوبة قاسية، لا رحمة فيها! ولكن لسوء الحظ، لا وجود لعقوبة الإعدام في بلادنا، لجرائم الحق العام!

- ستجري المناقشات بصورة سرية، وخلف أبواب مغلقة، أليس كذلك؟

- بالتأكيد! فنحن لسنا في فرنسا، حيث أصبح النظر بالدعاوي في المحاكم، مشهداً عاماً، يحضر لمشاهدته كل من يرغب بذلك من الناس!

فقالت:

- هذا يدعو إلى الأسف! لكم كنت أود حضور هذه المحاكمة.

وانطلقت العربة، وتصاعد رنين أجراسها.

★★★

الفلاحون الثلاثة، وقد اقتنعوا بأنهم قتلوا سيدهم، حُكم عليهم بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة. وأخبر «سيرج» «صوفيا» بقرار الحكم، مساء ذلك اليوم نفسه، وهما يجلسان إلى مائدة الطعام، بشيء من الجدية التي تشبه الحزن. فاعتقدت أنّ الرحمة المسيحية قد تغلبت لديه، أخيراً، على الرغبة بالانتقام، ولكنه تابع الكلام وهو يقطّع جناح فروج، في صحنه:

- لقد سبق أن قلت لك مساء البارحة، إني كنت أتمنى أن تطبق بحق القتلة عقوبة قاسية ونموذجية، إيه! لقد كنت مخطئاً، إذ إنّ خسارة ثلاثة عبيد، دفعة واحدة، أمر شاق جداً وفي غاية الصعوبة! هذا ولو كانوا شيوخاً متقدمين في السن!... ولكنّ هؤلاء هم شباب أقوياء، لن أستطيع تعويضهم أبداً! فـ «أوسيب» الأصهب يعمل بقوة ومهارة بجميع الأدوات الزراعية، و «فيدكا» لا مثيل له في صنع العربات وإصلاحها!... فلو أني عرفت!...

فقالت له، مستغربة ما يقوله:

- ماذا؟ أما كنت شكوتهم للقضاء؟

فهزّ «سيرج» كتفيه:

- بلى، بالتأكيد!... كان ينبغي القيام بذلك... لإعطاء الدرس والعبرة للآخرين!... ثم... وأخيراً... لإقامة العدالة وتحقيقها!... ولكن مع ذلك، فعندما اقتادوهم، بعد إعلان الحكم، شعرت كأنهم ينتزعون شيئاً من بطني!...

فقالت:

- يا لها من شفقة مستوحاة بشكل غريب!

- أنا هكذا، يا خالتي! لديّ غريزة حب التملك نامية وقوية جداً، فمثلاً أنا أتفهّم جيداً المتعة التي تشعرين بها عندما تتنزهين بالعربة في نواحي الملكية. وأنا أيضاً، عندما أجوب الطرقات على صهوة جوادي، وعندما أنظر إلى الحقول، إلى القرى، إلى الأشجار، إلى الأنهار وإلى العبيد، وأقول لنفسي إنّ كل هذا يخصّني - يخصّنا - أشعر بنشوة شديدة في نفسي. كما أشعر أيضاً أني سيد بعد الله. فهل توجد متعة خالصة للإنسان أعذب من ممارسته بكل وعي، القدرة الكلّية؟

والبرود الساخر الذي كان يتصنعه عادة، ذاب في نار انفعال، لم يكن يستطيع ولا يريد أن يكبحه ويسيطر عليه. وأحضر الخدم كعكة بمربى المشمش - وهي إحدى «تحلياته» المفضلة، التي كانت «صوفيا» قد أوصت عمداً بتحضيرها، قبل ذلك اليوم - ولكنه كان متحمساً جداً وبكل عنف في حديثه، لدرجة أنه حتى لم يلاحظ وجود «كعكته» المفضلة، وقد أصبحت على المائدة:

- أن تأخذي «حفنة» من التراب بيدك، وتدعكيها، وتقولين في سرّك أنها مني وامتداد لذاتي! أن تأمري العبيد بأن يقوموا بهذا العمل أو بذاك، ويقومون به، منصاعين لأمرك، كما تنصاع لك ساقاك عندما تأمرينهما

بالمشي! هذه هي السعادة الحقيقية! أما المدينة والمشاوير، الزيارات، العلاقات الخارجية والصداقات، فهي لا تعنيني ولا أهتم بها...

وأطنب، هكذا، في الحديث، لفترة طويلة أمام صحنه الممتلئ، ثم التهم «الكعكة» بلقمتين، ونهض ليتبع «صوفيا» إلى المكتب. حيث تناولت البساطة من علبة «الشغل» وجلست تحت المصباح. كان الرسم، في تلك البساطة يمثل سلّة ملأى بالزهور، على طريقة وأسلوب «Redouté» «رودوتيه»[1]. وكانت تشدّ خيوط الصوف المتعددة الألوان عبر «شبكة الشغل». وبالطريقة الهادئة والبطيئة التي كانت تعمل بها، فإنها لا يمكن أن تنهي هذه البساطة قبل سنتين.

وسألته:

- ألم تفكر أبداً أن تتزوج؟

فقهقه بضحكة مدوية:

- أبداً! اعذريني يا خالتي، فأنا أعتبر أن من الغباء أن يضع المرء المقود في عنقه، إذا كان يستطيع أن يتمتع بالملذات نفسها، وهو باقٍ حراً طليقاً!

وكان قد سبق لها أن لاحظت أنه، مرة أو مرتين في الأسبوع، كان يرتدي أجمل ملابسه ويذهب ليمضي السهرة في المدينة. وليس هنالك أي شك بأن له هناك بعض العلاقات والمعارف، إلا إذا كان، وبمزيد من البساطة، يتنقّل من فتاة إلى أخرى. والمومسات لسن قليلات العدد في «بسكوف».

فقالت له:

- ولكن، بالتأكيد لك بعض الأصدقاء؟

١- «Pierre Joseph Rodouté» «١٧٥٩-١٨٤٠»: رسام بالألوان المائية ونقّاش، بلجيكي الأصل تخصّص في باريس باللوحات التي تمثل النباتات والزهور -المترجم.

- ليس لي حتى ولا صديق واحد.

- وأنت في هذه السنّ، مع ذلك...

- في هذه السنّ كما في غيرها، يجب أن يعيش المرء لذاته، وأن يهتم ويستفيد بما هو قريب منه، وفي متناول يده. كالدابة التي ترعى العشب النامي حول الوتد المربوط به. وأنا أحب مربعي هذا النامية فيه الأعشاب! أحبه بهوس وبكل جوارحي!

كانت التعابير التي تنم عن النهم تلهب وجهه. فالتقط أنفاسه، وتابع:

- هنالك مجال واسع للّهو والتسلية دون الخروج من الملكية!... لديّ مشاريع كثيرة وغير اعتيادية!... سأوعز بطلاء جميع «الإيسبات» باللون الأبيض... وفي داخلها، سيبدو معلقاً على الجدار بيان بالأدوات المنزلية... وسوف يرتدي الفلاحون كلهم زياً موحّداً... من ملابس نظيفة، ظريفة ومريحة... وسيكون هنالك منهاج يومي للعمل، يلتزم به الجميع، ويكلف «السواقون» بالسهر على مراقبة مراعاته والتقيد به... وسوف تُجبر جميع الفتيات والأرامل على الزواج... وستفرض غرامة معينة على من لا تنجب أطفالاً خلال مهلة محدّدة تعطى لهنّ... وهؤلاء الأطفال حالما يبلغون الثامنة من العمر، يؤخذون من أسرهم، لكي يربيهم مربون ومدربون مختصون، لكي يصبحوا عمالاً ممتازين...

فقاطعته، قائلة:

- إنّ ما تصفه الآن يذكرني كثيراً بالمستوطنات العسكرية التي كان يدعو لإنشائها «أركتشييف». وأنت تعرف كيف انتهت الأمور آنذاك!؟...

- إذا كان القرويون قد تمرّدوا وثاروا في المستوطنات العسكرية، فذلك لأن القواعد والأنظمة قد طبقت عليهم بحمق وغباء، من قبل موظفين غير معنيين بالنتائج وغير مهتمين بها. أما أنا، فسوف أكون كأب بالنسبة لعبيدي. فلن أتركهم أبداً يموتون من الجوع. ولكن

القضبان والعصي ستظل منقوعة بالملح، لكي تكون الضربات أقوى لسعاً وأكثر إيلاماً!

كانت أفكار «صوفيا» موزعة بين الرغبة بالضحك، والشعور بالذعر حيال هذه السذاجة الشديدة. كان يخيل لها أنها تستمع إلى طفل عبثت بعقله أحلام عبثية، سخيفة وغير معقولة. ولكنّ هذا الطفل كانت لديه القدرة على تنفيذ جميع أفكاره. فهنالك ألفان وسبعمائة وخمسون كائناً حياً خاضعين لجميع رغباته ولكل ما يحلو له أن يفعل بهم.

وقالت له:

- أنا لا أنصحك بأن تحاول القيام بهذه التجربة.

- لماذا؟

- لأني سأعارضها، وأقف ضدها.

- ولكنها ستكون لخير فلاحينا!

- هذا الخير الذي تتحدث عنه، سيكون أسوأ من الشر والأذى.

فتجهّم وجه «سيرج» وقرأت عليه «صوفيا» الاستياء الذي يبدو على وجه الطفل عندما يعاكسه أحد ما، ويعكر عليه لعبه. فلا بد من أنه كان يظن أنها تتظاهر عن قصد بأنها لا تتفهّمه. واستأنفت العمل في بساطتها، وهي تتمتم:

- عليك أن تعرف، يا «سيرج» أنه سيأتي يوم، يكون فيه القيصر مضطراً لتحرير العبيد. وقد بدأ الناس يتحدثون عن ذلك منذ الآن، وعلى ما يبدو فقد شكلت بعض اللجان لدراسة هذه القضية والعمل على حلها.

فصاح بأعلى صوته:

- أبداً، وعلى الإطلاق، فإمبراطورنا لن يرتكب هذا العمل الجنوني! لأنه عند ذلك سيحل الدمار بالبلاد، وستنهار كل البنية الاجتماعية الروسية، وستعم الفوضى والظلم، تماماً الظلم!

وسكت وهو يلهث، وقد احمرت أذناه، ثم عاد الهدوء شيئاً فشيئاً إلى وجهه. فأشعل غليونه، وسحب منه «سحبتين»، تنهد، وأخذ يحدّق، عبر النافذة، في ظلام الليل.

فسألته «صوفيا»:

- متى سيرسلونهم إلى سجن الأشغال الشاقّة؟

- غداً، من دون شك...

وأخذت تفكر، والإبرة بيدها وقد توقفت عن العمل، بأولئك الرجال الذين سيذهبون، مقيدين بالسلاسل والأغلال، إلى سيبيريا. وإن كانوا قتلة فلم تكن تستطيع الامتناع عن أن تشفق عليهم وأن ترثي لحالهم. آه! اكفهرار الوجوه المتعبة، طقطقة السلاسل الحديدية، رائحة الملابس المبللة والمشبعة بالعرق والوسخ... فقد رأت عدداً كبيراً من المحكومين بالسجن مع الأشغال الشاقة على الطرقات، في محطات الاستراحة، وفي مراكز فرز وتوزيع هؤلاء المساجين التعساء، لدرجة أنهم كانوا يتداخلون في ذهنها ويختلطون، كما يحدث لأمواج البحر.

٤

وبعد انتهاء فصل الصيف هطلت أمطار غزيرة، ولكنّ جميع المحاصيل حتى محصول البطاطا، كانت قد جمعت وأودعت في المستودعات، في الوقت المناسب. وخلال عدة أيام، بدت «كشتوفكا» عائمة، كسفينة داهمها الطوفان. وغمرت المياه الطرقات، وجرفت أحد الجسور الخشبية. واستبدّ الغيظ بـ «سيرج» لعدم استطاعته الذهاب إلى المدينة من أجل البحث عن مشترين لمحصول القمح. ومع ذلك ففي مطلع شهر تشرين الأول «أكتوبر»، سطعت الشمس من جديد، ثم استقر الطقس في الخريف، لطيفاً، يشوبه ضباب خفيف. وحالما أصبحت الطرقات سالكة من جديد، ذهب «سيرج» إلى «بسكوف». وعاد في المساء، يحمل بعض الأوساخ على ملابسه، ولكنه بدا مزهواً لكونه عقد صفقة البيع بشروط جيدة. وجلب معه رزمة من الرسائل، كانت قد بقيت متجمعة في دائرة البريد، بسبب سوء الأحوال الجوية. ومع ابتسامة ساخرة للغاية، ناول «صوفيا» مغلفاً يحمل خاتم بريد «توبولسك»، فكادت تبكي من شدة تأثرها، عندما عرفت أنّ الخط هو خط «بولين أنانكوف».

كانت تلك هي المرة الأولى، التي تصلها أخبار من سيبيريا. فصعدت إلى غرفتها، وأسرعت في قراءة تلك الصفحات المغطاة بكتابة خطوطها متلاصقة. وحسب ما جاء في هذه الرسالة، فلا هي، أي «بولين» صاحبتها، ولا الدكتور «وولف» ولا أي واحد من الأصدقاء الآخرين، تلقى أي رسالة من «صوفيا». ومن جهتهم، فقد كتبوا لها، كلهم، عدة مرات، وشعروا

بالقلق لأنها حتى ذلك الحين لم تردّ على رسائلهم. فاستاءت «صوفيا» وشعرت بالغيظ: فالبريد الروسي مؤسسة سيئة، يديرها الجواسيس! ولا جدوى من انتظار رسائل تأتي من سيبيريا، أو الاعتماد عليها إذا كان من أرسلت له عائداً من هناك!

ومما جاء في رسالة «بولين»:

«ربما يحالفني الحظ، هذه المرة بهذه الرسالة أكثر من الرسائل السابقة فتصلك ويصلني جوابك عليها. فنحن جميعنا نحب أن نعرف أخبارك، وكل ما حصل معك! لا تنسينا، بحق السماء! هنا الحياة لم يطرأ عليها أي تغيير. والجميع بخير وبصحة جيدة. والأولاد يكبرون ويترعرعون. والدكتور «وولف» افتتح مستوصفه، ولا يدري كيف يتدبر أموره، لأنّ عدد مرضاه يتزايد كل يوم. ونحن نذكرك ونتحدث عنك دائماً معه. ولن تستطيعي أن تتيحي له سروراً أقوى من السرور الذي تتيحينه له فيما لو كتبتِ له بضعة أسطر بخط يدك»

فتدفق فيض من الحنان في نفس «صوفيا» ليّنها وأضعفها. بينما كانت تراودها بعض الأفكار البسيطة: «لقد نجح... وهو مشغول جداً... هذا حسن! » وبعد أن تمالكت نفسها، قررت أن تكتب، في الحال إلى «فرديناند وولف». ولكن، عندما تبادر إلى ذهنها أنّ رسالتها لن تصل، دون شك إلى المرسلة إليه، فترت همتها. وعندما أغلقت المغلف، بدا لها أنها لم تستطع أن تتحدث عن حياتها ولا أن تعبر عن عواطفها.

أثناء تناول طعام العشاء، سألها «سيرج» بلهجة تنم عن اللامبالاة وعدم الاهتمام، فيما إذا كان كل شيء يسير على ما يرام لدى أصدقائها «في الجانب الآخر من جبال الأورال». فلم تكترث بوقاحة سؤاله. كان واضحاً أنه يحاول إثارة خناقة صغيرة لكي يلهو بتعكيره جوّ تلك الأمسية. والآن، وقد أصبحت تعرفه جيداً، فهي تعتبره فتى أنانياً، مغروراً، غضوباً،

ولكنه، إجمالاً، فتى يمكن التفاهم معه، شريطة عدم التحدث إليه عن سعادة الشعب وعن شكل الحكومة المثالي. ويخيّل للمرء أنّ بعض مفردات اللغة، السياسية تثير لديه صدمة، وهذه الصدمة تسبب ضيقاً في دماغه، وفجأة، يبدو عنيداً وينقبض ويتجهّم وجهه، ويصبح شريراً وغبياً. وغيرت «صوفيا» مجرى الحديث، بسؤالها إياه عن كيفية قيامه بالمحادثات مع تجار «بسكوف» الذين اشتروا القمح، وبينما كان يروي بسرور واضح ما حدث معه، عادت، في الحلم والخيال، إلى أفراد أسرتها الحقيقية، المؤلفة من أناس كانوا يفهمونها، ويحبونها، وقد عانوا مثلها من التجارب والمحن نفسها، ولكنها، بالتأكيد، وبكل أسف، لن تراهم أبداً، بعد اليوم.

وفي الأيام التالية، أخذت تنتظر، متوقعة أن تصلها رسائل أخرى. وعندما كان سائق العربة يعود من «بسكوف» كانت تسرع إلى درج المدخل، لكي تعرف بأسرع ما يمكن، فيما إذا كان يحمل لها شيئاً في حقيبته. وقد اعتاد هو على ذلك، ومن بعيد، عندما يراها كان يهز رأسه بالنفي. وكانت خيبات الأمل تتوالى وتتضاف الواحدة إلى الأخرى، ومع ذلك كانت تظل متشبّثة بالأمل. وبعد أن يمر موعد وصول البريد، كانت تتمشى، مكتئبةً، ليس لديها أي عمل تقوم به، متجهة نحو حديقة «كشتوفكا». كانت هنالك المماشي مغطاة بالأوراق الجافة. وعلى جانبيها تنتصب الأشجار الضخمة التي عرتها الرياح من نصف أوراقها. وأشجار الصنوبر الداكنة، بشكلها المخروطي تبدو كمطفأة للشموع ضخمة جداً. وخلال إحدى نزهاتها، وصلت «صوفيا» إلى فسحة، كانت قد أتت إليها عدة مرات في الماضي: كانت هناك مقبرة السادة أصحاب الملكية: وراء حاجز حديدي، مجرد صلبان حجرية بسيطة، يعلوها سقف منحدر الجانبين: هنا يرقد أجداد «ميشيل بوريسوفيتش»، أعمامه وعماته، و «ميشيل

بوريسوفيتش» نفسه، زوجته وابنته، وأخيراً: «فلاديمير كريوفيتش سيدوفّ» وهذا لم يكن له علاقة، وليس لديه ما يعمله، بين هذا الجمع! ومرة أخرى، أسفت «صوفيا» كثيراً لأن السلطات رفضت السماح بنقل رفات «نيقولا» إلى هنا. وكم كانت تود أن تتحدث إليه، هنا، وعلى انفراد، وعبر التراب. ومع مرور الأيام، وفي كل سنة، كانت تجد مزيداً من الصعوبة في تصوره حيّاً. وعندما كانت تفكر به، كثيراً ما كانت تتصور البحيرة الكبيرة المتلألئة، التي يرقد بالقرب منها، عبر هدير أمواجها المتلاطمة والمتجدّدة. أو أنه كان يبدو لها أيضاً، بالأسود والأبيض، كصورة في أحد الكتب. ساكناً على الدوام، غير واقعي ولا حقيقي، دون كثافة ولا حرارة. كانت إحدى القرويات تنظف المكان، وتزيل الأوراق اليابسة من حول القبور. وسارت «صوفيا» وقد أحنت رأسها، في طريقها، عائدة إلى المنزل.

في ذلك المساء، وبمصادفة غريبة، أخبرها «سيرج» بأنه سيعمل على إقامة قدّاس في كنيسة «شتكوفو» يوم الخامس عشر من تشرين الثاني «نوفمبر» من أجل راحة، روح والده، الذي مضى على موته ستة أشهر بالضبط. وعلى الرغم من المشاعر التي كان يوحي لها بها «فلاديمير كاربوفيتش سيدوفّ» فإنها لم تكن تستطيع رفض حضور القداس، لاسيما وأنّ الكاهن، بهذه المناسبة، سيطلب بركة الله ورحمته لجميع أموات العائلة.

وفجر يوم الخامس عشر من تشرين الثاني، عصفت الرياح بقوة، ودفعت غيوماً كثيرة سوداء، غطت الأفق. وبينما كان «سيرج» و «صوفيا» في طريقهما إلى الكنيسة، مستقلين العربة، بدأ المطر ينهمر. وعلى الرغم من سوء الطقس، فقد تجمّع في بهو الكنيسة جميع سكان «شتكوفو» وسكان القرى المجاورة لها. فقد اقتادهم «السواقون» كما تُقتاد المواشي.

كانوا مصطفين جنباً إلى جنب، الرجال في جهة، والنساء في الجهة الأخرى، كانوا يشكلون كتلة متراصة، ولكنهم أفسحوا الطريق وهم يتهامسون، للسيد وللسيدة، كي يتقدما إلى جانب الفاصل الأيقوني. كان الأب هيلاريون يرتدي ثوبه الأسود، وبدا وقوراً متجهم الوجه. وكان يحمل المبخرة «أرشمندريت» قصير القامة مورّد الوجه، ومن المبخرة كان يتصاعد دخان أزرق ذو رائحة شرقية. ومن النوافذ العالية، كان يبدو ضوء العاصفة الشاحب. ومنذ بداية القداس، كان هدير الرعد يسمع، قادماً من بعيد. وعندما رتّل الكاهن الموعظة التي تذكر بالعذاب وتحذّر منه: «سيدي ومولاي، مالك حياتي...» سرت موجة هزت المؤمنين، فركعوا، خاضعين، وشاعرين بمذلتهم.

وتابع الكاهن، بصوت أجش:

«أيها المولى، افتح عينيّ، أنا الخاطئ!»

وانشقت السماء بفرقعة قوية ومدوية، وتلألأ ذهب الأيقونات، ثم انطفأ كل شيء. فرفع الأب «هيلاريون» نظره نحو قوس عقد السقف. وأخذ الرعد يقصف من جديد بقوة، وعن قرب، فاهتز زجاج النوافذ. وكانت «صوفيا» تراقب «سيرج» خلسةً. كان قد أحنى جبهته، ووضع ركبته على الأرض، مستغرقاً في التأمل، ساكناً لا تبدر منه أي حركة. عند ذلك أخذت تنظر إلى الوراء: لم يعد أحد يصلي. وعلى وجوه الجميع بدت تعابير الرعب القدسي. فقد تسمّر الفلاحون ونساؤهم وأطفالهم، وبدا الجميع وكأنهم يتوقعون نهاية العالم. وعبر قصف الرعد وصخب تلك العاصفة الهوجاء، تم القسم الثاني من الصلاة. وعندما أخذ الكاهن يتحدث عن المتوفى ولفظ اسم «خادم الرب «فلاديمير»، ردّ عليه أنين صدر من الجميع. ورسم «سيرج» إشارة الصليب، فكرّر حركته المؤمنون، وسجدوا ضاربين الأرض بجباههم. وأخيراً أخذ الرعد يتباعد، ثم هدأ، وأغمدت السماء سيوفها النارية.

وعند خروج «صوفيا» من الكنيسة، اكتشفت قرية غسلتها زخات المطر، الذي لم يعد يهطل. كان الهواء نقياً والجو هادئاً. وأخذت صور بعض الغيوم الهادئة تنعكس على سطح المياه التي تجمعت، مشكلة بركاً صغيرة. وعندما همت «صوفيا» بالصعود إلى العربة، مع «سيرج» غيرت رأيها، وقالت له:

- على أي حال، أفضل أن أدعك تذهب لوحدك: علي أن أزور هنا بعض عائلات الفلاحين: أيمكنك أن ترسل لي العربة؟

فدهش من قرارها المفاجئ، ولم يستطع إلا أن يتمتم:

- بالتأكيد، يا خالتي.

ولكن عينيه كانتا تبرقان حقداً وغيظاً. وقفز إلى العربة التي أخذت نوابضها تصر. لكم السائق في ظهره، بقبضته، وصاح:

- هيا! انطلق! أيها المغفل!

فانطلقت العربة بشكل مفاجئ وعنيف، بحيث كان على «صوفيا» أن تبتعد عنها بسرعة لكي لا يصيبها رشاش الوحل الذي أطلقته عجلات العربة. ومن حولها، أخذ الفلاحون يتفرقون مبتعدين، كما لو أنهم كانوا يخشون من أن تتحدث إليهم. ويبدو أن الرعب الذي انتابهم في الكنيسة كان لا يزال يلازمهم. وحتى الكاهن، فقد أسرع بالانصراف دون أن يتفوه بكلمة. ومثله فعل وكيل الملاك الذي يشرف على شؤون الملكية. وخلال بضع دقائق، وجدت «صوفيا» نفسها لوحدها، في وسط القرية فدهشت واستغربت تصرفهم، وحاولت أن تلحق بهم إلى القرية وفي كل بيت، كانت تستقبل بريبة وحذر. فهي وإن كانت تعرف جيداً دور البدع والخرافات في حياة هؤلاء القرويين المتخلفين، فلم تكن تستطيع أن تصدق أن مجرد حدوث تلك العاصفة قد أثر بهم إلى ذلك الحد. فلا بد من أن يكون هنالك أمر آخر لا يريدون أن يبوحوا لها به. وبعد أن يئست من إمكانية التحدث إليهم، ذهبت لترى «أنتيب»، الذي صاح، عندما رآها:

وهو يضم يديه، كمن يصلي:

- آه! يا سيدتي! لماذا أتيت؟

- أنت وحدك تستطيع إعطائي بعض المعلومات، يا «أنتيب».

فماذا حدث؟ يبدو أن جميع سكان القرية قد استولى عليهم الرعب!

- هنالك ما يدعو إلى الرعب، يا سيدتي! أما سمعت قصف الرعد في الكنيسة؟ فالرجل قد تجاوز الحد! وارتكب المحرمات! كان يرسم إشارة الصليب على صدره، ويوجه نظراته ذات اليمين، وذات اليسار، وهو شديد الخوف.

فسألته «صوفيا»:

- أي محرمات؟

- ذلك القداس، يا سيدتي، لم يكن له الحق بأن يقيمه!

- أليس إقامة مثل هذا القداس، من الأمور التقليدية؟

- لاتّباع التقاليد والتقيد بها، يجب أن يكون ضمير المرء مرتاحاً! فبعد موت «فلاديمير كاربوفيتش» بتسعة أيام، أقيمت صلاة جنائزية، وكل شيء حصل على ما يرام. وبعد موته بأربعين يوماً أقيمت صلاة جنائزية أخرى، وفي تلك المرة كل شيء مر على أحسن حال. ولكن هذه المرة، فقد أعطى الله جوابه، أخيراً. وبينما كان الابن الحقير يجرؤ على الصلاة من أجل راحة الأب، احتجت السماء وجميع المسيحيين فهموا ذلك. والأمر الذي يدهشني، هو أنه لم يسقط مصعوقاً في وسط الكنيسة!

فسألته «صوفيا»:

- لماذا تكرهه؟

- لأنه سبب الإدانة لأناس أبرياء!

- أليس الفلاحين الثلاثة هم الذين قتلوا «فلاديمير كربوفيتش»؟

- كلا، يا سيدتي، لقد وجدوه مخنوقاً وميتاً في غرفة الحمام الخشبية، ذات صباح، عندما ذهبوا إلى هناك لكي يشتغلوا! فأسرعوا لإخبار السيد الشاب!

والسيد الشاب قال لهم: «أنتم المجرمون»!

و «صوفيا» التي أدهشتها كثيراً هذه المعلومات، أمضت بضع ثوان حتى استطاعت تجميع أفكارها المشتتة. وعلى الرغم من ضعف ثقتها «بابن أختها» فقد كانت ترفض أن تشاطر «أنتيب» وجهة نظره، وأن تقتنع بما رواه. ولذلك قالت له:

- إذا لم يكونوا مذنبين، فما كان عليهم إلا أن ينكروا.

- لقد أنكروا!

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، فقد خضعوا.

- ولماذا؟

- لأنهم ليسوا سوى «موجيك» فلاحين عبيد! والفلاح العبد، عليه في نهاية الأمر، أن يقول «نعم» على الدوام!

- لا يمكن إجبار رجل على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها!

- حتى ولو هدد بتعريضه للجلد أربعمائة ضربة بالسوط؟

- ومن هو الذي هددهم؟

- ومن يستطيع أن يعرفه؟!.. إنه افتراض..

- ومن هو القاتل، برأيك؟

- لا أعرف شيئاً عنه، أكثر منك!..

- وباختصار، فإن شكوكك لا تستند إلى شيء.

فأطلق ضحكة مصطنعة وساخرة.

- على لا شيء، يا سيدتي! على لا شيء أبداً!..

- ومع ذلك، فقبل قليل، كنت تقول...

فقام بحركة تحية كبيرة، باسطاً ذراعيه، مقدماً إحدى ساقيه، ومثبتاً كعبه على الأرض ورافعاً مقدمة رجله إلى أعلى:

- قبل قليل، كنت مجنوناً! والآن أنا عاقل! فإذا كنت تصدقين أن الفلاحين الثلاثة قد قتلوه، فهذا يعني أنهم حقاً قد قتلوه، وأن من أرسلهم إلى سجن الأشغال الشاقة محق فيما فعل!

فقالت، معلقة على قوله:

- ربما كانوا في حالة الدفاع المشروع عن النفس.

- وماذا يعني ذلك؟

- أي إذا كان السيد هو الذي ضربهم أولاً..

- يجب أن يكون هذا هو ما حصل! السيد ضربهم أولاً! وهم، من جهتهم: «كويك»! قرفوا له رقبته! يبدو أن منظره آنذاك لم يكن جميلاً! أزرق الوجه ولسانه متدلٍ من فمه!..

كان «أنتيب» يفرك يديه وهو يتكلم، وعلى وجهه تعابير القسوة التي تتسم بالخوف.

وأضاف قائلاً:

- لو أن ما حدث للأب، يحدث أيضاً للابن، وحسب!

فصاحت به «صوفيا» موبخةً إياه:

- اسكت!

كانت تعبر أرضاً مشبوهة، مرزغية، تنزاح تحت وقع خطواتها. وما كان يثيرها ويزعجها أكثر من أي شيء، هي استحالة الاستفسار من «سيرج» عن ظروف الجريمة، دون أن تساوره الشكوك بأنها قد حصلت على بعض المعلومات من الفلاحين. وكما لو أن «أنتيب» قد لاحظ تردد سيدته، فقال لها بصوت مرتعش وأجش:

- سيدتي، أرجوك ألا تذكري شيئاً مما قلته لك، أمام أحد!

فهذه أكاذيب! أكاذيب قذرة تفوه بها فلاح عبد! وحتى العاصفة، لا ينبغي التفكير بها بعد الآن! فقد هبت، هكذا، بالمصادفة! والحقيقة هي أن السيد، معلمنا خنقه بعض الفلاحين الأشرار، وأن هؤلاء الفلاحين الأشرار لا تكفي إقامتهم طوال الحياة في السجن للتكفير عن تلك الجريمة!

وتركته وانصرفت، وهي أكثر اضطراباً مما كانت تريد. وفي غضون ذلك، كانت العربة قد عادت إلى القرية. وقد خيم الظلام، وأصبح الجو بارداً ورطباً. وساعد «دافيد» السائق «صوفيا» على الصعود إلى العربة، ووضع غطاءً على ساقيها. وطوال الطريق كانت حوافر الأحصنة تتخبط في الوحل. وأخيراً بدت نوافذ المنزل المضاءة بين أغصان الأشجار العارية.

أثناء تناول العشاء لزم «سيرج» الصمت. كانت ملامح وجهه تنم عن القسوة، وحركاته مصطنعة. وعندما تواجد هو و «صوفيا» في المكتب، عند ذلك، فقط عبّر عن استيائه، بسؤاله إياها:

- هل كان مهماً إلى هذا الحد، بقاؤك في القرية؟

فأجابته، وهي تتناول قطعة البساطة التي تشتغل بها:

- قلت لك إن لدي ما أعمله هناك.

- مع «الموجيك» هؤلاء الفلاحين العبيد، أنت تهتمين بهم أكثر مما ينبغي، يا خالتي! والله وحده يعلم ماذا حكوا لك بعد تلك العاصفة! البرق والرعد، أثناء القداس الجنائزي! وبغبائهم الشديد، لا بد من أنهم اعتبروا ذلك، رفضاً للقداس ولعنة تنصب علينا!...

- أوه! دعهم وشأنهم.. إنهم أناس بسطاء!..

كان يمشي جيئةً وذهاباً، أمامها. ثم توقف، وقال بخشونة وجفاء:

- لا تحاولي أن تبحثي عن المعذرة لهم! فأنا أعرف أنهم يكرهونني، كما كانوا يكرهون أبي وجدي، كما أنهم سيكرهون دائماً من

يقودهم ويحكمهم. وبقدر ما يبدو أحدنا لطيفاً مع هذه الحيوانات، بقدر ما تزداد مطالبهم وتحركاتهم!...

- لقد اهتممت بهم كثيراً فيما مضى، ولا أشعر بأني أحدثت أي تشويش أو اضطراب في أذهانهم!

- ليس هذا ما روي لي! يبدو أنك تدعين بين الفلاحين إلى التمتع بمسرات الحرية والمساواة التي يتيحها نظام الحكم الجمهوري!

- لا أدري من الذي نقل لك هذه الأكاذيب السخيفة، ولكن على الأقل، فإنه لم يحدث أي تمرد أو عمل عنيف، في عهد «ميشيل بوريسوفيتش» من قبل الفلاحين، كالذي أودى بحياة والدك!

فرفع ذقنه، وتقلص منخراه وابيضا:

- أبي لم يذهب ضحية تمرد أو ثورة، لقد اغتيل بنذالة من قبل بعض الأوغاد!

- ألم يستفزهم بمعاملته السيئة لهم؟

- أرجوك ألا تشتميه وتحقري ذكراه!

- لقد قلت لي، أنت بالذات، إنه كان قاسياً مع الفلاحين، في معظم الأحيان!

- فأخذ يتأملها، وقد استبد به الغضب، ولأنه لم يجد شيئاً معقولاً يرد به عليها، غمغم:

- ليس علي أن أقدم حساباً لأحد!

فقالت بكل برود:

- ولا أنا، يا «سيرج» ومع ذلك فأنت تطالبني به.

فقال بلهجة ساخرة:

- لا أستطيع أن أنسى أن هذه الملكية تخصك بقدر ما تخصني، يا خالتي وبموجب الترتيبات الغريبة التي نصت عليها وصية جدي، فأنا

لا أستطيع حتى أن اشتري منك حصتك. وسنظل شركاء إلى أن يموت أحدنا. فإذا رحلت أنا أولاً ، فسوف ترثين حصتي ، وتؤول إليك الملكية بكاملها. وإذا كنت أنت.. فقاطعته ، بحدة ، قائلة:

- وإلى ماذا تريد الوصول ، بكلامك هذا؟

- إلى هذا ، وهو مهم جداً: مهما كنت مساوية لي في الحقوق في هذه القضية ، فأنت لست سوى «مبعدة». وقد كلفني حاكم «بيسكوف» بمراقبتك فعليك إذن أن تخضعي لإرادتي. وأنا أستطيع أن أمنعك من القيام بأي تصرف يمكن أن يبدو لي مشبوهاً. والحال هي أنه يغيظني التفكير بأنك تتجولين من قرية إلى أخرى ، متذرعة بالقيام بأعمال المساعدة والإحسان للفلاحين. والفلاح الروسي لا تعنيه السياسة الفرنسية. والمصائب التي سببتها لهم ، بنشرك بينهم دعاياتك الثورية ، يجب أن تحثك على المزيد من التواضع. عليك أن تبقي في المنزل ، وهذا يكون الأفضل ، بالنسبة للجميع!

فكادت تغضب ، ولكنها تمالكت نفسها ، وقالت بهدوء مخيف:

- «سيرج» ، لقد تجاوزت الحدود ، أنت تنسى من أنا ، ومن أين أتيت!

- لقد أتيت من سيبيريا ، حيث كنت تعيشين بين محكومين سياسيين وهذا أمر يشكل لك توصية سيئة ، بالنسبة لي! وأفكارك ، فإني لا أريد مقابل أي ثمن أن أدعها تسمم أفكار وأذهان أهالي «كشتوفكا»! وعلى الرغم من كل الاحترام الذي أدين لك به ، فقد قررت إدارة الملكية على طريقتي. أما أنت فاكتفي ، كما سبق وقلت لك بالاهتمام بشؤون المنزل ، وبذلك نبقى صديقين وفيين.

لقد أذهلها عنف هذا التصريح ، فلم يسبق أبداً لـ «سيرج» أن تكلم معها بمثل هذه الوقاحة. فلماذا يفعل اليوم ذلك بهذه اللهجة التي تتسم بالتهديد؟ وخيل لها أنه يريد أن يجعلها تعلن عجزها تماماً ونهائياً ، كما

لو أنه يخشى فيما لو تركها قوية وحرة، أن يفقد كل سلطة وسيطرة له عليها وعلى الفلاحين. وأخذت تراقبه باهتمام شديد: أحقاً، أنها رأت ذات يوم أنه يشبه «نيقولا»؟! كلا، لم يكن هنالك شيء مشترك بين هذين المخلوقين، لا شيء أبداً، إن لم يكن شكل الوجه ولون الشعر. فقد سرق «سيرج» قناع خاله ليغطي به وجهه، ولكن عينيه السوداوين والحادتين تفضحانه. كانت «صوفيا» تقرأ فيهما كل الشر والخبث والازدواجية التي اكتشفتها، فيما مضى، لدى «فلاديمير كريوفيتش سيدوف». فقالت له بلهجة جافة: وهي مصرة على رغبتها بأن تثبت في مقاومتها له:

- اعلم، يا «سيرج» إن ليس من عادتي أن أرضخ للتهديد، ولا سيما عندما يكون من يحاول أن يوجهه لي، هو فتى في الخامسة والعشرين من عمره. وهو «ابن أختي». فأنا في بيتي، وسأتصرف كما يحلو لي!

فخيم الصمت، والتقطت أنفاسها، وتابعت كلامها، وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة:

- فإذا كان هذا يضايقك، فإنك تستطيع، في أي وقت تشاء، أن تشكوني إلى الحاكم. ومن يدري، فربما إذا يئس من أن يجعلني ألزم جادة الصواب، يعمد، بناء على طلبك إلى إعادتي إلى سيبيريا؟

وأنا أنذرك في الحال، بأن مشروعاً كهذا، لا يخيفني أبداً!

وعندما صمتت، ظل برهة دون أن يبدر منه أي رد فعل، ثم انفرجت أساريره، وبرقت نظراته، وقال بصوت تنم لهجته عن التودد إليها:

- لا تستائي، يا خالتي، فنحن وقد حكم علينا بأن نعيش سوية، تحت هذا السقف، فسوف نتوصل، في نهاية الأمر، إلى التفاهم. أرجوك فقط أن تعلميني عندما تريدين الذهاب للتنزه في القرى المجاورة لنا.

فهزت رأسها:

- إني لن أعلمك أبداً يا «سيرج». وسأذهب عندما يحلو لي ذلك، وإلى أي مكان أريد، في حدود خمسة عشر «فيرست»: «ستة عشر كيلومتراً، على وجه التقريب» لأن هذه هي الحدود التي فرضتها علي الحكومة..

فجلس «سيرج» على ذراع الأريكة، وأحنى رأسه: كان يبدو مهزوماً، ومع ذلك فهي كانت تدرك بأنه لم يكن يتراجع إلا لكي يهاجمها بعد ذلك، بمزيد من العنف. وبعد فترة من التوقف، تثاءب، تمطى، ضم يديه وفرقع بأصابعه، ثم غمغم:

- هل قلت لك بأني سأسافر، غداً صباحاً، إلى «بيسكوف»؟

فتماسكت، لكي لا تبتسم، فلا شك أنه يذهب إلى هناك لكي يقوم بمغامراته البائسة الأسبوعية. وربما يعود، وقد هدأ وتعقل قليلاً.

واستأنف الكلام، قائلاً:

- إذا كنت بحاجة لشراء أي شيء، فأنا رهن إشارتك.

فقالت له «صوفيا»:

- أشكرك، فأنا أنوي الذهاب أيضاً إلى المدينة، في الأيام القليلة المقبلة.

فألقى عليها نظرة متفحصة، ونهض، ثم غمغم: «أسعدت مساء»! وخرج.

سافر «سيرج» في الصباح الباكر إلى المدينة، ممتطياً صهوة جواده. وعندما اختفى في آخر المشى، شعرت «صوفيا» بالفرج. كانت ترفض أن تصدق أن أساليب «ابن أختها» القاسية والحاسمة قد أثرت بها أو أخافتها، ومع ذلك، فقد كان عليها أن تعترف، بأنه عندما يكون غائباً، فإنها تتنفس بارتياح، وبشكل أفضل. وفي كل مرة يسافر فيها، كان البيت يبدو وكأنه استيقظ وقد تخلص من كابوس مخيف. كانت الأبواب تصفق، وتسمع الضحكات تتعالى في الجناح الذي يقيم فيه الخدم. وأبناء الفلاحين ينطلقون إلى اللعب، وهم يتراكضون حول المرجة الكبيرة الخضراء.

وبعد أن ارتدت «صوفيا» ملابسها، بمساعدة «زوي» قررت أن تذهب، ليس إلى «شتكوفو»، هذه المرة، بل إلى بعض القرى الأخرى، التي كانت قد أهملتها في الفترة الأخيرة، وفتحت النافذة، وطلبت من أحد الخدم الذي كان ماراً من هناك، أن يبلغ السائق بأن يهيئ لها العربة.

وبعد نصف ساعة، عندما دخلت إلى الإسطبل، تبين لها أن العربة لم تكن جاهزة، ودافيد، السائق، لم يكن قد ارتدى لباس العمل. فاستاءت:

- ألم يبلغك الخادم بأني أريد الخروج؟

فبدرت من «دافيد» حركة إلى الوراء، وبدت على وجهه الضخم والملتحي، أمارات الرعب، وتمتم:

- بلى، يا سيدتي.

- إذن، ماذا تنتظر، لكي تهيئ العربة؟

كان هنالك ثلاثة من الخدم في الإسطبل يعتنون بالخيل، ويحضرون لها العلف، فالتصق اثنان منهم بالجدار، بينما اختبأ الثالث خلف أحد الأحصنة، وقد بدا عليهم الخوف.

وقال «دافيد»:

- هذا مستحيل، يا سيدتي!

- ولماذا؟

- السيد الشاب منعنا أن نفعل ذلك.

فذهلت «صوفيا» من هذا الجواب، ثم استشاطت غضباً، وصاحت:

- عندما أصدر أمراً، فليس له الحق بان يعارضني فيه! فأنا سيدتك!

- بالتأكيد، يا سيدتي.

- وأطعتني تماماً، حتى اليوم؟!

- نعم، يا سيدتي.

- إيه، إذن؟ ما الذي تغير؟ إني أنذرك بأن عليك أن تهيئ هذه العربة! هيا، بسرعة!

فأرسل «دافيد» تنهيدة عميقة، بدت وكأنها اقتلعت له رئتيه، ونظر خلسة إلى خدم الإسطبل، وأحنى أنفه، فانثنت لحيته على صدره.

فسألته «صوفيا» بصوت قوي:

- أتسمع ما قلته لك؟

فلم تتلق أي جواب. فقد تجمد، وثقل، لقد سكب رصاص في رأسه.

فأدركت «صوفيا» أنها لن تحصل على شيء من هؤلاء الرجال الذين يستبد بهم الرعب، لأنهم يتعرضون للإرهاب. ولذلك، قالت:

- حسناً سأستغني عنك.

وانتزعت عدة الحصان المعلقة على الجدار، ووضعتها على أقرب حصان منها، ثبتت الأحزمة، كما كانت ترى السائق يثبتها، ودفعت الحصان بين

عريشي العربة، شدت المحزم تحت بطنه. وركزت المجرات، بينما كان السائق وعمال الإسطبل، يقفون منذهلين من الخوف، لا تبدر منهم أي حركة ويتابعون حركاتها بعيون جاحظة. وعندما صعدت إلى العربة وجلست على مقعد السائق، تمتم «دافيد» متأوهاً:

- اصفحي عنا، يا سيدتي!

وفرقعت بالسوط، فسار الحصان متمهلاً في الممر، ثم أسرع في سيره. فأخذت العربة تهتز وترتج بقوة، وكان على «صوفيا» أن تضم العنانين بيد، وتمسك باليد الأخرى قبعتها الكبيرة المصنوعة من القش والمزينة بالشرائط، التي كادت تطير عن رأسها. كان الطريق موحلاً، ورشقات الوحل الأصفر تندفع من جانبي عجلات العربة.

وفي الحقول الرطبة كان يتنقل من مكان إلى آخر، عبر الضباب، بعض الفلاحين. فماذا يمكنهم أن يشتغلوا في مثل هذا الطقس السيئ؟ وزارت «صوفيا» على التوالي: «تشيرنياكوفو» «كرابينوفو»، «بولوتتوي»، وكذلك بعض المزارع الصغيرة التابعة للملكية. وفي كل مكان زارته، كانت تجد جواً يسوده الحزن، القلق، والضيق والفقر، في وسائل العيش. وكان «سيرج» يستطيع أن يفخر بما حققه من نجاح: إذ إن الانضباط الذي فرضه، كان فعالاً ومجدياً، بحيث إن جميع فلاحيه أصبحوا في حال واحدة، ومتشابهين تماماً. ومن «إيسبا» إلى «إيسبا» ومن بيت إلى آخر، نسيت «صوفيا» موعد الغداء. وفي بداية بعد الظهر، قررت متابعة السير إلى «بيسكوف» كي تشتري بعض الأدوية، التي يحتمل أن تحتاجها في فصل الشتاء، عندما تصبح الطرقات غير سالكة، بسبب تراكم الثلوج.

فتابعت سيرها، وهي تقود عربتها، فوصلت إلى المدينة، نحو الساعة الثالثة، بينما كان الرذاذ المسائي يرطب أسطحة المنازل. ولم يكن الشارع الرئيس سوى امتداد طويل من الوحل الأسود، ألقيت عليه، هنا وهناك،

بعض حزم القش. وفي دكان العطار، كان يشتعل مصباحان، أخذ ضوؤهما ينعكس على الأواني الزجاجية الملأى بالحبوب وبالسوائل. وبينما كان معاون العطار، يحضر لـ «صوفيا» ما طلبته منه، سمعت الباب يفتح وراء ظهرها، فالتفتت ورأت امرأة بدينة، على رأسها قبعة مزدانة بريشة، وترتدي معطفاً أزرق اللون، تزينه شرائط سوداء، تدخل إلى المكان بهدوء ومهابة، وبعد لحظة من التردد والشك شعرت «صوفيا» بالانزعاج، عندما عرفت أنها لم تكن سوى «داريا فيليبوفنا» وقد تقدمت بها السن، وأصبحت بدينة! كانت عيناها غائرتين بين انتفاخين دهنيين مترهلين وقد تدلى خداها على جانبي فمها الصغير. وبدت وكأنها تتنفس بصعوبة، بطنها يضمه المشد، وصدرها كالدرع. ومع أن «صوفيا» بذلت بعض الجهد، من أجل ذلك، ولكنها لم تستطع أن تصدق أن «نيقولا» كان عاشقاً لهذه المخلوقة البدينة. والآن، ما العمل؟ فمن المستحيل تحاشي اللقاء. وأفضل ما يمكن عمله، هو الاقتصار على التحية المقتضبة.. وكانت لا تزال تتساءل عن الموقف الذي عليها أن تتخذه، عندما لمحتها «داريا فيليبوفنا»، وابتسمت وبسطت لها يديها الاثنتين. فتماسكت «صوفيا» وحاولت، هي أيضاً، أن تبتسم. وقد أدهشها ارتياح هذه المرأة لرؤيتها، ولهذا الارتياح تفسير واحد: فهي تتصور أن «صوفيا» ظلت تجهل عدم وفاء زوجها، وخيانته لها. فهل تبين لها خطؤها؟ وما جدوى ذلك؟ فقد مرت سنوات عديدة على تلك المغامرة المؤسفة!

وصاحت «داريا فيليبوفنا»:

- عزيزتي، سيدتي العزيزة. كم أنا مسرورة برؤيتك من جديد!

لقد سمعت أنك عدت إلى «كشتوفكا»! وكنت أنوي أن أكتب لك لأدعوك إلى منزلنا! والآن وقد التقيت بك، فسأحتجزك، ولن أتركك أبداً، بعد الآن! أنت في «بيسكوف» للتجول قليلاً، ولشراء بعض الحاجيات، وأنا أتيت أيضاً لهذه الغاية! فهيا بنا، ولنذهب سوية!...

هذه الحفاوة البالغة قضت على تحفّظ «صوفيا» وعلى ترددها، وسارت، على مضض، لترافق السيدة «داريا» من مخزن إلى آخر. وكان يخيل لها، في بعض الأحيان، أنها لمحت من بعيد شخصاً يشبه «سيرج» وعند ذلك، كانت تتساءل، ماذا سيفكر لو كان هو فعلاً، ورآها مع هذه المرأة الثرثارة، ذات القبعة المزينة بالريش. ولكن لم يكن من المحتمل أن يتسكع «سيرج» في الشوارع، فهو لم يأت إلى «بسكوف» لهذه الغاية.

وانتهى التجوال بالمرأتين أخيراً إلى مشغل إحدى الخياطات: «تمارا إيفانوفنا» التي كانت حدباء ومصابة بالحول في إحدى عينيها، ولكنها ماهرة في الخياطة. وجرّبت «داريا فيليبوفنا» فستاناً من الحرير الأرجواني، كان الله وحده يعرف لماذا اختارته، لأنها، باعترافها هي، لم تكن تخرج أبداً، للقيام بالزيارات. ووعدت «صوفيا» الخياطة بأنها ستعود مرة أخرى لتوصيها على خياطة بعض الملابس لها. وبعد تجربة الفستان، دعت «تمارا إيفانوفنا» السيدتين إلى خلفية المشغل، حيث كان «السماور» ساخناً على الدوام، لإرواء عطش الزائرات. و «صوفيا» التي كانت متعبة من ذلك المشوار الطويل، وافقت بسرور على تناول كأس من الشاي. وبعد أن قدمت الخياطة الشاي للزائرتين، تركتهما، وانصرفت، لعملها، الذي كان متراكماً عندها.

كان قد خيّم الظلام في الخارج، وفي القاعة، مصباح زيتي يحيط بزجاجته ساتر للضوء أخضر اللون، يرسل ضوءه الخافت في الجو الذي كانت تنتشر فيه رائحة النشاء. وكان السماور يشتعل تحت إبريق الشاي الكبير الحجم. وعلى الجدران اصطفت صور مقصوصة من مجلات الأزياء الفرنسية. والمقاعد بدت مكسوة بأغطية ظريفة. وأخذت «داريا فيليبوفنا» تحتسي الشاي وهي تبدي ارتياحها، وبين جرعة وأخرى، كانت تلقي على «صوفيا» أسئلة تثبت بها اهتمامها بالتجارب والمحن التي تعرّض لها «متمردو

كانون الأول». وبدت بلهاء ولكنها طيبة القلب، بشكل لا جدال فيه. وفي كل لحظة، كانت تغضب، تستاء، وتقول متأوهة: «آه! يا إلهي! أي عذابٍ قاسيتِ!» وأرادت أن تعرف كيف مات «نيقولا»، وبكت وهي تصغي لقصة موته التي روتها لها «صوفيا» بكل بساطة.

- يا للمسكين! هو الذي كان مرحاً جداً، خالي البال، ويتحلى بشجاعة فائقة! لا أستطيع أن أصدق أنه مات!، اعذريني، فأنا لا أستطيع تصديق ذلك!...

ومخطت، وأخذت ذقنها التي يغطيها الزغب الخفيف، ترتجف فوق ياقتها: امرأتان في الحداد، حزينتان على رجل واحد، أمام «السماور» ومن الاثنتين، كانت الزوجة الشرعية، هي التي بدت عيناها جافتين لم تدمعا.

وبدا الموقف لـ «صوفيا» غريباً ومضحكاً، وخلال برهة شعرت بالغيظ، من هذا الفيض العاطفي الذي استمر أكثر مما ينبغي. وكما لو أنّ «داريا فيليبوفنا» خشيت أن تفضح سرها لو أنها ناحت وانتحبت أكثر من ذلك، ولهذا، فقد ملأت كأساً أخرى من الشاي، وقالت:

- إني أتصور شدة تأثرك لعودتك إلى «كشتوفكا»! حقاً، لقد رحل كثير من المخلوقات عن تلك الأماكن، التي كنت سعيدة جداً فيها، ولكنّ الأطر والبيئة، على الأقل، لم تتغير، ولمن هو في مثل سنّنا، فليس هنالك شيء أكثر مدعاة للعزاء وللسلوى، من الاستعراض اليومي للذكريات، والعيش عبرها!

وعبارة: «من هو في مثل سنّنا» بدت مضحكة لـ «صوفيا»، التي كانت تصغر المرأة التي تتحدث إليها، بعشر سنوات، على أقل تقدير.

واستأنفت «داريا فيليبوفنا» الكلام:

- لا بد أنك فوجئتِ عندما التقيت لأول مرة، بهذا «ابن الأخت» الكبير، الذي يمكن القول بشأنه، أنك لم تكوني تعرفينه، تقريباً!

كان عمر «سيرج» بضعة أشهر، عندما سافرت.

- إنه حسن الشخصية تماماً، ولكن فظّ وانعزالي، فهو نادراً ما يشاهد في المدينة، ولكني أرى أنه يشبه «نيقولا» كثيراً»!

- من الناحية الجسدية، نعم، هذا صحيح.

فرفّت جفون «داريا فيليبوفنا»، وأبدت أسفها:

- بالنسبة للناحية الأخلاقية، فمن المؤكد أنّ الأمر مختلف! فهل تتفاهمين معه؟

فأجابتها «صوفيا»، بحذرٍ وترو:

- إلى حد ما، فأنا أتفاهم معه، لا بشكل سيئ، ولا بشكل جيد.

- أسألك عن ذلك، لأنه رُبّي ونشأ على أفكار، لا تتفق، بالطبع، مع أفكارك!

- لقد تبينت هذا، في الحال، ولكني لست متعصبة لأفكاري!

- أما هو، بلى، فهو متعصب جداً لأفكاره!

- هذا يعود لحداثة سنه! فهو لا يعمل سوى ترديد ما يكون قد سمعه، وكان يحبّ والده كثيراً...

فقالت «داريا فيليبوفنا» وهي تهزّ رأسها:

- لا أعتقد ذلك، فقد كانا يتخاصمان كثيراً.

فدهشت «صوفيا»:

- وحول أي موضوع كانا يتخاصمان؟

وهذا الاعتراف بالجهل ألهب حماسة «داريا فيليبوفنا» وفرحتها بإعطاء بعض المعلومات لـ «صوفيا»، ظهرت بوضوح على وجهها، فهمست، قائلة:

- كيف؟ ألا تعرفين؟ دائماً بشأن الموضوع نفسه! أي بشأن «كشتوفكا»! أتفهمين ما أعني؟...

- كلا. فقد وجدت الأملاك بحالة جيدة، ومستثمرة بشكل جيد جداً وأفضل مما كانت عليه في زمن عمي...

- هذا مؤكد! ولكن كل ذلك بفضل «ابن أختك»! وبفضله وحده، فقط!... وعلاوة على ذلك، فالأمر واضح وبادٍ للعيان!... وأنت تعرفين «فلاديمير كاربوفيتش»!... كان يمكنه أن يبيع الملكية، لو أتيح له ذلك، لكي يشبع نزواته وأهواءه، في الميسر وغيره من الأعمال السيئة. وطوال المدة التي كان خلالها وصياً على الفتى، فقد استغل ذلك «على حدّ قول الناس» لكي يبيع خفية، بعض الفلاحين، و «ليصرّف» بعض المحاصيل، وهي في أماكنها، بثمن بخس، وليستدين النقود بفائدة باهظة. وعندما بلغ «سيرج» سن الرشد، طالبه بتقديم الحساب. وكان هذا محتوماً! ولكنه أدّى إلى نتائج سيئة ومشؤومة: فقد استمرت المناقشات الحادّة بينهما، بشكل دائم تقريباً، ويروي الخدم أنهم كانوا يسمعون صراخهما وأصواتهما، إلى مكان إقامتهم! وأنا، بكل راحة ضمير، أعطي الحق للابن. أتدرين أنه يحب الأرض كثيراً؟ ففي الشهر الماضي، أراد أن يشتري مني ثلاثة قرى متاخمة لملكيتكم. فرفضت أن أبيعه إياها، لأني، أنا أيضاً، أرى أنّ ما أملكه هو مقدس بالنسبة لي، وأحبّ أن أحتفظ به! لقد رفضت بيعها له، ولكني، قلت في سري: «مرحى له!...» لو أن ابني «فاسيا» كان مثله، وحسب!... ولكنه لا يهتم أبداً بـ «سلافينكا» ملكيتنا العزيزة... وهو يعيش في بيتي، وكأنه يقيم في فندق، كأعزب مسنّ بين كتبه الكثيرة... وهذا وضع محيّر!... ولحسن الحظ، فإن بناتي يُتحن لي كل الرضى والارتياح، اللذين يرفض ابني أن يؤمنهما لي... وهنّ يقمن في موسكو... إحداهن تزوجت...

وظلّت مستمرة في حديثها وتقديراتها العائلية، بينما كانت «صوفيا» غير مهتمة بما ترويه، وبدت وكأنها منعزلة، فوق صخرة صغيرة، عبر فيض من الكلام، يتدفّق من حولها. ومن وقت لآخر، كانت تسمع: «ابنتي الأخرى...

صهري... أحفادي...» وكانت «صوفيا» تفكّر: «إنّ لها أسرة كاملة، أفرادها عديدون، ناشطون، يبعثون الدفء، وكامرأة حقيقية أدت مهمتها بالإنجاب وإعطاء الحياة. أما أنا، فليس لديّ أحد، سوى «سيرج». ولكن من هو «سيرج»، هذا؟...» كانت تتساءل، والقلق ينتابها. فلمست «داريا فيليبوفنا» يدها:

- سيكون ابني سعيداً جداً برؤيتك!

فقالت «صوفيا»، متهربة من متابعة الحديث:

- وأنا أحبّ كثيراً أن أراه.

فبرقت عينا «داريا فيليبوفنا» الزرقاوان:

- يجب، من كل بدّ، أن تأتي لتناول الشاي في منزلنا، في أحد الأيام! الخميس القادم، مثلاً، فهل يناسبك ذلك؟

فأرادت «صوفيا» في بداية الأمر أن ترفض هذه الدعوة، لأنها لم تكن تستطيع أن تنسى أنّ «نيقولا» قد تبارز، فيما مضى، مع «فاسيا فولكوف». وإن كان الرجلان، قد تصالحا، بشكل من الأشكال، بعد ذلك، فإنّ ذكرى تلك المبارزة كانت لا تزال ثقيلة الوطأة بالنسبة لها، ويصعب عليها تحملها. ومع ذلك، فإنّ شعوراً بالفضول دفعها إلى قبول الدعوة، وما لبثت أن سمعت نفسها وهي تتمتم:

- الخميس القادم؟ نعم... إني أشكرك.

- لن يكون هناك سوى ولدي وأنا، أعدك بذلك!

هل قابلت من جديد، بعد مجيئك أحداً من معارفك؟

- كلا، لم أقابل أحداً، ولست مستعجلة للقيام بذلك.

- معك كل الحق! دعيهم وشأنهم! فأنت لم تتغيري! ويخيل لي أنك فارقتنا بالأمس! ولست مثلي! فأنا عندما أتأمل وجهي في المرآة، أظن أني أرى وجه أمي المسكينة!

وشربت ما تبقى من الشاي في كأسها، وأخرجت من حقيبة يدها منديلاً موشى بالدنتيلا، مسحت به شفتيها. وألقت «صوفيا» نظرة على النافذة، ودهشت عندما رأت أن زجاجها أصبح أسود اللون. وكان لا بدّ أن الساعة قد تجاوزت السادسة. وسيكون عليها أن تسير مسافة طويلة على طريق وعر وعبر ظلام دامس. فلامتها «داريا فيليبوفنا»، لأنها حضرت بمفردها، ودون أن تصطحب سائقاً ليقود العربة. وبدافع من الكبرياء ردّت عليها «صوفيا» بأنها تفضل أن تقود العربة بنفسها!

فقالت لها «داريا فيليبوفنا»:

- هذا ليس من الحكمة في شيء، أبداً، أتريدين أن أطلب من بعض من يرافقونني، أن يقوموا بمرافقتك؟

فرفضت. وافترقت المرأتان في الشارع. وبقيت «داريا فيليبوفنا» في المدينة لتقوم ببعض الزيارات. أما «صوفيا» فصعدت بشجاعة إلى عربتها التي انطلقت بها. وبعد أن تجاوزت بيوت المدينة، الأخيرة، بدا الظلام أكثر كثافة. وكانت تفوح من البرية رائحة الفطر والحطب المحروق. ولم تكن العربة مزودة بمصباح، ولكنّ الحصان، الذي يعرف الطريق، كان يسير مسرعاً على التخمين. وكانت «صوفيا» وهي تحملق في ظله المتراقص أمامها، تستعرض واحداً بعد الآخر، أحداث ذلك النهار، مطلقة العنان لغضبها كي يتنامى ويشتد على «سيرج» لأنه منع «دافيد» من أن يطيعها. وعندما نزلت من العربة، أمام درج المدخل، شعرت بتعبها. وأتى أحد الفتيان، فأمسك بزمام الحصان ليقتاده إلى الإسطبل. وحول المنزل كان يخيم هدوء غريب. ونوافذ المكتب بدت مظلمة. ولا يوجد أحد في الرواق. ولكنّ قبعة ومعطف «سيرج» معلّقان على إحدى العلاقات: لقد عاد إذن من «بسكوف». وستتمكن من أن تعبّر له عن غيظها. ولكنها، قبل ذلك، ستذهب لترتاح قليلاً ولتصلح هندامها. ولذلك، صعدت إلى غرفتها، ونادت

«زوي»، التي أسرعت لتساعدها على تغيير فستانها. كانت عينا المرأة حمراوين، وبدت وكأنها تتنفس بصعوبة.

فسألتها «صوفيا»:

- ما بك؟ أكنتِ تبكين؟

فأجابتها «زوي» وهي تتأوه:

- أوه! كلا يا سيدتي!

ولكن ذقنها، المكوّرة كالبيضة، كانت لا تزال ترتعش بصورة تشنجيّة.

فقالت لها «صوفيا»:

- ولكني أرى جيداً، أنك قد بكيت، فعلاً. وتستطيعين أن تبوحي لي، أنا، بكل شيء، أهذا بسبب زوجك؟

فأجابتها، على مضض: نعم، يا سيدتي.

- هل قسا عليك «دافيد»؟ هل ضربك؟

- هو، الذي ضُرب!

- ومن ضربه؟

- رجال السيد، هم الذين ضربوه، قبل قليل... لقد جلدوه خمسين جلدة بالسوط... وسال الدم من ظهره... وهو مستلق الآن...

فقطّبت «صوفيا» حاجبيها. وصعد الغضب إلى رأسها، بعد فترة من الهدوء والتفكير.

وسألتها، بصوت أجشّ:

- ولماذا جلدوه؟

فحوّلت «زوي» نظرها، وقالت:

- بسببك، يا سيدتي.

ففغرت «صوفيا» فمها، من شدة الدهشة، وأخيراً تمتمت:

بسببي أنا؟ هذا مستحيل!

- بلى، يا سيدتي! كان يجب عليه أن يمنعك من السفر، ولم يستطع، ولذلك أمر السيد الشاب بأن يُجلد في وسط الباحة...

وعبر الصمت الذي خيم بعد ذلك، كانت «صوفيا» توشك أن تفقد السيطرة على نفسها. فقد ثارت أفكارها بعنف شديد. وأخذت تسمع دقات قلبها.

واستأنفت «زوي» الكلام:

- وأمر أيضاً بجلد جميع خدم الإسطبل. ولكني، أتوسل إليك، يا سيدتي بألاّ تقولي له إني تكلمت إليك! لأنه سيغضب عند ذلك، وينتقم مني! وعلى أي حال، فالأمر ليس خطيراً! وسيشفى «دافيد» عما قريب، فهو قوي البنية على الرغم من تقدمه في السن!

فغمغمت «صوفيا» متحدثةً إلى نفسها:

- كلا، كلا، هذه المرة، لقد طفح الكيل!

وزرّرت بعصبية صدارتها، وخرجت مسرعة من الغرفة. كان الدرج يرتجف ويرتجّ تحت وقع قدميها. ولأنها كانت متأكدة أنّ «سيرج» في المكتب، فقد دخلت إليه، بسرعة، ثم توقفت، حائرة، في وسط الغرفة المظلمة والخالية، وخرجت وهي تلقي النظرات حولها، فقال لها أحد الخدم الذي كان يمرّ من هناك:

- إذا كنت تبحثين عن السيد، فهو في غرفته.

فصعدت «صوفيا» على الدرج، سارت في الممر، وقرعت باب غرفة «سيرج».

فسمعت صوتاً لطيفاً، يقول:

- ادخل.

كان جالساً أمام مكتب صغير، يقلّب بعض الأوراق، ويتصفّحها. مرتدياً ثوباً منزلياً «روب دي شامبر» ذهبي اللون طويلاً، يصل حتى أخمص قدميه. فنهض، وأصلح وضع زناره، وعلى وجهه بدت أمارات الدهشة التي سببتها له هذه الزيارة التي لم يكن يتوقعها. وقالت «صوفيا» وهي لا تزال تلهث، متعبة بسبب صعود الدرج:

- لماذا أمرت بأن يُجلد «دافيد»؟

فارتفع حاجبا «سيرج» فوق جبينه:

- كنت أعطيه بعض الأوامر، يا خالتي.

- أولم ينفذها؟

فبدرت من «سيرج» ابتسامة خفيفة. فلا شك أنه كان يتوقع هذه المشاحنة، وأخذ يتذوق متعة خفية بمحافظته على هدوئه حيال هذه المرأة التي انتابها غيظ شديد. وقال:

- لقد استطعت أن تذهبي، على الرغم من كل شيء. ولذلك فإن «دافيد» مذنب. ولكن، اطمئني، فإنّ جلدة قوية، لم تسبب الأذى لأيّ فلاح، حتى اليوم، فهي تنشّط دورته الدموية، وهي بطبيعة الحال بطيئة، وبحاجة لما ينشّطها. ومن البدهي أنه لا ينبغي الإسراف في استخدام هذه العقوبة. ويتعلق الأمر بك وحدك للكف عن ذلك والتوقف عند هذا الحدّ! وإذا أردت أن تلتزمي بتعليماتي، فإن السائق وعمال الإسطبل، لن يعانوا بعد اليوم مما يمكن أن يقلقهم. وبالمقابل، فإذا استأنفتِ الهرب والقيام بمشاويرك، فسأجد نفسي مضطراً للإيعاز بجلدهم بالسوط. فأنا أحرص على أن يتم كل شيء لديّ بنظام تام. كل شيء في مكانه، وكل مخلوق في موقعه. وبما أنك تحبين العبيد إلى هذا الحدّ، فيمكنك أن تضحي من أجلهم بجانب من استقلاليتك. وبما أنك رحيمة وتحبين الإحسان كثيراً، فسيكون أسهل عليك أن تبقي في المنزل، من أن تفكري أن هؤلاء التعساء يتعرضون للجلد، وتُسلخ ظهورهم بسببك!

كانت «صوفيا» تصغي إليه بكراهية ورعب. فلم يكن هنالك أي معذرة من تلك، التي وجدتها له في الماضي يمكن أن تبدو مقبولة حيال التأكيد الهادئ والواضح لهذه الرداءة وهذا الخبث. فثبتت عليه نظرة تعبر عن الاحتقار الشديد، وقالت، وهي تركّز على كل كلمة تتلفظ بها:

- أقسم لك، يا «سيرج»، إنه مهما حدث، فإنك لن تمسّ بعد اليوم شعرة من شعر فلاحيك.

- آه! إنك لا تعرفينني جيداً، يا خالتي!

- أنت الذي لا تعرفني جيداً! فأنا لن أخاف من تهديدك وابتزازك! وإذا ما نفذت ما تحدثت عنه، فإني سأقلب السماء والأرض، وسأذهب، حتى إلى الحاكم!

فسألها بوقاحة:

- سيراً، على قدميك؟

- سيراً على قدمي، نعم، إذا لزم الأمر! والسير لمسافة بضع «فيرسات» «كيلومترات»، لا يخيفني. وسأشرح للسلطات الطريقة التي تعامل بها عبيدك!...

كانت تقول أي شيء، مدفوعة بالغيظ. وفجأة لاحظت تذبذباً وارتعاشاً في حدقتي «سيرج» كما لو أنها دون أن تعلم، قد أصابت منه موطن الضعف. ومرت لحظة القلق هذه، بسرعة، بحيث إنها لم تكد تلاحظ ذلك، حتى كان قد تماسك واستردّ رباطة جأشه.

وقال وهو يضحك هازئاً:

- وتتصوّرين أن الحاكم سيصغي إليك؟

فردّت عليه، قائلة:

- لقد جعلت أناساً أكثر أهمية منه، يصغون إليّ!

- في سجن الأشغال الشاقة؟

- وفي «سان بطرسبورغ». وكوني عائدة من سيبيريا، يثبت لك، بحدّ ذاته، كم أنا عنيدة ومتصلّبة الرأي! ولن أتردد باستخدام كل علاقاتي، والاستعانة بجميع معارفي، لكي تُحترم حقوقي في هذا المنزل!

فقال، وقد هدأ فجأة:

- لا أحد يفكر في أن يمس حقوقك أو أن يعترض عليها.

- بلى! فأنت تجرؤ على منع أتباعي والعاملين لدينا، من إطاعة أوامري! وأنت تعرضهم للتعذيب لكي تضمن خضوعهم لك! وتستخدمهم لكي تحتجزني كالسجينة! و «كشتوفكا» هي لي، بقدر ما هي لك! وعلى قدم المساواة. وما يحدث هنا لا يعجبني، ويغيظني! وستأخذ الشرطة علماً بذلك!...

وعندما توقفت عن الكلام وهي تلهث وتحاول أن تلتقط أنفاسها بعد أن انتهت من تأنيبها له، بدا «سيرج» أكثر شحوباً من المعتاد، وقد انحنت زاويتا شفتيه نحو الأسفل. وبدرت منه نظرة تنم عن التهرب، وتمتم:

- لكثرة ما عشتِ بين المساجين، يا خالتي، يبدو أنك فقدت مفهوم المسافة التي يجب أن تفصل العبد عن سيده!

ولأنها كانت متعبة لدرجة لا تسمح لها بالاستمرار في الشجار، فقد حدجته بنظرة من الأسفل إلى الأعلى، خرجت بسرعة، وصفقت الباب خلفها. وفي غرفتها، وجدت «زويّ» دامعة العينين، فقالت لها:

- اطمئني، من الآن فصاعداً، جميعكم تحت حمايتي. ولا يمكن أن يحدث لكم مكروه.

كانت تبدي ثقة قوية، ولكنها بالحقيقة لم تكن متأكدة من كونها تستطيع حماية هؤلاء الناس من تصرفات وأفعال «سيرج» العنيفة. فلو ذهبت غداً وحدها بالعربة، للقيام بالنزهة، فيمكن أن يعمد، بدافع من الكبرياء، والتبجح الفظ، إلى تنفيذ تهديداته. وعلى الرغم من

مـا قالتـه لـه، فهـي لا تتـصور نفـسها مـسرعة نحـو «بـسكوف» لتقـدم شكواها إلى حاكم، سيرفض دون شك أن يستقبلها. فهي حديثة العهد أكثر مما ينبغي، في البلد، وتُقيّم بشكل سيئ للغاية! ولذلك ينبغي عليها أن تنتظر مناسبة أفضل من هذه، للقيام بتجربة واختبار القوة. وفي فترة شبابها كان من الممكن أن تزدري بمثل هذه الحسابات، وأن تنطلق، وقد أحنت رأسها، عبر المغامرة. أما الآن، فعليها أن تحسب حساباً لتعب جسمها، ولتأنيب وتحذيرات عقلها. وما عليها اليوم إلا أن تتظاهر بالكف عن العراك لكي تستعدّ للقفز والانقضاض بشكل أفضل. فالخصم قوي، إنه وحش مخيف، «سيدوف» ثانٍ، أفظع من الأول، لأنه يخفي قسوة قلبه خلف وجه جميل. وجلست أمام منضدة زينتها، وتأملت وجهها في المرآة: إنه نحيل، كثير التجاعيد، وتحيط بعينيها دائرتان زرقاوان داكنتان. أولم تخطئ في قبولها دعوة «فيليبوفنا»؟ كلا، ففي وضعها الحالي، لا يمكنها أن تثبط همة شخص يحمل نوايا طيبة نحوها، فهي الآن، أكثر من أي وقت كان، بحاجة للمساعدة! وأسدلت شعرها على كتفيها، وأطلقت لأفكارها العنان. وتناولت «زويّ» مشطاً وفرشاة عن المنضدة.

فقالت لها «صوفيا»:

- إنه لأمر غريب. لقد تزوجت «دافيد» ولكنه يكبرك، على الأقل بعشرين سنة!

فقالت «زويّ»:

- بل بسبع وعشرين سنة!

- ومنذ متى تزوجته؟

- منذ ثلاث سنوات، وقد أرغمني السيد الذي توفي، على أن أتزوجه.

- كيف ذلك؟ وكيف أرغمك؟

- نعم، كنت أحب شخصاً آخر... «بيتيا» الحداد... ولكنّ هذا لم يعجب «فلاديمير كاربوفيتش»... فزوجه عجوزاً شمطاء، فقدت أسنانها، وأنا زوجني «دافيد»... فبكيت، وبكيت كثيراً، آنذاك!... ثم اعتدت عليه... فهو ليس رجلاً سيئاً... فهو لا يتناول الخمر، ويده ليست ثقيلة بالضرب... أحياناً، فقط، عندما يحين المساء ويكون الجوّ حارّاً، أشعر أن روحي تودّ لو تطير!...

وتنهدت، وأخذت تسرّح لـ «صوفيا» شعرها بتأنٍ وبحركات بطيئة.

***

وفي المساء، اتخذت «صوفيا» قراراً مهماً، ونزلت وهي هادئة جداً، وقد ارتدت كل ملابسها، لتناول طعام العشاء. ولم تكن تريد أن تبدو أنها قد استسلمت أو أنها تنازلت عن أي شيء بسبب التهديدات التي وجهها لها «ابن أختها»، الذي بدا عليه أنه كخبير، قد اكتشف طريقتها التي تتحداه بها. كان هو أيضاً قد ارتدى ملابسه بعناية، كما لو أنه أراد أن يزيل بأناقته ذكرى الكلام القاسي الذي وجّهه لها. وبديا، وقد جلس كل منهما على أحد طرفي المائدة الطويلة، عبر ضوء الشمعدانات وتلألؤ الكريستال، وكأنهما يحتفلان معاً بالحرب التي أعلنها كل منهما على الآخر. وطوال فترة تناول الطعام، ظلت «صوفيا» صامتة، عابسة، متخذة وضعاً رسمياً، تأكل قليلاً، وهي الذوّاقة التي تحب الطعام الجيد، وكل ذلك دون أن تنظر إلى الجالس قبالتها.

وبعد مغادرة المائدة، ذهبا إلى المكتب، وهناك، تناولت «صوفيا» «عملها» الذي تشتغل به بسنارتها. وقد قررت ألا تصعد إلى غرفتها لكي تنام، إلا بعد أن تقضي في المكتب وقتاً كافياً. كانت وهي جالسة على أريكتها، بهدوء وارتياح، تسحب سنارتها وترسم، قطبة فقطبة، على قطعة القماش أطراف وحوافّ ورقة خضراء. وكان «سيرج» يطالع في مجلة

مصورة، وهو جالس أمامها، والمدفأة المصنوعة من الخزف كانت حامية، تتصاعد منها الفرقعة. وكلاب الحراسة تنبح في الحديقة التي يكتنفها الظلام. وتبادر إلى ذهن «صوفيا»: «إنه المخلوق الوحيد في العالم الذي ليس لديّ ما أقوله له! » وأخذت تفكر بذلك بحزن وأسى. والصمت، وقد طال أمده، كان مزعجاً للغاية، وهذا ما جعل «سيرج» يغمغم:

- أترغبين بالحصول على بعض أخبار فرنسا؟ لقد توفي أحد كتابكم: السيد «هونريه دو بلزاك» في الثامن عشر من الشهر الماضي.... والأمير - الرئيس غادر ليقوم بزيارة المقاطعات الواقعة في الجهة الغربية من فرنسا... وقد عادوا إلى الحديث عن قانون أقرّه مجلسكم التشريعي، بشأن الاعتقال والإبعاد... فهل يوجد سجون للمحكومين بالأشغال الشاقة، في بلاد أخرى، غير روسيا؟

فلم تجبه، فتوقف قليلاً، ثم استأنف الكلام:

- كما ترين، فأنا أتلقى صحفاً فرنسية. الصحف نفسها التي كان يتلقاها أبي. كان يهتم كثيراً بفرنسا. كيف علاقتك معه؟

فاعتقد أنه يهزأ بها، وردّت بسرعة وجفاء:

- لابد أنك تعرف ذلك أكثر مني!

- كان يحدثني عنك دائماً بكثير من التقدير. قال هذا «سيرج» ثم وضع المجلة جانباً، وضع ساقاً فوق الأخرى، أحنى رأسه، وأضاف، قائلاً:

- إني أرى، أننا، على الرغم من المظاهر، لدينا، أنت وأنا، قاسم مشترك.

فرفعت نظرها بدهشة شديدة، عن عملها. فسرّ كثيراً من التأثر الذي أحدثه عليها، ولذلك تابع بلهجة أكثر حيوية:

- نعم، هذه الملكية، أنت تحبينها بقدر ما أنا أحبها! ومثلي، أنت على استعداد لأن تضحي بكل شيء من أجلها!

فقالت له:

- بكل شيء؟! كلا! فأنا مشغوفة بالمخلوقات وأتحمس لها، ولا أحب الأشياء أو أتحمس لها. فما يربطني بـ «كشتوفكا»، هم الناس الذين يقيمون فيها!

- إنهم لا يشكلون سوى كيانٍ واحد مع الأرض!

- ربما كان ذلك، عندما يتعلق الأمر ببيعهم!

فقطّب «سيرج» حاجبيه، وقال بقوة:

- إني لن أبيع أي واحد منهم، ففي هذا الشأن، أنا لست مثل أبي أبداً.

وصمتا. فأحاطهما المنزل بصخبه وضجيجه. وجلدت زخة من المطر زجاج النافذة، ثم قال «سيرج» من دون اهتمام:

- قال لي بعض الأصدقاء إنهم لمحوكِ، بعد ظهر اليوم، في المدينة، برفقة السيدة «فولكوفّ».

فقالت «صوفيا»:

- فعلاً، هذا صحيح.

- يا لها من علاقة غريبة! أتنوين مقابلتها مرة أخرى؟

- نعم.

- متى؟

- هذا لا يعنيك!

- أنا بحاجة لمعرفة ذلك.

- ولماذا؟

- لكي أعطي الأوامر اللازمة لسائق العربة!

- لست أنت الذي تعطيه الأوامر، بل أنا! تذكر جيداً ما سبق أن قلته لك!

فبرقت أسنان «سيرج» عبر ضحكة قوية:

- إيه! حسناً يا خالتي، فنحن لن نتشاحن بسبب حكايات تتعلق بالإسطبل!... فإذا كنت ترغبين بالذهاب مسرعة إلى «سلافيانكا» لمقابلة تلك العجوز التي تلفّق الأكاذيب وتنشرها، وابنها المخبول الذي تبقيه، على الدوام، رهن إشارتها. فمن أجل ذلك، أنا أضع تحت تصرفك كل العربات وجميع الأحصنة الموجودة في الملكية! وسيبلّغ «دافيد» بأنه يجب عليه أن يطيعكِ كما يطيعني أنا، بالذات! وما عليك إلا أن تأمريه وسيطيعك، ويؤدي لك كل الخدمات التي تطلبينها منه!

وانحنى بتحية هزلية. فتساءلت «صوفيا» عن سبب موافقته واستسلامه لها بهذه السهولة. فهل أثرت عليه، وأخافته بلهجتها الحازمة التي تنم عن التصميم، أم أنه يحضّر رداً وهجوماً معاكساً، لم تستطع أن تتبينّهما؟ والحقيقة أنها كانت أكثر قلقاً وهي تراه راضياً وموافقاً، من أن تراه رافضاً ومشاكساً. وأحضر أحد الخدم، دورقاً يحوي خمراً، وكؤوساً، على صينية. وكان قد حان الموعد الذي حدّدته «صوفيا» للصعود إلى غرفتها. فنهضت، وقالت:

- عم مساءً، يا «سيرج».

فهمّ بالانحناء لكي يقبل يدها، ولكنها لم تتح له الوقت ليفعل ذلك، واتجهت بسرعة نحو الباب. وعند اجتيازها العتبة، التفتت فرأته يصب كأساً من الخمر، يشمه، يحتسيه بجرعة واحدة، وهو يهز رأسه. فتبادرت إلى ذهنها ذكرى جعلتها تضطرب، ذكرى بعيدة جداً، وشديدة العذوبة، لم تستطع تحديدها ولا وصفها أخذت تمر بذاكرتها. وأخذت تفكر بها من دون توقف وبفارغ الصبر، وهي تخلع ملابسها. وعندما استلقت على سريرها، تذكرت، أخيراً، اليوم الذي قدّمت فيه لـ «فيرديناند وولف» مشروب «توت العلّيق» فنامت، عند ذلك، وهي متأثرة ومسرورة بهذه الذكرى.

٦

في العربة التي كانت تقلّ «صوفيا» إلى «سلافيانكا» أخذت هذه تحاول إقناع نفسها بأنها أصابت بقبول دعوة «داريا فيليبوفنا». ولكنّ انزعاجها ظل باقياً. كان يبدو لها أنها ستعود للغوص في الوحول بقيامها بزيارة هذين المخلوقين اللذين كانا مشاركين مباشرة وبقوة في قصة مصيبتها. وفي الوقت نفسه كانت تشعر أنها منجذبة نحوهما بشكل لا يقاوم، كما لو أنهما أفضل حليفين لها ضد العزلة والوحدة. وأمامها، كان ظهر «دافيد» يتمايل عند كل ارتجاجه تحدث في العربة. كان قد ارتدى أجمل ملابسه، لكي يقلّها لتقوم بتلك الزيارة. ولم يكن خائفاً، هذه المرة: إذ إن السيد قد أيّد أوامر السيدة.

وبالمقارنة مع «كشتوفكا» كانت ملكية «سلافيانكا» تبدو مهملة تقريباً. فهنالك كثير من الحقول بقيت بوراً لم تُستثمر، والطريق لم يعتَنَ به كما يجب، وفيه كثير من الحفر والأخاديد. وفي القرى، تبدو «الإيسبات»: «بيوت الفلاحين» وسخة، تكاد تنهار، والحدائق غزتها الأعشاب الضارة ذات الأشواك. ولم تكن السماء تمطر، وإن كانت الغيوم منخفضة وداكنة. والريح الباردة تعصف بأغصان الأشجار وحديقة الملكية، الواسعة والهادئة والتي بدت مهملة، كان لها سحر غابة، تشوبه الكآبة. وعبر فسحة بين أوراق الأشجار، المصفرّة، لمحت «صوفيا» منزل صاحبة الملكية، المبني من الخشب، متطاول الشكل، مسودة جوانبه بتأثير الدخان، ونوافذه صغيرة درفاتها مطلية بالألوان.

توقفت العربة أمام درج المدخل. فأسرعت «داريا فيليبوفنا» بالنزول مرتدية فستاناً، رمادي اللون، كي تستقبل مدعوتها، و «صوفيا» التي أذهلتها صيحات الترحيب التي أطلقتها مضيفتها، رافقتها إلى قاعة الطعام، حيث كانت مصطفة، على منضدة بيضوية الشكل، التي يعلوها «سماور» زاهٍ ومتوهج، أواني المربيات، وأهرامات من الفطائر وقطع الحلوى. ولم تكد «صوفيا» تجلس، حتى رأت رجلاً، يبدو كأنه مغنٍ إيطالي في منحدر العمر، كبير البطن، أشيب الشعر، عيناه كبيرتان سوداوان في وجه منتفخ، أخذ يتقدم نحوها، وبدا مهمل الملابس، يرتدي سترة مخملية بنية اللون وسروالاً أصفر، انحلت السيور التي تربط تحت الحذاء أسفل كمّيه. فانقبض قلب «صوفيا» عندما عرفت أنه لم يكن سوى الجميل والأنيق «فاسّيا فولكوفّ» الذي عرفته فيما مضى.

فقالت أمه، ببلاهة، وكأنها تخاطب صبياً صغيراً:

- إيه! لقد أتت! كنت تشعر برغبة شديدة لكي تراها!

فقال بلهجة تنم عن الكآبة والاستياء:

- أرجوك، يا أمي! دعكِ من هذا الكلام!

قبّل يد «صوفيا» وجلس، تناول قدحاً من الشاي، وأصغى برهة، بملل واضح، لثرثرة المرأتين، ثم تمتم، مغتنماً فترة من الصمت، ودون أن يرفع ناظريه:

- حدثتني أمي، عن موضوع «نيقولا»... إنه أمر مرعب!... كنت أريد أن أقول لك إني فكّرت به كثيراً أثناء السنين الطويلة، التي أمضاها في المنفى... فكرت به وبكل أولئك الذين أوتوا الشجاعة للمعاناة وتحمل الآلام في سبيل آرائهم ومعتقداتهم السياسية... وأنت تعلمين أني بمصادفة غريبة من الظروف، لم أكن موجوداً في «سان بطرسبورغ» يوم التمرد... فقد استدعتني شؤون عائلية إلى «بسكوف»...

وأمّنت أمه على قوله:

- شؤون عائلية خطيرة جداً!

- وهكذا، فإني نجوت من العقوبة بأعجوبة. وقد استدعيت، وحُقّق معي، ثم أخلي سبيلي. ولكن، وإن لم يحكم علي بأي عقوبة، فإني أشعر على الدوام بأني متضامن من أولئك الذين أبعدوا إلى سيبيريا. وأنا... أنا بكيت عليهم، ومعهم... وقد احتفظت بمبدأ وعقيدة رفاقي... وحتى اليوم، لا يمر نهار دون أن أصلي من أجلهم، جميعهم، الأحياء منهم والأموات... وأفكاري... أفكاري لم تتبدل ولم يطرأ عليها أي تغيير!...

كانت «صوفيا» تتابع بدهشة شديدة هذه الشكوى المحزنة، فليس هناك أي شك بأن «فاسّيا» كان يشعر بالخجل لأنه تخلى عن المتمردين، في آخر لحظة، متذرعاً بحجة، هو نفسه، لم يعد يؤمن بها. وكان يحاول، دون أن يوفّق بذلك، أن يبرّر تصرفه، كما لو أن هذه التي تضعي إليه، كانت بمفردها، تمثل جميع الرجال وجميع النساء الذين ما يزالون في سيبيريا. ومع ذلك، فإنّ السنوات التي أمضاها في الريف، متمتعاً بحياة هادئة، كان ينبغي أن تكون قد خفّفت من عذاب الضمير الذي يعاني منه. وبينما كان يتكلم، كانت أمه تراقبه بقلق واضح، وأخيراً، قالت له:

- أنت مخطئ بما تبديه من أسف وحماسة، فصديقتنا المحبوبة تعرف كل هذا الذي تقوله. ففي كل كارثة تحدث، يكون هنالك ضحايا، وناجون من الكارثة، فهل رأى أحد ما الناجين يخجلون لأنهم لم يكونوا في عداد الضحايا؟!

فقال باستياء:

- اسكتي يا أمي!

والتفت نحو «صوفيا» وسألها:

- هل أتيحت لك الفرصة لكي تتحدثي عني، هناك، مع أصدقائنا؟

فقالت له، مؤكدة:

- نعم، وفي كثير من الأحيان...

والحقيقة هي أنها كان لديها انطباع، بأن لا أحد، بين «متمردي كانون الأول» قد اهتم بـ «فاسّيا فولكوف» أو فكّر بأن يدينه أو أن يغفر له.

- وماذا قالوا لك عني، يا سيدتي؟

فكذبت، بدافع من الشفقة:

- إنهم ما زالوا يثقون بك.

- وعن كوني لم يُلق عليّ القبض معهم في ساحة مجلس الشيوخ؟...

فقالت أمه، وقد شعرت بالفوز:

- أرأيت! أشكركِ، يا سيدتي العزيزة، أنت لا تستطيعين تقدير أهمية الفائدة التي حققتها لنا. إذ إن «فاسّيا» يسبّب لنفسه المرض بهذه القصص التي يفكر بها على الدوام. فهو يتصوّر...

فقاطعها «فاسّيا» قائلاً بغضب:

- أنا لا أتصور شيئاً، بماذا تتدخلين أنت؟ وماذا يعنيك هذا؟

فانزوت «داريا فيليبوفنا» جانباً، ووجّهت إلى «صوفيا» نظرة تنم عن توافق بسيط.

واستأنف «فاسّيا» أسئلته:

- و «نيقولا»؟ «نيقولا»... ألم يشعر بخيبة أمل؟...

- خيبة أمل؟ من أي شيء؟

- إيه!... ولكن، أخيراً، بسبب غيابي، ولكوني لم أكن بجانبه، يوم الرابع عشر من كانون الأول؟...

فقالت له «صوفيا»:

- لقد غبطك، لأنك بقيت حراً، وهذا كل شيء. وتجربة السجن والتعرض لمحنته، تعيدان لكل شيء قيمته الحقيقية. وبشكل مفاجئ،

يدرك المرء أنّ أهم شيء في الحياة، ليس إحدى العقائد، مهما كانت جيدة وخيّرة، بل إن أهم شيء هو الصحة، وحرية الذهاب والمجيء، وهي مفاهيم بسيطة للغاية...

كان «فاسّيا» يصغي إليها بشغف شديد، وملامح وجهه مشدودة ومتوترة. وأخيراً، سألها:

- ألم يكونوا يتحدثون بالسياسة، هناك، إذن!

- بلى، بالتأكيد، ولكن بدافع العادة، وليس عن اقتناع حقيقي. والواقع هو أن معظم أصدقائك قد اعترفوا باستحالة إقامة نظام حكم دستوري في روسيا، قبل مرور سنوات عديدة...

فقالت «داريا فيليبوفنا» في انطلاقة من الفرح المزيف:

- «فاسّيا» من جهته، متحمس، ومستعجل، أكثر من أي وقت مضى! فهو يقرأ، ويقرأ!... ولا شيء سوى الكتب الفرنسية المخرّبة!... وفي كل مرة يأتي أناس إلى هنا، يتحدث إليهم بأحاديث جمهورية!... فهو يبدي طيشاً، وأي طيش!... وذات يوم، سيلقى عقاباً شديداً، على ذلك!

فغمغم «فاسّيا» مزمجراً:

- لماذا تقولين هذا، يا أمي؟ فأنت تعلمين جيداً أنّ هذا غير صحيح!

فصاحت، بأعلى صوتها:

- كيف، غير صحيح؟ تذكر يوم تناول مدير البريد وزوجته طعام الغداء، هنا، في منزلنا، وحدثتهم بحماسة شديدة عن ذلك الكاهن الفرنسي الذي كان أكثر قرباً من الشعب، منه إلى البابا... وهو يدعى: «Lamonnaie»... أو «Lamennais»...

فأرسل «فاسّيا» تنهيدة عميقة، وألقى وجهه بين يديه: طفل مسنّ ترهقه أم مستبدة وثرثارة. وفي الحال، صمتت «داريا فيليبوفنا»، كما لو أنها خشيت أن تسبّب له نوبة عصبية. وانحنت نحو «صوفيا» وأسرّت لها، بصوت خافت:

- هـو لا يريـد أن يقـال عنـه ذلـك، ولكـن اذهـبي إلى غرفتـه، وسـترين مكتبتـه! وقـد أكـد لـي، صـديق الطـرفين: «تروسّـوفّ» عميـد الطبقـة الارستقراطية في «بسكوف»، قائلاً: «هذه كلها، بارود حربي!»

فرفع «فاسّيا» رأسه، وعلى شفتيه ابتسامة حزينة، جعلت أسارير وجهه تنفرج:

- نعم، إني أواسي نفسي عن البطالة بالمطالعة. وبقدر ما نفكر، بقدر ما نصبح أقل رغبة بالتصرف والعمل. وبدلاً من أن يمنعوا، في روسيا، اقتناء الكتب السياسية ومطالعتها، يجب على الحكومة أن تشجّع على نشرها. فيتحوّل جميع القراء إلى جماعة من الحالمين. ويصبحون غير عدوانيين لا يؤذون أحداً...

كان يحرك ملعقته في كأسه ذي القاعدة الفضية.

فقالت له أمه:

- اشرب، لقد برد الشاي!

فانصاع، بصورة تلقائية.

وتابعت:

- أشقّ ما في الأمر، أن ليس لديه أحد يتبادل معه الأفكار! أنا، أليس كذلك؟ إني لا أفقه الكثير في هذه المسائل... وأصدقاؤنا، هم في الجانب الآخر... لذلك، فهو يبقى منفرداً، في عزلة... يجتر أفكاره، طوال ساعات بكاملها في غرفته... وهذا ليس وضعاً صحياً!... آه! لو أنّ «نيقولا ميكايلوفيتش» ما زال من أبناء عالمنا هذا!...

ومخطت، فحدجها «فاسّيا» بنظرة تنم عن الغضب الشديد.

وساد صمت عميق، شعرت «صوفيا» خلاله، بأنها تقع على كاهلها وطأة عادات هذه الأم وهذا الابن، وعداوتهما التي تنم عن الهوس، وتفاهمهما الخفي على الكسل والإهمال والشره. ويُشمّ بقربهما كرائحة

أسرة، أفرادها مسنون، ساخطون، ولا يمكن فصلهم عن بعضهم. كان «فاسيّا» يداعب بين أصابعه كريات من الخبز، بعصبية ظاهرة. فتساءلت «صوفيا» وهي تراقبه، عما إذا كان فشل تمرّد الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» ١٨٢٥، وزج أصدقائه في السجن، ونجاته هو، من العقوبة، لم يشوّه طباعه. وقالت له:

- يجب أن تأتي لتراني في «كشتوفكا»، مع أمك؟

فانتفض، وحدثت في وجهه التي تبدو ملامحه غائرة بسبب البدانة، تقلصات تنم عن الخوف، ثم استردّ هدوءه، وقال:

- إني أعتذر، فهذا مستحيل!...

- ولماذا؟

- بسبب «ابن أختك»: «سيرج فلاديميروفيتش»، فأنا لا أستطيع أن أتحمل الطريقة التي يعامل بها الفلاحين. فبينما أخذ معظم الملاكين، حتى الأكثر تقدماً في السن، والأكثر رجعية، يشعرون بأنهم لم يعد يمكنهم استخدام الفلاحين واستغلالهم كما في الماضي، وأن فكرة التحرر منتشرة في كل مكان، وأن على الجميع أن يستعدوا لها وأن يهيئوا الشعب لتنفيذها، يستمر هو بالتصرف كطاغية ريفي صغير. ويجد متعة ساديّة بالذهاب حتى النهاية واستخدام أقصى السلطات التي يمنحه إياها القانون. ويعتقد أنه أمر معيب بالنسبة له، إذا تنازل عن جزء يسير من حقوقه الإقطاعية. انظري إلى فلاحينا، أو إلى فلاحي جيراننا: «آل غيديونوف» و «آل ماسلّوف»... فأي فرق تلاحظين، من أول نظرة، بينهم وبين الفلاحين الأحرار؟ إنهم، حتى، يتصورون أن الأرض هي لهم. وكثيراً ما يقولون لي: «نحن لك، يل سيدنا، ولكن الأرض لنا!». وهل تظنين أن فلاحي «كشتوفكا» يقولون هذا لـ «سيرج فلاديميروفيتش»؟ إنهم مرعوبون، يحنون ظهورهم، ويتقبلون الضرب والجلد، وجز الشعر! حيوانات، لقد حولهم إلى حيوانات!...

كان يتحدث بلهجة قوية وبصوت عال، ويداه ترتجفان.

وتابع الكلام، قائلاً:

- عندما أفكر أن كثيراً من الرجال البارزين والمتميزين، أُبعدوا إلى سيبيريا، لكونهم حلموا بتحرير العبيد، وأنه، بعد خمس وعشرين سنة، يجعل، ابن أخت أحد هؤلاء الرجال، بعض الفلاحين يُحكمون بالأشغال الشاقة المؤبدة، لكي ينقذ جلده، عند ذلك أشكّ أن هذين الحدثين قد حصلا في البلد الواحد نفسه!

في بداية الأمر، لم تفهم «صوفيا» معنى هذا الاحتجاج. وتدخلت «داريا فيليبوفنا» وقد اعتراها الاضطراب:

- أنت تبالغ، يا «فاسّيا»! فليس لديك أي دليل!

فصاح وهو يدفع صحنه:

- الجميع يعرفون ذلك، ولا أحد يجرؤ على التصريح به!

فسألته «صوفيا»:

- ما الذي يعرفه الجميع؟

فتأملها، بنظرة شاردة، وأجابها بشكل مفاجئ:

- «ابن أختك» هو القاتل!

عند ذلك، فقد الكون كله، حول «صوفيا» لونه وحدود واقعه، وظلت برهة تطفو في الفراغ، وأخيراً، بعد أن جمّعت شتات أفكارها، تمتمت:

- هذا غير ممكن!... والده، هو؟...

فقال «فاسّيا»:

- كان يكرهه كثيراً!

فالتفتت «صوفيا» نحو «داريا فيليبوفنا»، التي أمّنت على ما قال ابنها، بإيماءة من رأسها، وقالت:

- نعم، لم أقل لكِ هذا، ذلك اليوم... وترددت، لكي لا أزيد من اضطرابك وانزعاجك...

ربما تكون قد أخطأت يا «فاسّيا» بإثارتك هذا الموضوع!

- لماذا؟ يجب أن تتطلع السيدة «أوزاريفّ» على كل شيء!

فسألته «صوفيا»:

- أنت نفسك، من أطلعك على هذا الأمر؟

- خدمكم قالوا ذلك إلى المشرف على ملكيتنا. ليلة حدوث الجريمة، حدثت مشاحنة فظيعة في «كشتوفكا». كان «فلاديمير كاربوفيتش»، على ما يبدو قد وقّع سنداً ببعض الديون، أو أنه قد ارتكب عملاً جنونياً آخر فاحتجزه ابنه معه في المكتب، وشتمه وصفعه. وجميع الخدم كانوا في الرواق، يصغون، ويسمعون كل شيء، وقد استبد بهم الرعب. وأخيراً، بعد أن تعب الأب والابن من الصراخ وتبادل الشتائم هدأا وتناولا المشروب سوية...

فتمتمت «صوفيا»:

- ربما، لم تكن هذه سوى ثرثرة، وأقاويل يختلقها الخدم، من تلقاء أنفسهم.

- لا دخان بلا نار، يا سيدتي! في اليوم التالي، وُجد «فلاديمير كاربوفيتش» مقتولاً، في تخشيبة الحمام.

- وإذا كان الأمر لا يتعدى كونه مجرد مصادفة؟ فليس هنالك أدلة مادية تسمح باتهام «ابن أختي»! وعلاوة على ذلك فإنّ الفلاحين قد اعترفوا...

فضحك «فاسّيا» ضحكة تنم عن الكراهية:

- الجميع يعلمون ماذا تساوي اعترافات الفلاحين تحت التهديد بالجلد! أما فيما يتعلق بالأدلة المادية، فإنّ لجنة التحقيق لم تحاول حتى أن تبحث عنها! ومن أجل راحة الضمائر واطمئنانها، وللمحافظة على النظام، يكون من الأفضل إدانة ثلاثة عبيد أبرياء، ولا إدانة سيد مذنب!... هنالك حقيقة مؤكدة: في هذه المنطقة، هذه الميتة لم تدهش أحداً. كان الناس يتوقعونها من زمن طويل. وذلك لم يكن من الممكن أن ينتهي بشكل آخر!...

وبينما كان يتكلم، كانت «صوفيا» تفكر بما أطلعها عليه «أنتيب». فهو أيضاً ادعى بين «تكشيرتين» أن الفلاحين لم يقتلوا سيدهم. وفي الصمت الداخلي الذي يثير انتباهاً شديداً للغاية، شعرت أن شكوكها قد تحوّلت إلى يقين. ومع ذلك، فهي لم تشأ أن تستسلم للذعر. وأخذت تبحث عن حجج لكي تقاوم الرعب الذي أخذ ينتابها. والتهمت «داريا فيليبوفنا» ما كان في ملعقتها من المربى، وقالت، متأوهة:

- إنه عمل شنيع! ولكن لا يمكن عمل أي شيء حياله!

فصاح «فاسّيا»:

- كيف، لا يمكن عمل أي شيء حياله؟! يجب أن يكون هناك وسيلة لإظهار الحقيقة للعيان! لو أني كنت في ذلك المكان...

فقالت «صوفيا»:

- أنا موجودة في ذلك المكان، ولكن الفلاحين يرتابون بكل من يريد لهم الخير. ومن المستحيل معرفة ما يفكرون به. وهم يخافون أكثر مما ينبغي من العقوبات ومن الانتقام!

فقال «فاسّيا»:

- علينا أن نتذرع بالصبر! فسوف تنحل عقدة الألسن! وتنطلق لتقول الحقيقة! ألا ترين أنه أمر لا يحتمل ولا يطاق، أن يذهب ثلاثة تعساء مقيدين بالسلاسل إلى سيبيريا، دون أن يكونوا قد فعلوا شيئاً، وحتى دون أن يستمع أحد إلى احتجاجاتهم؟

كانت هذه الجملة تتجاوب تماماً مع اضطراب «صوفيا» وتعبر عنه، لدرجة أنها اعتقدت أنها هي بالذات التي لفظتها. ومن بين جميع الجرائم التي يمكن أن يرتكبها أحد المجتمعات، بدا لها أن الخطأ القضائي الذي يرتكب، بشكل إرادي ومقصود، هو أحد أشنع الأخطاء. وتبادر إلى ذهنها أنها لن تستطيع أن تتنفّس بارتياح، طالما أن الشك باق في ذهنها حول تجريم العبيد

الثلاثة. ولكن ما العمل؟ وممن تستطيع الحصول على المعلومات؟ وكيف، بعد ذلك، يمكن التوصل إلى إعادة النظر في قرار الحكم؟ كان تبيّنها لعجزها يرهقها. وبشكل مفاجئ، أدركت أنها لن تستطيع البقاء، بعد ذلك، عشر دقائق إلى جانب تلك المنضدة. كانت بحاجة إلى العودة إلى «كشتوفكا» وإلى رؤية «سيرج» من جديد، والتفرس في وجهه، والتوصل إلى اكتشاف خفايا مشاعره. وعندما أعلنت أنها مضطرة للذهاب استاءت «داريا فيليبوفنا»:

- منذ الآن؟! وأنا التي كنت أفكر أن أريكِ الحديقة، والنهر، والمطحنة...

فتدخل «فاسّيا»، قائلاً:

- لا تلحي، يا أمي! فالسيدة «أوزاريف»، بالتأكيد ليس لديها رغبة في التنزّه، الآن!

فتمتمت «صوفيا»:

- إني أعترف، بأني ما زلت تحت تأثير ما قلته لي.

فانحنى نحوها:

- إذا علمت شيئاً جديداً، أرجوك أن تطلعيني عليه.

فابتسمت «داريا فيليبوفنا» ابتسامة أم راضية: فها هو ابنها أخذ أخيراً يهتم بأحد الموضوعات، ويبدي المودة نحو شخص ما! وقالت:

- مرحى! يجب أن تعودي بسرعة لزيارتنا، يا صديقتي العزيزة!

وصاح «فاسّيا»:

- نعم، نعم! ينبغي ذلك، ومن كل بدّ!

وترغرغت الدموع في عينيه الكبيرتين السوداوين، فبدا شبيهاً بامرأة عجوز سريعة التأثر. ونهضت «صوفيا»، فأرادت مضيفتها أن تستبقيها لمزيد من الوقت، وكان عليها أن تتبعها إلى الصالون، لكي تُريها الصور الخاصة التي تمثل بناتها الثلاث وأزواجهن، وكذلك «الدنتيلا» الفظّة

الصنع، والتي تحاك في إحدى قرى الملكية. وأخيراً رافقت الأم وابنها مدعوتهما إلى العربة. وبعد ثورة شديدة من الغضب، عاد «فاسّيا» إلى هدوئه. ويكاد يخيل لمن يراه أنه نسي حتى سبب غيظه وغضبه. كان يحني منكبيه في سترته المدعوكة، ولا يرفع رجليه وهو يمشي. ومرتين، حاولت أمه أن تصلح له في وضع ياقته، فكان يرفض ذلك، ويدفعها:

- دعي... دعي هذا، هيا!

وبدت رحلة العودة، بالنسبة لـ «صوفيا»، طويلة، لا نهاية لها. وعندما وصلت إلى غرفتها، عادت لتتألم وتعاني من التذمر ونفاذ الصبر. وقبل موعد العشاء بقليل، نزلت إلى المكتب، حيث كان «سيرج» ينتظرها للذهاب إلى قاعة الطعام. وعندما رأته، شعرت بصدمة قوية. فوجه بهذا الهدوء، لا يمكن أن يكون وجه قاتل. كان من المستحيل تصور هذا الفتى، ذا الوجه الطلق والهيئة المنفتحة، والملامح اللطيفة، وهو يشد بكل أصابعه على عنق والده إلى أن يخنقه. إنّ «فاسّيا» مجنون، وأمه بلهاء ومغفلة! فلماذا أصغت لهما؟

وسألها «سيرج»:

- أكانت زيارتك لداريا فيليبوفنا، لطيفة؟

فقالت «صوفيا» وذهنها شارد في مكان آخر:

لطيفة تماماً.

- لقد عدت باكراً جداً!

- كنت متعبة بعض الشيء، وأردت أن أرتاح.

- ألا تفضلين أن تتناولي طعام العشاء في غرفتك؟

- كلا، ولماذا؟

وفتح الخادم الباب على مصراعيه، فبدت المائدة، ضخمة جداً، مزدانة بشمعدانات فضية. وكان هذا المنظر طافياً لتبديد قلق «صوفيا» وبعث الطمأنينة في نفسها.

٧

قال «أنتيب» متأوهاً:

- لا تسأليني عن هذا، يا سيدتي! فلو أجبتك لانهار السقف على رأسي!

ووجه نظرة قلقة نحو السقف، ورسم إشارة الصليب على صدره.

فكررت «صوفيا» السؤال:

- بما أنّ الفلاحين ليسوا هم الذين قتلوا «فلاديمير كاربوفيتش» فمن هو الذي قتله، إذن؟

- أؤكد لك أني لا أعرفه!

- أنا، سأقول لك من هو!

فقال متلعثماً، وهو يحملق بعينين تعبّر بنظراتهما عن الرعب:

- كلا! كلا!

- إنه ابنه.

فخرّ «أنتيب» راكعاً على ركبتيه:

- يا أم الرب المقدسة! أيمكن التلفظ بكلام كهذا، أمام الأيقونات، دون الوقوع في الخطيئة؟!

- كفاية من هذه الحركات والتكشيرات! فأنا بحاجة لمعرفة الحقيقة! إنه هو، أليس كذلك؟

فقال «أنتيب»:

- نعم.

وأجال النظر حوله، كما لو أنه أراد التأكد من أن أحداً لم يسمعه سوى «صوفيا».

الباب والنافذة مغلقان، وفي الغرفة، آنذاك يخيم غبش مشوب برائحة العفن. وعلى المنضدة كسرة من الخبز الأسود، وقليل من الملح على قطعة من ورقة جريدة.

وسألته:

- كيف يمكنك أن تتأكد من ذلك؟

- لست متأكداً من ذلك، تماماً!

- ولكن، على وجه التقريب؟

- نعم.

- ولماذا؟

فنهض وهو يتأوه، وهز رأسه الضخم الكثير التجاعيد، والأشعث الشعر، وقال:

- عندما يكون أحدنا عجوزاً، تقدّمت به السن، وليس لديه أي عمل طوال النهار، فإنه ينصرف للتفكير. وفي يوم الخامس عشر من أيار «مايس» عند الفجر، قتل الفلاحون «فلاديمير كاربوفيتش» في تخشيبة المسبح، قرب النهر، على ما يقال. ولكن لماذا ذهبوا إلى تلك التخشيبة؟

فقالت «صوفيا»:

- لكي يصلحوا أرضيتها الخشبية.

- ومن طلب منهم إصلاح تلك الأرضية؟

- لا أدري... «فلاديمير كاربوفيتش» نفسه، دون شك...

- كلا، يا سيدتي! إنه ابنه! فقد وصل «سيرج فلاديمير كاربوفيتش» إلى القرية، قادماً إليها سيراً على قدميه، يوم الرابع عشر من أيار. في وقت متأخر من أمسية ذلك اليوم، كانت هيئته غريبة، وملابسه يعلوها الغبار،

ومصاب بخدش في أحد خديه. وأمر «أوسّيب» الأصهب، و «مارك» و «فيدكا» أن يذهبوا، في اليوم التالي، بالتأكيد، ومن دون تأخير، مصطحبين أدواتهم، إلى ضفة النهر، لكي يصلحوا أرضية تخشيبة المسبح. وقد جرت العادة، في مثل هذه الحالة أن يرافق جماعتنا الفلاحين «سواق» لكي يراقب عملهم. وهذا النظام يحرص «سيرج فلاديمير كاربوفيتش» على مراعاته، لأنه هو الذي ابتكره. إيه! ولكن، ها هو، في ليلة ذلك اليوم، يقول للفلاحين: «لا حاجة للسواق، غداً! اذهبوا إلى هناك سوية، وبمفردكم! فيكون الأمر أكثر بساطة!...»

- وما الغرابة في ذلك؟

- إيه! يا سيدتي، لو أنهم ذهبوا، ورافقهم «سواق» فإنّ هذا، ما يمكنه أن يقسم اليمين على الإنجيل، بعد ذلك، بأنه رآهم يخنقون سيدهم. ولكنهم ذهبوا إلى هناك، بمفردهم، وبكل سذاجة، كالصيصان. ففوجئوا بوجود الجثة هناك، واستولى عليهم الرعب، فأسرعوا لإخبار السيد الشاب بذلك، وهو، لم يكن ينتظر سوى هذا، فاتهمهم أنهم هم الذين ارتكبوا الجريمة، ولكنّ الجريمة كان هو الذي ارتكبها في الليلة السابقة. وكل من في المنزل سمعوه وهو يتشاجر مع والده، في المكتب. وبعد ذلك تصالحا، وأفرغا زجاجة من الخمر، وذهبا سوية، متأبطين، نحو تخشيبة المسبح، الكائنة على ضفة النهر. فماذا سيعملان هناك؟ ربما ذهبا لكي يستحمّا، رغم شدة البرد! فعندما يحتسي أحدنا مشروباً مسكراً تراوده مثل هذه الأفكار!... كان ذلك في وقت متأخر من الليل، تقريباً. وقد رآهما بعض الخدم، عندما خرجوا من المنزل، ولم يرهما أحد وهما يعودان. فهل فهمتِ، الآن؟

وكان أكثر ما يثير الاضطراب لدى «صوفيا» هو أن «سيرج» قد تدخّل شخصياً، ليلة حدوث الجريمة، ليمنع أيّ «سواق» من مرافقة الفلاحين إلى تخشيبة المسبح. ومثل هذا الإجراء، يجرّ، بصورة لا تقبل الجدل، شبهة

بالذنب على من أمر به. أيمكن أيضاً أن يكون كل هذا، قد اختلقه «أنتيب»؟! ومنذ أن وصلت إلى «كشتوفكا» حصل لديها انطباع أنها تدور حول نفسها في الضباب. فهنا، لم يكن الكذب سوى إحدى صيغ الحقيقة. ولا يمكن الاعتماد على أحد، لأن أي واحد يغش ويزوّر لكي ينقذ نفسه، ليوقع بجاره، أو ليبرهن على أهميته. و «أنتيب» صرح بما لديه، واضعاً يده أمام فمه، كما لو أن المعلومات التي باح بها، كسرت له أسنانه، عند خروجها من فمه. واتجهت «صوفيا» نحو الباب.

فصاح وهو يقف في طريقها:

- إنك لا تستطيعين الذهاب، هكذا، يا سيدتي!

لقد سلمها قنبلة، وهي ستقذفها أينما كان؟

واستأنف الكلام:

- سيدتي، سيدتي! ماذا ستفعلين؟

فلم تجب، أبعدته من طريقها وخرجت. فركض في أثرها، وهو يعرج قليلاً. كانت العربة تنتظرها، متوقفة في وسط القرية. وبينما كانت «صوفيا» تصعد إليها، لمحت حصاناً مسروجاً ومربوطاً إلى قيد، أمام الكنيسة. ولم يكن موجوداً هناك، عندما أتت إلى «شتكوفو». وعرفت أنه حصان «سيرج»، وتبع «أنتيب» وجهة نظرتها، فتغيرت ملامح وجهه. وهمس لـ «صوفيا»:

- سيدتي! آهاً! آهاً! آهاً ماذا ستحكين له؟

فقالت له «صوفيا»:

لا شيء! فلماذا أنت خائف؟

وفي اللحظة نفسها، فتح باب منزل الكاهن، وبدا «سيرج» عند عتبته، يرافقه الكاهن وزوجته. فودعهما، واتجه نحو «صوفيا»، وهو يتمايل في مشيته، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

- يا له من لقاء لطيف! أكنت تقومين بزيارة هذا المجنون المحبوب؟

فتقلّص «أنتيب» وجمّع جسمه في الحال، رفت جفونه، ومر بطرف لسانه على أسنانه، وأخذ يهزّ رأسه، ويتلعثم:

- سيدي، يا شمسنا الجميلة! فلتتوجك نعم السماء! كان ينبغي أن تأتي أنت أيضاً لتراني! وسأعطيك «برغوثاً»! وهو يعزف على «الهارمونيكا»! وفي المكان الذي يجلس فيه، إذا حفرت، تعثر على الذهب! ومن هو الذي لا يحتاج للذهب؟ حتى القيصر، في قصره يطلبه! وأنا أعرف أين يوجد الذهب! بواسطة برغوثي!...

وتظاهر بأنه يمسك برغوثاً بين إصبعيه، من على كمه، غمز بعينيه، وتابع:

- أتريد أن تراه؟

فأبعده «سيرج» بلطمة قوية:

- انصرف، أيها الأبله!

- أوه! برغوثي! أين وقع؟

وبدا حائراً، جلس القرفصاء، وأخذ يبحث في الأرض.

فأخذت «صوفيا» تتساءل عما إذا لم يكن، حقاً، قد فقد عقله بسبب الصدمة التي أحدثتها له المفاجأة. ولكن النظرة التي تنم عن الذكاء التي وجهها لها من الأسفل إلى الأعلى، أثبتت لها أنه كان يتصنّع الجنون، لكي يؤمن السلامة لنفسه.

وغمغم «سيرج»:

- ينبغي أن يكون من الممكن القضاء على أشخاص كهذا، والتخلص منهم، فلا فائدة منهم، ولا يصلحون لشيء، ويشكلون قدوة سيئة للآخرين!...

فقالت «صوفيا» وهي تحدّق بقوة في عينيه:

- ليس لأحد الحق بأن يقرر فيما إذا كان مخلوقاً ما، مفيداً، أم لا؟

فضحك:

- معك الحق! فلا ينبغي لنا أن ننوب عن الله! فذلك يمكن أن يسبب لنا المتاعب. إني أنوي الذهاب إلى «كرابينوفو» فهل ستذهبين أيضاً إلى هناك؟ يمكننا أن نذهب سوية...

- كلا، شكراً، إني أفضل العودة إلى المنزل.

- إيه! أرجو لك نزهة جميلة!

حيّاها، مشى نحو حصانه، فامتطاه بخفة، وانطلق على الطريق الموحل.

فقال «أنتيب» وهو ينهض واقفاً:

- أوف!

ولكنه لاحظ أن سائق العربة ينظر إليه من فوق كتفه، فضبّ لسانهُ، حذراً وخوفاً.

وقالت له «صوفيا»:

- لا تقلق! وعلى الخصوص لا تخش شيئاً، فلن يصيبك أحد بأذى! هيا، انطلق يا «دافيد»!

وظلّ «أنتيب» يرسم إشارات الصليب أمام الأحصنة، إلى أن انطلقت العربة.

وعند الخروج من القرية، قالت «صوفيا» للسائق:

- لا تسرع إلى هذه الدرجة! سأطلب منك أن تتوقف، بعد قليل!

وفي طريقها إلى «شتكوفو» رأت جماعة من الفلاحين يزيلون بعض الأشجار اليابسة والأرومات من حول إحدى الغابات الصغيرة. فطلبت من السائق أن يوصلها بالعربة إلى أقرب نقطة من ذلك المكان، ثم سارت على قدميها، عبر الحقول، إلى أن وصلت إلى قرب العمال. فاستقبلوها بالتحية، نازعين قبعاتهم. وكان هنالك «سواق» طويل القامة، قوي البنية، لحيته

طويلة، يراقبهم وهو جالس على مرتفع هناك. فانتحت به جانباً، وفاجأته بالسؤال عما إذا كان بناءً على أمر السيد الشاب، حقاً، ذهب الفلاحون يوم الخامس عشر من أيار «مايس» الماضي، إلى تخشيبة المسبح، دون أن يرافقهم أي «سواق».

فقال:

- هذا مؤكد، وإلا، كان لا بد من أن يرافقهم أحد السواقين. كما هي القاعدة المتّبعة! ولكن، لماذا تسألين عن ذلك؟

- ذلك، لأنّ هؤلاء الرجال إذا كانوا قد قرروا من تلقاء أنفسهم الاستغناء عن مرافقتكم لهم، فيكون ذنبهم مزدوجاً!

فاعترف «السواق» بذلك، وقد بدت عليه الحيرة والاستغراب:

- هذا صحيح!

- هل قلتم ذلك إلى لجنة التحقيق؟

- ماذا؟

- إنّ السيد الشاب قد أعطى تعليمات معينة عشية يوم ارتكاب الجريمة؟

- لم نُسأل عن ذلك.

- كان يمكن أن يكون ذلك مهماً جداً!

- أوه! كلا! لقد أدرك السادة رجال القضاء، بسرعة ما الذي حدث. وخلال عشر دقائق، لم يعد المجرمون يعرفون ماذا يجب أن يقولوا، واعترفوا في الحال، على الإنجيل. عند ذلك سُجل كل شيء، كتابةً: النسب والأسماء والتواريخ، وتبع كل هذا الأختام والتواقيع. وأصبح كل شيء رسمياً، ولم يعد هنالك مجال للعودة إلى هذا الموضوع!

وبينما كان يتحدث، أخذ الفلاحون يخفّفون من جهدهم، ويتباطؤون بالعمل. فصاح بهم دون شراسة أو خبث، وهو يلوح بهراوته:

- إيه! ماذا حلّ بكم أنتم؟ أتعملون أم أنتم تنامون؟

عادت «صوفيا» أدراجها. وقد تنامى قلقها، وأخذ أبعاداً جديدة، بحيث أنها كان عليها أن تتوقف، وقد أزعجها خفقان قلبها. فساعدها «دافيد» على الصعود إلى العربة. فمنذ أن أمره «سيرج» بأن يطيعها، أصبح يبدي لها كثيراً من المودّة والمراعاة.

وقال لها:

- أنت متعبة، يا سيدتي، أنعود إلى المنزل؟

- كلا. أوصلني إلى تخشيبة المسبح.

فتأملها، بخوف يتّسم بالتطيّر:

- إنه مكان حلّت به اللعنة، وهو مشؤوم! لا ينبغي أن نذهب إليه!

فربّتت على كتفه. عند ذلك، رسم إشارة الصليب، صفر، وانطلق بعربته إلى الأمام.

كان ذلك الكوخ، أو تخشيبة المسبح، في الجانب الأكثر عزلة من حديقة «كشتنوفكا» في أسفل درب ضيق، بين شجرتين من الصفصاف الباكي، على ضفة النهر، منحنيتين وملتويتين. وبجانب الكوخ حجرة صغيرة تستخدم لحفظ الملابس، وأمام الكوخ تمتد سقيفة خشبية تحملها مجموعة من الأوتاد طويلة غرست في الماء. وهناك سلم خشبي يسمح بالوصول إلى الماء، دون التعرض لصعوبة المرور بين شجيرات العليق النامية على ضفة النهر. وإلى أحد الأوتاد كان قد رُبط زورق مسطح، مجاديفه منخورة وبالية. لم تكن «صوفيا» قد أتت أبداً إلى هذه الزاوية المنعزلة والضائعة، حيث يوجد، في فصل الصيف، كثير من البعوض. ولكن «نيقولا» كان يأتي إليها، في الماضي ليصطاد السمك، وليستحم عندما تشتد حرارة الجو. وجلست «صوفيا» على إسكملة كانت هناك، وشمت رائحة الوحل. كان الجو بارداً ورطباً. وفي تيار الماء كانت تتراقص

انعكاسات مستديرة كالصحون الصغيرة. وحول حجر صغير أخذ يتكون نطاق من الزبد. وكان خرير المياه يبعث على التأمل والاستغراق في الأحلام.

لم تكن «صوفيا» تعرف لأيّ دافع انصاعت بحضورها إلى هذا المكان وبتوقفها فيه. كانت نظراتها شاردة في البعد، ولم تكن تبحث عن دليل، بل تحاول أن تستوحي فكرة ترشدها. وكان يخيل لها أنها يمكن أن تتفهم بشكل أفضل ظروف الجريمة إذا فكرت فيها في المكان نفسه الذي ارتكبت فيه. يدان حديديتان تشدان على عنق نحيل، تخفق فيه الحياة، يلهث، يزمجر، حدقتان تجحظان، سقوط جسم، بشكل عشوائي على الأرضية الخشبية. وخفضت بصرها، تلك الأرضية الخشبية، تمتد، تحت قدميها، عارية، رمادية اللون، مبللة، خشنة الملمس، مبتذلة وعادية المنظر. كانت بعض الألواح الخشبية نخرة وبالية: وهي التي كان على الفلاحين أن يستبدلوها ولم يكن قد لمسها أحد، منذ حدوث تلك المأساة. وعبر الشقوق كان يبدو الماء الذي ينساب في النهر. وعبثاً أخذت «صوفيا» تستجوب هذه الأشياء التي رأت كل شيء، وسمعت كل شيء، دون أن تحظى منها بأي جواب. وشعرت بالخدر يسري ويتصاعد من أعضائها إلى دماغها. وفجأة، استرعى انتباهها شيء صغير ولامع. في شق خشبة قديمة. فالتقطته، وتأملته: إنه زر مرصع بحجر كريم أرجواني اللون. فأين رأت أزراراً من هذا النوع؟ على إحدى صدريات «سيرج»... وهذا الاكتشاف لم يثر لديها أي اضطراب في بداية الأمر، ثم حدثت في كيانها هزة سريعة لم تدم سوى الزمن الذي تستغرقه خفقة القلب، ولكنها جعلتها ضعيفة وباردة كالثلج: فإذا كان هذا الزر الأرجواني الثمين، موجوداً هنا، فذلك لأن «سيرج» فقده وهو يتعارك مع والده. والشك لم يعد ممكناً. يجب إخبار الشرطة. ووضع هذه القطعة، كدليل مقنع في ملف القضية، ثم المطالبة بإعادة النظر في قرار المحكمة. ولكن، ألا يمكن أن يجيبوها بأن «سيرج» يمكن أن

يكون قد فقد هذا الزر في أيّ يوم، قبل وقوع الجريمة، وهو يخلع ملابسه ليستحم في النهر؟ فتوقفت عبر اندفاعها، وأخذت تتأمل وتقدّر بدهشة شديدة إلى أين أدّت بها حماستها. وكيف لم تستطع أن تتبين أنها كانت تشكل أسطورة بكاملها من لا شيء؟ وفي باطن يدها، كان الحجر الكريم الصغير، البنفسجي يتلألأ. وهمت بأن تلقيه في الماء، ثم غيرت رأيها ودسّته في كيس صغير معلق بزنّارها، وكأنها تخبئ تعويذة أو تميمة. حتى وإن كان اكتشاف هذا الزر، المرصّع بالحجر الكريم لم يكن له أي أهمية، فإن الأمر الذي أصدره «سيرج» للسواقين، ليلة وقوع الجريمة، يمكن أن يكفي ليكون أساساً لاتهام جديد. وفي لمح البصر، عاودها اضطرابها واهتمامها الشديد بالجانب القضائي لتلك القضية. وأخذت الأفكار تغلي وتتزاحم في ذهنها. وكانت تتألم لأنّ ليس لديها أحد تبوح له بما يساورها من شكوك. آه! لكم هي تفتقد اليوم، صديقها الحميم الذي تعرفت عليه في سيبيريا! فهو كان يمكن أن يهدئها، ويشجعها، ويسديها النصيحة والمشورة... وكان يمكنها أن تتحمل أي شيء، لو أنها استطاعت فقط أن تتبادل الرسائل معه! ولكن، من الواضح الآن، أن الرسائل التي يكتبها كل منهما للآخر، لم تكن تصل أبداً إلى المرسل إليه. و «بولين» نفسها، قد صمتت، انقطعت أخبارها، وأصبحت بعيدة جداً... وعلى مضض، نهضت «صوفيا» وهي شديدة الأسف، وسارت صعوداً في الممر المؤدي إلى الطريق. فأخذ «دافيد» ينظر إليها من فوق مقعده بخشية، وهي قادمة، وصهل الحصانان.

وقال لها:

- طوال الوقت الذي أمضيته هناك، يا سيدتي، ظلّ الحصانان يحركان أذنيهما، وهذا دليل على أن هنالك شبح يجوب المكان، فهيا بنا، ولنذهب بسرعة من هنا!...

وجلست على المقعد، وأغمضت عينيها، وأسفت كثيراً لأنها لم تكن سوى امرأة وحيدة، عاجزة، حيال مشكلة تتجاوز قدرتها وإمكاناتها.

٭٭٭

عصفت الريح خلال الساعات الأولى من الليل، ثم ساد صمت عميق. وفي الصباح، عندما اقتربت «صوفيا» من النافذة اكتشفت عالماً أبيض اللون، بكامله. وندفات الثلج الكبيرة تنهمر من سماء غير منظورة. وخلف تلك الستارة التي تنسج بهدوء، وببطء شديد، اختفت المناظر البعيدة. وانتصبت أشجار الصنوبر كأعمدة من دخان، والطريق التصق بالمرج الأخضر، بعد أن سوّى الثلج بينهما. وخيل لـ «صوفيا» أن المشهد يتنكر أمامها لكي يبدّد شكوكها. وأن الثلج المتراكم يمحو آثار الجريمة. ويصبح كل شيء، وبشكل مفاجئ، نقياً، وهمياً، وبريئاً.

٨

اجتاز «فاسّيا فولكوف» الرواق الكبير المبلّط، تبادل بضع كلمات مع الحاجب الذي كان يقف بجوار الباب، وعاد فجلس بالقرب من «صوفيا»، وهمس لها:

- يبدو أن انتظارنا لن يطول أمده!

فشكرته، لأنها لولاه لما تجرّأت على طلب هذه المقابلة، علماً بأنها ظلت تتردد طوال ثلاثة أسابيع، قبل أن تعود لمقابلته في «سلافينكا»! وعندما أخبرته بما رواه لها «أنتيب»، قرر على الفور أن يذهب معها لمقابلة الحاكم. فهو على صلة قرابة مع هذا الشخص العالي المقام، ولم يكن يشكّ بأنه يستطيع إقناعه بوجوب مراجعة القضية وإعادة النظر في قرار الحكم، بسبب وجود «واقعة جديدة». وبقدر ما كان يهمل هندامه في المنزل، بقدر ما اعتنى بملابسه وبزينته، من أجل هذه الرحلة إلى المدينة. وبدت عليه أمارات التصميم الرجولي والحازم بدلاً من الضعف والخمول اللذين كانا يبدوان عليه. كان يجلس، متصلب الجسم، متوتر الأعصاب، على حافة كرسيه، وقد فتح فروته عن قميصه الأبيض، وأخذ يرسل، عبر الفراغ نظرات باحثة ومستطلعة. ومع ذلك، فإن هذا الوضع المزهو لم يكن يكفي لبعث الاطمئنان في نفس «صوفيا». ومع مرور الوقت، كانت تزداد خشيتها من المقابلة التي ستجريها مع «تير كاسّوف» مستشار الدولة الحالي، الذي تشمل سلطته ولاية «بسكوف». ودوّى رنين أحد الأجراس، فاختفى الحاجب، ثم عاد وطلب من الزائرين أن يتبعاه.

دخلت «صوفيا» إلى مكتب فسيح، تزينه مقاعد تحمل قلادات من المخمل الأرجواني. وهي تعرف الحاكم، لأنها قابلته عند وصولها إلى «بسكوف» حين عودتها من سيبيريا. كان عجوزاً نحيلاً ووقوراً، شعره الفضي ينسدل على كتفيه. وخلفه مرآة كبيرة إطارها ذهبي اللون، منحنية إلى الأمام، تعكس منظر أرضية الغرفة، ذات النقوش الجميلة. ودعا «صوفيا» و «فاسّيا» إلى الجلوس، فجلسا على أريكتين غير مريحتين. وجلس، هو، إلى منضدة عمله، ووجه لهما بعض العبارات الودّية، مفتتحاً الحديث، ثم أرسل تنهيدة، وسألهما عن سبب تشريفهما إياه بهذه الزيارة. وعندما أرادت «صوفيا» إعلان الاتهام، شعرت بأن ذهنها قد خلا من أي فكرة. وأن يديها قد بردتا. ولأن فترة ترددها قد طالت، وجه لها «فاسّيا» نظرة شجعها فيها على الكلام، وفجأة، ودون أن ترغب بذلك، حركت شفتيها:

- الموضوع يتعلق بمقتل «فلاديمير كاربوفيتش سيدوفّ»...

وبدا الانتباه الشديد على وجه الحاكم لدرجة أنه أصبح يشبه وجه جثة هامدة.

واستأنفت الكلام بمزيد من القوة:

- لقد اكتشفت معلومات جديدة... معلومات مهمة يجب أن أبلغكم إياها.

- إني أصغي إليك، أيتها السيدة.

- عشية يوم وقوع الجريمة، «ابن أختي» ذهب إلى قرية «شتكوفو»...

وبعد ذلك، أخذت تتكلم بيسر وطلاقة، دون أن تشعر بالخوف أو أن تتلعثم وتبحث عن كلماتها. وبشكل محيّر ويدعو إلى الاستغراب، سردت قصتها، كشريط يسحب بسرعة. وعندما صمتت، ظلّ «تشير كاسّوف» هادئاً، لم يبد على ملامح وجهه أي أثر لما روته له «صوفيا» لدرجة أنها

أخذت تتساءل في سرها، عما إذا كانت لم تسرد كل ذلك الحديث في الحلم. و «فاسّيا» الذي شعر بالقلق، عندما طال أمد الصمت آنذاك، تدخل، قائلاً:

- هذه الوقائع بدت لي مهمة جداً، يا صاحب السعادة، ولذلك ألحّيت على السيدة «أوزاريف» لكي تحيطك علماً بها. ولأني أعرف مقدار حبك للعدالة، واهتمامك الشديد بتحقيق العدالة، فإني لم أشك لحظة بأن هذه الوقائع سوف تقلقك.

فابتسم الحاكم، وتمتم:

- ربما أنت أقلقتني، لو أن الجناة لم يعترفوا بجريمتهم.

فقالت «صوفيا»:

- كانوا يعرفون ماذا ينتظرهم، لو استمروا بالإنكار، والاحتجاج متمسكين ببراءتهم!

فرفع الحاكم جذعه، مستنداً بين يديه على حافة المنضدة. وقطّب حاجبيه الإشبين، وقال بحدّة:

- لديك، أيتها السيدة، مفهوم غريب عن العدالة الروسية. فقضية قتلة «فلاديمير كاريبوفيتش سيدوفـ» أحيطت بكافة الضمانات الضرورية. والحكم الذي أصدره القاضي نهائي، لا يمكن نقضه. أما الاتهام الذي توجهينه إلى «ابن أختك» بأنه قتل والده، فلا أدري إذا كنت تقدرين خطورته...

- لقد فكرت جيداً قبل أن أقرر إبلاغك إياه، يا صاحب السعادة...

- إنك لم تفكري بما فيه الكفاية، بعد، أيتها السيدة، وإلاّ لكنتِ أدركتِ أن «سيرج فلاديميروفيتش» يتمتع في هذه المنطقة بسمعة لا تشوبها شائبة، وأنه لم يسبق أن حدثت معه مشكلة أو بدر منه أي خلاف مع السلطات، وأن موت والده قد سبّب له حزناً شديداً! وأستطيع أن أضيف أنك يجب أن تكوني آخر من يتهمه أو يشهد ضده!

فتساءلت:

- ألانه «ابن أختي»؟

- بل، لأنك قادمة من سيبيريا، أيتها السيدة، واسمحي لي أن أقول لك، إنك في وضعك الحالي، يصبح من مصلحتك أن تظلي متروّية ورصينة. ومن الأفضل لك أن ينساك المسؤولون. والوضع نفسه ينطبق على السيد «فولكوف» الذي أعتقد أنه من المناسب أن يؤيد مسعاك، فهو أيضاً لا ينعم بطمأنينته الحالية إلا بفضل أريحية وعطف القيصر.

فأحنى «فاسّيا فولكوف» رأسه، كتلميذ تعرّض للتوبيخ. واختفى ما يبدو عليه من أمارات العظمة والكبرياء.

أما «صوفيا» فلم تستطع كبت غيظها، وصاحت بأعلى صوتها:

- هكذا إذن، فكوننا نحمل أفكاراً تحررية، يحرمنا، نحن الاثنين من الحق بأن نتقدم بشكوى، ضد أي كان؟!

- إنه يحرمكما من الحق بالتقدم بالشكوى ضد أشخاص، هم، على النقيض منكم، فوق كل الشبهات!

- إنك تدخل مفاهيم مزيّفة للسياسة في شؤون العدالة!

- هذا أقل خطورة من إدخال مفاهيم مزيفة للعدالة، في السياسة، على طريقة أصدقائك المتآمرين! كان ينبغي عليّ أن أعتبر تدخلك في هذه القضية، محاولة تحقير، وأن أطالبك ببيان المبرر والدافع لذلك، باسم الشخص الذي تهاجمينه، ولكني لست حريصاً على إثارة فضيحة جديدة في المنطقة. وسأتناسى ما قلته لي، وهذا كل ما أستطيع أن أعدك به.

خلال تلك اللحظة، بدا «تشير كاسّوف» مستشار الدولة الحالي، لـ «صوفيا»، كشخص فظّ وخسيس، تائه في هموم تتعلق بالإجراءات، في حين أنه قد أرسل ثلاثة أبرياء إلى السجن المؤبّد، مع الأشغال الشاقّة.

وتمتمت:

- لا تستطيع، يا صاحب السعادة، أن ترفض التحقّق من دقة وصحة الوقائع والمعلومات التي نقلتها لك! ومجرد وجود فكرة بأنه من الممكن أن يكون قد ارتكب خطأ قضائي، يجب أن تدفعك إلى إصدار الأمر بإجراء تحقيق مضادّ، وسماع شهود النفي بالنسبة للمتهمين. أتوسل إليك أن تفعل ذلك، باسم أولئك التعساء، الذين...

فقاطعها الحاكم، قائلاً:

- هذا يكفي، أيتها السيدة، احتفظي بشفقتك لقضايا أفضل من هذه القضية!

ونهض. وبدا أن السن قد أفرغت هذا الجسم الكبير من كل دمه، ولم تترك سوى غلاف من الرق، بدا مجعداً في تجويفي الخدين. وهزّ جرساً صغيراً بأصابعه النحيلة. ففُتح الباب. وهمس «فاسّيا» في أذن «صوفيا»:

- لم يعد لدينا ما نعمله. فلنذهب...

وتبعته. كانت عربة «فاسّيا» تنتظرهما أمام قصر الحكومة. وكانت «صوفيا» قد تركت عربتها في «سلافيانكا». فقد رأت أنه من الأفضل أن يجهل «دافيد» وهو طويل اللسان، أنها ذهبت، ذلك اليوم إلى «بسكوف». وأجلسها «فاسّيا» بجانبه في صندوق العربة. ودثرها بغطاء من جلد دب، وأمسك الزمام بيديه. فهز الحصان رأسه تحت قوسه الخشبي الملون، وسار بخطى وئيدة على الثلج. وبعد اجتياز الحاجز أسرع في سيره. وتحت السماء الداكنة، كان السهل يمتد، منبسطاً، أبيض اللون، باهتاً، تتخلّله، هنا وهناك بعض أشجار الحور النحيلة، والتي تعرّت من أوراقها. وبعض الغربان كانت تحلق في ذلك الفضاء البارد، وهي تنعق بغيظ وغضب.

وقال «فاسّيا»:

- أستميحك عذراً لكوني دفعتك للقيام بهذه المغامرة. ولكن أكان يمكنني أن أتوقع أنه سيستقبلنا بهذا الشكل السيئ؟ آه! إن روسيا بلاد

تثبّط العزائم والهمم! وآمل، على كل حال، ألا يسبب لنا مسعانا، بعض المتاعب!...

فسألته «صوفيا»:

- أي متاعب يمكن أن يسبّب لنا المسعى الذي قمنا به؟

- إذا علم به «ابن أختك»؟...

- ربما دفعه ذلك، أن يحترمني أكثر من السابق!

- أو إلى أن يكرهك، أكثر مما كان يفعل فيما مضى!

- إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ضدي!

- لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً ضد أبيه أيضاً! فتأملي كيف تخلّص منه! خذي حذرك، يا سيدتي! إنه رجل يمكنه أن يفعل كل شيء، ولا يتورع عن أي عمل! يجب عليك أن تطلبي من الحاكم الإذن بتغيير مكان إقامتك.

- وإلى أين يمكنني أن أذهب؟ إذ إن «كشتنوفكا» هي المكان الوحيد في العالم، الذي أشعر فيه أني في بيتي!

- ألم تفكري بالعودة إلى فرنسا؟

- بلى، وبالتأكيد! ولكنّ هذا مستحيل! لقد احتاج الأمر لسبعة عشر سنة، حتى سمحوا لي بالانتقال من سيبيريا إلى روسيا، فكم سنة ستنقضي لكي يسمحوا لي الآن بالسفر من روسيا إلى فرنسا؟ وعلاوة على ذلك، فإنّ مغادرتي «كشتنوفكا» فيها شيء من النذالة والجبن! إذ إن مكاني هنا، بين الفلاحين. وأستطيع أن أعمل الكثير من أجلهم ولخيرهم وفائدتهم...

- لقد تبيّن لك عكس ذلك، منذ قليل!

- لقد وصلت، بعد فوات الوقت، بالنسبة لهؤلاء، وستتاح لي فرص أكثر، من أجل آخرين غيرهم.

وخفّف «فاسّيا» من سرعة حصانه. فبدا البرد لـ «صوفيا» أقل قسوة. ولا شك أن رفيقها لم يكن مستعجلاً للعودة إلى «سلافيانكا». وقال:

- لو أنك ذهبت لمقابلة الحاكم بمفردك، ربما كان استقبلك بشكل أفضل.

- كنت أعتقد أن علاقتك به طيبة!

- وأنا كنت أعتقد ذلك، أيضاً! فهو وأبي أولاد عم تقريباً. ومع ذلك، تأملي النتيجة!... الحقيقة أني لا أصلح لشيء! وأنا أحمل الشؤم لمن أريد أن أساعدهم! وهذا يعود تاريخه إلى الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» ١٨٢٥، هل يحدث معك أن تري في الحلم بعض المشنوقين؟

- أي مشنوقين؟

- زعماء متمردي كانون الأول: «ريلييف» «بيستيل»، «مورافييف - أبو ستول»، «بيستوجيف - ريومين»، و «كاخوفسكي»...

فقالت له:

- أتعرف أني لا أرى أحداً منهم.

- أمّا أنا، فكثيراً ما أراهم، في الحلم، ليلاً، وهم يمدّون لي ألسنتهم، من أعلى مشانقهم، ويشتمونني. والآن، بالإضافة إلى الخمسة المشنوقين، سيكون هنالك فلاحو «كشتوفكا» الأبرياء الثلاثة، الذين سيعذبونني أيضاً... والأمر الذي يدهشني أكثر من أي شيء في العالم، هو أن جميع المظالم، يتحملها الناس، وتُنسى، في نهاية الأمر. وأن رجالاً، كان يعتقد أنه لا يمكن تعويضهم، يسقطون، وتسوى الصفوف من جديد، وتستمر الحياة...

وتلمظ بلسانه، فانطلق الحصان يجري خبباً. وغفت «صوفيا» على رنين الأجراس الصغيرة. فقد ضايقتها شكاوى «فاسّيا» ونواحه. وأخذت تسترد، رباطة جأشها بصعوبة بعد الفشل الذي أصابها في مقابلتها للحاكم. ولأن

عليهـا أن تقبـل بـالأمر الواقـع، وأن تعـيش بجانـب قاتـل، يعتـبره الجميـع ويعاملونه كرجل شريف، فهذا ما كان يزعجها ويخمد همتها لدرجة أنها كانت تكره عودتها إلى المنزل، وتتصورها بشكل سيئ. وعرفت الرابيتين اللتين تدلان على أنهما قد اقتربا من «سلافيانكا». فبدت ابتسامة باهتة على وجه «فاسّيا»، وقال:

- أمي تنتظرنا لنتناول الشاي سوية.

فحاولت «صوفيا» في البداية أن تتهرب:

- هذا لطف منها، ولكني لا أستطيع البقاء...

- أوه! لماذا؟ لا تذهبي، هكذا سريعاً! إلا إذا كنت تخشين من أن يتساءل «سيرج فلاديميروفيتش» إذا تأخرت بالعودة!

كانت هذه الجملة كافية لتجعل «صوفيا» تغير رأيها، وقالت:

- لديّ كل وقتي.

- إيه! هيا، إذن؟...

فقبلت الدعوة وكأنها تقبل تحدياً، وترد عليه.

٩

ويوماً بعد يوم، أخذت «صوفيا» تستمر أكثر فأكثر في وضع زائف كانت تكرهه ولكنها لا تجد منه مخرجاً. فهي لا تستطيع أن تقول «لابن أختها» إنها أرادت أن تشي به كقاتل، ولا تستطيع أن تستمر بالتظاهر بأنها تجهل كل شيء عن تلك القضية. وحالما كانت تلمحه، تشعر بانزعاج يسببه لها القرف والغضب. وتنظر إليه، فيبدو لها لطيفاً، مبتسماً، وترى يدي قاتل عند طرفي كميه الأبيضين. ولأنها كانت تعجز عن تحمل هذا التحدي الدائم للعدالة، أخذت تبذل كل ما بوسعها من جهد لكي تتجنب مناسبات الالتقاء به. ولكن لأن الثلوج المتراكمة قطعت الطرقات وجعلتها غير سالكة، كان «سيرج» يقضي معظم الوقت في المنزل. عند ذلك، كانت تنزوي في غرفتها. حتى إنها، في بعض الأحيان كانت تتناول طعامها هناك، متذرعة بصداع ألمّ بها. ولم يكن ينخدع بذريعتها، ولكنه كان يتظاهر بأنه مقتنع بها، ويتقبلها، وإما لأنه كان يجد فيها مصلحة له، وإما لأنه كان يخشى إثارة المشاحنات والفضائح، وهكذا، دون أن يتباحثا في الموضوع، توصلا إلى اتباع نمطين متوازيين في العيش، تحت سقف واحد. ولكن هذا السلم الزائف المشوب بالكراهية، كان يرهق «صوفيا». ولكي تتشجّع وتقوى على تحمله، كانت تقول لنفسها، بأنها لم تستخدم بعد كل أوراقها، وأنها ستتوصل، في نهاية الأمر إلى نزع القناع عن وجه المجرم.

ومرت أعياد الميلاد، وأعياد رأس السنة، وكان عليها أن تبدو إلى جانب «سيرج» لتقبل تهاني الخدم والفلاحين. ويوم الخامس من كانون الثاني

«ينـاير» مـساءً، وبالـضبط قبـل تنـاول طعـام العـشاء، وبينمـا كانـت ذاهبـة لإحضار كتاب من المكتب، دخل خلفها وأغلق الباب، فالتفتت غاضبة، عند ذلك قال لها:

- اعذريني لإزعاجك، يا خالتي، ولكني لم أستطع أن ألتقي بك طوال الأسابيع الماضية، لذلك كان عليّ أن أفاجئك الآن هنـا. وأنـت لا بـدّ تعـرفين أن غداً هو عيد «الغطاس» ومباركة المياه...

فأدركـت «صوفيا» مـاذا يقـصد بـذلك. فمنـذ زمـن طويـل اعتـاد ملاّكـو «كـشتوفكا» علـى مـشاهدة الاحتفـال بمباركـة الميـاه، والمشاركة فيـه. وبعـد تأديـة الـصلوات، يـستحم بعـض الفلاحـين في ميـاه النهـر، عـبر حفـرة يحفرونهـا في الجليـد. وتـذكرت «نيـكيتـا» وهـو يخـرج مـن النهـر خـلال تلـك الحفرة، ويقف على الثلج، متجمد الوجه من شدة البرد، وفي عينيه بريق زهو وكبرياء الشباب، وصليب العمادة يزين صدره الأمرد.

واستأنف «سيرج» كلامه، قائلاً لها:

- إنـي أعـول عليـك مـن أجـل مـرافقتي إلى «شـتكوفو» حيـث سـتقام الـصلوات في الهـواء الطلـق. وسـنذهب، عنـد الـساعة الثامنـة صباحـاً، إذا لم يكـن لديك أي مانع...

كانت لهجته ودودة، ولكـن نظرته بدت آمـرة وملحـة. فـشعرت «صـوفيا» بكل حقدها يندفع في ذهنها، وقالت له:

- كلا، إني لن أذهب معك!

- كيـف ذلـك، يـا خـالتي؟ إنـه يـوم عظـيم! ويجـب أن يـراك فلاحونـا إلى جانبي أثناء الاحتفال!

- ألكـي تثبت لهم، أننا، رغم المظاهـر، متفقون على كل شيء؟

- بـل لكـي نجعلـهم يـشعرون، أنـك وإن كنـت كاثوليكيـة، فإنـك لا تزدرين بمعتقداتهم.

- إنهم ليسوا بحاجة لأن يروني أشارك في الصلاة لكي يعرفوا أني أفكّر بهم!

فغمغم:

- ليكن، فأنا لن أحاول أن أقتادك إلى هناك بالقوة ولكن، دعيني أقول لك إني أجدك متعجرفة جداً، مع أن حديثك مع الحاكم كان ينبغي أن يجعلك تفكرين جيداً في الأمور!

كان يبتسم، وقد أغمض عينيه نصف إغماضه، وأحنى رأسه نحو كتفه. وفي اللحظة التي تلت ذلك، شعرت «صوفيا» بغمٍّ شديد، ثم حدث لديها ارتياح مفاجئ: لم يعد هناك حاجة للمواربة، فهي سوف تستطيع مجابهة العدو وجهاً لوجه. ولكن من هو الذي نقل المعلومات إلى «سيرج»؟ إنه الحاكم، بالذات، دون شك. كانت تسمع خفقاناً قوياً في شرايين عنقها.

ولفظت هذه الكلمات بصوت واهن، لا نبرة فيه:

- إيه! نعم، لقد قابلت الحاكم، وأطلعته على رأيي فيما يتعلق بالجريمة...

- ولم يقنعك ببراءتي؟

فحدّجته بنظرة عبرت بها عن التحدي والاستفزاز، وصرّت على أسنانها. بينما جلس هو على جانب المنضدة، ووضع إحدى ساقيه على الأخرى، وأخذ يهز بهدوء رجله اليمنى. وهو يتمتم:

- بالطبع، أنت من الصعب إقناعك. فعندما تتمسكين بفكرة، إن كانت صالحة أو سيئة، فأنت تدفعينها وتجرين وراءها بانطلاقة واحدة حتى النهاية، أي في معظم الأحيان، إلى الحفرة. ولننظر إلى الأمور عن قرب. فأنا لا أهتم كثيراً بمحاولة تبرئة نفسي، لدرجة أن أحاول أن أثبت لك أنك بقليل من التفكير، كان بإمكانك تحاشي سخافة وسخرية توجيه اتهام مناقض لطبيعة الأمور...

فصاحت:

- الأمر المناقض لطبيعة الأمور هو الأسلوب الذي اتّبعته حتى جعلت أولئك الفلاحين الثلاثة يدانون، في حين أنّ...!

فقاطعها، قائلاً:

- في حين أني كنت أنا الجاني؟ إنها نظرية مغرية! مع أن العواطف التي كنت أكنها لأبي، والتي يعرفها الجميع، ينبغي أن تكون كافية لتصفني وتبرر موقفي وتبرئ ساحتي...

- ألم يحصل بينك وبينه شجار عنيف وخطير، في الليلة التي سبقت حدوث الجريمة؟

- بلى. ولكن ماذا يعني ذلك؟ لقد تشاجرنا بسبب بعض المسائل المالية...

- وتبادلتما الضربات واللكمات!

- لا تبالغي!

- لقد سمع الناس صراخكما!

- كنا، كلانا، قد تناولنا بعض الشراب: وبعد أن تحدثنا لإيضاح بعض الأمور - وأعترف أنه قد حدث ضجيج وصراخ أثناء ذلك - ذهبنا للتنزه بالقرب من تخشيبة المسبح. وهناك، لاحظت أنّ بعض الألواح الخشبية كانت تالفة، فتركت أبي يعود بمفرده إلى المنزل، وذهبت إلى «شتكوفو».

- سيراً على الأقدام؟ هذا مستحيل!...

- مستحيل، ربما كان ذلك، بالنسبة لك، وليس بالنسبة لي. فأنا أحب المشي! وفي «شتكوفو»، عينت ثلاثة فلاحين لإصلاح الألواح الخشبية في صباح اليوم التالي.

- وقد حرصت على إرسالهم إلى هناك، دون أن يرافقهم أحد!

- كان شبابنا الثلاثة عمال مهرة، وليسوا بحاجة لمن يراقبهم، في حين أنه كان بالكاد لدينا ما يكفي من «السواقين» لمتابعة عمل الفلاحين الآخرين، ومراقبتهم وهم يعملون في الحقول.

وهذا الشرح المبسّط جداً، حيّر «صوفيا» وأذهلها. وأخذت أفكارها تحلّق في الفراغ. ولخوفها من الهزيمة التي أخذت تحلّ بذهنها، بدر منها ردّ فعل قوي:

- كل الذين رأوك مساء ذلك اليوم، أجمعوا على القول أنك كنت مضطرباً، ملابسك مدعوكة، وعلى خدك خدش كبير!

فقال «سيرج»:

- ألم أعترف بأني تشاجرت مع أبي؟

- وبعد ذلك، ماذا حدث؟ هل عدت إلى «كشتوفكا» وتناولت طعام العشاء مع والدك؟

- كلا، كان قد أوى إلى سريره، فمررت عليه وهو في غرفته، وحييته، متمنياً له ليلة سعيدة.

- لم يره أحد وهو يعود إلى المنزل! هذا غريب!

- هذه أمور كثيراً ما تحدث.

- ولم يره أحد، أيضاً، وهو يخرج من المنزل، في صباح اليوم التالي، ليذهب إلى تخشيبة المسبح!

- لم يكن الخدم قد استيقظوا آنذاك.

- كم الساعة كانت إذن!

- الخامسة صباحاً، على ما أعتقد...

- وماذا ذهب يعمل في ذلك الوقت المبكر، عند ضفة النهر؟

- وكيف أعرف ذلك؟ كان غريب الأطوار، يتمتع بمزاج خاص!

ربما كان على موعد مع إحدى بنات الفلاحين!؟ وعندما وصل إلى هناك، رأى الفلاحين الذين كانوا قد بدؤوا العمل! فشتمهم لأنهم أفسدوا عليه موعده وأزعجوه، وضربهم. فوجه له أحدهم، وهو يدافع عن نفسه، ضربة قوية آذته. فخافوا كلهم من أن يشي بهم ويشكوهم إلى السلطات،

فأجهزوا عليه، بخنقه في الحال، وأتوا ليرووا لي أنهم اكتشفوا جثته ملقاة هناك...

كان لديه أجوبة لجميع الأسئلة. والأحداث الأكثر إثارة للشبهات، عندما يعرضها هو، تبدو تجري بصورة منطقية تماماً. ولم تعد «صوفيا» تجد حجة تعارضه بها، ولكنها وإن كانت تشعر أن ذهنها أصبح فارغاً. فإنها ظلت ترفض الاعتراف بأنها قد هُزمت. وخلال برهة طويلة، تركها تتخبط عبر الصمت، ثم قال، مع ابتسامة ساخرة، وهو لا يزال جالساً على طرف المنضدة، يؤرجح رجله:

- والآن، ماذا سنعمل؟

فلم تجب؟

فتابع الكلام:

- لقد تآمرت عليّ في الخفاء، ومن وراء ظهري، وأثرت السلطات ضدّي. وأعلنت عن نفسك عدوة لي، في حين أني استقبلتك بكل الأريحية الممكنة! ولم يعد وارداً، الصلح بيننا!

فقالت:

- كلاّ!

- حقاً، لقد حددت لك الحكومة «كشتوفكا» كمقر لإقامتك. فيجب عليّ إذن أن أقبل بوجودك في المنزل. ولكن هذا الوضع يصبح أكثر فأكثر، غير مقبول ولا يطاق. وأنا لا أرى سوى حل واحد لهذه المشكلة: وهو رحيلك. يجب أن تطلبي الإذن بالإقامة في مكان آخر: في «سان بطرسبورغ»، في «موسكو»، في «باريس»، في «بكين»... حيث تشائين! ولكن ليس هنا!...

كانت تشعر أنه على حق، ومصيب فيما يقول، ومع ذلك، فإن قوة لا تقهر، جعلتها ترد، قائلة:

- أيرضيك ويريحك رحيلي؟ إيه، حسناً! لا تأمل ذلك! سأبقى هنا، مهما كلفني ذلك! فهذه الملكية لي مثلما هي لك!

- كما أنكِ ستستلمين نصف الإيرادات، أينما كنت.

- لم أكن أفكر بالنقود وبالمال، عندما قلت ذلك! فأنا أفكر بالناس... بالناس المساكين الذين يعيشون على هذه الأرض... وطالما بقيت بينهم، فإني أستطيع أن أتولى حمايتهم منك!

- مني أنا؟! لكم أنت ساذجة! لقد رأيت كم كان وزن وقيمة آرائك لدى الحاكم! فعليك إذن أن تفهمي بأنك لست شيئاً في روسيا، وليس لك فيها أي اعتبار، أي مودّة، ولا أي مستقبل!... هيا، انصرفي!...

كان يطردها، يطردها من بيتها!

فسمعت نفسها تصرخ، والدم يفور في رأسها:

- لن أذهب! أبداً، وعلى الإطلاق، لن أذهب!...

واندفعت بسرعة نحو الباب كي تخرج، ولكنه كان أسرع منها، فأسند ظهره على الباب، متخذاً الموقف نفسه الذي كان يتخذه أبوه عندما كان يريد أن يرعب المسكينة «ماري». وفي ضوء المصباح، بدا وجهه القاسي صقيلاً كالنحاس. وأخذت بشرته تلمع عند عظم فكه. وبدت الكراهية بارزة في عينيه، بشكل غريب، وقال:

- يبدو أنك مستعجلة أكثر مما ينبغي. وأنا لم أنهِ كلامي. إني أحبّ أن يكون كل شيء لدي مرتباً ونظامياً، كما تعلمين. وإليك إذن، ما قررته بشأن المستقبل: ستتناولين طعامك في غرفتك، وهذا أمر لن يزعجك، لأنك بدأت تفعلين ذلك برغبتك وبمبادرة خاصة من قبلك. وستكفّين عن الاهتمام بشؤون المنزل، ولن يطيعك أي خادم بعد الآن. وسيكون محظوراً عليهم حتى أن يردوا عليك. وخادمتك «زوي» وحدها سيكون لها الحق بأن تخدمك. وعند أقل حماقة أو مخالفة من قبلك، الناس الذين يكونون قد

أذنبوا بالاستماع إليك أو بالانصياع لأي أمر أصدرته إليهم، سوف يُجلدون بالسوط!

فقالت، وشفتاها ترتجفان:

- لقد سبق لك أن حاولت، مرة، إخافتي بهذا الإجراء القهري والقسري، الخسيس!

- نعم، وقد أخطأت بالتخلي عنه، بناء على إلحاحك وتوسلاتك. واليوم أعود إليه، بإرادة راسخة. وتستطيعين تقديم الشكوى لمن ترغبين، ويمكنك أن تكتبي إلى الحاكم، إلى القيصر، إلى البابا، وأنا لن ألين ولن أتراجع! ولديك الدليل بأن المسؤولين في المناصب العليا لن يصغوا لك، عندما تعلنين عن غضبك وغيظك! وأنا لدي الدليل على أنه ليس هنالك وسيلة للتعامل معك، سوى القوة! وسترضخين في نهاية الأمر، وسوف تتوسّلين لكي أدعك تسافرين!

فقالت، وهي تقاوم نظرته:

- أهذا كل ما عندك؟

- نعم.

- إذن دعني أمر.

فابتعد عن الباب. وخرجت. وعلى الدرج، انتابتها دوخة. إذ إن الطاقة التي بذلتها في مقاومتها لـ «سيرج» والصمود أمامه، إلى أن استردّت أنفاسها، ثم تابعت ببطء صعود الدرجات. وعندما وصلت إلى غرفتها، ارتمت على إحدى الأرائك. وأخذت تحاول، وقد أحنت رأسها، السيطرة على ما تشعر به من ضيق. فماذا ستصبح، وماذا سيحدث لها، في وسط هذا العالم المعادي لها؟! وعصفت بها رغبة بالبكاء، ولكنّ عينيها ظلّتا جافّتين. وليس بسبب الحزن، كان يمكن أن تذرف الدمع، بل بسبب الغيظ من نفسها، والغضب من «سيرج» كان ضوء المصباح، الشاحب ينير جانباً من السرير.

وبعض القوارير تلمع على منضدة الزينة. وزجاج النافذة غطته طبقة فضية رقيقة من الثلج المتجمد. وخلف ذلك الزجاج - الليل، الثلج، والصمت الرهيب.

وفي موعد العشاء، أتت «زويّ» حاملة صينية، عليها لحم بارد وفواكه. وقالت، همساً:

- سيدتي، إن هذا فظيع! لقد جمع السيد جميع الخدم في المكتب منذ قليل. وقال لهم...

فتمتمت «صوفيا»:

- أعرف ماذا قال لهم.

- أنا وحدي يجب أن أطيعك...

- لن أكلفك بكثير من الأعمال، هيا، اذهبي!...

- ليس هذا ما أعنيه، يا سيدتي!... ولكني أردت أن أطلب منك... من أجل «دافيد» ومن أجل الآخرين جميعهم... فأنت لن تعملي شيئاً يمكن أن يستاء منه السيد أو أن يغضب، أليس كذلك؟...

كانت تعابير وجهها الناصح والمورّد، تعبر عن التوسل والرجاء.

فقالت لها «صوفيا»:

- اطمئني: لن يتعرض أحد منكم لأذى، بسببي، أبداً.

فصاحت «زويّ»:

- أوه! شكراً، شكراً لك، يا سيدتي.

وركعت أمام سيدتها وقبلت يديها الاثنتين. وأحست «صوفيا» على بشرة يديها ذلك النفس الحار، الذي يشبه نفس الحيوان الأليف. وربّتت خدّ الفتاة. فنهضت «زويّ» وعيناها مغرورقتان بالدموع، وأخذت ترتب الأواني على المائدة الصغيرة.

وتبادر، عند ذلك، إلى ذهن «صوفيا»:

«هذه المرة، لقد أصبحت، حقاً، سجينة!»

١٠

في نحو منتصف شهر شباط «فبراير»، عزلت العواصف الثلجية المنزل. وكانت لا تزال تأتي بعض الزحافات من القرى المجاورة. ولكنّ الطريق الرئيسي كان غير سالك. وأصبحت «بسكوف» خارج المتناول، ولا يمكن الوصول إليها. وكان من الممكن أن تختفي جميع مدن روسيا، دون أن يعرف أحد هناك عن ذلك شيئاً. وفي وسط تلك الصحراء المكونة من اللون الأبيض والبرد القارس، انطوى سكان «كشتوفكا» على أنفسهم في المسكن القديم الذي سدّت شقوق نوافذه باللباد. وكان لديهم ما يكفي من الحطب والمواد الغذائية. لتمضية ذلك الحصار الذي يدوم عدة شهور. و «صوفيا» التي كانت تحب سابقاً هذه العزلة الريفية، أصبحت تتضايق منها حالياً، وكأنها تعاني من الاختناق. وكان جميع الخدم ينفذون أوامر «سيرج» وتعليماته بكل دقة، فيما عدا «زويّ». كانوا يتحاشون لقاء «السيدة» لكي لا يتعرضوا للمشكلات. فإذا خاطبتهم، حتى دون أن تطلب منهم شيئاً، يتظاهرون بالصمم ولا يردون عليها. وأحياناً، يديرون لها ظهورهم ويهربون من أمامها. وعندما تدخل إلى جناح الخدم، يصمت الجميع على الفور، ويبدو على وجوههم الخوف الشديد، لدرجة أنها كانت تسرع بالانصراف، لكي لا تزيد من عذابهم. وكان «سيرج» يتناول وجباته بمفرده في قاعة الطعام، ويمضي معظم الوقت منزوياً في المكتب. وإذا التقت به في المنزل، مصادفةً، لم يكن يحييها، بل لم يكن يراها. ولكثرة ما أخذ يتجاهلها كل هؤلاء الناس، أصبحت هي، تتساءل فيما إذا كانت لا تزال

حقاً موجودة. وكان مفهوم شخصيتها يضيع في ذلك الفراغ، دون أن يكون له أي صدى. وكانت «زويّ» وحدها، لا تزال تعطيها إحساساً بأنها لا تزال في هذا العالم. ولم يكن لدى المرأة المسكينة الكثير لتقوله لها. ولكنها، على الأقل، كانت مخلوقة حقيقية، لها أذنان، وصوت ونظرة وقلب ينبض بالعاطفة. وبواسطتها كانت «صوفيا» تعرف ماذا يحدث في «كشتوفكا»، وماذا كان يفعل «السيد» وبماذا يتناقشون في المطابخ. فإلى متى تستطيع أن تظل راضية بهذا النمط الهزيل والمزيف، بل والمشوه، للحياة؟ ألن تقضي نحبها بعد فترة وجيزة، بسبب ما يعتريها من سأم، وقرف من هذا الوضع المزري؟! ولكنها، كثيراً ما كانت تفكر: «عليّ أن أصمد إلى أن يحلّ فصل الربيع، عند ذلك سوف تتحسن الأوضاع، ويصبح كل شيء أفضل مما هو عليه الآن!»

وعندما لا يكون البرد قارساً، كانت تخرج للتنزّه في الحديقة. وكان الثلج كثيفاً، بحيث كان يكفي أن تبتعد قليلاً عن الممشى، لكي تغوص فيه إلى ركبتيها. والممشى نفسه أصبح ضيقاً محصوراً بين مرتفعين أبيضين. وكانت وهي تمشي بصعوبة في ذلك الممشى الضيق الذي يغطيه الجليد، تملأ «صوفيا» ناظريها من الإشعاع الشاحب الذي يصدر عن ذلك العالم الذي دفنته الثلوج ولا يبرز منه سوى هياكل أشجار الصنوبر الموحشة. وذات يوم، وبينما كانت مستسلمة لسحر ذلك المنظر، لمحت عن بعد شكل خيال. كان هذا هو «سيرج» عائداً من النزهة، وحصانه يعدو خبباً. ورأت رأس الحصان وهو يكبر، وفوقه وجه أنفشته الريح أثناء عدو الحصان، وعيناه براقتان وطاقية من الفرو شُدّت على الأذنين. ولم يبطئ الحصان في عدوه، بل ظلّ مسرعاً، ومتجهاً نحوها، بصورة مباشرة، وكاد يصدمها، لو لم تبتعد على الفور وبصورة غريزية وتلتصق بالمرتفع الذي شكله الثلج، ومع ذلك فقد أصيبت برشقة من الثلج الموحل، وكادت رجل

الخيال المكسوة بحذاء ضخم، أن تحطم لها وجهها. وتناثرت حولها كتل الثلج التي تطايرت في كل الاتجاهات. ففكرت في سرها، بعد أن تجاوزها: «إنه مجنون! » وأخذ جسمها كله يرتجف. فظنت أن ذلك بسبب البرد، ولكن، لا، كان انفعالها وحده، هو الذي سبب لها ذلك. وعادت إلى ذاكرتها جملة، كان «ابن أختها» قالها لها، سابقاً: «يجب علينا أن نبقى شريكين لا نستطيع اقتسام الأملاك، وأن نعيش سوية إلى أن يموت أحدنا». ثم تذكرت كيف كان «فاسّيا» يوصيها بأن تكون حذرة، لأنه كان يعتبر أن «سيرج» على استعداد لارتكاب جريمة جديدة، لكي ينفرد بملكية «كشتوفكا». وقالت في سرها: «إن رجلاً قتل والده، لن يتردد حيال العائق الضعيف الذي أمثله. ولكن، أحقاً، هو الذي قتل والده؟ لن أستطيع معرفة ذلك أبداً... » وفجأة، بدا لها أن الأمر سيان، في نظرها، إن ماتت وإن بقيت على قيد الحياة. وعادت، في طريقها إلى المنزل، كان هنالك فلاحات متدثرات بملابس سميكة ينظفن درج المدخل. وقد رأين كل ما حدث. وابتسمت «صوفيا» لهن. فحولن أنظارهن عنها. فصعدت إلى غرفتها، وهزت الجرس لكي تنادي «زويّ»، ولكن يبدو أن هذه كانت بعيدة: فلم تسمع رنين الجرس، ولم تأتِ. وعندما أدركت أنها ستبقى وحيدة لفترة طويلة، انتابها شيء من القلق، كانت تشعر بالتعاسة، وبرغبة شديدة، بأن تصرخ. ولكي تعمل على تهدئة أعصابها، تناولت ورقة وأخذت تكتب رسالة إلى «فيرديناند وولف» تروي له فيها كل شيء. ولكنها لن ترسلها لأن الرقابة ستستولي عليها ولن تسمح لها بالوصول إلى صاحبها. وبعد أن سوّدت صفحتين، مزقتهما. ووقع خطوات «زويّ» في الممر، جعل قلبها يخفق. وتماسكت، لكي لا يبدو عليها ما شعرت به من السرور. لأنه، مهما حدث، يجب عليها أن تلتزم التحفظ، وأن تظلّ سيدة حقيقية، بالنسبة للخدم.

☆☆☆

وتوالت الأيام، متشابهة تماماً، بشكل يبعث على اليأس والسأم. وكانت «صوفيا» وهي جالسة أمام نافذة غرفتها، تسترخي وتشعر بالخدر، يسري في أوصالها، وهي تنظر، خلال ساعات طويلة، إلى الحديقة البيضاء، التي لا يتحرك فيها أي ظل. وفي الغرفة مدفأة خزفية ترسل الدفء في جوها، ولكن، من تحت الباب، كان يمرّ تيار من الهواء الشديد البرودة. ووضعت شالاً على كتفيها، وفتحت كتاباً، قرأت منه بضعة أسطر، ثم وضعته، بحزنٍ، جانباً، وتناولت البساطة التي تحيكها، وهي تقول في سرها: «ألن ينتهي هذا الشتاء أبداً؟ ومتى ستستطيع السير والتنزه، من جديد، في البرية الخضراء؟» وفي الأسبوع الأخير من الصوم الكبير، حصلت أيضاً عاصفة ثلجية قوية. ولكنّ الطرقات عزّلت من الثلج، في الوقت المناسب، ويوم سبت النور، استطاع الخدم مرافقة سيدهم إلى «شتكوفو» لحضور قداس منتصف الليل. ولأنّ أي عربة لم توضع تحت تصرف «صوفيا»، فقد ظلت في المنزل. ومن جهة أخرى، ما كانت تقبل أن تبدو في الكنيسة مع «سيرج»، وعن بعد، أخذت تصغي إلى الرنين الخيالي، الذي كانت ترسله الأجراس، معلنة قيام السيد المسيح. وفي اليوم التالي، أحضرت لها «زويّ» البيض المسلوق الملون، الذي باركه الكاهن. وتبادلتا قبلات عيد الفصح، الثلاثية.

لن ينقضي وقت طويل على قدوم فصل الربيع، فقد بدأ الدفء ينتشر في الجو، على الرغم من الثلوج التي لا تزال متراكمة في كل مكان. وأخذت براعم أشجار الكستناء والسندر والحور تتفتح على الأغصان المبللة، وقد امتلأت بالعصارة. وبدأت صفائح الجليد تنزلق على الأسطحة، محدثة ضجة مخنوقة. وعلى الأرض أصبح الثلج ليناً ورخواً وأخذ يذوب، فتبرز مكانه الحشائش والأعشاب التي تزينها الزهور. والمنظر كله كان يخلع ثوبه الأبيض ليرتدي ثوباً جديداً أخضر، تحت سماء صافية زرقاء. وفوق هذا

العالم الجديد، الذي لا تزال تبلله المياه والوحول، أخذت تصدح وتغرّد القبّرات التي عادت، كعادتها، في كل سنة، مع حلول عيد الأربعين شهيد. وخرجت «صوفيا» من الفصل السيئ، متعبة، ضعيفة الجسم. ربما كانت قد أصيبت بالبرد في غرفتها؟ ولكنّ الشمس التي كانت تسطع، في الخارج، طمأنتها. وللمرّة الأولى، لم تلبس معطف الفرو، وخرجت وهي ترتدي ملابسها الخفيفة، وتنتعل حذاءً عادياً.

ومن كل جهة، أخذت المياه تجري بسرعة، في الجداول، صافية براقة، تبهر الأبصار، كانت «صوفيا» تخطو فوقها، وتغوص رجلاها في الوحل، وبعد أن تبتعد قليلاً، تجد قشرة رقيقة من الجليد، لم تذب بعد، ولكن لكونها شفافة، تشاهد تحتها فقاعات سوداء، أخذت تتحرك. وكانت بعض الطيور تزقزق وتغرد على ضفتي النهر. ومرت نحلة تائهة، وهي ترسل طنيناً خافتاً. فتبعتها «صوفيا» بنظرها وهي تبتسم. وكان جفناها يرفّان تحت ضوء الشمس، الساطع، وكانت تفتح فمها، وتتنفس بنفحات كبيرة من ذلك الهواء، المعطر برائحة الثلج والأعشاب الزاهية. والدرب الذي سارت فيه، بالمصادفة، انتهى إلى حفرة موحلة، فتخبطت قليلاً فيها حتى وصلت بصعوبة إلى الأرض الصلبة. وقد أتعبها المشوار، وتصببت عرقاً. وغطت السماء بعض الغيوم الداكنة التي حجبت أشعة الشمس، فبرد الجو فجأة، فأسرعت بالعودة إلى المنزل.

وفي المساء، بعد أن تناولت طعام العشاء، شعرت ببرد شديد، وأن جسمها قد تجمّد، واعترته هزة قوية، وأخذ جلدها كله يرتعش وينتفض على عظامها المتألمة. وأخذت أسنانها تصطك، ووجدت أن ذلك سخيف وغريب، وأرادت أن توقفه، ولكنها لم تستطع. ولأن «زويّ» أبدت قلقها ومخاوفها، فقد أخذت، هي، تضحك بعصبية، وقالت لها:

- هذا لا شيء، إنه أمر بسيط، يبدو أني أصبت بالرشح. ساعديني على خلع ملابسي، وأعطني غطاءً إضافياً.

وبعد أن استلقت، صرفت خادمتها، وأطفأت المصباح الصغير الكائن قرب السرير. ولكنها لم تستطع أن تنام. وعند منتصف الليل، شعرت أن أعضاءها منهكة وأخذت تؤلمها، وأحسّت بضيق في صدرها وصعوبة بالتنفس، وسعلت، فآلمتها خاصرتها. فحاولت أن تلتقط أنفاسها. وتلألأت قطرات العرق على جبينها. وبعد أن كانت تشعر بالبرد، كادت تختنق من شدة الحرارة. فتبادر إلى ذهنها:

«لا بد أني مصابة بحمى شديدة». وتذكرت «أليكسندرين مورافييف»، التي سعلت كثيراً، تمزقت رئتاها، نحل وجهها، وغار دمها، وظلت عدة أسابيع على هذه الحالة، قبل أن تفارق الحياة. «فهل أنا مصابة بمرضها نفسه؟ كلا! كلا!». وأسفت لكونها صرفت خادمتها، وتناولت الجرس عن المنضدة، وهزته بيد ضعيفة، فضاع رنينه عبر المنزل الذي استسلم كل من فيه إلى النوم. عند ذلك أخذت تصيح، وتنادي: «زويّ! زويّ!» ولكن، مع كل صرخة، كان خنجر ينغرس في الجهة اليسرى من ظهرها. فكفّت عن الصياح، بعد أن تبين لها عدم جدواه، وألقت رأسها على الوسادة التي بللها العرق. كان وجهها حاراً كالجمر، وشعرها التصق بجبينها، وشعرت بجفاف في حلقها. فلماذا أطفأت المصباح؟ لم يكن لديها القدرة على إعادة إشعاله. ولن يأتي أحد ليراها، قبل طلوع النهار. وكل اهتمامها تركّز على إحدى زوايا الغرفة، حيث كانت توجد منضدة الزينة.

وأخيراً، بدا في المرآة بصيص باهت: إنه انعكاس لضوء الصباح. فغفت، مطمئنة. وعندما فتحت عينيها، رأت «زويّ» منحنية عليها، تجفف لها العرق عن جبينها، بمنديل رقيق:

- أوه! يا سيدتي، أمريضة أنت؟...

فمرّت بذهن «صوفيا» فكرة مفرحة، وقالت:

- نعم، نادي الدكتور «وولف»!

- من، يا سيدتي؟

- الدكتور «وولف»، هيا، بسرعة! لا بد من أن يكون في المستوصف...

وبعد تلك اللحظة، تشوّش كل شيء في ذهنها. والساعات أخذت تدور تارة بسرعة كبيرة، وتارة ببطء شديد، وتلا الضياء ظلام دامس.

وأخذت «زويّ» تذهب وتعود، في الليل، وتنام على أريكة، قرب السرير.

واستاءت «صوفيا»:

- إيه، ماذا؟ ألم تخبري الدكتور «وولف»؟

فتمتمت «زويّ»:

- لقد تحدثت إلى «سيدنا»، فقال إنه لا يريد أن يحضر طبيباً إلى المنزل.

عند ذلك تمزق حجاب في ذهن «صوفيا»، فتذكرت أين هي، وحلّ محل حماستها، ضيق مخيف. وأخذت سيبيريا تبتعد عنها، بما تحمله من أصدقاء. وبقيت هي وحيدة في المسكن القديم الكائن في «كشتنوفكا»، وفي عراك مع رجل يرغب بموتها. وأخذت «زويّ» تنتحب:

- سيدتي! سيدتي! لا أستطيع أن أتركك من دون معالجة وعناية، ولا أعرف ماذا يجب أن أعمل! فماذا سيحل بنا؟

فهمست «صوفيا»:

- سنستغني عن الطبيب. حضّري لي «مغلياً» ساخناً جداً...

ولم تستطع أن تقول أكثر من ذلك، كانت كل كلمة تجرح حنجرتها. وهزّها بقوة سعال جاف، وبتأثير الصدمة، انسكبت الدموع من عينيها.

وأحضرت لها «زويّ» مغلياً طعمه مرّ جداً، فرفضت أن تشربه، وقالت، متأوهة:

- إنه سيئ جداً، وعلاوة على ذلك، فقد حان الوقت لكي أنهض، منذ كم ساعة أنا مستلقية في سريري؟

- منذ أربعة أيام، يا سيدتي.

فوجدت «صوفيا» هذا الجواب غريباً، ومضحكاً جداً، ولكنها، بدافع من التعقل والتروّي، امتنعت عن الضحك. وفي اليوم التالي، أخبرتها «زويّ» بتكتم شديد:

- السيد سافر، وسيتغيب طوال النهار، فطلبت من «جوليا» أن تأتي لتراكِ، في السر. وهي عرّابتي، وتعرف كثيراً من الأعشاب والنباتات المفيدة. وهي ستعالجك وتشفيكِ...

فتمتمت «صوفيا» وهي تئن وتتوجع:

- أوه! نعم، أحضريها، من فضلك! فأنا لم أعد أستطيع تحمل الآلام!

فتسللّت إلى الغرفة عجوز بوجه أشبه بوجه الفأر، حاملة سلة ملأى بالأواني الصغيرة، وبالأعشاب الجافة، وبالمناديل وقطع القماش، ووضعتها على المنضدة. وساعدتها «زويّ» على نزع قميص «السيدة»، وعلى تدليك ظهرها بقسوة. ووضعتا لها عليه كمادة «لزقة». فشعرت «صوفيا» بأن ظهرها يحترق، وأخذت أسنانها تصطكّ من جديد. وأرغمتاها على أن تشرب مزيجاً حامضاً من العقاقير، ومزيجاً آخر، حلو جداً. فامتلأ رأسها بأصوات كضجيج العجلات والدواليب. وأصبحت، عند ذلك، متأكدة بأنها تشرف على الموت. وكان هذا أمراً صعباً وسخيفاً! فلديها الكثير من الكلام، تريد أن تقوله! وكيف حصل هذا الآن؟ فهي لم تعد تجد كلماتها. وأخذت تشهق:

- لا أحد... ليس هنالك أحد يستطيع أن يحميكم من هذا الوحش!... فلو ترك وشأنه ليعمل ما يريد، فسوف يقتلكم كلكم، جلداً بالسياط!... وتعلمون أنه هو... أنه هو الذي قتل والده!...

فتبادلت «زويّ» و «جوليا» نظرة تنم عن الرعب، ورسمتا على صدريهما إشارة الصليب.

وغمغمت «زويّ»:

- اصمتي، يا سيدتي! لا ينبغي التكلم عن هذه الأمور!

- بلى... بلى... ردّدوا هذا في كل مكان!... سيلقون عليه القبض. وسيطلقون سراح الأبرياء!... آه! لكم كنت أرغب أن أتوصل إلى القيام بذلك، أنا بنفسي!... ولكني لم أستطع! فالذنب في ذلك، ذنبي!... أقسموا لي، أقسموا لي أنكم بعد موتي...

ولم تستطع متابعة الكلام، فقد انتابتها نوبة سعال، قصمت ظهرها. فأسرعت «جوليا» بتجميع موادها وأدواتها، وانصرفت، تاركة وراءها رائحة البطم. وعندما بقيت «صوفيا» مع «زويّ» لوحدهما، سكتت، ولكنّ دماغها ظل يعمل باستمرار وبسرعة غير عادية. وكانت الأفكار تتوالى فيه، وكل فكرة تطرد الأخرى. وإلى النهاية التي وصلت لها، فهي لا تفهم لماذا رفضت أن تقدم طلباً للعودة إلى فرنسا. ولو لم يكن هنالك سوى فرصة من ألف لإقناع الحاكم، فكان يجب عليها أن تحاول ذلك. ورغبتها، بل كبرياؤها التي تدفعها لمقاومة رغبات ونزوات «سيرج» جعلتها تعجز عن تبين القيمة الحقيقية للرهان. فماذا تشكل روسيا بالنسبة لها، بجانب بلادها، التي غادرتها، قبل خمس وثلاثين سنة؟ أتبقى هنا، لكي تموت في أرض غريبة وأجنبية، مهملة، ومكروهة - في حين أنها - يمكنها أن تنهي بقية حياتها، في وسط طبيعة هادئة ومعتدلة، وهي تنعم بالاستماع إلى موسيقى اللغة الفرنسية، العذبة! وإلى أشعار «راسين» وإلى تأمل جسور نهر السين، وتذوّق خمر «البورغونيه»، والكلمات اللطيفة، ومشاهدة ثورات الغضب، السياسية...

وقالت، بصوت عالٍ:

- إني لأتساءل، فيما إذا كان ما زال الناس يتناولون، بشهية، وجبة الغداء الجيدة، في مطعم «الأخوة الريفيين». «Les Freres Proseneiouse»...

وتكلمت باللغة الفرنسية. فحملقت «زويّ» فيها، بعينيها الواسعتين. وغشيت قلب «صوفيا» موجة من الحزن. ولم تعد تعرف فيما إذا كانت

تشكو وتتأوه من الألم أم من الحزن والأسى. وربما كان الناس الأتقياء مصيبين وعلى حق: فهي سوف تلتقي بـ «نيقولا» في العالم الآخر. ولكن، بقدر ما كانت تفكر به، بقدر ما كانت لم تعد تستطيع أن تتصور وجهه. فقد مات للمرة الأولى كمخلوق من لحم ودم، وللمرة الثانية كمجرد ذكرى، ولم تكن تسير لاهثة من القلق، نحو أمل بلقاء يغمره الضياء، بل نحو حفرة مظلمة فيها طعم التراب وعظام الميت. وعندما سترحل، سينفجر «سيرج» ضاحكاً. وتململت في سريرها:

- كلا!... لا أريد ذلك!... لا أريده!...

ملء عدة معاول من التراب، مرسلة ضجة مدوية، طمرتها فنامت طوال قرن من الزمن. ومن وقت لآخر، كانت تحركها المرأة التي تغسّل جثث الأموات تفرك لها جسمها بمراهم رائحتها كريهة، وتسكب لها في فمها شراباً ساخناً، وهو يغلي. ثم تمدّدها في تابوتها.

١١

كانت «صوفيا» مستلقية على سريرها، مستندة على عدة وسائد، وهي لا تجرؤ على التصديق بأنها قد شفيت. فقد زال الألم فجأة، مثلما كان قد أتى. ففي الأسبوع السابق، انتابها في الليل تعرّق شديد، تركها منهكة، عند الفجر، ولكنها كانت سعيدة. وعاودتها الحمى في النهار، مع نوبات سعال شديدة، بصاق مشوب بالاحمرار وآلام غامضة في ظهرها. ولكنّ هذه الهجمة كانت قصيرة الأمد، وزالت بسرعة. وفي اليوم التالي شعرت بالتحسن، وأخذت تسترد قواها، وصار بإمكانها أن تنهض وتمشي بضع خطوات في الغرفة. كانت النافذة تجذبها، فعبرها، هنالك النور، أوراق الأشجار اليانعة، والطرقات التي يغشاها ضباب الصباح... كانت تشعر، أكثر من أي وقت، بالتعطش للعيش والتمتع بالحياة، وكذلك باستئناف الكفاح ضد «سيرج». ودون أن تعرف تماماً، ماذا يمكنها أن تفعل، كانت تحب أن تؤكد لنفسها وتطمئن، بأنها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة، ولم تعمل ما يمكنها أن تعمله فيما بعد. ودخلت «زويّ» وهي تحمل كأساً من الشاي. وكان إخلاص هذه الفتاة البسيطة، يحثها على الاستمرار في محاولتها أن تعمل المستحيل لتحسين ظروف معيشة فلاحي «كشتوفكا»، ومصيرهم. وشربت الشاي، وقضمت قطعتين من الشواء، وأرادت أن تنهض. فناولتها «زويّ» ثوباً منزلياً من الحرير الوردي اللون، وسندتها عندما مشت، بخطوات وئيدة نحو النافذة. وبوصولها إلى هناك، ارتمت وهي منهكة، على إحدى الأرائك، وأخذت تتنفس بصعوبة. وعاودها سعال خفيف من هذا

المجهود البسيط الذي بذلته. كانت أضلاعها لا تزال تؤلمها، كأنها ضربت عليها بالعصا. ولكنّ هذا الألم كان خفيفاً ويمكن تحمله، حتى وهي تتنفس بعمق وملء رئتيها. وانحنت نحو النافذة، فدهشت من الحركة الناشطة في الحديقة: كان بعض الخدم يكنسون الممشى الرئيسي، وآخرون يلقون الرمل في الحفر لردمها وتسوية المكان وغيرهم، أخذوا يقطعون العليق ويشذبونه، من حول المرج الكبير الأخضر.

فقالت لها «زويّ»:

- إنهم ينظفون ويرتبّون كل شيء، بمنتهى السرعة، من أجل استقبال المدعوين.

- أي مدعوّين؟

- لا أدري، إنهم سادة مهمون، دون شك، وسيأتون ليتناولوا طعام الغداء: وهم ستة أشخاص! وهنالك ضجة وحركة دائمة في المطبخ! أتريدين أن أعدّ لك أنواع الأطعمة التي ستقدم لهم؟

فلم ترد «صوفيا» على سؤالها، فقد كانت مستغرقة في تفكيرٍ فصلها وأبعدها عن العالم. ولم يكن من عادة «سيرج» أبداً أن يستقبل غرباء، وأن يدعوهم إلى مائدته. فلماذا قام بهذه الدعوة الاستثنائية، بشكل مفاجئ؟!

كانت «زويّ» لا تزال تثرثر، فوق رأسها:

- وبعد ذلك، سيكون هنالك الحساء، ثم سيقدمون لهم سمك السلمون وسمك اللور، وبعده... وبعده، ستكون هنالك إوزة محشية... ألا تثير شهيتك هذه المأكولات، يا سيدتي؟

فأجابتها «صوفيا» وهي شاردة الفكر:

- بلى!

- آه! هذا دليل على أنك شفيت واستردّيت عافيتك! ولكن، ليس معقولاً، بالنسبة لك أن تتناولي الآن شيئاً من هذه المأكولات الدسمة

والثقيلة على المعدة! ولكن سأحضر لك قليلاً من الحلوى التي ستقدم لهم، فهذه لن تؤذيكِ، نوع من العجين المخبوز والمحلى بالسكر، ومحشو، داخله بـ...

فقاطعتها «صوفيا»:

- ألم يسأل عني «السيد» أثناء مرضي؟

فتمتمت «زويّ» وهي تحني رأسها:

- كلا، يا سيدتي، ولكني، مع ذلك، قلت له، قبل البارحة، إنك شفيتِ.

- وبماذا أجابك؟

- لم يجب بشيء.

فخيم الصمت. وخرجت «زويّ» على أطراف أصابع رجليها. وظلت «صوفيا» تنظر من النافذة. ونحو الظهر، توقف العمل في الحديقة، وتفرّق الكناسون، كما يفعل العمال وهم يغادرون المسرح قبل أن ترفع الستارة. وكل من في المنزل، أصبحوا في حالة انتباه وترقب. وبعد فترة من الوقت. بدت عربتان في آخر المشى، ودارتا حول المرج الأخضر، وتوقفتا أمام درج المدخل. فأسرع بعض الخدم لفتح أبواب العربتين وإنزال مرقاة كل عربة وعلى التوالي نزل رجلان يرتديان معطفين عسكريين، وامرأة بدينة ترتدي فستاناً من المخمل، الليلكي اللون، وامرأة أخرى أصغر جسماً وأنحف من الأولى، تعتمر قبعة صفراء، ورجل مسن يرتدي بزة عسكرية، وعلى قبعته ريشة سوداء. وشعرت «صوفيا» بصدمة تتنابها في القلب: فقد عرفت، لتوها حاكم «بسكوف» بين المدعوين. كان الجماعة قد تسلقوا الدرج، واختفوا في الباحة، وابتعدت العربات الحالية، من أمام الدرج.

وأخذت «صوفيا»، وهي متكئة في أريكتها، تحاول أن تفهم مغزى هذه الزيارة. ومن البدهي، أن «سيرج» بدعوته الحاكم، أراد أن يثبت لعمته،

حتى وإن كانت قد شفيت واستردت عافيتها، فهي لا تستطيع أن تفعل شيئاً ضده، وأنه هو الأقوى، وأن عليها أن ترحل... ولكن كيف قبل شخص عالي المقام كـ «تشير كاسّوف» أن يأتي إلى «كشتوفكا» بعد كل ما قالته له؟ حتى وإن كان مقتنعاً ببراءة «سيرج»، فكان عليه أن يرفض الدعوة، مراعاة لها. وكانت تصغي، وقد أغمضت عينيها نصف إغماضه، إلى الحركة والأصوات التي تتصاعد في المنزل: صوت امرأة تتحدث بصوت قوي، ضحكات الرجال، فرقعة الأواني المنزلية، ووقع خطى الخدم وهم يسرعون، جيئةً وذهاباً، بين المطابخ وغرفة الطعام.

وقدمت «زويّ» لـ «صوفيا» وجبة نقاهتها: حساء، فروج مشوي ومهلبية، بالإضافة إلى قطعة «كاتو» بالكريمة. فمرت بذاكرتها إحدى ذكريات الطفولة المؤثرة: عندما كان يعاقبها أهلها، كانت إحدى الخادمات، تجلب لها خفية، إلى غرفتها، قطع الكاتو والحلوى.

وهمست لها «زويّ»:

- إنهم يتناولون السمك المدخّن الآن، وسألت «سابل» الخادم المكلف باستقبال الضيوف والزوار، كيف تسير الأمور هناك، فقال لي إنه يبدو أنّ الجميع مسرورون، ويجدون المأكولات لذيذة جداً... وهم يتحدثون، ويتحدثون، ويُسمع حديثهم إلى الرواق، ولكن لا أحد يفهم عمّا يتحدثون: كل أحاديثهم باللغة الفرنسية. و «سيدنا» يروي لهم قصصاً تضحكهم كثيراً...

وانصرفت، تاركة «صوفيا»، مستغرقةً في أحلامها، أمام صحنها. وكان إدراكها لما يحدث هناك، في الطابق الأسفل من المنزل، يمنعها من التفكير في الطعام، كان هنالك، تحت قدميها، يعقد اجتماع، هو أشبه باجتماع يعقده بعض المتآمرين. ولا شك أنها ليست مؤامرة حقيقية بين «سيرج» والحاكم، ولكن الأمر يتعلق بذلك التحالف الضمني والمكتوم

الذي يضم الناس السعداء، الوصوليين، الذين يحتلون المراكز الرفيعة ضد أولئك الذين يطمحون إلى إزعاجهم، والتشويش عليهم وإعاقتهم في ممارسة عاداتهم. ومن جديد، انتصبت أمامها كتلة المظالم، والآراء والأحكام المسبقة، التي كثيراً، ما وجدتها في طريقها، وفي كل مكان، في روسيا. فهل يجب عليها أن تظل تدفع، كما فعل «سيزيف»[1] تلك الصخرة، حتى آخر يوم في حياتها؟

أخيراً، عادت «زويّ» موردة الخدين، وعلى شفتيها الكثير من الأخبار:

- لقد بدؤوا يفتكون الآن بالإوزة المحشية! الحاكم يشرب كثيراً! نعم، إنه يفرط في الشراب: لقد احتسى حتى الآن تسعة أقداح من «الفودكا»، وهذا أكثر مما ينبغي بالنسبة لرجل في مثل سنه! آه! يا إلهي، ولكنكِ لم تأكلي شيئاً، يا سيدتي!...

فقالت لها «صوفيا»:

- إني لا أشعر بالجوع. ومن هم المدعوون الآخرون، الذين يرافقون الحاكم؟

فبدا الاهتمام على «زويّ»:

- سعادة مدير البريد، سعادة قاضي المنطقة...

فبدت على شفتي «صوفيا» ابتسامة تنم عن السخرية، وتمتمت:

- فهمت!، نعم لقد فهمت! والمرأتان؟

- زوجة الحاكم، والآنسة ابنته.

فردّدت «صوفيا»، بدهشة:

١- «سيزيف» «Sisyphe»: في الأساطير اليونانية، ملك أسطوري، اشتهر بجرائمه، حكم عليه في جهنم أن يدحرج صعوداً، صخرة على سفح جبل، كي يوصلها إلى القمة ولكنها كانت تتحرج وتسقط دائماً قبل أن يستطيع إيصالها إلى قمة الجبل ـ المترجم.

- ابنته؟

- نعم، يا سيدتي.

فصرفت «صوفيا» الخادمة، وبدا كل شيء واضحاً في ذهنها، فإذا كان لدى الحاكم ابنة في سن الزواج، فمن الطبيعي أنه يجب عليه أن يجامل «سيرج» لأنه أفضل عريس لابنته في المنطقة. وهو، وإن كان، من جهته، ليس لديه أي نية بالزواج، يتظاهر بالاهتمام بالموضوع، لكي يحتفظ أطول وقت ممكن بصداقة هذا الشخص العالي المقام، لكي يتمتع بحمايته. وهذا أمر مضحك، وشنيع! آه! إنها لم تكن تبخل بشيء لكي تحضر هذا الاجتماع! الأم وابنتها لبستا أفضل ما لديهما من ثياب، وبدتا متألقتين على الرغم من ارتباكهما. والأب بدا وقوراً، ومتعاطفاً. «سيرج» الخاطب المتردّد، والقاضي، ومدير البريد... إحدى مسرحيات «غوغول» الحقيقية!... وتساءلت عما إذا كان قد ورد ذكرها أثناء تناول الطعام، بلى، ولم لا؟ فلا بد من أن يكون «سيرج» قد أوضح، بلهجة تنم عن الأسف، أن «خالته» بسبب مرض قد أصيبت به لم تستطع النزول إلى قاعة الطعام، ولكنه كبير الأمل بأنها ستتعافى بسرعة! وكان يخيل لـ «صوفيا» أنها تسمعه، وهو يقول ذلك. وكان دمها يغلي. ونحو الساعة الرابعة، حدثت ضجة كالتي يحدثها الجنود أثناء سيرهم. فقد خرج المدعوون من المنزل ووقفوا أمام العربات. فكيف كانت الفتاة؟ اقتربت «صوفيا» من النافذة وأزاحت الستارة قليلاً، وبما يكفي لكي تستطيع أن ترى دون أن يراها أحد. وبدا «سيرج» أنيقاً ولسناً، أخذ يتحدث مع مدعويه، محاولاً استبقاءهم وأمامه، وقفت زوجة الحاكم، تصغي باهتمام إلى ما يقوله، وبدت ضخمة الجثة، مسترجلة، وابنتها، بدت على النقيض منها، هزيلة البنية، مقوسة الظهر، وجهها متطاول يشبه وجه الحصان، تحت قبعة من المخمل الأصفر. وبشاعة هذه الفتاة تفسر أيضاً، وبشكل أفضل الحظوة

التي يتمتع بها «سيرج» لدى «تشيركاسّوف». وبعد أن تبادلوا عبارات المجاملة، الأخيرة، صعد المدعوون إلى العربتين، وأخذ «سيرج» ينظر إليهما وهما تبتعدان، وبعد أن لوّح بيده عدة مرات، رفع نظره، فجأة، نحو نافذة «صوفيا». فارتدت بسرعة إلى الوراء، ولكن بعد فوات الأوان! فقد لمحها!

★★★

ومنذ ذلك اليوم، بدت وقد نفذ صبرها، وأخذت تتحرق شوقاً لاستعادة صحتها وقوتها، وكان يبدو لها أنّ كل مستقبلها في «كشتوفكا» متوقف على استردادها لقواها بما يمكن من السرعة. ولذلك، كانت تمشي كل صباح، بضع خطوات في الحديقة، وتزيد المسافة كل يوم. وبعد أن مارست هذا التمرين خلال ثلاثة أسابيع، شعرت بأنها قد أصبحت لديها القوة، لكي تذهب، سيراً على قدميها، إلى قرية «شتكوفو». وكانت المسافة إلى هناك لا تزيد على سبعة «فيرست» «أي ثمانية كيلومترات تقريباً». وخلال ساعتين ستصل إلى هناك. فيا لها من مفاجأة، بالنسبة للفلاحين، عندما يرونها تصل من جديد، إلى قريتهم! كانت بحاجة لأن تتحدث إليهم لكي تستعيد ثقتها بنفسها.

وفي صباح يوم مشرق من شهر تموز «يوليو» بدأت مشوارها، بعد أن أخبرت «زويّ» أنها لن تعود لتناول طعام الغداء.

وأخذت تسير ببطء، وبخطى منتظمة، وتتوقف عندما تشعر بالتعب وتجلس على تلة أو صخرة تجدها بجانب الطريق، وتضع يدها اليسرى على ظهرها، في المكان الذي لا تزال تشعر أن رئتها تؤلمها فيه قليلاً. وعندما كانت تمشي في الحديقة، تحت الأشجار، لم تكن تنزعج من الحرارة، ولكنها عندما أصبحت في البرية المكشوفة والأرض العراء، أخذ توهج الشمس يضايقها. وأرادت أن تسرع في سيرها، ولكنا اضطرت أن تعدل عن ذلك. كان التعب يصعد من ساقيها إلى خاصرتيها. وكانت عيناها

المبهورتان مثبتتين ببلاهة على البراري الممتدة أمامها، خرساء، لا يبدر منها أي صوت، عطشى من شدة الحر، بمزروعاتها الذهبية الناضجة، وتلالها الهادئة، وغاباتها الصغيرة المكسوة بالمخمل الأخضر. وأخذت بعض البعوضات تحوم حول وجهها الحار. وفي السماء الزرقاء الساطعة، ثلاث سحابات صغيرة بيضاء، ساكنة، تنتظر أن تهب الريح، لكي تتابع رحلتها.

وقالت «صوفيا» في سرّها إنها غالت في تقدير قواها. ومع ذلك فإن استراحة لمدة عشر دقائق، في ظل مجموعة من أشجار الحور، أعادت لها الجرأة على متابعة السير. وقطعت الكيلو مترين الأخيرين وهي تمشي كالإنسان الآلي، وتشدّ على فكّيها، ونظراتها مثبتة في الفراغ، إلى الأمام. وعندما لمحت أخيراً اللوحة، التي كتب عليها: «شتكوفو: ٦٧ موقد، رجال تم إحصاؤهم: ٢١٥، نساء: ٢٦١» شعرت بفرح شديد. ولكنها وصلت في وقت غير مناسب. وكان عليها أن تعرف أن الفلاحين الذين يستطيعون العمل يكونون جميعهم، في تلك الساعة، في الحقول، وبعيدين عن بيوتهم. ومشهد القرية التي بدت نصف ميتة جعلها تشعر بخيبة الأمل. ومنذ الوقت الذي كانت تحلم فيه بلقاءاتها من جديد مع الفلاحين «الموجيك» واستعادة علاقتها بهم، كانت قد هيأت نفسها بصورة لا شعورية للقاءات حارة، وأخذت تأمل أن تحظى بذلك. وسارت في الشارع الوحيد، متوقعة أن يخرج كالعادة، من كل جانب، الشيوخ والعجائز والعجزة، لملاقاتها. ولكن أبواب البيوت ظلت مغلقة، تحت أشعة الشمس الحارة. وكان هنالك امرأتان مسنّتان، جالستين عند باب أحد البيوت، فدخلتا مسرعتين إلى البيت، قبل أن تصل إلى قربهما، ووكيل الملاّك الذي يشرف على القرية، وكان ينجّر نيراً بالبلطة، أدار لها ظهره لكي لا يراها، وفتاة في العاشرة من العمر، تقود قطيعاً من الإوز نحو البرية، بدرت منها نظرة تنم عن الخوف عندما مرت بقربها، ولم تردّ، حتى على تحيتها. فاعتقدت «صوفيا» أنها قد أعيدت

سنة إلى الوراء، إلى اليوم التالي لعودتها من سيبيريا. وهي تلاقي تماماً الجو المعادي والمقلق الذي عرفته يوم أول زيارة قامت به للقرية، عندما كان الجميع لا يزالون يرتابون «بالسيدة الفرنسية» ويحذرونها. وبعد أن استعادت ببطء وهدوء محبة وتقدير هؤلاء الناس، فلا يمكنها أن تفترض أنهم قد تغيروا وتخلوا عنها أثناء فترة مرضها. فماذا حدث منذ أن انقطعت عن رؤيتهم؟. والمخلوق الوحيد الذي يمكنها أن تعتمد عليه في «شتكوفو» هو «أنتيب». فاتجهت على الفور، مباشرة نحو مسكنه، ووجدته نائماً قرب موقده، فهزته من كتفه، فاستيقظ مذعوراً، ورفع ذراعه وطواه، كما لو أنه يتقي ضربة يخشى أن يتلقاها، ولكنه، عندما عرف «صوفيا» قفز واقفاً على قدميه، وتمتم:

- آه! يا سيدتي!... أهذه أنت؟... ولكني... كنت... أعتقد أنك لم يعد لك الحق بأن تأتي لترينا!...

فاغتاظت:

- من استطاع أن يقول ذلك؟

- السواقون.

- إيه، إنهم مخطئون!

بهذا ردّت «صوفيا» وهي تجلس، منهكة من التعب، على مقعد، كان هناك. وسندت ظهرها على الجدار وأغمضت عينيها. فارتسمت زهرات متلألئات على نسيج جفنيها، الأحمر.

وسألها «أنتيب»:

- كيف أتيت؟

- سيراً على قدميّ.

ولم يدهش أبداً من هذا المشوار الصعب الذي قامت به «فبالنسبة لأي فلاح، سبعة «فيرسات» ليست شيئاً يذكر!»

وتمتم:

- وهل علم «السيد» بمجيئك إلى هنا؟

- كلا.

فانتاب «أنتيب» خوف، جعله يحملق بعينيه، ويحرك فكه:

- آه! آه! إذن، اذهبي بسرعة يا سيدتي! لأن «السواقين» إذا رأوكِ هنا، يُقضى عليّ!

فقالت محتجةً:

- أنت مجنون! فلست خادماً في «كشتوفكا» لكي تخاف! وأنا لم أطلب منك شيئاً!...

- الأمر سيّان، يا سيدتي!... لقد أنذرنا «السيد» وحذّرنا!... الخادم أو الفلاح، كل من يصغي إليك، كل من يتكلم معك - سيجلد بالسوط!... وأنت لا يمكن أن تريدي هذا لخادمك العجوز «أنتيب»، يا سيدتي!... فأنتِ أكثر طيباً من أن تريدي ذلك!...

ولأنها لزمت الصمت، وبدت حائرة، تابع «أنتيب» الكلام، وعلى فمه، بين شعر لحيته، تكشيرة تنم عن التأثر والحزن:

- لقد علمنا أنك كنت مريضة... وصلّينا من أجل شفائكِ ولكن، عندما كنت ترقدين في سريرك كنا مطمئنين... والآن سنعود من جديد لنخاف ونرتجف... وأنت لا تستطيعين أن تعملي شيئاً من أجلنا، يا سيدتي... دعينا وشأننا، أرجوك أن تتركينا في بؤسنا وخضوعنا...

فصاحت به:

- كيف تستطيع أن تقول هذا الكلام، بعد أن كنت تشكو لي كثيراً من الطريقة التي يعاملونكم بها؟

- الشكوى تريح الإنسان!... ولم أكن أظن أنك ستقيمين الدنيا وتقعدينها من أجل أمر قليل الأهمية!...

- واليوم، تريد مني أن أكفّ عن ذلك؟

- نعم، يا سيدتي... فأنت تسببين لنا بقدومك، من الأذى أكثر مما تسبّبين من النفع... اذهبي... حباً بالسماء، اذهبي!...

فنهضت، وقالت بصوت، خالٍ من أي نبرة:

- حسناً. سأذهب. ولكني متعبة جداً، ولا أستطيع المشي إلى «كشتوفكا». اطلب من «الوكيل» أن يهيئ عربة، ويوصلني إلى هناك...

فهزّ «أنتيب» رأسه:

- إنه لن يفعل ذلك، يا سيدتي.

- ولماذا؟

- إذا علم «السيد» بذلك!...

فدفعته نحو الباب:

- اذهب واطلب منه أن يحضّر العربة!... إني آمرك أن تفعل هذا!...

فذهب مسرعاً. وعندما بقيت وحدها في «الإيسبا»، زالت أوهامها، وشعرت بخيبة مرّة جداً، اعتقدت أنها لم يسبق لها أن أصيبت بمثلها طوال حياتها. وقد انتزع «أنتيب» منها، برفضه مساعدتها آخر مبرّر للبقاء على قيد الحياة. وقد اكتشفت فجأة أنها سخيفة، بهذا الاهتمام الذي تحمله في قلبها، والذي لا يريده أحد منها. بل، لولا بعض الشيء، لكان قد نقم عليها حتى هؤلاء الذين تهتم بهم وتريد أن تساعدهم وذلك بسبب شدة إخلاصها، وعلاوة على ذلك، وعلى الرغم من أن الفلاحين يرفضونها مع كل طيبة عواطفها نحوهم، فهي لا تستطيع حتى أن تتّهم بالجحود وإنكار المعروف والجميل. فهي لم تستطع أن تعمل شيئاً من أجلهم، سوى التحرك، والتصور، والكلام... ومصيرهم يقرره آخرون، وهم يدركون ذلك. وهذا كل شيء! فماذا كانت تأمل بمجيئها إلى هنا؟ إثارة جيش من الأصدقاء ضد «السيد» السيئ والفاسد؟ وهي التي كانت تنتقد «نيقولا» في الماضي،

لأنه كان يعتبر أحلامه أموراً واقعية وحقيقية. ها هي اليوم تبدو أكثر جنوناً منه، على الرغم من تقدمها في السن، والخبرة التي اكتسبتها! وراودتها الرغبة بأن تنحني، وأن تتكمش، يائسةً.

وعاد «أنتيب» وهو يهزّ رأسه:

- كنت متأكداً من ذلك، يا سيدتي... «الوكيل» يرفض... والجميع يرفضون.

فلم تلحّ «صوفيا»، وكانت تشعر أنها، رغم قوة إرادتها، لا تستطيع أن تحصل من نفسها على مجهود آخر.

وسألته:

- أي قرية، برأيك، هي الأقرب لنا، الآن؟ هل هي، «تشيرينا كوفو»؟

فأجابها «أنتيب»:

- كلا، أقرب قرية هي: «كوستارنويّ»، ولكنها تخص «آل فولكوفّ»...

- هذا أفضل، لحسن الحظ! فالخدمة التي يرفض فلاحونا تقديمها لي ربما يقدمها لي فلاحو «آل فولكوفّ»...

فشعر «أنتيب» بالتوبيخ، ولكنه لم يقل شيئاً.

وخرجت. وبعد الظل في «الإيسبا» أوقفتها في مكانها، حرارة الشمس الساطعة، وعاودها كل تعبها، دفعة واحدة.

وقال لها «أنتيب»:

- إذا أردت الذهاب على «كوستارنويّ» فأقرب طريق، هو أن تذهبي في الدرب، الذي يقع على يسارك، مباشرة عند خروجك من هذه القرية. وخلال عشرين دقيقة، تصلين إلى هناك... وليحفظك الله!... إلى اللقاء، يا سيدتي!...

فقالت، وفي حلقها غصّة:

- إلى اللقاء، يا صديقي المسكين «أنتيب»!

ومشت، وقد خالجها إحساس غريب بأن مئات الأشخاص، المختبئين خلف النوافذ، والحواجز، وأكداس الحطب وأكوام السماد، يشاهدون رحيلها المخجل.

وصلت إلى قرية «كوستار نوي» بعد نصف ساعة، رأسها فارغ، وركبتاها ترتجفان، اعترضت أول فلاح صادفته، وطلبت منه أن يوصلها بالعربة إلى بيت أسياده في «سلافينكا».

وطوال الوقت الذي استغرقته الرحلة، على الرغم من حرارة الشمس، وارتجاج العربة، والغبار والذباب المزعج، فهي لم تر شيئاً، ولم تشعر بشيء. كانت تلاحقها جملة قالها «أنتيب»: «أنت تسببين لنا من الأذى أكثر مما تسببين لنا من النفع، بمجيئك إلى هنا، يا سيدتي... اذهبي!...» وأخذت تفكر: «لماذا أنا متحمسة إلى هذه الدرجة، ومصرة على البقاء في هذه البلاد؟ أمن أجل الدفاع عن «الموجيك»: «الفلاحين العبيد»؟ - فهم لم يعودوا يريدونني! أم لكي أثبت أن «سيرج» قاتل؟ - فأنا نفسي، لم أعد متأكدة من ذلك. فأنا أتعارك مع أشباح، وأضيع وقتي، والحقيقة، أن شعوري بأني غريبة هنا، يزداد رسوخاً، يوماً بعد يوم...» وخطر على بالها أن انقطاع تواصلها مع روسيا، كان قد بدأ بالنسبة لها بعد وفاة «نيقولا». فعندما كان على قيد الحياة، كان يساعدها على تفهم روح وطنه، وقد تلقت بواسطته، ومن خلاله، معرفة بلاد، من الصعب التوصل إلى الحصول عليها. وكانت قد استطاعت أن تؤمن، أنها أينما كانت، وفي أيّ مكان تكون، فهي في بيتها. أما الآن، فهي لم تعد تستطيع أن تتحمل، كما في السابق، الصدمات وخيبات الأمل التي يسببها لها سكان هذه الأرض الفسيحة. لقد فقدت، في آن واحد، زوجها والوسيط بينها وبين حقيقة الواقع الروسي.

عندما وصلت إلى «سلافينكا»، كانت «داريا فيليبوفنا» و «فاسّيا»، قد فرغا من تناول طعام الغداء، وأخذا يحتسيان القهوة، تحت شجرات الزيزفون. وعندما رأياها تنزل من عربة الفلاح، أسرعا نحوها، وقد بدا عليهما القلق الشديد:

- يا إلهي!... ماذا حدث؟... هل وقع معك حادث في عربتك؟...

فقالت «صوفيا» وهي تبذل جهداً كي تستطيع أن تبتسم:

- كلا، إن هذه هي طريقتي الجديدة في السفر!

ونفضت الغبار عن فستانها، وسارت وهي منهكة من التعب نحو أريكة مصنوعة من القصب، وارتمت عليها. وقدمت لها «داريا فيليبوفنا» فنجاناً من القهوة الحلوة والكثيفة. وتمتمت وهي تنحني نحوها:

- ارتاحي، يا عزيزتي، فأنت شاحبة جداً! وفرحتنا كبيرة، باستقبالنا لك اليوم! بعد أن انقطعت أخبارك عنّا منذ عدة شهور، وخيل لنا أنك لم تعودي ترغبين بأن ترينا.

وقال «فاسّيا»:

- أمي كتبت لك ثلاث مرات، وسائق عربتنا هو الذي حمل الرسائل إلى «كشتوفكا».

فقالت له «صوفيا»:

- لم يسلمني أحد أي رسالة.

- كيف؟... ولكن هذا مستحيل!... أيمكن أن يكون «ابن أختك» قد تجرّأ على؟...

- أيدهشك ذلك؟

وخيم صمت ينم عن الغيظ المشوب بالعجز. وأخذ «فاسّيا» يقضم أظافره، وقد استبدّ به الغضب. بينما، همست «داريا فيليبوفنا»:

- وأنت، حتى لم تتساءلي، لماذا لم تبدر منا نحوك إشارة تنم عن الحياة؟

فقالت لها «صوفيا»:

- كنت مريضة جداً.

- يا إلهي! ماذا أصابكِ؟ ومن عالجكِ؟

وبعد خيبات الأمل التي منيت بها «صوفيا» فقد تأثرت كثيراً، بهذه اللهجة التي تعبر عن المودة والصداقة، لدرجة أن عينيها اغرورقتا بالدموع. وكانت تشعر بحاجة شديدة للبوح بما يقلقها، بحيث إنها روت لهما كل شيء، بدءاً من حديثها الأخير مع «سيرج» وحتى الزيارة التي قام بها الحاكم لـ «كشتوفكا». وأثناء الحديث، كانت «داريا فيليبوفنا» تتنفّس بصعوبة، ويدها على صدرها، والدموع تطفح من عينيها، وعلى شفتيها ارتعاشة خفيفة. وإلى جانبها وجه ابنها اللطيف، الذي كان يتقلّص وقد بدت عليه تعابير العنف المزيف. وعندما أنهت «صوفيا» حديثها وصمتت، قال، متأوهاً:

- أفظع ما في الأمر، هو أنّ لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً ضد هذا الشخص الشرس، والسيئ الأخلاق!

فنظرت إليه «صوفيا» بدهشة شديدة: أهذا كل ما استطاع أن يقوله، وهو المثقف الثوري، الذي قرأ «سان سيمون» و «لامونيه»؟

كانت جملته تدوي، كصدى بعيد لكلام «أنتيب». فالجميع - الفلاحون الأميون، أو السادة الملاكون الليبراليون - يتقبلون الأمر الواقع، لكي لا يعقّوا نمط معيشتهم. ومع ذلك، فإن قصة ابنة الحاكم، أثارت كثيراً «داريا فيليبوفنا»:

- سمعت أحاديث كثيرة في «بسكوف»، بأن هنالك شيئاً من هذا القبيل، ولكني لم أشأ تصديق ذلك! لأن الفتاة قبيحة جداً! وهو يأتي إلى المدينة، ويعرف العديد من الفتيات هناك!...

- دعك من هذا يا أمي! فليس له أي أهمية!

بهذا علّق «فاسّيا»، متذمراً، على ما قالته أمه.

فردّت عليه أمه، قائلة:

- أنا لا أوافقك على هذا الرأي. وحسب ما يفكر به «سيرج» فكل مستقبل صديقتنا يمكن أن يتغير!...

ووضعت يدها برفق على ركبة «صوفيا» واستأنفت كلامها، بعطف شديد:

- لا بد بأنك بحاجة للراحة. وسأهيئ لك غرفة ابنتي الكبرى لترتاحي فيها. فتغمضي عينيك، وتنامين برهة. ومساء اليوم، يوصلك سائقنا إلى «كشتوفكا».

وفكرت «صوفيا» بأن تقبل هذا العرض: ستائر مسدلة، وسرير مريح، وبضع ساعات تنسى فيها همومها، وكل شيء في هذا العالم، ضمن هذا المنزل المضياف. ثم خطرت على بالها فكرة، كانت على درجة من القوة، جعلت جميع المشاريع الأخرى تتطاير في الجو، ولذلك تمتمت:

- أشكرك، يا صديقتي العزيزة، ولكني لا أستطيع أن أبقى. ويجب عليّ أن اذهب، على الفور، إلى «بسكوف».

فصاحت «داريا فيليبوفنا»:

- إلى «بسكوف» وأنت في هذه الحالة؟

- نعم، وذلك لأمر مهم جداً، إذا كان سائقكم يستطيع إيصالي إلى هناك...

فقال «فاسّيا» بحماسة شديدة:

- أنا الذي سأوصلك إلى «بسكوف»، ومن هناك، إذا شئت، أوصلك إلى منزلكم!

فوجهت له أمه نظرة تنم عن القلق، لأنها، دون شك، كانت تخشى أن يلتقي بـ «سيرج»، هناك.

فقالت له «صوفيا»:

- أنا موافقة، شريطة أن توصلني إلى حديقة «كشتوفكا» فقط، ثم تعود إلى هنا.

فقبل «فاسّيا» بارتياح شرط «صوفيا» لأنها من جهة قبلت عرضه، ومن جهة أخرى، بدّدت مخاوفه ومخاوف أمه، التي وجهت إلى «صوفيا» ابتسامة تنم عن الرضا والامتنان.

★★★

قال «سيرج» بصوت قوي، وبلهجة جافّة:

- من أين أنت قادمة؟

وكان قد خرج من المكتب عندما سمع وقع أقدام «صوفيا» في الممر، ووقف أمامها وقد استبد به الغضب، شدّ على فكّيه وجحظت عيناه. فسرّت لأنها اشترطت على «فاسّيا» ألا يدخل معها إلى المنزل. فلماذا إثارة شجار فظّ ولا جدوى منه، بين الرجلين؟

وكرّر سؤاله:

- إيه، ما بك؟ أجيبيني، من أين أنت قادمة؟

فقالت:

- من «بسكوف».

فتناول مصباحاً عن المنضدة، ورفعه، كما لو كان بحاجة لأن يرى وجه «صوفيا» جيداً، في الضوء لكي يصدقها. وكان، وهو مقطّب الحاجبين، وقد زرّر معطفه، يبدو كزوج غيور.

وسألها:

- وماذا ذهبت تفعلين في «بسكوف»؟

كانت منهكة جداً، لدرجة أنها بالكاد سمعت سؤاله.

فكرّر السؤال، صارخاً بأعلى صوته:

- ماذا ذهبت تفعلين في «بسكوف»؟

فارتعشت، وقالت:

- قابلت الحاكم.

- قابلت الحاكم؟ ولماذا؟

- لكي أقدّم له طلباً لتغيير مقر إقامتي.

فانتفض، وانبسطت أسارير وجهه، وبدت ابتسامة كبيرة على شفتيه:

- أحقاً؟ أهذا صحيح؟

فأحنت رأسها، وأومأت بالإيجاب.

واعتدل «سيرج» في وقفته، مزهواً، وقال لها:

- لن تندمي على ذلك. وسأدعم طلبك، وجميع معارفي في سيؤيدونه، فإلى أين تريدين الذهاب؟ إلى «سان بطرسبورغ» أم إلى «موسكو»؟...

- أريد العودة إلى بلادي.

فقال، بدهشة تتّسم بالسخرية:

- إلى فرنسا؟

«إلى فرنسا... إلى فرنسا... إلى فرنسا!...»

كانت هذه الكلمة تدوي في أذني «صوفيا» كنداء يتردّد إلى اللانهاية، عبر الجبال. وبدرجة التعب التي كانت قد بلغتها، فلم تعد تفهم ماذا كان يحدث لها. وثبّتت ضوء المصباح على شبكية عينيها، كبر وتضخّم، حتى أصبح شمساً ساطعة، مبهرة. ثم انطفأ كل شيء، وسقطت في هاوية عميقة.

الجزء الثالث

١

تغلبت «صوفيا» على ضيقها ورجت السيد البدين والأصلع الجالس قرب نافذة حافلة القطار، أن يتبادل معها المكان. فابتسم لها، ابتسامة تدل على أنه من المعتادين على السفر بالقطار، والتعرض لمثل هذه الممارسات، ووافق، قائلاً وهو ينهض:

- أتكون هذه أول رحلة لك بالقطار، يا سيدتي؟

فأجابته وهي تنهض، أيضاً:

- نعم، يا سيدي.

- إنه مدهش ومثير جداً، عندما يكون أحدنا لا يعرفه سابقاً. ويسافر فيه لأول مرة...

فوافقت على ما قال، بإيماءة من ذقنها، وهل كان باستطاعتها أن تقول له بأن الذي يثير مشاعرها ليس كونها تسافر في حافلة تجرها قاطرة بخارية، بل رؤيتها أرض فرنسا، تنساب خلف زجاج النافذة، هذه الأرض التي غادرتها قبل سبع وثلاثين سنة؟ كان المسافرون الآخرون يجلسون جنباً إلى جنب، وعلى سيمائهم تعابير الجد والوقار، وقد ضموا سيقانهم إلى المقاعد، لتسهيل حركة المسافرين الذين يكثرون من الذهاب والإياب. ومرّ السيد البدين من أمام «صوفيا» وهو يجمّع بطنه الكبير. و «صوفيا» التي اختل توازنها بسبب ارتجاج الحافلة، وسقطت عن المقعد، ابتسمت للجميع، معتذرة منهم. وأرسلت القاطرة صفيراً مدوياً، بينما كان القطار يسير بسرعة مخيفة، كانت أرضية الحافلة ترتجّ، والبوابات تهتزّ، والمزاليج

تطقطق. وضمن إطار النافذة تجري البرية مسرعة، كالمياه في نهر في حالة الفيضان. وأحياناً تكاد تلامس الحافلة، عن قرب، مجموعات من البيوت البيضاء ذات الأسطحة الحمراء، بحيث أن «صوفيا»، بصورة لا شعورية كانت تُبعد رأسها عن النافذة. وعندما أخذت تفكر أنها بعد ساعة وخمس دقائق، ستكون في باريس، بدا لها أن حلمها أخذ يتحقق بسرعة كبيرة. فرغم دعم الحاكم لطلبها، أمضت أكثر من سنة ونصف، وهي تقوم بالمساعي والمراجعات، قبل أن يحظى طلبها بموافقة الإمبراطور. وتدخل سفير فرنسا، في «سان بطرسبورغ» هو الذي حسم الأمر، وعجّل بإصدار القرار بالموافقة، في بداية الأمر، كخطوة أولى، على إقامتها في «بسكوف» وبعد ستة أشهر، سمح لها بالانتقال إلى «سان بطرسبورغ»، حيث كان يجب عليها أن تذهب كل يوم سبت إلى مفوضية شرطة الحي الذي تقيم فيه، للتأشير على وثيقة إقامتها. وأخيراً، بتاريخ ٧ آذار «مارس» الماضي، استدعاها الجنرال في فرقة الخيالة، الكونت «أورلوف»، مدير الشعبة الثالثة، في ديوان قنصلية صاحب الجلالة، وأبلغها أن بإمكانها مغادرة روسيا. وبضعة أسابيع، كانت كافية، بالنسبة لها، لتدبير أمورها والاستعداد للسفر. وبعد ذوبان جليد نهر «النيفا»، استقلت سفينة تجارية روسية، متجهة نحو ميناء «الهافر» في فرنسا. كانت السفينة شراعية، ذات ثلاث سواري، وهيكلها من حديد، وتحتوي نحو عشر قمرات للمسافرين. وعندما رأت «صوفيا» قلعة «كرونستاد» وهي تغيب في الأفق البعيد شعرت بأسى، وبتمزق لم تجد تفسيراً واضحاً لهما. فقد كانت، في آن واحد، سعيدة بالهروب من بلاد لم تعرف فيها سوى القهر والحزن، وتعيسة لأنها تركت هناك كل ما يشدها إلى الحياة ويربطها بها: الكثير من الذكريات، قبر زوجها، الأصدقاء. وقد جرى فراقها لـ «سيرج» بشكل سليم، وبكل برود. كان قد توصل إلى تحقيق غايته؛ فبعد أن بقي وحده في

«كشتوفكا» سوف يستمر بإرسال نصف إيرادات الأملاك إلى «خالته». وجرى تثبيت هذا الاتفاق بواسطة عقد تم التوقيع عليه أمام الحاكم. وعلاوة على ذلك، فمنذ أن قدّمت الطلب لتغيير مقر إقامتها، أخذت تلقى من جديد، حياة طبيعية في المنزل، وأخذ الخدم يطيعونها في كل ما تطلبه منهم. وكان هذا دليلاً إضافياً، على أن كل شيء، في الملكية، خاضع لسلطة «ابن أختها». وعند ذلك أصبحت «صوفيا» على قناعة تامة، بأن ليس لها أي عمل في هذه البقعة من الأرض، حيث كان لديها نقطة الضعف التي جعلتها ترغب بأن تكون مفيدة ونافعة للآخرين. حتى أن فكرة ارتكاب «سيرج» لجريمة القتل، لم تعد تعذّبها. فقد تجاوزت زمن القلق والتمرد. ومنذ أن وصلت إلى «سان بطرسبورغ» حصل لديها انطباع بأنها بدأت تعيش حياة أخرى. وفتحت بعض الصالونات، على استحياء، أبوابها أمامها. وأحاطها بعض أصدقاء ومعارف «نيقولا»، برعايتهم. ولكنها، مع تقبلها لهذه الرعاية، فهي لم تكن تفكر إلا بالاستعداد للرحيل. ولكن، ماذا ستجد في فرنسا؟ فحسب ما كان يكتبه لها الأستاذ «بوليه» وكيل الأسرة، كان والداها قد باعا كل أملاكهما لكي يسددا ديوناً، تراكمت عليهما في السنوات الأخيرة من حياتهما. ولم يبق سوى المنزل الكائن في شارع «غرونيلّ»، الذي تهدّم سقفه، وتخرّب داخله، وبيع نصف أثاثه ومفروشاته. وبعد أن حولت «صوفيا» إيراداتها من ملكية «كشتوفكا» إلى أحد المصارف الباريسية، طلبت من الأستاذ «بوليه» أن يعمل على إجراء الإصلاحات الضرورية في المنزل، وأن يوظف لها خادمين. وفكرت أنها بذلك، سوف تستطيع الإقامة، عند عودتها، بطريقة ما، في ذلك المنزل. وهي ستعود إلى وطنها، بل إلى «بيتها»، ولن يكون هنالك أحد من أفراد أسرتها، ولا من أقاربها، ولا حتى من صديقاتها أو أصدقائها لكي يستقبلها. والذين تعرفهم في فرنسا، أقل عدداً بكثير من الذين تعرفهم في

روسيا. وهي عاشت في روسيا زمناً أطول من الزمن الذي عاشته في فرنسا. ومع ذلك، فبعد عودتها إلى فرنسا، أخذت تشعر بعنف، وحتى الأعماق، بأنها فرنسية!

آه! إنّ جميع هؤلاء الناس الذين حولها يجهلون قيمة السعادة التي تتاح لهم، لمجرد كونهم مواطنين في بلاد حرة. حقاً، إنها عندما وقّعت طلبها، في شهر تموز «يوليو» سنة ١٨٥١، كانت فرنسا لا تزال جمهورية، وأنها أصبحت آنذاك، أي في شهر أيار «مايس» سنة ١٨٥٢، من جديد إمبراطورية. ولكنّ هذه الإمبراطورية لا بد من أن تكون متسامحة وطيبة النية! وحسب ما كان يروى في العاصمة الروسية، ليس لنابليون الثالث شيئاً من صفات وطباع «نيقولا» الأول. فحبه للشعب، صادق وحقيقي، وإذا كان قد أوقف ونفى بعض المعارضين لسياسته، بعد انقلاب الثاني من كانون الأول «ديسمبر» فالناس يتحدثون عن نيته بأن يعفو عنهم. وبقدر ما كان الاستبداد يبدو طبيعياً في روسيا، بقدر ما كان يبدو غير معقول، ولا يمكن تصوّره، في فرنسا. ويكفي النظر إلى بعض الفرنسيين وتأملهم، لكي يقتنع المرء بأنهم غير مضطهدين. ومنذ أن وطأت قدماها الأرض، في «الهافر» استرعت انتباهها بقوة روح المرح والانطلاق، التي يتصرف بها أبسط الناس. وحصل لديها الانطباع نفسه على رصيف محطة القطار. وبين المسافرين الذين استقلوا قطار باريس، ركاب الدرجة الثالثة الذين كانوا جميعهم معهم سلال، يبدو منها الخبز الشهيّ، النقانق، وزجاجات النبيذ. وفي الدرجة الأولى كان المسافرون أكثر تذوقاً للمأكل والمشرب، ولكنهم أقل اهتماماً بحملها. ولكن، وبشكل يبعث على الاستغراب، لم يكن هنالك هاوية سحيقة تفصل بين البرجوازي، وابن الشعب، العادي، كما هي الحال في روسيا، بين السيد الملاك والعبد. وهنا، وإن كان الغني والفقير، يتميزان ويختلفان عن بعضهما باللباس، وبأساليب التعامل،

وبطريقة الكلام، فهما ينتميان إلى أمة واحدة، بينما، يمكن هناك التحدث تقريباً، عن اختلاف في الجنس، أو عن عرقين مختلفين. وفجأة أدركت «صوفيا» أن ما كان يحيرها وتستغربه، منذ وصولها إلى فرنسا، هو غياب، وعدم وجود الفلاحين العبيد «الموجيك». وكانت تفتقد وجوههم الملتحية، التي لوحتها الشمس والتي تنم عن السذاجة، في عالمها الجديد. وعندما فكرت أنها لن ترى بعد اليوم ولا حتى واحداً منهم، شعرت بموجة من الحزن الغريب أفسدت سعادتها، ولكنها مرت بسرعة كبيرة بحيث أنها بالكاد شعرت بها، وكانت قد عادت برغبة شديدة إلى تأمل مشاهد بلادها التي أخذت تمر أمام ناظريها. فلكم كان كل شيء في فرنسا، صغيراً، بالمقارنة مع المساحات والفضاءات الفسيحة والشاسعة، في روسيا! الحقول الصغيرة المحروثة، والمعزوقة، والحواجز القائمة بين أملاك محدودة المساحة، كمناديل الجيب، والقرى المجتمعة بيوتها بنظام وهدوء حول أبراج كنائسها، التي تبدو للعين سهامها الرفيعة من بعيد، بدلاً من تلك القباب المستديرة والمكورة الزرقاء، الخضراء والذهبية اللون التي تعلو أبراج أجراس الكنائس الأرثوذكسية، هناك في روسيا... وعلى البعد، تلك الضبابة البنفسجية المرتعشة، وذلك التكدس الطبشوري، وهذا التلألؤ الناجم عن آلاف النوافذ الزجاجية، أليست هذه كلها، ضواحي باريس؟ وأخذ المسافرون يتحركون، فهناك سيدة بللت منديلها بماء من زجاجة تحملها معها، ومسحت به وجهها، الذي كان أثّر عليه سواد دخان القاطرة، والسيد البدين زرّر صدريته، وقال:

- عمّا قليل سنمر فوق جسر «أسنيير» وهو ما يزال مبنياً من الأخشاب. والعمل قائم الآن لإنشاء جسر آخر من الحديد، سينجز عما قريب، لكي تمر عليه القطارات. وسيكون لدينا عند ذلك عمل فني رائع، وإنجاز هندسي ضخم!...

والصقت «صوفيا» جبينها على زجاج النافذة. كان القطار يمر ببطء شديد، يثير القلق، على معبر خشبي ظل يرتجف ويهتز. بينما حبس المسافرون أنفاسهم. وفي الأسفل، كانت مياه النهر تتلألأ، بين ضفتيه الرخوتين، وحولهما الغسالات اللواتي يغسلن الملابس ويشبعنها خبطاً وتقليباً، وصيادو السمك بقواربهم التي تنساب على سطح الماء. وعندما لامست آخر حافلة الأرض الصلبة أرسلت القاطرة تنهيدة الخلاص، وأسرعت في سيرها. وكانت المنازل مصطفة على الجانبين، وبدت صغيرة، قبيحة، ووسخة. وبدا هناك سور تتخلله أبراج واستحكامات، يسبقه حاجز ضخم، انتصب أمام القطار. كانت تلك هي التحصينات الجديدة، التي سمعتهم في روسيا يتحدثون عنها، ولكنها لم تكن تعرف شيئاً عن أهميتها. ومرّ القطار بين حصنين نصف دائريين، ودخل في أحد الأنفاق. فاجتاحت الحافلة موجة جهنمية من الدخان، وأخذ جميع المسافرين يسعلون، وأخيراً، خرج القطار من الظلام الدامس، فتنفس المسافرون الصعداء وأخذوا ينفخون ويصلحون ملابسهم. وعلى جانبي الخط الحديدي، بدت المصانع والمخازن، ومستودعات البضائع. وبعد بضع دورات من العجلات، تتقدم أرصفة نزول المسافرين، بشيء من البطء. وبسبب وسخ زجاج النوافذ بدا بريق الشمس باهتاً. وعندما توقفت القاطرة حدثت هزة أوقعت المسافرين فوق بعضهم. وأسرع الحمالون، من كل جانب، ليعرضوا خدماتهم. فسلّمت «صوفيا» حقائبها لأحدهم، وكان كبير الرأس، شاربه مجعد ومعقوف، وعيناه تنمان عن الجرأة والوقاحة. وتبعته إلى القاعة الكبرى، الخاصة بالجمارك ورسم الدخول. فوجدته جالساً على إحدى الحقائب يلوح لها بذراعيه، كعامل الإشارة. وفجأة وجدت نفسها محتجزة في زحمة المسافرين: رجال يعتمرون قبعات كبواري المدافئ، أو «الكاسكيتات» ونساء على رؤوسهن قبعات مختلفة الأشكال والألوان.

وأطفال حائرون، منذهلون، يشدهم أهلهم بأيديهم، بحر متلاطم من الوجوه، وفوق كل ذلك، هيمنة اللغة الفرنسية، الخفيفة. وفتح أحد موظفي رسم الدخول حقائب «صوفيا» وحقيبة يدها، وأعلن عن رضاه، وموافقته على دخولها، فنقل لها الحمال الحقائب إلى رصيف الخروج من المحطة. وهناك، في شارع «سان - لازار» كانت العربات تنتظر، متوقفة في صف طويل. فصعدت «صوفيا» إحداها، ولم يكن لسائقها لحية، كسائقي العربات في روسيا، حيث كان يبدو الأمر، طبيعياً هناك، وراقبت تحميل حقائبها، وأعطت للحمال أجرة سخية، وقالت، بلهجة حاولت، بقدر ما استطاعت، أن تجعلها تبدو طبيعية:

- ٨١، شارع «غرونيلّ».

فاندفعت العربة بين سيل من العربات المتجهة، نزولاً، نحو ساحة «المادلين». وكان هنالك عربة عامة عالية وثقيلة تفوق بارتفاعها مختلف أنواع العربات الأخرى، تسير، وفي أعلاها سائق متجهم الوجه، يرتدي دثاراً فضفاضاً ويعتمر قبعة مطلية بالشمع. والأرصفة كانت تغصّ بالمارة، بعضهم يسرعون الخطى، مشغولي البال، وآخرون، يسيرون، متسكعين ببطء، ويتوقفون أمام واجهات المخازن، التي يبدو، أنها جميعها تحوي أشياءً عجيبة. وعندما وصلت العربة إلى ساحة «الكونكورد» بدت أمام «صوفيا» تلك الأبنية البيضاء اللون التي تبدو رائعة بجمالها. ولكن، ما الذي تغير هنا؟ آه! نعم، «المسلة» الرهيبة، المغروسة كالقطب، في وسط الساحة أو المحور من حجر، تدور حوله العربات. فيا لها من خطيئة تسيء إلى الذوق، وإلى الحسّ السليم! وبالمقابل، فقد أحسنوا عملاً بردم الحفر. وهذان المنهلان الجميلان، اللذان يتدفق منهما الماء، إنهما لم يكونا موجودين، سابقاً! ولا تلك المصابيح العالية! ولا تلك التماثيل الكائنة فوق مقصورات «غبرييل»! واتجهت بعض العربات إلى اليمين، نحو شارع «الشانزيليزيه» الذي

كانت الأشجار المصطفة بنظام، على جانبيه، تؤدي إلى «قوس النصر». وفي الجانب الآخر، قصر - بوربون، الذي تنتصب مجموعة أعمدته اليونانية، الزائفة، وعبرت العربة الجسر، وسارت صعوداً في شارع «بورغونيه»، ثم استدارت متجهة إلى شارع «غرونيلّ» ودخلت تحت سقيفة مدخل أحد المنازل، وتوقفت وسط باحة مبلطة، و «صوفيا» التي حبست أنفاسها من شدة التأثر، رأت أمامها البيت الذي كان ملعب طفولتها.

كان الملاط قد زال، في بعض الأماكن، عن الواجهة، وليس على النوافذ ستائر، ونبتت الأعشاب بين بلاطات المدخل. ولكنّ هذا المنزل القديم ظل محافظاً على طابعه الذي يتسم بالسكينة والأصالة. وتقدم نحو «صوفيا» خادم مجهول، في سن الشباب، مورّد الوجه، كبير الأذنين. وكانت حلته البنية اللون، ضيقة، فلم يستطع تزرير أزرارها الأمامية، وتبعته خادمة. شاحبة الوجه: وعرّفا عن نفسيهما: «جوستان» و «فالنتين» وكان مسجل العقود، وكيل العائلة، قد استخدمهما في الأسبوع السابق. وقد قاما «بالعمل المهم والأساسي»، ولا بد لأن السيدة سترشدهما للقيام ببقية الأعمال. فقالت لهما أن يهتما بالأمتعة، ودخلت بمفردها إلى البيت.

كان الرواق مقفراً، وبعض قطع الأثاث موزعة في الصالون الفسيح، وعلى الجدران المطلية باللون الأخضر الزاهي، التي أحالت لونها أشعة الشمس، بدت بقع بلون أعمق، مستطيلة الشكل، تشير إلى أماكن اللوحات التي اختفت. وعندما أجالت «صوفيا» نظراتها على ما تبقى وكأنه نجا من الغرق، عرفت بتأثر ومودة أريكة، أسكملة، خزانة صغيرة، من الخشب الملبّس والمرصع بالأصداف، إحدى الستائر التي تغطي باباً. ورائحة البيت، نفسها، بقيت، بصورة عجيبة، في هذه الأماكن غير المأهولة، منذ زمن طويل، رائحة لطيفة، يمتزج فيها فوحان القماش العفن، والشمع والطلاء الجافّ والخشب المنخور. وأخذت «صوفيا» وهي خياشيمها مفتوحة،

متوترة الذهن، تعود بذاكرتها القهقرى، عبر السنين. فعند عودتها من سيبيريا إلى «كشتوفكا»، استغرقت في ذكريات زواجها بـ «نيقولا»، وهنا، تجد نفسها ثانية بين ذويها، كما كانت، قبل أن تعرفه. واجتاحتها موجة من الحزن الشديد، عندما فكرت بأن أباها وأمها ماتا، بينما كانت بعيدة جداً عنهما. وبإفسادها حياتها ألم تفسد حياتهما أيضاً؟ فهما لم يحبّاها جيداً، وقد عاملتهما بالمثل. وكل هذا كان محزناً ويدعو إلى الأسف! وألقت نظرة على المسافة الكائنة بين النافذة والباب، فانتصبت أمامها، فتاة، كانت كثيراً ما تقف في هذا المكان، بقامتها المشوقة، وهي ترتدي فستاناً أزرق اللون، بيدها كتاب، وقد ألصقت جبينها بزجاج النافذة. لم يكن بعد في حياتها أحد، وكانت تتحرق شوقاً للتصرف والعمل، لإبداء الإخلاص والإعجاب، والعبادة، وكل هذا كان يتلخص باكتشاف رجل جدير بتقديرها. كانت قد قرأت «بلو تارك»[1] وتريد أن تتصف بالبطولة. أن تكون «مدام رولان» ثانية. وخلفها، أبوها وأمها، يتبادلان أحاديث عديمة الأهمية والفائدة، تدور كلها حول معارفهما أو حول خدمهما.

وكان الظلام يخيم على الحديقة. وساعة حلول الظلام هذه، كانت «صوفيا» تشعر بالضيق فيها. وتأملت نفسها بالمرآة الكائنة فوق المدفأة، فرأت نفسها متنكرة في زي سيدة عجوز. على رأسها «باروكة» وخطّها الشيب وحول ذقنها تجاعيد رسمت بغير مهارة، وظلّان داكنا تحت عينيها،

١ـ «Plutoroqur» «نحو السنة ٥٠ إلى نحو السنة ١٢٥»: كاتب يوناني، سافر إلى مصر، وأقام عدة سنوات في روما. كتب عدداً كبيراً من الأبحاث والدراسات، قسّمت منذ العهود القديمة إلى مجموعتين: «الأعمال الأخلاقية» و«الحيوات المتوازية» وكان لأعماله تأثير كبير، امتد من «مونتينيه» إلى «روسو» وإلى الثورة الفرنسية ـ المترجم.

ونظرتها جامدة... فلماذا صنعت لنفسها هذا الرأس؟ وعرفت بشيء من العطف، وقد ردّت بعنف وقسوة إلى الواقع، في هذا الوجه المتعب، كل ما يدل على الخيبات والأحزان والإخفاقات التي منيت بها في حياتها. فشعرت بالبرد يسري في أوصالها. كان البيت رطباً، مع أنه آنذاك كان قد حل شهر أيار «مايس».

وقالت لـ «جوستان»، الذي دخل آنذاك:

- أشعل النار في المدفأة.

- حسن، يا سيدتي. لقد قال الأستاذ «بوليه» إنه سيأتي هذا المساء ليقابل سيدتي. ولا نعرف، أنا و «فالنتين» أين تريدين أن تكون غرفة نومك. وقد اخترنا لك الغرفة التي بدت لنا أنها أفضل الغرف، في الطابق الأرضي...

فقالت له:

- لقد أحسنتما الاختيار.

كانت تلك الغرفة هي الصالون الصغير القديم، الذي كانت أمها تمضي فيه سهرات الشتاء. وجلب إليه الخادمان سريراً لم تكن تعرفه، ومنضدة زينة، وأريكتين قديمتين، وخزانة، وسجادة... والأمتعة كانت مكدسة في إحدى الزوايا، وينبغي فتحها وترتيبها، فيا له من عمل مملّ! وكلفت «فانتين» بترتيب البياضات والفساتين بصورة مؤقتة، وتابعت زيارتها التفقدية للمنزل.

كانت تفتح الأبواب قليلاً، وتلقي نظرة تتفحص فيها بسرعة ما هو موجود في الداخل، كما لو أنها كانت تتجول متنزهة في منزل امرأة أخرى. وفي غرفة نوم والديها، لم يكن بقي شيء، سوى الجدران العارية، والغرفة التي كان ينام فيها «نيقولا» أثناء إقامته في باريس، بقي فيها من كل الأثاث، سرير محطم، تهاوت كلته، مزقاً. وصعدت على الدرج، دخلت إلى المكتبة، حيث رأته، لأول مرة: شاباً، طويل القامة، أشقر الشعر، ببزته

العسكرية الجميلة، كضابط في الحرس الليتواني. لكم كانت تكرهه آنذاك، لأنه كان روسياً ومنتصراً! كان هنالك مقعد تمزق غطاؤه، وبرز القطن الذي يحشو داخله، وعلى بعض الرفوف التي يعلوها الغبار، لا تزال مصفوفة بعض الكتب. ولكن أثمنها وأهمها كانت قد فقدت. وقرأت «صوفيا»، كيفما اتفق، أسماء بعض المؤلفين: «ج ج. روسّو»، «مونتسكيو»، «فولتير»، وإلى أبعد من ذلك قليلاً: «شامبليتّ» زوجها الأول، وقد أثر بها قليلاً جداً، لدرجة أنها لا تكاد تتذكره. لقد كانت زوجة «نيقولا» وزوجته وحده، فقط، وبصورة تلقائية تناولت كتاباً صغيراً، مغلفاً بجلد محبّب، وتصفحته:

«رسائل حول التقدم المستمر للذهن البشري»، بقلم المركيز «دو شامبليتّ». فأدهشتها سذاجة العنوان، فكيف استطاعت، فيما مضى، أن تعجب به؟ ووضعت الكتاب مكانه، ونزلت على الدرج، ثم خرجت إلى الحديقة، ولأنها تعرضت للإهمال خلال فترة طويلة، فقد تحولت إلى مربع نمت فيه الأعشاب والنباتات الكثيرة الأشواك. ومن بين تلك الحشائش الخضراء، كان يبرز تمثال «كوبيدون» «إله الحب» ظريفاً ومتصنّعاً. كانت أرنبة أنفه مكسورة، ومفقود جزء من قوسه. وعلى الأشجار التي أصبحت أغصانها كثيفة ومتشابكة، كانت العصافير تغرد. ومن بعيد، كانت تسمع ضوضاء المدينة. ولم تكن «صوفيا» تعرف فيما إذا كانت فرحة أم حزينة. كانت السعادة بعودتها إلى باريس تمتزج لديها بالكآبة لكونها وحيدة في هذه الزيارة المقدسة التي هي بمثابة تأدية فريضة الحج. وحيدة وقد تقدمت بها السن، في الأماكن التي بدأت فيها حياتها! وأخذت تفكر: «انشغلت وانهمكت بالعمل، وأحببت، وكرهت، وراودتني الآمال، وشغفت بألف شيء وشيء وتحمست لها، وكلها، في اليوم التالي، تبدو لي تافهة ولا معنى لها، وأعود إلى نقطة انطلاقي، فارغة اليدين! فما هو إذن معنى مصير، كمصيري هذا؟».

وطردها من الحديقة ظلام الليل وبرودة الجو. وكان «جوستان» قد أشعل النار في الصالون. وأمرته أن يقدم لها طعام العشاء، هناك، قرب المدفأة، على منضدة صغيرة. و «فانتين» كانت وصيفة وطباخة، في آن معاً. بأجرة قدرها خمسة وعشرون فرنكاً في الشهر، بالإضافة إلى الطعام والنبيذ. وارتدت «صوفيا» فستاناً منزلياً، وسرحت شعرها وضمته تحت منديل من الدنتيلاّ، وجلست أمام طعام مؤلف من «فرخ بط» بالزيتون. وكانت قد انتهت من تناول طعامها، عندما أعلن لها الخادم قدوم مسجل العقود. وهو رجل في الأربعين من العمر، بدين، نضر الوجه، حسن الهندام. وقد خلف في العمل، مسجل العقود السابق، وكيل الأسرة، الذي كانت تعرفه. وببضع كلمات، أوضح لها وضعها المادي الذي لم يكن حسناً. ولكن «صوفيا» لم تكن تهتم كثيراً بأي مورد يمكن أن تحصل عليه من فرنسا، لأنها سوف تتلقى بانتظام نقوداً من روسيا. وبالمبلغ الذي حولته، هي، بنفسها من «سان بطرسبورغ» إلى باريس، وحده، يمكنها تأمين معيشتها طوال سنتين، أو ثلاث سنوات. وعند الحاجة، ستعمد إلى المضاربة في سوق العملة: «البورصة» «ويقال أن ذلك يعطي أرباحاً ضخمة!» ولكنّ الأستاذ «بوليه» نصحها بعدم اللجوء إلى هذه الطريقة. وكان يبدو متعقلاً، دقيقاً ولديه كثير من الشكوك في مضاربات «البورصة». وعدته بأن تتبع نصيحته، ووقّعت على الأوراق التي قدمها لها. وقبل أن ينصرف، أعطاها بعض المعلومات عن الخادمين اللذين أرسلهما لها، وسألها عما إذا كانت بحاجة لخدم آخرين غيرهما. فرفضت، قائلة أن هذين الاثنين يكفيانها عن سعة، لأنها لا تريد أن تشارك كثيراً في الحياة الاجتماعية. لا سيما، وأنها لم يعد لديها كثير من الأصدقاء في فرنسا.

فقال لها:

- سيأتيك كثير من الناس، بسرعة، وأكثر مما تأملين!

وأوت إلى سريرها منهكة من التعب، ونامت نوماً عميقاً، واستيقظت باكراً، صباح اليوم التالي، يراودها شعور بأن لديها عملاً مهماً جداً، عليها أن تقوم به. ولكن، بعد أن أرشدت «جوستان» و «فالنتين» إلى ما يجب عليهما أن يعملاه، وتبين لها أن ليس لديها أي عمل آخر. وكان الوقت يمضي بسرعة، واقترب بعد الظهر، والطقس جميل. فخرجت من المنزل. وأعجبتها الحركة التي تسود الشارع: كان البوابون يتثاءبون، عند عتبة أبوابهم، والباعة المتجولون يدفعون عرباتهم في شارع «بورغونيه»، وينادون على بضاعتهم، بأصوات مبحوحة. ومرّ بقربها، وتجاوزها حمّال، انحنى كتفاه تحت خشبة، علق بطرفيها دلوان مملوءان بالماء. ودفعتها ذكرياتها إلى الذهاب باتجاه شارع «يعقوب» نحو مكتبة صديقها القديم «أوغستان فافسور». ولكنّ الباب كان مغلقاً، وكذلك النوافذ، واللوحة التي تحمل اسم المكتبة: «الراعي الصالح» امّحى تقريباً ما كتب عليها. وأرادت أن تحصل على بعض المعلومات من البواب، فوجدته شخصاً ضخم الرأس منتفخ الخدين، يبدو الشك في نظرته، وقد ربط على بطنه صدارة وسخة، وفي زاوية فمه مضغة تبغ. وفوق محرسه لوحة صغيرة، كتب عليها: «راجع البواب.»

وغمغم:

- «فافسور»؟ لقد سافر.

- إلى أين؟

- لا أدري.

- منذ زمن طويل؟

- منذ عدة شهور.

- ولكن... لا بد من أنه سيعود؟

- ليس في وقت قريب! من يسأل عنه؟

- عفواً؟

- ما هو اسمكِ؟

فظنت «صوفيا» أنه يريد أن يحصل على معلومات لكي يبلغها لرجال الشرطة، ولذلك، قالت له:

- إنّ اسمي لن يعني لك شيئاً.

ومع ذلك فقد تردّدت بالانصراف، وأخذت تفكر بأصدقائها الآخرين: «آل بواتوفان»، الذين كانوا يسكنون سابقاً في البناء نفسه. ولكنهما كانا متقدمين جداً في السن في ذلك الوقت الذي تعرّفت عليهما به، فلا بدّ من أن يكونا قد ماتا منذ زمن طويل. ولكنها، سألته، لإراحة ضميرها:

- والسيد والسيدة «بواتوفان»؟

- لا أعرفهما!

ثم ضرب جبينه، وقال:

- آه! نعم، العجوزان! الزوج أصيب بالشلل، على ما أعتقد... لقد ماتا، هو أولاً، وهي بعد ذلك. كنا آنذاك، قد بدأت بالضبط خدمتي هنا، لقد مضى على ذلك خمس وعشرون سنة، ست وعشرون سنة!...

فمضت «صوفيا» منقبضة الصدر. كانت تعرف أنّ «آل بواتوفان» لا يمكن أن يكونا قد ظلاّ في عالمنا هذا... ولكنّ «فافسور»؟ ماذا حلّ به؟، فهو لا يتوب ولا يمكن إصلاحه! فلا شكّ أنه لم يعد يشعر هنا بالأمن فنقل عمله التجاري البسيط، إلى مكان آخر، حاملاً معه مزاجه المتمرد، فهي لا يمكن أن تهتدي أبداً إلى الطريق الذي يمكن أن يوصلها إليه.

ومن شارع «يعقوب»، ذهبت إلى موقف لعربات الأجرة، واختارت عربة جميلة بأربع عجلات، شدّ إليها حصانان قويان، ويرتدي سائقها حلة رسمية، واستأجرتها بأجرة شهرية. فاقترح عليها المراقب أن تستأجر أيضاً سائساً ليعتني بالحصانين، فرفضت اقتراحه، لأنها اعتبرته يتّسم بالبذخ.

كـان الـسائق يـدعى: «باسـيل»، يعتمـر قبعـة عاليـة. وعارضـاه الأشـقران يحيطان كالإطار بوجهه المنتفخ الذي تنم تعابيره عن الزهو والغرور. وكـان واضحاً أنه يريد أن يُعتبر سائق عربة خاصة لأحد الأسياد، ولتسهيل الوقوع في هذا الخطأ، كـان رقم عربته مكتوباً بالأحمر بخط غير واضح على خلفية سوداء. ولم يكن يلاحظ من بعيد أبداً.

ومـن البدايـة، طلبـت «صـوفيا» مـن «باسـيل» أن يوصـلها إلى شـارع «الشانزيليزيه» وبدا لها هذا المنتزه أكثر جمالاً وأكثر حيوية، مما كـان عليـه في زمـن شـبابها. وفي أي مدينـة في العـالم لم تكـن الأشـجار أكثـر عدداً، مما هـي عليـه في باريس. فهنالـك صـداقة فرنسية جداً بين الحجارة القديمـة وأوراق الأشـجار النـضرة والخـضراء. كـان الـشارع يبـدو منفتحـاً بـشكلٍ لـه روعـة مصبّ نهـر كـبير في خليج على البحـر. وكانـت تبـدو مـن بعيد هالة من الغبار تحيط ببريق زجاج نوافذ العربات، وتلألؤ عدة خيولها الفضية. وكانت هذه العربـات مختلفـة الأنـواع والأشـكال، بـدءاً مـن العربـة الفخمـة الـتي تحمـل أبوابهـا شـعار إحـدى الأسـر الارسـتقراطية، إلى العربـة البرجوازيـة المريحـة، مـروراً بعربـة الـسيدة الأنيقـة، وعربـة الـشاب المتـأنق، الغنـدور، وكـلـها تتـسابق، وتمـر الواحـدة منهـا بجانـب العربـات الأخـرى، وتكـاد تلامسها، ويتبادل ركابها النظرات الفضولية الحـادة. وأحيانـاً، يمـر بعض الخيالة، العائدين من نزهـة قاموا بهـا في «غابة بولونيـا»، بقـرب عربـة مكـشوفة فيحيـون فيهـا قبعـة كـبيرة مـن القـش مزينـة بـشرائط متعـددة الألوان. كانت «صوفيا» تتفحّص ملابس السيدات وزينتهنّ، باهتمام شديد. وقـد بـدا لهـا أنّ الأزيـاء في فرنـسا جميلـة جـداً، في ذلـك الفـصل. وشـعرت، بشكل مفاجئ أنها بملابسها تبدو كإحدى النساء الريفيات: فستانها ثقيل الوطأة على جسمها، وقبعتهـا، مـن ضيقهـا، تـشد علـى جبينهـا. لـذلك يجـب معالجـة هـذا الموضـوع بأسـرع مـا يمكـن. كـان وقـع حـوافر الخيـل يرافـق

أفكارها بموسيقى إيقاعية قوية النبرات. وبعد أن ألقت نظرة على قوس النصر - الذي أنجز أخيراً - طلبت من الحوذي إعادتها إلى مربع «مارينيي»، فنزلت هناك واتجهت نحو الحدائق. وهنا أيضاً، كم حدثت تغيرات! فتحت تلك الأشجار، اختفت المراقص، والمطاعم، وتخشيبات المعارض، كما كان هناك «سيرك»، ملعب شعبي، وحول كل هذه المنشآت الواهية، التي أقيمت من القماش المتعدد الألوان، جمهور من المتنزهين والمتسكعين، الذين سحرتهم ألحان الجوقات الموسيقية والروائح العطرة المنبعثة من شراب التفاح، وأقراص الحلوى العسلية، والنقانق، وعندما صعدت «صوفيا» إلى العربة، كان سائق عربتها يدندن وقد أمال قبعته على أذنه:

«أوه! «بو ماري» يا ملكة القلوب الحساسة!...»

وعادت إلى المنزل، مبتهجة. كان «جوستان» قد اشترى لها الصحف، فقلّبتها، لاهيةً ومن دون اهتمام: كانت تشكل ذكرى لبلاد سعيدة: كان الإمبراطور قد تزوج في مطلع السنة، وزوجته جميلة، أنيقة، لطيفة وخفيفة الظل. وقد بدا الشعب كله شديد الحب لعاهليه. وتحدثت الصحف عن القيام بأعمال مهمة في المدينة، وعن عروض جديدة، على المسارح، وعن حفلة راقصة في قصر «التويلري»...

وقفزت «صوفيا» فوق الأخبار السياسية، وأسرعت لمطالعة زاوية الأزياء، المزينة بالصور والرسوم. كان جو باريس يدفعها إلى التأنّق والتزيّن. في حين أنها كانت في «كشتوفكا» ترتدي أبسط الملابس ولا تشعر بأن هنالك حاجة لتغييرها، بينما أخذ نظرها يداعب باشتهاء الصور التي تمثل ملابس وزينات الرقص الرائعة والعجيبة، «الفستان الجميل المستدير الشكل، المصنوع من القماش القديم، المتموج والبرّاق، بلونه الوردي الفاتح، والمزين بثلاث دوائر، على الزي الانكليزي، تعلوه شرائط للزينة وإكليل من ورق «الكريب» الوردي الموشى بالبقع الفضية...» كانت تقرأ، تتخيل، وتحبّذ،

وقد اعترتها الدهشة من حبها واهتمامها إلى هذه الدرجة بأشياء تافهة وعديمة الأهمية. وهذا الاهتمام الشديد بالتسلية، كان، بالتأكيد، دليلاً على نقاهة وشفاء لم تكن تأملهما، وعلى عودة عجيبة إلى الأصل وإلى الجذور. وانزلقت الصحيفة عن ركبتها. فالتفتت نحو مرآتها المتحركة. فهل كان تلك مسألة ضوء؟ أم مناخ؟ فقد وجدت نفسها أحدث سناً مما كانت عليه في «توبولسك» وأكثر حيوية ورشاقة. وأسفت كثراً لأن «فيرديناند وولف» لم يستطع أن يراها في مدينتها وفي منزلها كامرأة باريسية. وبخاصة، عندما تفكر بأنها لم تصلها منه كلمة واحدة، منذ أن فارقته! لا إلى «سان بطرسبورغ» ولا إلى «كشتوفكا»! ولكن ربما كان البريد يمر من روسيا إلى سيبيريا بسهولة تفوق سهولة مروره في الاتجاه المعاكس. ولذلك، فإنّ من الممكن جداً أن يكون قد تلقى منها بضع رسائل. بينما لم تتلق هي أي خبر عنه. وهذه الفكرة الخيالية كانت تواسيها، وتساعدها على تحمل وحدتها، وكانت تعطي لنفسها هذه الذريعة، لكي لا تضعف من عزيمتها وتيأس حيال الفراغ الذي تعيش فيه. وفتحت درج مكتبها، مدفوعة بموجب من العطف والمحبة، غمست ريشتها بالحبر وأخذت تكتب رسالة لصديقها الكبير، دون أن تأمل بتلقي أي جواب عليها، وكأنها تلقي صفحاتها في مهب الريح.

٢

في الأيام التالية، استولى على «صوفيا» هم ترتيب منزلها. وقبل كل شيء وجوب إصلاح وصيانة غرف الطابق الأرضي، الذي تنوي الإقامة، والعيش فيه. مهملة الطابق الأول، والتوصية على بياضات للمنزل وستائر للنوافذ، وأدوات وأوان للمطبخ، ملاحقة الفرّاش لكي يسرع بإصلاح المقاعد والأرائك، والتنقل بين مخازن الأزياء، ومصانع القبعات، ومشاغل الخيّاطات... وكان يبدو لها أنها لن تكفيها سنة بكاملها، لكي تعود تماماً إلى جو باريس، ولكي ترتب جيداً نمط حياتها الجديدة. وكانت قد خشيت أن تصاب بخيبة أمل عند عودتها إلى فرنسا. ولكن كل شيء يعجبها هنا، المخلوقات والحجارة، طعم الخبز ولون السماء، ولا شيء سوى سماعها الناس وهم يتكلمون الفرنسية في الشارع فذلك يبدو لها أعجوبة لا تمل من تأملها وسماعها. وفي كثير من الأحيان، أثناء إحدى نزهاتها، أو عندما تكون وحدها في غرفتها، كانت تشعر بسعادة غامرة، ودون أي سبب، كالتي كانت تشعر بها وهي لا تزال فتاة يافعة. وهذا الانطباع بأنها على وفاق تام بكل جوارحها مع حقيقة طبيعية، لا يمكن لأيّ كلام أن يعبّر عن عذوبته. وهي في هذه الحالة التي غمرتها فيها الغبطة والسعادة، اشترت، على التوالي، للصالون خزانة ركنية «توضع في إحدى الزوايا»، صنعت من خشب الأبنوس الأسود والنفيس، ومكتبة صغيرة من خشب الأجاص، المطلي باللون الأسود أيضاً والمرصع بالأصداف المتعددة الألوان. والسرور الذي كانت تشعر به وهي تتأمل قطع الأثاث الحديثة، هذه، كان

يساعدها على أن تنسى أن هذه المصاريف التي تنفقها تفوق إمكاناتها ولا تتناسب معها.

وذات مساء، بينما كانت تخلد للراحة في غرفتها، أبلغها «جوستان» أن هنالك سيدة ترغب بزيارتها: وهي البارونة «دوشارلاز». وظلت «صوفيا»، من شدة دهشتها، برهة وهي حائرة مترددة، وتتساءل: «كيف عرفت أني عدت؟» وقد تأثرت كثيراً، لأن «ديلفين» ظلت تتذكرها.. حقاً، إنهما كانا على صلة وثيقة فيما بينهما أثناء طفولتهما، ولكنهما بعد ذلك، فترت وضعفت شيئاً فشيئاً علاقتهما، وفي السنوات الأخيرة التي أمضتها «صوفيا» في باريس، لم تكن تلتقي إلا نادراً، برفيقتها السابقة في المدرسة الداخلية في الدير ولكنها كانت لا تزال تحتفظ بصورة ظريفة ومسلية لهذه المرأة ذات الفضيلة المتساهلة، والروح المرحة، والتي كانت سمعتها تثير غضب واستياء الناس الشرفاء. و «نيقولا» الذي لم يكن يُثبت على الدوام، أنه ذو ذوق سليم، كان قد قال لها مرة إنه يجد «ديلفين» جميلة وظريفة. وحتى ربما يكون أيضاً قد غازلها؟! فلم يكن هنالك رجل في باريس، لم تحاول إغراءه.

أصلحت «صوفيا» زينتها أمام المرآة، بعناية خاصة، وتفقدت تسريحة شعرها، واتخذت هيئة متودّدة، ودخلت إلى الصالون لتجابه تلك التي كان يلقبها، فيما مضى، المقربون منها بـ «الفاتنة».

نهضت سيدة قصيرة القامة، نحيلة الجسم، ثيابها بنفسجية اللون، عن الأريكة، عندما دخلت «صوفيا». وجهها مجعّد، وجلده ملتصق بشدة بعظامه، حتى يخيل لمن يراه أن لرأس امرأة ميتة تحت قبعة مزدانة بالريش. وفي ذلك المزيج من التجاعيد والمساحيق، تبرق عينان زرقاوان تتصفان بحيوية ساحرة. وفتنتها الوحيدة ما زالت تكمن في الابتسامة. وشعرت «صوفيا» أن صدرها قد انقبض وهي تتلقى بين ذراعيها هذا الأثر المتداعي، الذي يفوح منه عطر جذاب.

وصاحت الزائرة:

- آه! يا «صوفيا»! أهذا ممكن؟ أنت؟ أنت؟ بعد كل تلك السنين؟!...

وجلستا جنباً إلى جنب على إحدى الأرائك، وكل منهما ممسكة بيد الأخرى، كما كانت تفعلان قديماً في الدير. وكان الوضع مضحكاً، ولكنّ «صوفيا» لم يكن يمكنها أن تسحب يديها دون أن تزعج «ديلفين». ولم يكن قد مضى زمن طويل على لقائها مع «داريا فيليبوفنا» الذي أحدث لها الصدمة نفسها، ولذات الأسباب: «رؤية امرأة، من جديد، وهي ذابلة ومنهكة، بعد أن عرفتها شابة نضرة، ونشيطة، أمر مخيف! ولا شك أن «ديلفين» تشعر حيالي بالمفاجأة المحزنة نفسها التي شعرت بها، دون أن تجرؤ على أن تصرح بذلك. وكل منا ترثي للأخرى، وهي تلزم الصمت، وتقدر التلف الذي أحدثته السنوات في جسمها...» هذا ما كانت تفكر به «صوفيا» وهي تتأمل رفيقة صباها القديمة، وقد بلغ بها التأثر أشدّه، وأحنت رأسها، دون أن تجد ما تقوله. وساد بينهما صمت، حبستا خلاله الدموع. وأخيراً، تمتمت «ديلفين»:

- لقد حلّت بك مصائب كثيرة، يا صديقتي المسكينة!

فسألتها «صوفيا»:

- وكيف عرفت ذلك؟...

- أولاً، بواسطة أخت الأميرة «ترويتزوكوي»، السيدة «واندا دو كوزاكوفسكا»، التي تقيم في باريس. ثم عن طريق السيد «نيقولاي تورغينيف»[1].

١- «نيقولاي إيفانو فيتش تورغينيف» «١٧٨٩-١٨٧١» سياسي وكاتب، أقام منفياً في فرنسا زمناً طويلاً، ينبغي التمييز بينه وبين الروائي الروسي الشهير «إيفان سيرغييفيتش تورغينيف» «١٨١٨-١٨٨٣». «حاشية وردت في النص الأصلي الفرنسي» -المترجم.

الذي كان على صلة وثيقة بمتمردي كانون الأول، ولكن، كان من حسن حظه أنه كان خارج روسيا، في الوقت الذي حاولوا فيه إحداث الانقلاب.

وأخيراً، عن طريق الصحف، والكتب.. فقد قرأت كتاب: «le Moutre darmes» «المدرب على استعمال السلاح» بقلم «أليكسندر دوماس»!

- إنه نسيج من الأكاذيب!

- ربما كان ذلك، ولكن أكاذيب من هذا النوع، وبهذا الأسلوب، لا يمكن الازدراء بها! فقد أثارت حولك وحول أصدقائك تياراً من الفضول والمودة والتعاطف، وأصبح الجمهور الواسع يعرف من أنتم..

- أنا لا أبحث عن الشهرة، يا «ديلفين» بل إني لأعترف لك، بأني لم يسبق لي أن تمنيت البقاء مجهولة لا يعرفني أحد، بقدر ما أتمناه الآن!

فقالت «ديلفين»، متأوهة:

- إني أفهمك جيداً، يا عزيزتي. فالناس والمجتمع، والحركة والضجيج، كل هذا، كان جيداً فيما مضى! أتدرين أني تعرضت للمحنة نفسها التي تعرضت لها؟ فأنا أيضاً فقدت زوجي منذ خمس عشرة سنة!..

وكان على «صوفيا» أن تبذل بعض الجهد، لكي تبدو حزينة. فهل يمكن المقارنة بين حزنين وحدادين، مختلفين إلى تلك الدرجة؟ إذ إن البارون «دوشارلاز» يحدث مفاجأة ودهشة، في حين أن «نيقولا» قد توفي وهو في شرخ الشباب، وفي عز القوة... ولكن، ربما لأن «ديلفين» ظلت تخدع زوجها وتخونه، طوال حياته، فهي توليه الآن، بعد موته، إجلالاً صادقاً، إلى ما بعد القبر. وكثيراً ما تكون ذكرى الرجل أكثر فائدة للمرأة من الرجل نفسه. فذلك هو الوقت الفسقي المعتم الذي تضفر فيه أكاليل الثناء وتحاك الأساطير.. وتبادر إلى ذهن «صوفيا»: «وقاني الله شر هذا المرض المتمثل في احترام موقوت، يأتي بعد فوات الأوان»!.

وتحدثت الصديقتان، خلال بضع دقائق عن أصدقائهما المشتركين، الذين مات كثيرون منهم، وعن «نيقولا» الذي قالت عنه «ديلفين» إنها لا تعرفه جيداً، وعن والدي «صوفيا»، وعن الاضطرابات السياسة التي حدثت في فرنسا، خلال السنوات الأخيرة.. و «ديلفين» التي كانت، سابقاً، من أنصار الشرعية ومؤيديها، تعترف الآن، أنها حليفه لنابليون الثالث وتؤيده من كل قلبها. وقالت:

- الجمهورية انتهت، تعفنت، وبدت عاجزة، وكنا نسير بسرعة نحو الفوضى، وغياب السلطة الفعالة، عندما أمسك بزمام الأمور لإنقاذ الدولة، وإدارة شؤونها! وهذا ما كان يشعر به كل الناس! والدليل على ذلك نتائج الاستفتاء العام الساحقة! فقد صوتت الأمة بكاملها لنابليون جماعة اليمين وجماعة اليسار، باستثناء بعض المجانين! وأنا أعرف، أنك كان لديك دائماً، أفكار.. بعض الشيء... لنقل اشتراكية!.. إيه! ومهما بدا لك ذلك غريباً، فهذا سيكون سبباً، بل مبرراً إضافياً بالنسبة لك، لكي تبدي إعجابك بالإمبراطور! فهو يحب الشعب، والشعب هو الذي اختاره، وهو سيحكم من أجل الشعب! دون أن يغضب بذلك، البرجوازية! ومنذ أن تسلم الحكم، تنفس الناس الصعداء، وأخذوا يؤمنون من جديد بالأمن والسلام بالأخوة وبالعدالة..

فابتسمت «صوفيا»، وقالت لها:

- لم أعهد بك أبداً، فيما مضى، هذا الولع، وهذه الحماسة لأحدٍ من رجال الدولة.

- ذلك لأن هذا، سبق أن أتيحت لي الفرصة لمعرفته عن قرب، ولهذا السبب، فإني أستطيع التحدث عنه، عن خبرة ومعرفة جيدتين. نعم، لقد دعيت عدة مرات إلى قصر «التويلري»..

وقالت هذه الكلمات بلهجة تنم عن التواضع، ولكن من الواضح تماماً أنها كانت فخورة ومزهوة بوصولها إلى منطقة وموقع النفوذ، والسلطة.

وأضافت، موضحةً:

- إنــه مخلـوق مــن الطــراز الأول: نبيــل، ذكــي، حــازم، وحــساس! والإمبراطورة، أي سحر وأي جمال! وهي بالتأكيد تريد أن تتعرف عليك!

- إني لأتساءل، لماذا تريد أن تتعرف علي؟!

- ذلك لأنها تحب كثيراً الاطلاع على جميع الآلام ومختلف أنواع المعاناة البشرية. وعلاوة على ذلك، فهي وأنا، نهتم بأعمال الخير والإحسان نفسها. وماذا لو قلت لك إني أمضي معظم وقتي بالاهتمام وبالعمل في جمعية خيرية لمساعدة الأمهات المعوزات!..

فحملقت «صوفيا» بعينيها في هذه المخلوقة التي، لكثرة ما تنقلت من رجل إلى آخر فقد انتهى بها الأمر، إلى أن تحبهم كلهم. والفضيلة وافتها مع التجاعيد. وكيف يمكن تبين المرأة الجميلة، المتساهلة، الشائعة والعامة إلى حد ما، والعثور عليها في هذه العجوز ذات الهندام الوقور، والروح الخيرة والعطوفة؟

واستأنفت «ديلفين» الكلام:

- لا يعود إلا لكِ، لكي تملئي حياتك، كما ملأتها أنا. أوجدي لنفسك بعض الالتزامات التي تدخل الدفء والمسرة إلى قلبك. فلم يكتشف، حتى اليوم دواء أفضل من المجتمع، ومن الحياة الاجتماعية، ضد العزلة والوحدة! وبهذا الخصوص، أذكر لك أنه يوجد كثير من المواطنين الروس في باريس.

وجميعهم أناس ظرفاء. وبالإضافة إلى ذلك، فأنا، إنما علمت أنكِ عدت إلى باريس، من السيد «نيقولا كيسّيليف»، سفير روسيا في فرنسا، وربما كان من المناسب أن تقومي بزيارته.

- لو أنك تعلمين عدد الزيارات التي قمت بها للحكام، للجنرالات، وللمديرين الإداريين للمناطق، في روسيا، لكنت أدركت، بأني لم يعد لدي أي رغبة، لاستئناف هذه الزيارات هنا!

فقالت «ديلفين»، وهي تضحك:

- حسناً! حسناً! لندع إذن جانباً الشخصيات الرسمية. وعلى أي حال، هنالك صالون، لا يمكن أن ترفضي الظهور فيه، وهو صالون الأميرة «ليفين». فجميع أفراد الجالية الروسية يجتمعون فيه يوم الأحد، لكي يلتقوا بأجمل وأشهر العقول الفرنسية في زمننا الحالي. والأميرة قالت لي بأنها تنوي أن تدعوك لزيارة صالونها. وأنا أخبرك بذلك، لكي لا تشعري بالمفاجأة، عندما تصلك الدعوة..

فقالت «صوفيا»:

- هذا لطف عظيم منها، أليست هي بالأصل من أسرة «بنكدروف»؟

- بلى، وزوجها، الأمير «دوليفيين» اشتهر كسفير لروسيا في لندن. وهي نفسها كانت وصيفة شرف لإمبراطورة روسيا..

- فماذا تعمل، إذن، في باريس؟

- منذ عشرين سنة، على وجه التقريب، أصابها حزن شديد: فقد مات اثنان من أولادها، بالحمى القرمزية. عند ذلك، غادرت البلاط الإمبراطوري. بل وانفصلت أيضاً عن زوجها الذي لم تكن على تفاهم تام معه. وبحجة أن مناخ «سان بطرسبورغ» لا يناسبها، ومؤذٍ لصحتها، فقد أتت وأقامت هنا، في منزلها الكائن في شارع «سان فلورانتان»، وذلك حباً منها لفرنسا. ويقال أنها كانت صديقة لـ «مترنيخ»، وأن «غيزو» مغرم جداً بها، وأن كانت في السبعين من عمرها. والكونت «موريني» هو أحد رواد صالونها الدائمين. واللورد «ابيردين» يكتب لها كل أسبوع. وهي تراسل الإمبراطورة «أليكسندر فيدوروفنا» بصورة مستمرة، والإمبراطورة تحتفظ لها بكثير من العطف والمحبة. وباختصار فهي تتمتع بنفوذ قوي هنا، وهناك، فهي كسفيرة شبه رسمية لروسيا في فرنسا. وقد أطلق عليها لقب: «عرافة أوربا». بالحقيقة، يجب أن تتعرفي عليها!...

ففكرت «صوفيا» بالآمال التي عوّل بها أصدقاؤها عليها. فهل تستطيع أن تهمل عرض قضيتهم والدفاع عنها لدى سيدة مرموقة لها نفوذ، لا بأس به في البلاط الإمبراطوري؟ وقالت:

- المزعج في الموضوع أنّ الملابس المناسبة التي تليق بمثل هذه الزيارة.

فقالت لها. «ديلفين»:

- اطمئني، ففي صالون الأميرة «ليفين»، يولى الانتباه إلى العقل، وليس للزينة والملابس! وعلاوة على ذلك، فأنا متأكدة بأنك تغتابين نفسك. وحسب معرفتي بك، فلا بد من أن تكوني قد أوصيت على بعض الفساتين الجميلة! وإذا أردت عناوين بعض المتعهدين، وبعض الخياطات...

وانصرف الحديث باتجاه الملابس النسائية وأزيائها الحديثة. ولم تعد «صوفيا» تلاحظ التجاعيد على وجه «ديلفين». ولأنهما أخذتا تتحدثان كسابق عهدهما، فكل منهما استعادت صباها في نظر الأخرى، وأمامها، وهما لوحدهما، خلال ساعة واحدة، كانتا في الثامنة عشرة من العمر.

ونهضت «ديلفين» وتجولت في الصالون، متفحّصة قطع الأثاث، من خلال نظارتها ذات المقبض اليدوي. وقالت بصوت عذب:

- لقد رتبت بيتك، بذوق ممتاز! فالخزانة الركنية عمل فني رائع! وهذه المكتبة المصنوعة من خشب الأجاص المسود، أليست من صنع «فوردينو»؟

فأجابتها «صوفيا» بالإيجاب معترفة؛ وسعيدة لأنّ مشترياتها حظيت بتقدير امرأة، هي بالطبع خبيرة بالأشياء الجميلة.

وبعد ذلك، سرّت «ديلفين» كثيراً بالأشياء التي جلبتها «صوفيا» من روسيا، وأبدت إعجابها الشديد بها: محبرة من مادة «الدهنج» قاعدتها من النحاس الأصفر، بعض التماثيل الصغيرة المصنوعة من البورسلين والتي تمثل فلاحين روس وهم يرقصون، مجموعة من الصور تمثل مناظر من مدينة «سان بطرسبورغ» سنة ١٨١٢».

وسألتها «ديلفين».

- ما هذه الساحة؟ وما هذا الجسر؟

وأعطتها «صوفيا» بعض المعلومات عنهما، بزهو غريب. وتذكرت ذلك الوقت الذي كانت تجمع فيه، أثناء إقامتها في «إيسبا» سيبيرية، بعض صور باريس التذكارية. أفلا يتوقف أبداً، هذا التأرجح، في ذهنها، من بلد إلى آخر. وفجأة، شعرت بالغبطة تغمرها، لكونها التقت مع صديقة لها، وأنها لم تعد وحيدة في فرنسا، وستستطيع، من الآن فصاعداً أن تتبادل الآراء والانطباعات مع شخص ينتمي إلى جنسيتها نفسها، وإلى طبقتها، وهو في مثل سنها. واتفقت مع «ديلفين» على اللقاء في اليوم التالي.

★★★

كانت «صوفيا» قد فقدت تماماً عادة معاشرة الناس والاختلاط بالمجتمعات، لدرجة أنها عندما دخلت إلى صالون الأميرة «ليفين» الكبير، المطلية جدرانه باللونين الأبيض والذهبي، دهشت كثيراً بعدد الأشخاص المجتمعين فيه. وكانت تتزاحم أمامها تحت أضواء الثريات الفساتين المثقلة بالمواد التزيينية، والتي تترك الأكتاف عارية، وتتسدل نحو الأسفل، فتعطي للنساء منظر كأس الزهرة المقلوبة. وفي تحرك الحرير والبروكار والأقمشة الأخرى المتموجة والبراقة، كانت ملابس وبزات الرجال، الرسمية «الفراك» تبدو مختلفة ومتميزة بلونها الأسود الداكن، وبتفصيلتها الحادة والجلية المستوحاة من «قرن الفاصوليا». وكان عطر المساحيق الساخنة ومثبت الشعر. يطفو متموجاً فوق الرؤوس، وتمتمة الأحاديث المستمرة لها طابع التهذيب العالي المستوى، طعم العسل الذي لا تنضب حلاوته.

وكان هناك مناد يقف عند الباب، ويعلن بأعلى صوته أسماء القادمين.

وكان بعض الخدم الذين يضعون الباروكات على رؤوسهم، والجوارب البيضاء في أرجلهم يقدمون للضيوف المرطبات المتنوعة الألوان. وأخذت

«صوفيا» تتساءل، وهي تجول ببصرها على الوجوه، فيما إذا كان هذا الفستان المزين بالدنتيلا الخمرية اللون، والمتعدد الطيات، الذي أنجزته لها، عشية ذلك اليوم، السيدة «لويز بيرسون» الخياطة المعروفة، مناسباً ولائقاً للظهور في هذا الصالون الراقي. وزينة شعرها، الزاهية، اشترتها من مخزن «أليكسندرين». وقفازها الطويل من محلات «ماير»، ومروحتها من دكان السيدة «دوفيللورويّ». ومنذ زمن طويل، لم تشعر بمثل هذا التناسق في الملابس والهندام. وعندما لمحتها «ديلفين»، أرسلت صيحات الإعجاب.

فقالت لها «صوفيا» وهي تتأمل فستان صديقتها المصنوع من التفتة الحريرية، الخضراء اللون، والمزين بأزهار اصطناعية من الشاش الأصفر الفاتح:

- أنت، أيضاً زينتك مدهشة.

وقالت «ديلفين»:

- الفستان ليس سيئاً، ولكن الطيات المحشية كبيرة الحجم وثقيلة! وهي تعيقني عندما أمشي! ولكن، هيا، تعالي بسرعة، فالأميرة تنتظرك، وتريد أن تراك، في الحال!

وأمسكت يد «صوفيا» واقتادتها نحو عمق الصالون، حيث كانت امرأة عجوز نحيلة الجسم، مستلقية تقريباً على أريكة طويلة، تشبه السرير، وبدت لـ «صوفيا» مهيبة، بنظرتها الحادّة والنفاذة، وشعرها الأبيض الجميل. وكان فستان من المخمل الأسود يغلف جسمها من العنق إلى الكاحلين. وعلى صدرها تلمع الحروف الماسية الأولى لاسمها، كإحدى الوصيفات الفخريات للإمبراطورة «أليكسندرا فيدوروفنا». وكانت تحيط بها حاشية قليلة العدد من السادة المسنين، الذين بدا عليهم الجد والوقار. وقدمت لها «ديلفين» «صوفيا» وانسحبت، بعد أن انحنت تحية للأميرة. وتفحصت الأميرة القادمة الجديدة، بهدوء، من أخمص قدميها إلى رأسها، ودعتها إلى

الجلوس بالقرب منها على أحد الكراسي، وقالت لها بالفرنسية، وبصوت أجشّ:

- أنا مسرورة جداً، لرؤيتك، أيتها السيدة، في منزلي، فأنت ستطلعينني على أخبار بلادي.

فقالت لها «صوفيا» وهي تبتسم:

- أعتقد، أيتها الأميرة، أنك تعرفين أكثر مني، عما يحدث في روسيا ليست في العاصمة، بل في أمكنة أخرى. حتى إنّ البعض يدعون، أن علينا، في أيامنا هذه، أن نبحث عنها فيما وراء جبال «الأورال»!

فتعالت بعض الضحكات من السادة المحيطين بالأميرة، فأضافت، مسرورة بالتأثير الذي أحدثته عباراتها:

- لا يزال هناك بعض الأشخاص الأعزاء على قلبي: «آل تروبتزوكوي» و «آل فولكونسكي». فماذا تعرفين عنهم؟

وأجابتها «صوفيا» بأنها تجهل ماذا حصل معهم بعد مغادرتها سيبيريا، ولكنها روت لها، بأبسط ما أمكنها من عبارات، كيف كانوا يعيشون سوية أثناء وجودها، في «تشيتا» وفي «بيتروفسك». وتأثرت الأميرة كثيراً بما سمعته من «صوفيا»، وقالت:

- هذا شيء معيب! فأياً كانت خطيئة هؤلاء الفتيان، فكان ينبغي على الإمبراطور أن يعفو عنهم، منذ زمن طويل! فعناده غير معقول، ظالم، ومخالف لتعاليم الديانة المسيحية!

فوافق على رأيها السادة المحيطون بها، ودهشت «صوفيا» لأنّ شخصاً مقرباً إلى تلك الدرجة من العائلة الإمبراطورية، يصدر، بصورة علنية، حكماً بهذه القوة على الإمبراطور. ولأنها خشيت من أن يكون هنالك خدعة أو فخ، فلم تضف شيئاً، على ما قيل. وكما لو أن الأميرة قد استاءت من هذا الحذر الذي أبدته «صوفيا»، فقد انحنت نحوها، وتابعت بصوت خافت:

- تعلمين، أيتها السيدة، أني أنا أيضاً، بطريقة ما، معذبة وأتعرض للاضطهاد والإمبراطور غاضب وناقم عليّ لأني لا أعود إلى روسيا. وقد عمل كل ما بوسعه لكي يرغم زوجي على إعادتي إلى هناك. ولأني أصريت على الرفض، فقد أجبره على الانفصال عني. والآن، فقد رضخ «نيقولاي الأول» واقتنع بهذا الوضع: وتركني وشأني، هنا حيث أقيم، وهو يقرأ الرسائل التي أكتبها وأرسلها إلى الإمبراطورة، ويستغلها لمصلحته، ولكنه، بالأساس يكرهني كثيراً!

فقالت «صوفيا»:

- إني أجد صعوبة في تصديق ذلك، أيتها الأميرة.

- بلى، بلى، إنه يكرهني! وهو رجل غير عادي، أكثر ذكاء وأكثر قوة مما يظن البعض، ولكنّ حقده يعميه: فهو لا يعرف التسامح، ولا يغفر لأحد أيّ خطأ! وقضية أصدقائك، متمردي كانون الأول، شاهد على كلامي، وهي لن تكذبني!

- أتظنين أنه لم يبق لهم أي فرصة للحصول على العفو؟

- لقد تحدثت عنهم مئة مرة في رسائلي إلى الإمبراطورة، وأعدك بأني سأفعل ذلك مرات أخرى، وسيكون ذلك عبارة عن جهد ضائع، ويا للأسف! وقطع عليهما الحديث مدعوون آخرون، أتوا ليسلموا على ربة المنزل، فقدمت البعض منهم إلى «صوفيا». وكانت الأسماء الكبيرة والمشهورة الفرنسية تتناوب مع الأسماء الكبيرة والمشهورة الروسية. وسمعت «صوفيا» بعضها: «دولفوروكف»، وتورغينيف»، «امولوف»، «شوفالوف» «ديميدوف»، ودهشت كثيراً، لآن هذا العدد الكبير من رعايا القيصر، يقيمون في باريس. وجميعهم كانوا يرتدون ملابس من أحدث الأزياء، ويتكلمون الفرنسية بمتعة ونشوة، ويلثغون بالراء، على طريقة أهل باريس. ويبدو واضحاً أنهم يجهدون أنفسهم ويستغلون مواهبهم، لكي يثبتوا أنهم باريسيون تماماً. وكان ينتج عن ذلك انطباع مضحك يصعب تحمله.

واقترب من «صوفيا» رجل مسنّ محني الظهر، أجرد الوجه، عيناه حالمتان، مستنداً بكل ثقله على عصا مقبضها من ذهب. فعرفت «صوفيا» أنه «نيقولا تورغينيف» الذي عرفتها عليه الأميرة قبل خمس دقائق. وانتحى بها جانباً، لكي يحدثها عن أصدقائها الذين مازالوا في سيبيريا.

فخيل لها أنه يريد أن يبرّر تصرفه أمامها لكونه تواجد في الخارج يوم حدوث التمرد. وتذكرت «صوفيا» وهي تصغي إليه، الشرح الذي قدمه لها «فاسيا فولكوف»، وهو بادي الارتباك: كان كلاهما يعانيان من مرض واحد: فبعد نجاتهما من العقوبة التي تعرض لها المتمردون أخذ كل منهما يشعر بالعذاب وبتبكيت الضمير، لأنه كان أوفر خطاً من رفاقه، ولكنّ «نيقولاي تورغينيف» كان يختلف عن ذلك البائس، «فاسيا» فهو أكثر أهمية، وأثقل وزناً منه، كانت نظرته تشع ذكاءً، وينبعث منه لحن يعبر عن الهدوء والاستقامة والتصميم، وروى لها، ببضع كلمات كيف تلقى أمر القيصر، عندما كان لاجئاً في «ايدنبورج»، بأنه يجب عليه أن يمثل أمام لجنة التحقيق، بسبب تورطه مع متمردي كانون الأول، وكيف رفض مغادرة انكلترا، وكيف حكم عليه بالإعدام، ثم بالأشغال الشاقة المؤبدة، غيابياً. ومنذ ذلك الحين، استقرّ في فرنسا، وهو يقيم في دارة تقع بالقرب من «بوجيفال». والفكرة الثابتة التي تلازمه هي إلغاء العبودية في روسيا، وهو يأمل أن يساهم بكتاباته في تحقيق هذا الإصلاح.

وقال:

- لقد نشرت منذ ست سنوات، باللغة الفرنسية، كتاباً، أحدث ضجة: «روسيا والروس» وسأرسل لك نسخة منه. وقد درست فيه جميع الأمور التي لا تسير بشكل جيد في بلادنا، وقد أتيح لي عبر ذلك أن أكرم أصدقائي «متمردي كانون الأول»...

وعندما سمعت كلامه السيدة «غريبوف» الشقراء، ضمت يديها وصاحت: يحب بلاده كثيراً، اقرئيه، إنه كتاب مدهش يثير الإعجاب! والرجل الذي يحب بلاده كثيراً، هو وحده الذي يستطيع أن ينتقدها بهذا الشكل!

والتفتت نحو «صوفيا» وأضافت:

- أتعلمين أني، أنا أيضاً، قريبة جداً من بعض «متمردي كانون الأول»؟

فأنت، بالتأكيد، قد تعرفت، عندما كنت في سيبيريا، على «يوري ألمازوف» وأنا ابنة أخته. وبالطبع، كنت أصغر سناً من أن أتذكره، عندما ألقي عليه القبض. ولكن أمي حدثتني كثيراً عنه، وأود أن أطلب منك حظوة: فأنا يسرني جداً أن تأتي لتناول طعام العشاء في منزلنا، في مساء الثامن عشر من شهر حزيران «يونيو» القادم. وإكراماً لذكرى «يوري ألمازوف» قبلت «صوفيا» الدعوة، بسرور وعندما ابتعدت السيدة «غريبوف»، مسرورة لأن رغبتها تحققت بسهولة، همس «نيقولاي تورغينيف»:

- إنها كاثوليكية المذهب!

فتمتمت «صوفيا» دون أن تبدي أي دهشة:

- آه! هكذا إذن؟

- أعني أنها كانت أرثوذكسية، وأنها طلبت إعادة تعميدها كاثوليكية، ليس وحدها، بل هي، وزوجها وابنها... وليس هؤلاء وحدهم، هم الذين غيروا مذهبهم! فقد فعل ذلك أيضاً الأمير «غاغارين» والكونت «شوفالوف» و «نيقولاي!... ويوجد في فرنسا «عشيرة» صغيرة بكاملها، من الروس الذين غيروا مذهبهم - والله وحده يعلم لماذا فعلوا ذلك - وفي مقدمتهم تأتي السيدة «سويتشن» الفاضلة جداً، وبالتأكيد، لقد سمعت بها! فقالت «صوفيا»:

- نعم، فقد وصلت شهرتها إلى روسيا، ويقال أنها كالقديسة...

- إنها قديسة، جريئة وشجاعة، وتقوم بالتبشير للدين. وعندما تذهبين لزيارتها، تسألك عن أخبار روحك، كما لو كانت تسألك عن رشحك الدماغي.

لاحظت «صوفيا» أنّ في رأي «نيقولاي تورغينيف» بالروس الأرثوذكس الذين تحولوا إلى المذهب الكاثوليكي، شيئاً من القسوة والجفاء. وهذا أمر يمكن تفهمه من رجل، وإن كان قد هاجر إلى فرنسا، فهو يعتقد أنه روسي أكثر من أبناء وطنه الذين ظلوا مقيمين هناك. ومن المؤكد أنه يوجد بين أفراد هذه الجالية المتألقة والعاطلة عن العمل، خصومات، وغيرة وخلافات في الأفكار، يغطيها بشكل ما، طلاء وستار الأدب، والمجاملات الفرنسية وجميع هؤلاء النبلاء والأثرياء الروس، المتنكرين بأزياء الشباب المتأنقين، وجميع مالكي الأرض والعبيد، هؤلاء، لا بد من أنهم يبحثون في باريس عن ثقافة أكثر نقاءً، وعن حياة أكثر هدوءاً وعذوبة، وعن حرية أكثر اتساعاً، ولكنهم يستعملون الغش ويخدعون أنفسهم. لأن أساس طباعهم يظل روسياً، وبمغادرتهم بلادهم، فهم يتبنون طرق وأساليب المجتمعات العالمية، ولكنهم يظلون خاضعين للآراء والمعتقدات السائدة في وطنهم البعيد.... وتوقفت «صوفيا» في وسط أفكارها هذه، وقد أدهشتها قسوة هذه الأفكار، وعدم انسجامها وتجانسها. وحيال هؤلاء المنفيين، طوعاً أو كرهاً، كانت تشعر تارة بأنها متشددة، كروسية حقيقية، لا يمكن أن تغفر لأبناء وطنها تفضيل مسرات «الغرب» على مسرات بلادهم الأصلية التي ولدوا فيها، وتارة تبدو حذرة كفرنسية، تكره الأجانب وتتألم عندما ترى غرباء وأجانب يقيمون على أرض بلادها. وعندما سألها سيد عجوز متميز جداً، عما يعرض على مسارح «سان بطرسبورغ» في الموسم المسرحي الأخير، اعتقدت أن هذا لرجل الذي يسألها هو روسي، وعرفت فيما بعد، وهي خجلة، أنه الكونت «دوسانت أولير».

وبالمقابل، فإن سيدة متوسطة العمر، شديدة الحيوية، وقبعتها مزدانة بالريش، ظنّت «صوفيا» أنها فرنسية، ولكنها التفتت، بسرعة واهتمام عندما سمعت من يناديها باسم: «نستاسّيا كونستنتينوفا» وهكذا، كانت فرنسا وروسيا تتبادلان الأقنعة. وكان ذلك مجتمعاً من نوع خاص، وكانت «صوفيا» هي عرافته. وحدثت جلبة وحركة كبيرة في القاعة: وسرى الهمس: لقد وصل الكونت «لوي موروني» ولكن الحاجب، المنادي على الباب، صحح خطأ الجميع، معلناً اسماً مجهولاً، دون أي لقب من ألقاب الأسر الأرستقراطية. وأخذت «ديلفين» تشكو، قائلة:

- ومع ذلك، فقد وعد بأن يأتي. كنت أريد أن أسأله فيما إذا كان صحيحاً أن الإمبراطورة تريد توزيع مئة ألف فرنك على الجمعيات الخيرية التي تساعد الأمهات المعوزات.

فقال «نيقولاي تورغينيف»

- إذا لم يأت، فإن «غيزو»؟ «غيزو» سوف يأتي.

- وماذا تريد أن أعمل بـ «غيزو» هو الماضي!...

- الماضي الذي يمكن أن يبعث حياً، من رفاته!

- صه! لو أن أحداً سمعك!

فسألت «صوفيا»!

- وهل من الممكن أن يلتقي هنا، السيد «غيزو» مع «موروني»؟

فقال «نيقولاي تورغينيف»:

- إيه! نعم، يا سيدتي العزيزة، وهذه معجزة تحققها أميرتنا. فجميع الذين كانوا أصدقاءها في الماضي، وفي مقدمتهم «غيزو» كانوا بين من هزموا في انقلاب - كانون الأول «ديسمبر». وبعد الإعلان عن قيام نظام الحكم الإمبراطوري، كان بإمكانها أن تغلق منزلها في وجه المنتصرين، وترفض استقبالهم. ولكنها شديدة الرغبة بالحصول على المعلومات.

ولا تستطيع العيش إذا لم تستنشق شذا القضايا العامة، الطيب. ولذلك، فقد دعت إلى صالونها القادة الجدد، دون أن ترفض القدماء أو أن تتخلى عنهم. ولإرغامهم على الاجتماع، كلهم، حول أريكتها، فلا بد من حصافة وحس سليم، وأسلوب دبلوماسي، وهي مواهب، لا يتمتع بها سوى قلة من النساء!..

وبينما كان يتحدث أخذ يقترب من الأريكة الكبيرة التي تجلس عليها الأميرة، وهي، كعادتها، نصف مستلقية، وبيدها مروحة من غالية الثمن، تحركها بهدوء أمام صدرها النحيل.

وقالت، وهي ترفع رأسها الصغير، الذي يشبه رأس الأفعى، فوق عنق طويل هزيل:

- أي مؤامرة، مازلتم تحيكون؟

فقال:

- كنت أحدث السيدة «أوزاريف» عن مجتمعنا الروسي الكائن في باريس، وأقدم لها التكريم، باسم هذا المجتمع.

فردت الأميرة:

- ليس هنالك ما يدعو للفخر! فعيوب كل امرئ تبرز، عندما يغترب، ويقيم خارج بلاده، وأنا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع، بعد أن أمضيت ثلاثة أرباع عمري، خارج بلادي. ولكن، ماذا تريدون؟ فأنا لا أشعر أني بخير، وعلى ما يرام، إلا في فرنسا. فهل الذنب ذنبي إذا كنت لم أولد هنا؟

وتنهدت، ووضعت يداً باردة كالضفدع على يد «صوفيا»، وتابعت كلامها:

- إني آسفة، لأن عزيزتنا «واندا دوكوزاكوفسكا» لم تستطع الحضور اليوم! كان بإمكانك أن تحدثيها عن أختها، الأميرة «تروبيتزوكوي»!..

فسأل الكونت «دوسانت أولير»:

- وأين «واندا»؟

- في «نيس» على ما أعتقد.

- في هذا الفصل؟

- نعم، إنها فكرة غريبة! ستعود إلينا وقد شوهتها شمس الريفيرا. وهل تعلمين، يا سيدتي أنها هي التي حثّت السيد «ألفريد دوفيني» على نظم قصيدته عن «متمردي كانون الأول»؟

فتمتمت «صوفيا»

- قصيدة عن «متمردي كانون الأول»، إني لم أسمع بها، أبداً..

فسرت الأميرة «دوليفيين» لكون «صوفيا» تجهل أمر هذه القصيدة وأخذت تتحدث، بحماسة، في حين أنك إحدى المعنيات، والمقصودات الرئيسيات، بما جاء فيها؟.. لا، هذا كثير!.. وغير معقول. مع أن هذه القصيدة نظمت منذ خمس أو ست سنوات!.. ولكنها، بالحقيقة، لم تنشر بعد!.. ولكن، لدي نسخة منها مكتوبة بخط اليد، فهل تريدين الاطلاع عليها؟

ودون أن تنتظر جواب «صوفيا» أجبرتها على الجلوس بقربها، وقالت لإحدى الفتيات، التي لا بد أنها أمينة سرها:

- اذهبي بسرعة إلى مكتبي. افتحي الدرج اليساري، تجدين فيه ورقة كبيرة.. فعادت الفتاة ومعها القصيدة، فطلبت الأميرة من «نيقولا تورغينيف» أن يقرأها. فجلس مسترخياً على إحدى الأرائك، ومد ساقه المريضة على أسكملة. فتجمع حوله بعض المدعويين. وبعد أن سعل ليجرد صوته، بدأ يقرأ بلهجة فيها شيء من التفخيم والإطناب. وكانت القصيدة على شكل حوار، في حفلة راقصة، بين شاعر فرنسي، وشابة روسية، تدعى «واندا». وعندما يسألها الشاعر، تروي له «واندا» كيف أن أختها،

وهي أميرة، قررت أن ترافق زوجها إلى سيبيريا، لكي تشرب هناك، صباح كل يوم دموع الواجب». وقد وصفت معاناة وآلام السجن بعبارات عنيفة وملتهبة:

«التعب أحنى صدره المسحوق،

والبرد ورم رجليه على تلك الطرقات الوعرة،

والثلج ينهمر بغزارة على رأسه الحليق،

وهو يحطم قطع الجليد على ضفاف المستنقعات»..

ومع متابعة قراءة القصيدة، كانت «صوفيا» تشعر بمزيد من الضيق والانزعاج، بسبب المغالاة والتفخيم في الأسلوب، وزيف الصور، وتشوهها، ولكونها شاركت المتمردين في المنفى، فهذه المشاركة جعلتها حساسة، بشكل مرضي لكل تشويه يطرأ على الحقائق. وهي تعرف حق المعرفة أن هذا العمل قد كتب لتمجيد أصدقائها، ولكن المبالغة الشعرية والحماسية في هذه القضية كانت تصدمها بقوة أشد من القوة التي كان يمكن أن تصدمها بها اللامبالاة، وعندما كانت تسمع الكلام عن «قبر عامل المنجم». وعن المرأة التي تسند ذراع زوجها الذي يحمل «الحربة» وعن قماش الكتان الذي نسجته ليكون «كفناً لأحد الأموات»، تثور في ذهنها، حارة جداً، ذكريات «تشيتا» وتحتج. وكانت تتصور ذهاب المتمردين للعمل، حاملين معهم معدات و «زوادة» النزهة، و «نيقولا» و «يوري ألمازوف» وهما يلعبان الشطرنج على إحدى الحجارة، عند ضفة النهر، والجنرال «ليبارسكي» وهو يحتسي الشاي مع مساجينه، والنزهات بالعربة مع «بولين أنانكوف»، و «ماري فولكونسكي» و «نتاليا فونفيزين» كل هذا المزيج من الصداقة والحنين والأمل، والقهر، كل تلك السعادة على الرغم من بؤس المصيبة وشقائها، كل هذا، يستطيع وحده أن يتفهمه، المخلوق الذي عاش هناك.

ومع ذلك، كان «نيقولا تورغينيف» يقرأ آنذاك بأعلى صوته، وقد قطب حاجبيه، جواب الشاعر الغاضب، بسبب المعلومات التي أدلت بها الشابة «واندا»:

«بينما تتحدثين، كنت أشعر في عروقي

باللعنات وهي تغلي بصخب يصم الآذان.

أنتن لا تلعن، أنتن أيتها النساء الشجاعات، كالرومانيات!

تحملن نيركن، وتصبرن على الظلم، وأنتن صامتات

بطلات شهيرات، تنمن في قبوركن، وتؤيّدن العبيد في أعماق المقابر الجماعية»...

كانت الأنظار متجهة نحو «صوفيا» والجميع يراقبونها ويترصدون انطباعاتها وردود فعلها. وكانت هي، تشعر بذلك وتتألم لكونها تُعرض هكذا كمشهد على مسرح. كانت كل زوجات متمردي كانون الأول وهي نفسها، اللواتي كان المؤلف يشبههن، عبر أخت «واندا» ومن خلالها، ببطلات العهود القديمة. وكانت تشعر أنها لا تستحق هذا التكريم. فهل قامت بعمل بطولي خارق للعادة بالتحاقها بزوجها في المكان الذي أبعد إليه؟ ولماذا يتم تحويل «كاترين تروبتزوكوي» ورفيقاتها إلى تماثيل للواجب، بينما هن مخلوقات من لحم ودم، بما لهن من شجاعة ومن نقاط ضعف؟

وفجأة، شعرت برغبة قوية، بأن تصرخ: «هذا ليس صحيحاً! لم نكن عظيمات إلى هذه الدرجة، ولا إلى هذا الحد من الاستقامة والنبل، ولا نزيهات ومترفعات إلى هذا الحد! وحياتنا كانت أقل مأساوية! وأشد حزناً في البساطة والفقر والحاجة، وعبر مظاهر الغيرة والحسد، البسيطة، والسأم اليومي، وانحطاط المشاعر والعواطف، وإنهاك الطباع وتعرضها للضعف! وبماذا يتدخل السيد «ألفريد دوفيني»، وأين يدس أنفه، بإلهاماته الشعرية المفخمة؟ فليدعنا وشأننا وليسكت! ولكن، لم يعد لها الحق بأن

تدمر تلك الأسطورة التي تغيظها، فليست هي وحدها المقصودة بها. وأصدقاؤها الباقون هناك، لا يزالون بحاجة لهالة الشهداء.. وربما يكون العفو عنهم، وعودتهم إلى روسيا، عائداً، ذات يوم إلى هذه الأحاديث ولهذه الدعاية الشعرية التي تذاع حول مصيبتهم وحظهم العاثر. وبهذا الخصوص فكل ما يمكن أن يجعلهم جديرين بالعطف وبالشفقة وبالتكريم، جدير بالتشجيع، وينبغي تأييده، وتبادر إلى ذهنها: «وسحقاً للحقيقة! إذا كانت سعادتهم تتحقق لقاء أكذوبة»! ومرة أخرى، كما في «توبولسك» وبدافع التضامن معهم، تخلت عن نفسها، وعن شخصيتها الحقيقية. ولأنها أسيرة أسطورة، نسجت حولهم جميعاً، فينبغي عليها أن تتحمل حتى النهاية عار كونها قدرت كأكثر ما تستحق. والآن، وفي خاتمة انتقامية، يهاجم الشاعر «نيقولاي الأول» الذي على الرغم من مرور الزمن، يرفض أن يعفو عن المتمردين:

«صامت أمام جيشه الصامت،

القيصر، وهو يقيس متأملاً، الدرع والرمح،

يستعرض جيشه، ويظل صامتاً، على الدوام.

وانتهت القصيدة، فأخذت السيدات تتنهد خلف مراوحهن.

ومخطت «ديلفين» بتأثير وانفعال، ثم تعالت، متقاطعة، الصيحات والهتافات:

- إنه عمل عبقري! مثير، يمزق القلوب!

- يجب أن أحصل على نسخة من هذه القصيدة!

- «فينيي» شاعر عظيم!

- أنا أفضل «هوغو»!

- ألأنه ابتعد، منفياً، بملء إرادته؟

ووجهت الأميرة «ليفين» السؤال إلى «صوفيا» »:

- إيه، حسناً، والآن، ما رأيك بهذه القصيدة؟ هل اللوحة مشابهة للواقع؟

فكّمت «صوفيا» إرادتها، وحاولت أن تبتسم، ثم تمتمت:

- إنها قصيدة جميلة جداً... وربما أجمل مما ينبغي... أخيراً، أعني... أننا لا نستحق هذا التكريم... فبعد كل حساب، نحن لم نقم سوى بواجبنا كزوجات...

فصاحت الأميرة «دوليفيين»:

- دعك من ذلك! لقد كنتنّ مدهشات وأثرتنّ الإعجاب، ولكن لا يعود الحق لكن بتقييم ما قمتن به، والحكم عليه. وفيما يتعلق بالقصة، اعتقد أنّ السيد «ألفريد دوفيني» قد تصرف بها بعض الشيء وأجرى عليها نقلة فنية، مضفياً عليها مسحة رومانسية. ويمكن أن يتأثر كثيراً لو علم أنك، أنت القادمة من سيبيريا، بعد نجاحك من سجونها، معجبة بشعره، وتقدرين قصيدته حق قدرها. فهل تريدين أن أرتب لك مقابلة معه؟

فتمتمت «صوفيا»:

- كلاّ، كلاّ، وشكراً لك.

- لماذا؟

- لا أدري... إن ذلك، ربما يربكني...

واستاءت... لأنها لم تجد عذراً أفضل لتهربها من مقابلة الشاعر. وهؤلاء الرجال، والنساء، الذين تجهلهم، والذين ينظرون إليها، يتأملونها بجشع، جعلوها تفقد، فجأة كل طمأنينة، وثقة بالنفس، ولحسن الحظ، فإن الأميرة «دوليفين» وقد لاحظت اضطرابها، أشفقت عليها، ووجهت مجرى الحديث نحو موضوع آخر، قائلة: إن الخلافات الحديثة العهد بين روسيا والباب العالي، بشأن موضوع حماية القيصر للمسيحيين اليونانيين في الإمبراطورية العثمانية، وإن كان الأمير «منشيكوف» قد وجه إنذارا إلى السلطان، بشأن هذا الموضوع، وأن الإنذار قد رفض، فليس هناك ما يحمل

على الاعتقاد، بأن الحرب يمكن أن تنشب بين الدولتين. وأضافت الأميرة «ليفين»:

فالأتراك لن يتحركوا، إذا لم تدعمهم فرنسا، وفرنسا لن تتحرك، لأنه لم يسبق لنظام حكم، أقيم حديثاً، ولم يدعّم قواعده بعد، إن انطلق في مغامرة عسكرية، في حين أن حدوده ليست مهددة.

وهذا الرأي كان من الوضوح، بحيث إن الجميع اقتنعوا به، والكونت «دوسانت أولير» وحده تجرأ على القول:

- أنت تتكلمين عن فرنسا، وتنسين إنكلترا، أيتها الأميرة. وهي ليس لديها الهموم والمتاعب الداخلية نفسها التي نعاني منها نحن. ويبدو لي أن اللورد «سترا تفورد دوريدكليف» مصمم تماماً على التصدي، في القسطنطينية، لمقاصد وغايات روسيا، ومعارضتها. وبقيامه بذلك، فهو لا ينصاع لخط واتجاه الدبلوماسية البريطانية، العامين، وحسب، بل أيضاً إلى كراهيته الشخصية لـ «نيقولاي الأول»، الذي سبق له، إن لم أكن مخطئاً، أن رفض الموافقة على قبوله سفيراً لبلاده في «سان بطرسبورغ»...

فصاحت الأميرة «دوليفيين»:

- لو كنت مكان القيصر، لفعلت مثلما فعل، إذا إن «ريركليف» هذا، شخص كئيب ومشؤوم. فعندما أتى إلى باريس، جعلتني رؤيته أرتجف، وعلاوة على ذلك، كان يضع ربطة عنق سوداء وخضراء يوم الأحد، عندما أتى إلى صالوني، بينما أنتم جميعكم بذوقكم السليم أيها السادة تضعون ربطات عنق بيضاء!

فقهقه الحاضرون بالضحك، واستأنفت الأميرة كلامها:

- كلاّ، لن يحدث نزاع مسلح، وكل ما سيحدث لن يكون سوى مفاوضات ومساومات بين الدبلوماسيين. فقد أكدّ لي ذلك اللورد «أبيردين» في رسالته الأخيرة.

ولأن بعض الرجال الحاضرين المهتمين بالسياسة والمتشوقين إلى أخبارها يعلمون أنّ المراسلة مستمرة بين رئيس وزراء بريطانيا وبين الأميرة، فقد أحاطوا بها عن قرب، وكأنهم ينحنون على منهل للماء. فاغتنمت «صوفيا» فرصة هذه الحركة لكي تبتعد. وعبر سدّ كثيف من البزات الرسمية السوداء، أخذت تسمع ترديد بعض الأسماء، التي أخذت تتكرر دائماً: «فنشكيوفّ»، «ريدكليفّ»، «نيسّيلرود»، «عبد المجيد»... وكانوا قد نسوا «متمردي كانون الأول»، فلم يعد يحسب لهم حساب يذكر، آنذاك عن الحديث عن تحركات شعبية واسعة النطاق.

والتقت «صوفيا» بدلفين، ضمن حلقة من السيدات، يتحدثن عن الأزياء، والمسارح، وهنا أيضاً، لم تشعر بالارتياح. وتبين لها آنذاك، وفي نهاية الأمر، أنها تشعر بشيء من الغربة، لوصولها حديثاً إلى فرنسا. وكما يفرض المرء على نفسه وجوب الانضباط، والتقيد بنظام معين، فقد اضطرت إلى البقاء، نصف ساعة أخرى، متحدثة إلى هذا وإلى ذاك وهي تبتسم وتتظاهر بالاهتمام، بينما كان ذهنها شارداً. وأخيراً، ودّعت الأميرة، واستأذنت منها بالانصراف، فأثنت عليها الأميرة كثيراً، وطلبت منها أن تعود لزيارتها، كلما رغبت بذلك. وكانت تهم باجتياز عتبة الباب، عندما صاح المنادي:

- صاحب السعادة، الكونت «دومرني».

فسرت حركة في الصالون، واصطفّ المدعوون على الجانبين، ولمحت «صوفيا» رجلاً يرتدي الملابس السوداء، وجهه نحيل وشاحب، بارز الجبين، يمشي منتصب القامة، كالعسكريين. وعند مرور أخ الإمبراطور، غير الشقيق، كان السادة الحاضرون ينحنون قليلاً، والسيدات يبدين له ابتسامات جذابة.

أما هو، فذهب مباشرة نحو الأميرة «ليفين»، وقبّل يدها. ثم حجبها الجمهور عن عيني «صوفيا». كان النشاط في تلك الأمسية قد بلغ ذروته.

وعلى المقاعد الصغيرة والمنخفضة تجمعت النساء، حسب ألوان فساتينهن، على ما يبدو، وليس حسب الألفة والمودة، التي يفرض أن تجمع بينهن عادة، والرجال كانوا يقفون، بملابسهم الرسمية السوداء، متصلبي القامات، والأوسمة بارزة على صدورهم، مزهوين، وهم يتحدثون فيما بينهم. وعلى جميع الوجوه، حتى، الأكثر تقدماً في السن، كانت الملامح متوترة، تبدو عليها الإثارة، كوجوه الممثلين، الذين يقومون بأدوارهم، على المسرح. وتسللت «صوفيا» بين تلك المجموعات، ووصلت إلى أعلى الدرج الكبير، الذي تحيط به أصص الأزهار والنباتات الخضراء، وأخذت جلبة الأحاديث تخفت خلف ظهرها. وهناك غمرتها برودة عذبة. وكان هنالك زوجان قد وصلا حديثا، أخذا يصعدان الدرج، متجهين نحوها، فأعجبت بالمرأة الشابة التي ترتدي فستاناً للسهرة، يكشف عن عنقها وكتفيها، وذيله الحريري، ينساب، ويرسل الحفيف، عند كل خطوة تخطوها، والتفتت، هي عند مرورها، أمام مرآة معلقة هناك! وطلبت من أحد الخدم أن ينادي لها سائق عربتها.

٣

وبعد أن انتظرت «صوفيا» زهاء أسبوع، تأكد لها أنّ «نيقولا» «تورغينيف» نسي ما وعدها به، وقررت أن تشتري، بنفسها كتاب: «روسيا والروس» الذي حدثها عنه. ولأنها لا تعرف بأي مكتبة يمكنها أن تجده، فقد اتجهت، دون أن يحدوها أي أمل نحو شارع «يعقوب» ودهشت كثيراً عندما وجدت المكتبة هناك، مفتوحة الأبواب. وخلف زجاج الواجهة، الذي يغطيه الغبار، بدت مصفوفة، كما في الماضي، كتب، البعض منها أغلفتها بالية. وكان يستحيل عليها أن ترى ماذا يحدث في الداخل. فدفعت الباب، وتلقت كقطرة الماء على رأسها، رنين الجرس، ورأت امرأة شابة، وجهها ينم عن المرض، وثيابها مهملة وبالية، وقد تجمع حولها أربعة أطفال، أصغرهم يمكن أن يكون في الثانية من عمره، والكبير في الثانية عشرة تقريباً.

وسألتها «صوفيا»:

هل السيد «فافسور» موجود هنا؟

فقالت المرأة، وهي تتقدم نحوها لتستقبلها:

- كلا، يا سيدتي.

- أنا أحدى صديقاته القدامى، وأودّ الحصول على أخباره. فربما كنت تستطيعين...؟

فهزت المرأة رأسها بالنفي، وبدا الخوف في نظرتها، بينما أمسك اثنان من أطفالها بطرف فستانها والتصقا بها. ولأنها ظلت صامتة، فقد أخذت

«صوفيا» تتساءل عن هويتها، ومن يمكن أن تكون: أهي أحدى قريبات «فافسور»، أم جارة مكلفة بحراسة المكتبة؟ وتابعت الكلام:

- لا بد أنّ السيد «فافسور» قال لك أين يمكن أن نجده! هل أنت إحدى قريباته.

- أنا زوجته.

- فذهلت «صوفيا» مستغربة ذلك إذ إنّ المرأة التي تتحدث إليها تبدو في الثامنة والعشرين من عمرها، بينما يقف «فافسور» على عتبة الستين. وعلى أي حال فقد كان مستغرباً أن يرضخ ذلك الأعزب النّفور والفظ، ويرضى بأن يتزوج.

وأخيراً، قالت لها «صوفيا»:

- لكم أنا سعيدة بالتعرف عليك! ربما يكون قد حدثك عني؟ أنا «صوفيا أوزاريف»... أو «صوفيا دوشامبليت» إذا كنت تفضلين...

فانفجرت أسارير وجه السيدة «فافسور» المتعب، وصاحت، وهي تبتسم:

- أوه! من المؤكد أنه حدثني عنك! وسيسرّ كثيراً، عندما يعرف أنك قد عدت! ولكن كيف، وماذا فعلت، حتى استطعت مغادرة روسيا؟

- هذا موضوع يطول شرحه. والمهم أني توصلت إلى ذلك. والآن، ها أنا ذا، في فرنسا، حرة طليقة إلى الأبد! أين زوجك؟

فقالت السيدة «فافسور»:

- إنه في السجن.

فلم يدهش «صوفيا» لذلك كثيراً، ومع ذلك، فقد قالت:

- آه! يا إلهي! وماذا فعل؟

فرفعت السيدة «فافسور» نظرها نحو السقف، وقالت، متأوهة:

- وتسألينني عن ذلك؟ دائماً الشيء نفسه! لقد تآمر ضد الحكومة!

- ضدّ أي حكومة؟

- ضد كل الحكومات، ولكنّ الأخيرة، من حيث التاريخ، هي التي سجنته! ومنذ أن انتخب «لويس نابليون» رئيساً للجمهورية، بدأ «أوغستان» الحرب ضده. وطبع مقالات ينتقده فيها ويهجوه، ووزع بعض الصحف السرية، والنداءات الثورية! وبواب البناية هو، بالتأكيد، الذي وشى به!

فقالت «صوفيا»:

- إنّ له، بالفعل رأس جاسوس، وهيئته تدل على ذلك، وقد فهمت لماذا أبدى لي استقبالاً سيئاً، عندما أتيت في المرة الأولى!

- لقد أتيت، سابقاً، وكان المخزن مغلقاً، أليس ذلك؟ هذا أمر مؤسف، فأنا لم أعد أفتحه سوى مرتين، أو ثلاث مرات في الأسبوع! فالزبائن قليلون جداً، وأنا افتح لتهوية المكان، أكثر من فتحه من أجل البيع! وعندما يعود زوجي، يجب أن يسعى ويعمل من جديد على إيجاد زبائن وعملاء لمكتبته.

- آمل ألا يكون قد حكم علية بالسجن لمدة طويلة؟!

- لا أدري، ولا أحد يعلم عن ذلك شيئاً، بالضبط. ففي المرة الأولى، ألقي عليه القبض مع أصدقائه، بعد انقلاب الثاني من كانون الأول، وأخلي سبيله بعد ستة أشهر. وفي الحال، عاد يعمل كما كان يعمل سابقاً، يكتب ويتآمر!... وفي تشرين الأول «أكتوبر» الماضي، ألقوا عليه القبض، من جديدة، وعند ذلك حكم عليه بالسجن لمدة سنة ويوم واحد. ولكني تقدمت بطلب، وأظن أنه سيطلق سراحه قبل انتهاء مدة العقوبة. وهذا الأمر مفيد لنا، ويساعدنا كثيراً! فهو رب أسرة، ورجل مسنّ! وتاجر يدفع الضرائب والرسوم!...

- وأين سجنوه؟

- في سجن «سانت بيلاجي» وأنا أذهب بانتظام، لأزوره هناك.

ألا أستطيع أن أزوره، أنا أيضا؟

- بالطبع، وهذا أمر سهل للغاية، ولا بد لك من ترخيص خاص، لأنك لست قريبته، ولكني أعرف موظفاً في مفوضية الشرطة يهيئ لي أي ترخيص أريده خلال أربع وعشرين ساعة. فهل يناسبك الذهاب بعد غدٍ؟

- يناسبني تماماً! وربما استطعت أن اعمل شيئاً من أجله!...

فقالت السيدة «فافسور» وهي تضم يديها، راجية، كمن يصلي:

- أوه! نعم، فلك بالتأكيد معارف وأصدقاء بين كبار المسؤولين!

كانت بسيطة جداً، وقد تأثرت «صوفيا» بوضعها المؤسف، بين أطفالها في أسمالهم البالية، ومن الواضح تماماً أنها لا تفقه شيئاً في الأمور السياسية، وتدهش بإعجاب حيال علم زوجها ومعرفته لتلك الأمور، ولكنها ترتجف رعباً من أن ينتهي به الأمر إلى الأسوأ، ويتركها على الحصيرة، مع أبنائها الصغار.

واستأنفت الكلام، قائلة:

- سأذهب إذن لمقابلتك، كي نذهب سوية، بعد غدٍ، الساعة الثانية، فأين تسكنين؟

فقالت لها «صوفيا».

- ٨١، شارع «غرونيل».

وتذكرت الهدف من زيارتها، فسألت:

- وبالمناسبة، ألا يوجد لديكم كتاب: «روسيا والروس» تأليف «نيقولا تورغينيف»؟

- ربما كان موجوداً لدينا، فأنا أقوم بدلاً من زوجي، في المكتبة ولكني لست مطلعة على ما فيها من كتب. وجميع الكتب التي تتحدث عن روسيا هي في هذا الركن، فابحثي أنت، بنفسك، عن الكتاب الذي تريدينه...

وبينما كانت «صوفيا» تتجه نحو الركن الذي أشارت إليه المرأة، اصطدم جبين أصغر أطفالها، الذي كان يحبو، بزاوية المنضدة، وأخذ

يصرخ ويبكي. فساعدته «صوفيا» على النهوض، وهدهدته، ثم ناولته إلى أمه. كان طفلاً بديناً، ولكنه بائس وحزين. فمسحت له أمة عينيه ومخّطته، وهي منزعجة، وبعصبية، ضربت أخاه الأكبر، الذي كان يلعب ويربط بعض الكراسي ببعضها بخيط من القنب.

وقالت لها «صوفيا»:

- لديك أطفال جميلون! ما هي أسماؤهم:

- الصغير، يدعى: «مكسيميليان - فرانسوا - ايزيدور...»

فابتسمت «صوفيا»

فتابعت السيدة «فافسور»:

- نعم، هذا الاسم، من أجل «روبسبير» والأوسط اسمه: «بيير - جوزيف» من أجل «برودون»، والكبير، يدعى «كلود هينري» من أجل: «سان - سيمون»...

فتذكرت «صوفيا» بتعاطف أولئك الرجال العظماء، وتأملتهم، وقد عادوا إلى الطفولة.

وسألتها:

- والفتاة؟

- «آنّ - جوزيف، مثل «تيروانية دو ميريكور»!

- إنه ميراث ثقيل، يصعب حمله!

- أنا لا أحب كثيراً هذه الأسماء! وقلت لزوجي إنّ هذا أمر سخيف، ولكنه هو يحبها، تيمناً بهؤلاء الرجال المشهورين، وتكريماً لهم وهل يمكنني إقناعه بشيء!...

وعلى أحد الرفوف العالية، وجدت «صوفيا» كتاب «نيقولا تورغينيف»، المؤلف من ثلاثة أجزاء. فوضعتها جانباً، وتابعت البحث بين الكتب القديمة التي كان غبارها يغطي أصابعها بطبقة مخملية، وفي مكان آخر، صفت

نسخ من كتيب كالكراس، غلافها أزرق تحمل هذا العنوان: «الشعب الروسي والاشتراكية، رسالة إلى السيد «ج ميشليه» الأستاذ في معهد «كوليج دو فرانس».

فتناولت «صوفيا» إحدى هذه الكراسات وتصفحتها.

وقالت لها السيدة «فافسور»:

- زوجي يعرف المؤلف، ولذلك، كرّس في مكتبته كثيراً من هذا الكتب الصغيرة، ولكنها لا تباع أبداً!

فقرأت «صوفيا» اسم المؤلف على الغلاف: «اسكندر» فاستأنفت السيدة «فافسور» الكلام:

- هو يوقع: «اسكندر» ولكنّ اسمه الحقيقي هو: «هيرزين»، «أليكسندر هيرزين»... كاتب روسي... وكثيراً ما كان يأتي إلى المكتبة، وهو رجل لطيف ومتميز، غادر بلاده بسبب آرائه السياسية، ألم تسمعي به هناك؟

فقالت لها «صوفيا»:

- بلى، لقد سمعت به، في «توبولسك» في سيبيريا، ولكني لم اقرأ له شيئاً.

وتصورت الشباب المتحمسين الذين اشتركوا في مؤامرة «بيتراشيفيسكي» وتذكرت مناقشاتهم حول «باكونين»، «يبرودون» و «هيرزين» في صالون مفتش السجن. فكل شيء يستمر ويدوم، من بلاد إلى أخرى، ومن سنة إلى سنة، والخيط الواحد نفسه يربط بين أولئك الذين يناضلون من أجل حرية متبدلة، وصعبة المنال.

وسألتها.

- أما زال يقيم في فرنسا؟

- كلا، لم يعد هنا الآن، فقد أبعدوه، منذ سنتين، لأنه نشر كتابات ضد الحكومة. أتدرين أنه فقد أمه وابنه في حادث غرق، في عرض البحر،

بين جزر «هيير» ثم ماتت زوجته. وأقول لك، فيما بيننا، إنها كانت تخدعه! والآن هو كالمجنون من شدة حزنه. ويقيم حالياً في لندن. أتريدين أن تأخذي هذا الكتاب؟

فقالت لها «صوفيا»:

- نعم.

وكان عليها أن تلح لكي تقبل منها السيدة «فافسور» ثمن الكتاب، ثم احتجزتها لكي تقدم لها كأساً من خمر جزيرة «مادير» وكان «بييرجوزيف» و «آنّ - جوزيف» يتخاصمان، وكل منهما أخذ يشد بساق إحدى الدمى.

أما «مكسيميليان - فرانسوا - ايزيدور» فقد عثر على دبوس في شق في أرضية المكتبة الخشبية، وكان لا بد من انتزاعه منه على الرغم من صراخه. وبعيداً عن تلك المشاحنات، كان «كلود - هنري» جالساً، وعلى ركبتيه كتاب، أخذ يلون صورة، وهو يغني. وبعد أن ألف الأطفال الزائرة، عادوا إلى طبيعتهم الاعتيادية. والسيدة «فافسور» التي كانت تراقبهم، وتجول بنظراتها بينهم، كانت تجد صعوبة في متابعة حديثها مع «صوفيا»، وأخيراً، قالت، متأوهة:

- لا بد لهم من أب، هؤلاء الصغار! إنهم سيسببون لي الجنون! وعندما أخذت «صوفيا» تستعد لتوديعها والانصراف، طلبت منها، أن تناديها، اعتباراً من تلك اللحظة، باسمها الأول، وهو: «لويز».

★★★

لم تكد «صوفيا» تعود إلى المنزل، حتى أخذت تتصفح كتاب «نيقولا تورغينيف» وتتفحصه، فتبين لها أنّ العمل جاد، موثوق ومنصف. وكانت الصفحات التي كرسها المؤلف لرفاقه متمردي كانون الأول، تنم عن صداقة حقيقية تتسم بالإخلاص. وخطته لتحرير العبيد كاملة ومتناسقة.

ولكنها كان لديها انطباع، بأن كل هذا كانت تعرفه، قبل أن تقرأه في الكتاب. وبالمقابل، فإن كتيّب «هيرزين» أحدث لديها الصدمة التي يحدثها الاكتشاف الجديد. فالكاتب في إجابته ورده على «ميشليه» الذي اتهم روسيا بأنها دولة همجية ومتوحشة، يطرح بأنه يتفق مع المؤلف بشأن كل الانتقادات التي وجهها للحكومة، ولكنه يتولى بحدة وحماسة الدفاع عن الشعب. وهو يرى أنّ القوة الوحيدة التي تستطيع مقاومة حكم القيصر الفردي والاستبدادي، الذي يكثر من الهذيان، هي جماهير الفلاحين، وذلك لأن العبيد يجهلون كل شيء عن الملكية الفردية، ويعيشون على شكل جماعات مشتركة على أراضي الغير. وهكذا، فإن في دمهم يكمن مفهوم «الشيوعية» التي سيغير، ذات يوم، وجه العالم. «وأي سعادة بالنسبة للشعب الروسي، لكونه بقي خارج نطاق أي حركة سياسية وحتى خارج الحضارة الأوربية نفسها أيضاً، التي كان من الممكن، وبالضرورة أن تلغم، بل أن تنسف له وحدته وعموميته، هذا ما كتبه «هيرزين» وهو يضيف إلى ذلك قوله: وأوربا، في أول خطوة لها في الثورة الاجتماعية، تلتقي بهذا الشعب الذي يحمل لها إنجازاً أولياً، نصف وحشي، ولكنه أخيراً، وعلى أي حال، إنجاز مّا، وإنجاز معين، لتقسيم الأراضي بشكل مستمر، وتوزيعها على العمال الزراعيين... ورجل روسيا في المستقبل سيكون «الموجيك» «الفلاح العبد»، كما سيكون رجل المستقبل في فرنسا المتجددة، هو العامل...»

وفي نهاية المطاف، ومع مطالبته بإسقاط نظام الحكم الحالي، فإنّ «هيرزين» لم يبين نظام الحكم الذي ينبغي أن يحل محله. وأمله الوحيد، يضعه في المجتمع الزراعي. أليس هذا رهان رجل مثقف ومفكر؟ ووضعت «صوفيا» الكتيب، جانباً، وقد أدهشها السكون الذي يخيم على مسكنها الباريسي، بعد المشاعر العنيفة التي هزتها وعصفت بكيانها.

وكانت «كمة» المصباح ترسم دائرة من الضوء، تجلس هي في وسطها، وعبر النافذة المواربة على غبش الحديقة، كانت تصل إلى مسامعها زقزقة العصافير التي كانت تتطاير حول أعشاشها، وعما قليل، سيأتي «جوستان» ليعلن لسيدته أن طعام العشاء جاهز. ومرت بيدها على عينها المتعبتين، وأخذت تفكر: «إنه لأمر غريب، فقد وصلت إلى فرنسا، وأنا سعيدة لمغادرتي روسيا، وأول الكتب التي أقرؤها، هنا، هي، بالتحديد، عن روسيا...»

★★★

أتت «لويز» في الموعد المحدد، يرافقها «كلود - هنري» و «آنّ - جوزيف». وعندما بدأت «صوفيا» دهشتها لأنها اصطحبت معها الطفلين ولم تأت بمفردها، فسرت لها ذلك، بقولها:

- الأطفال معتادون على مرافقتي، فأنا أصطحبهم دائماً إلى هناك، تباعاً، وبالدور، لكي يراهم أبوهم...

كانت تحمل رزمة تحت كل إبط، وقبعتها المصنوعة من القش والمزينة بالشرائط الزاهية اللون، بدت كبيرة جداً بالنسبة لوجهها النحيل. وكان «كلود - هنري» يرتدي قميصاً أزرق، فوق سروال قصير وقبعة مخملية، واقية الوجه فيها لماعة. و «آنّ - جوزيف» كانت تسير متباهية بتنورة واسعة، تبدو منها سراويل ذات كشكش. وكان واضحاً، أنهم كلهم قد ارتدوا أفضل ملابسهم بمناسبة القيام بهذه الزيارة. وحملت «صوفيا» زجاجتي شمبانيا، كانت قد طلبت إحضارهما من القبو.

فهمست لها «لويز»!

- أوه! لا حاجة لهذا! فهو زيادة عن اللزوم!...

وصعد الأربعة العربة. وعندما أمرت «صوفيا» السائق أن يوصلهم إلى سجن «سانت - بيلاجي» حملق بعينيه، مستغرباً، وطلب منها ترديد العنوان.

وطوال الوقت الذي استغرقه اجتياز المسافة، عبر الشوارع التي تغمرها أشعة الشمس ظلّ الطفلان يثرثران فرحين، كأنهما في نزهة. وفي شارع «بوي دوليرميت» مرت العربة في ظل السجن. وهو بناء ضخم رمادي اللون، تبدو واجهته وكأنها مهددة بالانهيار، على الرغم من الوصلات والدعائم التي تتخلّلها. وبدت في بعض الأماكن نوافذ ضيقة مجهزة بقضبان حديدية متينة. وتوقفت العربة. ونزل منها ركابها. وكان المارة يلتفتون نحوهم ويتهامسون. وقرعت «لويز» الباب، بالمقرعة الحديدية الثقيلة، وقالت: في هذا السجن، يوجد جميع أنواع المساجين، حتى مساجين الحق العام، ولكن لا يجمعون هنا الأنواع مع بعضها. والمساجين السياسيين يقيمون في جناح الأمراء! ولفظت هذه الكلمات الأخيرة بشيء من الزهو. واقترب وقع خطوات ثقيلة. وفتحت كوة على عين كبيرة براقة. فأبرزت «لويز» الإذن بالزيارة، وفتح الباب بتثاقل محدثاً صريراً قوياً. وفي الرّواق، أخذ الموظف يفحص الأوراق، بدوره مرة أخرى، وربّت على خدي الطفلين، وبدا وكأنه يعرفهما جيداً، ثم تأمل «صوفيا» متمعناً فيها من رأسها إلى أخمص قدميها، وكلف أحد الحراس باقتياد «الأسرة الصغيرة» إلى المكان الذي يقيم فيه السيد «فافسور».

ساروا في ممر معتم وبارد، جدرانه تبدو عليها الرطوبة. وعلى جانبي هذا الممر اصطفت أبواب ضخمة، تغطي المزاليج ربع مساحتها. وحتى قبل أن تتبين ذلك «صوفيا»، داهمتها رائحة السجن، وعبقت في أنفها، فخيل لها أنها عادت إلى أحد مراكز فرز المساجين، في سيبيريا، ففي كل مكان، للبؤس البشري رائحة كريهة. ولكن على خلفية هذا النتن العالمي ورائحته الكريهة، تبدو تنوعات كثيرة، لا نهاية لها. وهكذا فإن روائح المطابخ تبدو مختلفة. فالروائح التي تفوح من الملفوف الحامض ومن مشروب «الكواسّ»، الخاص بروسيا، تقوم مقامها، هنا روائح الطبخ المؤلف من

اللحم المسلوق والخضار، والنبيذ الشعبي الرخيص. وكانت تسمع بعض الأصوات، والغمغمة والسعال، خلف تلك الحواجز العمياء، التي تخفي كل شيء، ولا تسمح برؤيته. مع أنّ هذا «الوكر الأرضي» كان مأهولاً حتى أضيق وأدقّ جوانبه.

وقالت «لويز»:

- من هنا نذهب إلى جناح الأمراء. في البداية، كان زوجي ينام في مهجع، مع عشرين سجيناً آخرين، وبعد ذلك، نقلوه، فهو يقيم الآن في سيبيريا الكبرى.

فسألتها «صوفيا» مستغربة، وقد بدت عليها الدهشة:

- سيبيريا الكبرى؟ وما هي هذه؟

- قاعة واسعة ومهمة، في الطابق الخامس، مخصصة لعدة مساجين، وقد أطلق عليها هذا الاسم، لكونها أبرد القاعات. وزوجي وهو نحيل الجسم، ويشكوا من ضعف في قصيبات رئتيه، طلب الانتقال من هذه القاعة. والآن، أصبح يقيم في غرفة خاصة في الطابق الرابع. وقد زودتها ببعض المفروشات التي أتيت بها من المنزل، لكي يشعر قليلاً، أنه في بيته...

فتذكرت «صوفيا» زوجات متمردي كانون الأول، وكيف كنّ يرتّبن زنزانات أزواجهن، في سجن «بيتروفسك». فهنالك، بالتأكيد، تشابه مثير بين أنظمة السجون، في البلدان الأكثر بعداً عن بعضها.

وصعدوا درجاً حجرياً عريضاً، فوصلوا إلى حيث يقيم السجناء السياسيون، فإذا كان الطابق الأول المخصص للإدارة، بدا هادئاً، ففي الطابق الثاني، لاحظت «صوفيا» حركة وضجة كبيرتين، وكانت جميع الأبواب مفتوحة على الممر. وبدا هناك بعض الشباب الملتحين وكل منهم يدخن الغليون، حول مدفأة عليها قدر يطبخ فيه الطعام، على مهل. ولا شك، إنهم هنا يأكلون في أي وقت يشاؤون، وبخاصة عندما يشعرون

بالملل والضجر. وحيّا بعض السجناء السيدة «فافسور» بحماسة واهتمام، فسألتهم:

- هل زوجي، هناك، في الطابق الأعلى؟

- إنه هناك، على الأرجح، فنحن لم نره طوال النهار. وفوق، في الطابق العلوي، تعالت ضحكات نسائية كان هنالك غادتان ماجنتان، وقحتان، تغازلان بغنج ودلال، سجيناً، عبر إطار الباب، دون أن يكون السجين بادياً للعيان، وفي الممر نفسه، كانت أم عجوز، في زي أرملة، تسير بخطى وئيدة، مع ابنها الذي بدا محني الرأس. وفي الطابق الثالث بدأ جميع الذين يقيمون في إحدى القاعات وكأنهم يتخاصمون، وسمعت «صوفيا» صياحهم:

- ... الحريات مخنوقة... شخصية الطاغية المستبد... طالما أنّ الشعب... أقول لك طالما أنّ الشعب!... كلا، كلا، يجب إحداث انقلاب، والهدم، ثم إعادة البناء من جديد!...

ثم سكتت الصيحات. وأخذت إحدى النساء تغني، وكان صوتها عذباً وحزيناً. وتوقفت «صوفيا» وهي تلهث متعبة، وهذا العارض ذكرها بسنها. فوضعت يدها على صدرها.

فقالت لها «لويز»:

- ما يزال أمامنا طابق آخر.

وتابعت المجموعة الصعود. وكانت تنزل على الدرج مخلوقة بالغت بوضع المساحيق والألوان على وجهها، وأكثرت أيضاً من استعمال العطور. فنظر إليها الطفلان، باستغراب وذهول، كأنها «حنظب» أو طيارة ورق، تمرّ فوقهما.

فاستقبحتها «لويز»، قائلة:

- هذا منظر مؤذٍ، وغير مقبول!

وقال الحارس، الذي كان يسير أمامها، وهو يتأوّه:

- إيه! نعم، ماذا تريدين؟ لم يعد هنالك أخلاق، ولا سلوك أخلاقي، في هذه الدار! يجب أن تستطيع العائلات أن تأتي إليها بشكل لائق ومحترم، دون أن تتأذى بمثل هذه المناظر. بينما يكاد القادم إلى هنا يلتقي بأسوأ ممن يلتقي بهن في بعض الشوارع المشبوهة، كشارع: «فوسي - دو - تامبل»، مثلاً.

وها أنتم قد وصلتم، فأنا أترككم...

فأصلحت «لويز» وضع قبعتها، شدت قميص ابنها، وأزالت التجعيد عن تنوره ابنتها، وقرعت، متألقة بالغبطة الزوجية، بإصبع رشيقة، باب إحدى الزنزانات:

غمغم صوت أجش:

- أدخل!

ففتحت الباب، ودفعت ولديها أمامها، وانتظرت إلى أن انتهيا من معانقة أبيهما، وأعلنت:

- «أوغستان»، لديّ مفاجأة لك! انظر!...

وعندما اجتازت «صوفيا» العتبة، لمحت عجوزاً نحيلاً، جالساً على أريكة، ياقة قميصه مفتوحة، شعره الأشيب مشعث، وحدقتاه براقتان ككسرة من زجاجة. فنهض، وتأمل «صوفيا» مطولاً، بينما كانت تجاعيد وجهه ترتعش، وتتطاير: كان يستعيد شبابه، بسرعة، وبقدر ما تسمح به الرؤية. وأخيرا، غمغم:

- كنت اعرف أنك عدت إلى باريس!

فقالت له:

- وهل هذا ممكن؟

- في «سانت - بيلاجي» تتوفر المعلومات أكثر من أي مكان آخر! والأخبار تصل برقياً بسرعة، من العالم الخارجي إلى السجن! آه! يا عزيزتي

«صوفيا»! يا حليفتي ونجيتي المؤتمنة على أسراري، خلال سنوات كفاحي، الأولى فيا لها من سعادة، هذه التي أشعر بها بلقياك، من جديد! لقد سمعت بمغامرتك وبما أصابك من أحداث مأساوية! وقد بقيت وفيه ومخلصة، في روسيا، لنزعتك الثورية، كما بقيت، أنا وفياً لنزعتي الثورية، في فرنسا! ولكنك، أنت حرة طليقة، بينما أنا، لا أزال في السجن! وسترويين لي كل شيء!... وأريد التفاصيل الرفيعة!... كان قد أمسك يديها، وأخذ يحدق بعينيها بنظرات متطلبة، صارمة.

وكانت، هي، قد ملّت من ترديد قصتها. ومن يوم إلى آخر، أخذت صلتها بالأحداث، تبدو لها أقل صدقاً وإخلاصاً. كما لو أنها كانت قد حفظت «مونولوجا» وأخذت تتلوه، وهي تعرف مسبقاً تأثيره على الناس. حتى إنها أخذت تتساءل، فيما إذا لم تكن، لكثرة ما تحدثت عن نفسها وعن أصدقائها، قد أخذت تصبّ وتشارك في ذلك الأدب الزائف الذي كانت تلوم بشأنه المتملقين، الذين يغالون في مديح متمردي كانون الأول، وتعتب عليهم من أجله. وعلى مضض، روت لـ «فافسور» كيف حدث تمرد الرابع عشر من كانون الأول «ديسمبر» وحدثته عن سنوات السجن والنفي. وعن الأخوة التي كانت تربط المساجين ببعضهم بعضاً، وعن موت نيقولا»... وكان يصغي إليها بشغف واهتمام شديدين. وكانت تهز ملامح وجهه تشنجات وحركات لا إرادية. وأخيراً، صاح:

- إن تضحيتك لا يمكن أن تذهب عبثاً!

فتمتمت:

- هذا ما يقال دائماً لمواساة أحد المهزومين ولتعزيته على هزيمته!

- في قضية كهذه، ليس هنالك هزيمة، فقد تمر فترات هدوء واستراحة، يستبدل خلالها المناضلون القدامى بآخرين جدد!

- ربما كان ذلك، ولكن تبيّن لي أنّ السنوات تمرّ، والأجيال تتوالى، وأننا نظل نجد على الدوام النوع نفسه من الناس في السلطة، والنوع نفسه من الناس في السجون!

- صبراً! علينا أن نتذرع بالصبر، فنحن نتقدم!...

- وأنتم تدورون حول أنفسكم في زنزاناتكم؟!

فصاحت «لويز» بقوة، فجأة:

- كلاّ، كلاّ، كفاية من الحديث في السياسة!

وأجبرت زوجها و «صوفيا» على الجلوس، وفكت الرزم التي كانت إحداها تحتوي كتباً والأخرى، فطيرة. وذهبت «آنّ - جوزيف» فأحضرت صحوناً وأقداحاً، من خزانة صغيرة، من المؤكد أنّ الإدارة لم تكن قد قدمتها للسجين، وكان هنالك أيضاً كراسي قديمة غير متجانسة، ومنضدة للكتابة، وسرير ميداني صغير، «طشت» ودلو للماء. وعلى الأرض، في إحدى الزوايا، تكدّست رزم الأوراق. والضوء يأتي من نافذة مربعة مزودة بقضبان ضخمة من الحديد. ويمكن أن يكون طول الزنزانة ست خطوات وعرضها، خمس. وعلى الجدران علقت بعض الصور التي تمثل أحداث سنة ١٨٤٨، ومشاهد من قتال الشوارع عند الحواجز، وصورة كاريكاتورية لنابليون الثالث.

فسألته «صوفيا»:

- كيف يمكن أن يسمح لك بالاحتفاظ بهذه الصور؟

فأجابها «فافسور» بفخر واعتزاز:

- أنا، هنا، في بيتي، ولهم الحق بأن يسجنوني، ولكن ليس لهم الحق بأن ينزعوا مني قناعاتي ومعتقداتي!

- من المؤكد أنّ نظام الحكم الإمبراطوري في فرنسا أكثر تسامحاً من نظام الحكم نفسه، القائم في روسيا، فهنالك لم يكن يسمح لأحد بأن

يعلق على الجدران «صوراً مخرية»! في سجن «بيتروفسك» حيث كان يسمح لنا، فقط بفرش وتجهيز الزنزانات» كما نريد. هل أنتم ملزمون، هنا، بالقيام بأعمال السخرة؟

- لم يكن ينقصنا سوى هذا! فوضعنا يشبه وضع أسرى الحرب، والنظام نفسه الذي يخضعون له، يطبق علينا! وبشأن أعمال الخدمة والأعمال الداخلية في السجن فهنالك مساعدون وعمال، وبعض سجناء الحق العام، يقومون بها، لقاء خمسة عشر فرنكاً في الشهر.

- والطعام؟

- إنه مناسب، وإذا لم نشأ تناول طعام السجن، نستطيع أن نأكل في مطعم الندوة، أو أن نطلب وجبات جاهزة من أي مطعم آخر.

- ولكن، أليست رسائلكم خاضعة للمراقبة؟

- أعتقد ذلك، وعلى أي حال، فنحن مسموح لنا بأن نكتب ما نريد، والرسائل تصل إلى المرسلة إليه.

- في سجون سيبيريا، لم تكن الزنزانات تغلق بالمفتاح إلا في الليل.

- وهنا أيضاً، وبقية الوقت، نستطيع التجول في السجن، والذهاب من زنزانة إلى أخرى، والنزول إلى الباحة في أي وقت، وعقد الاجتماعات واستقبال الأصدقاء، وتقديم الطعام لعدة أشخاص في زنزاناتنا...

- أي أنه، باختصار، لا ينقصكم سوى التمكن من الخروج!

- يمكننا أن نخرج أيضاً، من وقت لآخر، شريطة أن نعود قبل منتصف الليل.

فهزت «صوفيا» رأسها، مبدية التفهّم: فالجنرال «ليبارسكي» لم يكن قد ابتدع شيئاً.

وسألته:

- ومتى ستخرج، في المرة القادمة؟

فأجابتها «لويز» بسرعة:

- بعد أكثر من شهر بقليل، وسنقيم، بهذه المناسبة، حفلة صغيرة في البيت!

كانت عيناها تبرقان بالسعادة، على استحياء. وظل «فافسور» و «صوفيا» يتناقشان، ويتحدثان، خلال فترة طويلة، عن تجاربهما، وعن أوضاع السجون، ويقارنان بين السجون الروسية والسجون الفرنسية، يحبذان هذه، وينتقدان تلك، من الأوضاع المختلفة، في الجهتين، بجدية وعن خبرة. وبعد ذلك، وبينما كانت الفتاة «آنّ - جوزيف» تضع الصحون والأقداح على المنضدة، نهضت «صوفيا» لتقرأ الكتابات المنقوشة على حجارة الجدران، وبين خليط من الأسماء والتواريخ، استطاعت أن تقرأ بصعوبة بعض العبارات والنداءات الانتقامية: «في معظم الأحيان، تقريباً، إنما بواسطة القانون، ينفذ التعذيب والاضطهاد. - «لامونية». «متْ إذا لزم الأمر، ولكن قل الحقيقة! - «مارا».

«الكلام، دون التصرف والعمل، هو أسوأ صيغة للخيانة... «فافسور».

وعادت فجلست، وهي تفكر: «لأنه لم يتغير» وشعرت بسبب ذلك بضيق وانزعاج وكأنها تلهث، متعبة، لكونها مشت بجانب رجل أصغر منها سناً.

وسألها فجأة: كيف وجدت فرنسا؟

فقالت، وقد أخذت على حين غرّة:

- رائعة!

فقطب حاجبيه.

وقالت له زوجته:

- هو ذاك، لقد عدت إلى الأحاديث السياسية! ألا تستطيع التحدث عن شيء آخر؟ أنظر ماذا جلبت لك السيدة.

كانت «صوفيا» قد نسيت الزجاجتين. فوضعتهما «لوني» على المنضدة، فتناول «فافسور» إحداهما، وأخذ ينتزع الورق عنها ويزيل سدادتها وهو يتمتم:

- هذا لطف جزيل منك...

ثم استأنفت الكلام:

- هكذا، إذن، فقد وجدت فرنسا رائعة؟

فقالت «صوفيا»:

- بالمقارنة مع روسيا، نعم.

- ونظام الحكم الحالي، هذا؟!

- لا أستطيع تقييمه والحكم عليه، بعد. ولكني مضطرة لأن ألاحظ أنّ أغلبية الفرنسيين، بعد أن جربوا وتذوقوا نظام الحكم الجمهوري، صوتوا لصالح عودة نظام الحكم الفردي والمطلق. وبالنسبة لمن يضع إرادة الشعب فوق كل اعتبار، فمن الصعب عليه أن يهمل هذا الحدث!

وقفزت السدادة نحو السقف، وفاض الزبد من فوهة الزجاجة، فصفق الطفلان، وهما يضحكان، وأحنى «فافسور» الزجاجة فوق الأقداح. وقال متذمراً، ومعاتباً:

- لا أدري بمن التقيت، منذ وصولك إلى هنا ولكن اسمحي لي أن أقول لك، إنّ من التقيت بهم زودوك بمعلومات خاطئة! فقد خدع الشعب بهذا المغامر، ومن قبله، وهو مع أنه أعلن ولاءه لمبدأ الاقتراح العام، لم يكن لديه أبداً أي رغبة سوى أن يحكم بمفرده. وإذا كان قد نجح انقلابه الذي أحدثه في اليوم الثاني من كانون الأول «ديسمبر» فذلك، لأنه كان قد خدّر مسبقاً، بوعوده، الجماهير العمالية. كما أنّ الجيش كان بجانبه ومواليا له. وبمزيد من السرعة، ألقي القبض على جميع زعماء المعارضة، وتم إبعادهم... «ادغاركينت»، «فيكتور هيجو»، «دوسوبس»، وكثيرون

غيرهم... ونفي الرجال بالمئات، إلى «دغويانا» الفرنسية، والجزائر... وعطلت الصحف وحلت وشتتت المنظمات السرية، والشرطة تدس أنفها في كل شيء وفي كل مكان! والسلام والأمن بواسطة التفريغ والفراغ. والتروي والتعقل، عن طريق التهديد والوعيد!...

فقالت «صوفيا»:

- هذا مرعب! لم أسمع به، أبداً...

- ذلك لأنك لم تقرعي الباب المناسب، ولم تتوجهي لشخص صالح عند وصولك إلى باريس ليزودك بالمعلومات الصحيحة.

- إذا كان الوضع أصبح هكذا، فإن السلطة الإمبراطورية، لم يعد لها معارضون!

- لا يمكن أن تقطع بضربة واحدة، جميع الرؤوس البارزة. فقد ظل النظام الجمهوري، هو نظام الحكم الدستوري ويشكل الحكومة الشرعية طوال أربع سنوات في البلاد، وبفضله، انتشرت بعض العقائد والمبادئ في أوساط الجماهير، ولاحت الآمال، بأنّ الحكم الفردي والاستبدادي مهما كان فظاً وقاسياً، فإنه لن يستطيع بعد اليوم أن يخنقها ويقضي عليها. والشرطة تلاحقنا، والجواسيس والمخبرون منتشرون في كل مكان. ولكن، على الرغم من كل ذلك، فقد بدأت تتشكل وتنمو حركة في أوساط شباب الحي اللاتيني، في المصانع وفي المعامل، بل وفي بعض الصالونات أيضاً!...

ورفع كأسه، وقال:

- نخب الجمهورية!

فقالت له زوجته:

- لقد أعطيت أكثر مما ينبغي من الشراب للطفلين!

- في يوم كهذا، لن يسبب لهما الشراب أيّ أذى!

وتبادلوا الأنخاب، وشربوا، ومسح «فافسور» شاربه، وكانت عيناه تشعان بفرحة مشوبة بالكراهية، وقال:

- سيأتي يوم، يتفجر في صباحه، كل شيء!

وأخذت «لويز» تقطع الفطيرة، بينما كانت «صوفيا» تفكر بأن لفرنسا وجهاً مختلفاً تماماً حسب ما ننظر إليه من صالون الأميرة «ليفين»، أو من إحدى زنزانات سجن «سانت بيلاجي». فكيف هو وجهها الحقيقي؟ وأين تكمن الحقيقة؟ في الوسط، وبين النقيضين، دون شك: فمزاج البلاد وجوّها لم يكونا رائعين وصافيين، بالقدر الذي يدعيه أنصار الإمبراطور، ولا كدرين وقاتمين بالقدر الذي يؤكد في أحاديثهم أنصار الجمهورية ودعاتها. ومع ذلك، فإنها تميل، بصورة لا تقاوم، إلى إعطاء الحق إلى هؤلاء. وأصغت باهتمام إلى «فافسور» وهو يتحدث إليها عن بعض الأساتذة الجامعين الذين رفضوا أن يؤدوا يمين الولاء لنظام الحكم الجديد، وعن الكثير من الطلاب الذين ينقلون ويوزعون مناشير ممنوعة وغير شرعية، نشرت خارج البلاد. وعن محامين شباب أخذوا ينظمون فيما بينهم مؤتمرات سياسية، أسبوعية...

وأحياناً، كان أحد المساجين يقرع الباب، يوارب مصراعه قليلاً، ويقول: «أوه! عفواً، أنت مشغول! » وينصرف. «وآن - جوزيف» بعد أن أكلت حصتها من الفطيرة، أخذت تخيط الأزرار وتثبتها جيداً، على قمصان أبيها. بينما أخذ «كلود - هنري» يتأرجح على كرسيه، حتى كاد يكسره. فناولته أمه صفعة، فبكى عند ذلك. فهددته بأنها ستسلمه للموظف الجالس على كوة باب السجن. إذا لم يلزم الهدوء.

فقال لها:

- لا يهمني ذلك، فالأمر سيان بالنسبة لي!

فطلب منه أبوه أن يذهب ويقف في الزاوية، عقوبة له، على وقاحته. ثم ملأ الأقداح، من جديد. وتأثر بما احتسى من الشمبانيا، فطوق منكبي زوجته بذراعه، وقال لها:

- آه! يا «لويز»، يا صغيرتي! إني أسبب لك المتاعب والهموم! ولكن، قبل انقضاء ثلاث سنوات، سنريح القضية، بمشيئة الله!

فتمتمت:

- منذ زمن طويل، وأنت تردد لي ذلك!

- إني أفكر، بموضوع خروجي، في المرة القادمة، إلى البيت، وأنوي أن أدعو «برودون» لحضور حفلتنا، لأني أريد أن تتعرف عليه صديقتنا! فهذا، رجل، بالمعنى الحقيقي! إنه عبقري! بعيد النظر! وأنا أسجد أمامه!...

وأفرغ كأسه، تلمظ، وقال مصححاً:

- أسجد أمامه، ولكني لا أوافق دائماً على جميع أفكاره. أتدرين أنه أمضى ردحاً طويلاً من الزمن، هنا، في هذا السجن؟ وهنا، في «سانت بيلاجي» عقد قرانه وتزوج! وأطلق سراحه السنة الماضية، ومنذ ذلك الحين، لزم الهدوء؟

ودخلت نفخة هواء دافئة من النافذة، تحمل رائحة عطرة نفاذة، فسألت «صوفيا»:

- ما هذه الرائحة؟

فقالت لها «لويز»:

- نحن على بعد خطوتين من حديقة كبيرة وجميلة، وعندما ترتفع حرارة الجو، تنتشر من زهورها الروائح العطرة!

وصاح «فافسور»:

- إنه انتباه لطيف إضافي ننعم به، ورغم ذلك فإني لست مسروراً!...

وسأله «كلود - هنري»:

- هل أستطيع مغادرة الزاوية والعودة إلى مكاني؟

فأجاب الأب:

- كلا!

وتردد وقع خطوات مسرعة على الدرج. وتعالت أصوات قوية تنشد «المارسييليز»، النشيد الوطني، ومن بعيد، ردّت عليها أصوات أخرى أقل قوةً وعدداً بنشيد: «أوه، ريشار، أوه، يا مليكي! واختلط النشيدان المعاديان في مزيج غير متجانس من الأصوات، تتخلله الصيحات القوية.

فانفجر «فافسور» ضاحكاً:

- أتسمعين؟ يا له من صخب غريب! لقد أصبح عادة تقليدية! فلا يزال في سجن «سانت بيلاجي» بعض أنصار الملكية. وكل مساء، وفي الموعد نفسه، يتحدى الجمهوريون الملكيين، منشدين نشيدهم بقوة، فيردّ عليهم الملكيون منشدين بنشيدهم أيضاً. وفيما عدا ذلك، فليس هنالك أي مشكلة بينهم، فهم يحبون بعضهم، ويتبادلون الاحترام فيما بينهم، على اعتبار أنهم، كلهم ضحايا «روبير ماكير» هذا، المتوج.

وسألته «صوفيا»:

- ماذا تعمل طوال النهار؟

- أكتب، وأكتب دائماً، لكي أنجز شرح نظريتي في تكوين الدولة، وهذا عمل ضخم! وأقول لك، فيما بيننا، إني لا أستطيع العمل، بشكل جيد، إلا في السجن! فقالت له زوجته:

- ومع ذلك، فسينقضي زمن طويل قبل أن تخرج منه. ولكن «السيدة» من جهتها، وعدتني، بأنها سوف ترى فيما إذا كانت تستطيع أن تعمل شيئاً ما، من أجلك.

فقالت «صوفيا»:

- ليس لي الكثير من المعارف، ولكن، ربما بواسطة الأميرة «ليفين» تمكنت من مساعدتك...

فقال «فافسور» هازئاً:

- آه! هذه إنها مواطنة غريبة! فهي تجمع بين النقيضين، أي «كما يقال في فرنسا»: «تجمع بين الماعز والملفوف»: ابتسامة لنظام الحكم الإمبراطوري، وابتسامة لنظام الحكم الجمهوري، ثم ابتسامة إلى فرنسا وأخرى إلى روسيا... وجميع هؤلاء الروس الأغنياء، الجذابين، والمثقفين، يبدون لي أكثر لطفاً وتودّداً، من أن يكونوا مستقيمين، وشرفاء. وهم يقيمون في باريس، حباً بالديمقراطية أو بالفن، ولكنّ بينهم المستشار، أو الخبير الفلاني، بالشؤون التجارية، وفي فروعها المختلفة، تجدينه يدرس باهتمام وعناية معاملنا ومخازننا، وأحد ضباط المدفعية المتقاعدين، ينصرف إلى تفصح أفراننا العالية وعمليات صهر المعادن، بدافع من الفضول الشخصي، ثم من هناك، يذهب إلى «ليبيج» وإلى «سورنيغ»، متابعاً تحرياته. والمرأة الاجتماعية، فلانة، تقيم حفلات الاستقبال، لكي تستمع إلى ثرثرة وزرائنا...

- إذن، قل في الحال، وبصراحة أنك تعتبر جميع المواطنين الروس الذين يقيمون في باريس، جواسيس، كلهم، دون استثناء!

- ليس مجاناً، ومن أجل لا شيء، يتركهم القيصر يقيمون خارج بلادهم! فتمالكت «صوفيا» نفسها. فهي لم تعد تدري لماذا غضبت.

ألم تنزعج وتتضايق، هي نفسها، من بعض الروس، الذين يبالغون بالتصنع، وبالتظاهر بأنهم قد «تفرنسوا» وأصبحوا كالفرنسيين تماماً، أولئك الذين التقت بهم في صالون الأميرة «ليفين»؟ والحقيقة، هي أنها إذا كان لديها استعداد لانتقاء هؤلاء النازحين عن وطنهم والباذخين، فإنها لا تتقبل أن يفعل ذلك، شخص آخر، بدلاً منها. كما لو أنه قد نشأت بينها وبينهم صلات وروابط عائلية، تسمح لها بأن تقيمهم وتحكم عليهم بكل قسوة، محتفظة لهم، في الوقت نفسه، بكل مودّة ومحبة، في حين أن

شخصاً آخر، مثل «فافسور»، الذي يقدرهم، وينظر إليهم من وجهة نظر، فرنسية، دقيقة وبحتة، لا يمكن أن يصدر عنه بشأنهم سوى آراء مشوبة بالجهل، بالحمق، وبالشدة والخشونة.

و «لويز» التي بدت حائرة، ومنزعجة، قالت:

- أترى، يا «أوغستان»، لقد سببت الانزعاج للسيدة! فتلك الأميرة، ربما استطاعت أن تساعدك...

فقال لها، ضاحكاً:

- ولكني لا أطلب شيئاً أفضل من ذلك! حتى لو أنّ «أرسين هوساي» عرض عليّ خدماته ليخرجني من هذا السجن، لمددت له يديّ الاثنتين!

فضحكت «صوفيا» بدورها، أيضاً، وقالت:

- يدهشني أن تهاجم الروس المقيمين في فرنسا، بعد أن تعرفت على «هيرزين».

فقال «فافسور» موافقاً:

- هذا صحيح، فهذا إنسان شريف، إنه أخ لنا. ولكن، هيا أذكري لي آخرين مشبوهين!؟

واستدعي «كلود - هنري» من زاويته. وتعالى رنين أحد الأجراس. فقد حان وقت الانصراف. وكان وداع الزوجين مؤثراً، وسألت «لويز»:

- ألست بحاجة لأي شيء؟ تركت لك قطعة من الفطيرة...

والمرة القادمة، سأجلب لك جواربك بعد أن أكون قد رقعتها...

فرفع ابنه وابنته، معاً، بين ذراعه، قبلهما ثم وضعهما على الأرض، وبدا قوياً لطيفاً، ولكنه متعب - رب أسرة ومناضل سياسي في آن معاً.

وعند الخروج من السجن، رأت «صوفيا» من جديد، وبسرور، الضوء، وحركة ونشاط العالم الحر. ولم يكن الظلام قد خيم، بعد، على الشوارع. وكانت أشعة الشمس الحمراء متلألئة في أعلى نوافذ المنازل.

وكان الحوذي يثرثر مع أحد الحراس، المستند باسترخاء، على جانب محرسه. واقترحت «لويز» أن يعودوا سيراً على الأقدام، لكي يستفيد الطفلان من هذا التمرين. فسرت «صوفيا» بهذا الاقتراح، وصرفت السائق، بعربته، فذهب منزعجاً، وهو يقود عربته بسهولة.

وسارت المرأتان على أرصفة نهر السين، وكان «كلود - هنري» و «آنّ - جوزيف» يسيران أمامهما، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر. وعند مرورهم بالقرب من كاتدرائية «نوتردام»، قالت «لويز»، متأوهة:

- ما أجملها! وعندما أفكر أنه لا يستطيع أن يراها!

فتساءلت «صوفيا»، قائلة:

- وهل كان يراها، عندما كان حراً؟!

٤

كان الطابع على المغلف يدل على أن الرسالة صادرة عن بروسيا، وبدا خط عنوانها مجهولاً من قبل «صوفيا»، ففتحت المغلف ووجدت فيه رسالة من «فيردينان وولف»، فداهمتها الدهشة والفرحة والخوف، بعنف شديد، لدرجة أن عقلها، في تلك اللحظة، قد اهتز وارتعش. فماذا يعمل في ألمانيا؟ هل أطلق سراحه؟ أم أنه هرب؟ ولكن لا، فالرسالة تحمل في أعلاها: «توبولسك»، ٢٣ آذار «مارس» ١٨٥٣.

وأخباراً قديمة مضى عليها ما يقرب من ثلاثة أشهر! كان هذا يفوق تصوراتها وآمالها. وانكبت، على قراءة الرسالة، كالجائعة المتشوقة إلى الطعام:

«صديقتي العظيمة، والعزيزة،

«لقد كتبت لك أكثر من عشر مرات إلى «كشتنوفكا»، ولكن، لم تصلك أي منها، دون شك، كما أني لم تصلني منك أي رسالة، ولا لأحد من أصدقائك هنا، فيما عدا «ماري فرانتزيف» وهي، باعتبارها ابنة وكيل الحكومة، لا تخضع رسائلها تماماً للرقابة المشددة، فقد تلقت الرسالة التي أرسلتها لها، عندما قررت مغادرة روسيا. وهكذا فقد علمت منها عنوانك الجديد في باريس. ولأني كنت مقتنعاً أنك تقيمين حالياً في هذا العنوان، فقد استغليت فرصة سنحت لي بصورة استثنائية: لقد مر علينا في «توبولسك» دبلوماسي ألماني شاب، وأراد أن يتعهد بأن يوصل لك هذه الأسطر التي كتبتها على عجل.

وكونك أصبحت الآن في فرنسا، فهذا يسهل علينا متابعة المراسلة. ويمكنك أن ترسلي الجواب على رسالتي إلى العنوان المذكور في ذيل الرسالة، إلى برلين، ليد الدكتور «غوتفريد أوغست كونيغ» كم أنت سعيدة الآن، يا عزيزتي «صوفيا» بعودتك إلى بلادك! فأنت تحبينها كثيراً! وكنت تتحدثين عنها دائماً، وتذكرينها بالخير! وما زلت أذكر ماذا كنت تقولين لي عنها، عندما كنا نزور سوية ذلك المنزل في «توبولسك» الذي تحول اليوم، بفضل مساعيك، إلى مستوصف. والدقائق التي كنت أقضيها بقربك، في تلك الغرف الخربة والباردة، هي من أجمل الأوقات التي مرت علي في حياتي كلها. وأنا أستعيد كثيراً، ذكراها، لكي استرد شجاعتي، وحزني، في آن واحد. وأنا، بصورة تنم عن الأنانية، أشعر بأسف شديد، لأنك بإقامتك في باريس، أصبحت بعيدة، بل أكثر بعداً عني. وإني لأخاف أن ينسيك البعد، وتغيير نمط الحياة، وبهارج الحضارة الغربية، أصدقاءك الذين تركتهم في سيبيريا. قولي ماذا حصل معك، وكيف أصبحت حالياً!

أروي لي كل شيء بالتفصيل، وصفي لي منزلك، مفروشاته وقطع أثاثه، فساتينك، قبعاتك، وتسريحة شعرك!... وهذه أمور مهمة جداً بالنسبة لجلف عجوز من نوعي! وبواسطة هذه التفاصيل، سأكون لنفسي أحلاماً عذبة، تساعدني على تمضيه فصول الشتاء السيبيرية الطويلة! حدثيني أيضاً عن أصدقائك، لأن لديك أصدقاء، هناك، بالتأكيد! ولا بد من أن يكونوا أكثر لطفاً، ومدعاة للمسرة والتسلية، أكثر من ثقلاء «توبولسك» الطيبين! وها أنا أبدو لك غيوراً! آه! كم أغبطك على المسارح والمراقص والصالونات الموجودة في باريس!...

أما هنا، فكل شيء داكن، رتيب، ريفي، وأصدقاؤنا يشيخون بهدوء، وعلى مهل، والشباب يتزوجون، ويبتعدون عنا. وأنا أعمل أربع عشرة ساعة

في اليوم، وأخطط لتوسيع المستوصف، ووسط كل هذا، أفكر بك، باستمرار، وبشكل دائم...».

وكانت الكتابة، في أسفل الصفحة، متلاصقة ومتشابكة جداً، لدرجة أن «صوفيا» لم تستطع فك رموزها. وكانت قد اشترت نظارة بمقبض، الأسبوع الماضي، فأخرجتها بسرعة من أحد الأدراج، ورفعتها إلى عينيها:

«ذكراك العزيزة لا تفارقني أبداً، وأنا أتحدث إليك، بالسر، كل ليلة. وعندما يكون علي أن اتخذ قراراً ما، أطلب منك أن تمديني برأيك، وعندما أفرح لشفاء أحد المرضى، أدعوك لمشاركتي الفرحة والسعادة. ولما أشعر بالتعب «وهذا يحصل لي كثيراً»، أتصورك وأنت تلومينني، بل وتوبخينني، لأنني أجهد نفسي، فأسر بذلك كثيراً لأنه يبدو لي لطيفاً جداً، منك»....

فاغرورقت عينا «صوفيا» بالدموع، وحجبت عنها الرؤية، وشعرت بانفعال طفولي، اعتبرته عبثياً، وغير معقول، ولكنها لم تستطع مقاومته، أو التخلص منه. فهي لم تعد وحيدة، بحياتها، في هذا الوجود. وشعورها بالصداقة الذكورية، أعاد لها محبة ذاتها والثقة بنفسها. و «فيرديناند وولف» وهو على بعد آلاف الأميال عنها، أخذت حرارة إعجابه بها تجعلها تتهلل بهجة وسروراً.

وبعد أن حفظت غيباً، وعن ظهر قلب، كل جملة في الرسالة، أخذت تفكر بكتابة الجواب عليها. كان قلبها يفيض حبوراً، وأخذت تصف لـ «فيرديناند وولف»، حياتها في باريس، وحدثته عن مشترياتها وعن مشاويرها، وأكدت له، أن كل ذلك لن يجعلها تنسى أبداً الأصدقاء الأعزاء الذين تركتهم في «توبولسك» وكتبت له، تقول: «وذات يوم، سوف تسترد حريتك، عند ذلك، ربما أتيت إلى هنا. فأعرفك على هذه المدينة التي أحبها. وسأقدمك لأصدقائي وأعرفك عليهم»...

وهدهدت نفسها بهذا الحلم الذي تعرف أنه لا يمكن تحقيقه. ثم بعد فترة قصيرة من التردد، أضافت: «وكما ترى، فإني أنا أيضاً، أفكر بك باستمرار وعلى الدوام، عبر جميع المشاغل والاهتمامات، التي تلاحقني، ولا تدع لي فترة للراحة والتأمل». ومنعتها نفحة من الحياء أن تقول له أكثر من ذلك. وأنهت رسالتها بعبارة مجاملة عادية، ووقعتها:

«صوفيا أوزاريف»

ست صفحات! أعادت قراءتها، دستها في أول مغلف، باسم الدكتور «وولف» ووضعت هذا المغلف في مغلف ثانٍ، أكبر من الأول. وكتبت عليه عنوان الدكتور «غوتفريد أوغست كونيغ». ولشدة اهتمامها بالرسالة، قررت أن تذهب بنفسها إلى دائرة البريد المركزية، الكائنة في شارع «جان جاك روسو». لكي تكون متأكدة من أن رسالتها قد سلمت فعلاً للبريد، وأنها سترسل إلى برلين، بأسرع ما يمكن.

وعند خروجها من مكتب البريد، بدت مبتهجة ومشرقة الوجه: فقد أعيد الاتصال بينها وبين أصدقائها الباقين في سيبيريا. حتى وإن كانت لن تتلقى سوى رسالة واحدة في السنة من «فيرديناند وولف» فهي كافية لتحقق لها السعادة والسرور. والعواطف، في ذهنها الذي ألف التأمل، واعتاد عليه، لا تحتاج إلى كثير من الأغذية المادية لكي تظل تنبض بالحياة. وكانت «صوفيا» وهي تسير في الشارع، تعتبر نفسها أكثر ثروة وأوفر حظاً، من أي امرأة شابة تمر بها.

كانت مدعوة، لتناول طعام العشاء، مساء ذلك اليوم، في منزل السيدة «غريبوف». وقد اختارت فستانها الذي سترتديه لهذه المناسبة، وهي تفكر بـ «فيرديناند وولف». وعلى المائدة، بدت بشكل خاص، متألقة تماماً. ومع ذلك، فأنها لم تكن تبتسم للأشخاص الحاضرين، ولم تكن تمزح معهم، أو توجه لهم نظراتها التي تتسم بالكآبة، بل إلى شخص كان آنذاك يلازم

مخيلتها. وفيما عدا كاهن عجوز، طويل الشعر، وهي، لم يكن بين الجالسين حول المائدة سوى أشخاص روسيين، ولكن جميع هؤلاء الروس، كانوا قد اعتنقوا المذهب الكاثوليكي. وكانوا يشكلون، حسب تعبير صاحبة المنزل: «القطيع الصغير». وبينما كان الخدم الذين يرتدون الجوار بالبيضاء، يقدمون فراخ الحجال» المشوية، عرضت السيدة «غريبوف» مشروعاً، خطر على بالها آنذاك: إيجاد مدرسة داخلية في باريس، للأطفال الروس، يستطيعون فيها أن يربوا وينشؤوا على معرفة لغة بلادهم الأصلية وعلى احترام وطنهم البعيد والتعلق بالكنيسة الكاثوليكية. وأضافت موضحة فكرتها:

- لأنه لا ينبغي أن يكون وارداً بالنسبة لأبنائنا ولبناتنا أن يصبحوا أقل تعلقاً بروسيا، وبجنسيتهم الروسية، لأنهم أصبحوا يتبعون المذهب الكاثوليكي!

فأيد الحاضرون هذه المسألة بحماسة شديدة. وكان واضحاً أنهم، جميعاً يخشون من أن يعتبروا جماعة قد تنكروا لأصلهم. ولأنهم انفصلوا مذهبياً عن أبناء وطنهم، فهم يتعلقون بهم بمزيد من الحماسة، بواسطة الشعور الوحيد المشترك بينهم، وهي الكبرياء الوطنية، والاعتزاز بالمواطنية، وبالأمل بمستقبل مجيد لبلادهم. وانحنت «صوفيا» نحو جارها الجالس على يسارها. وهو السيد «كريستوف» سكرتير سابق في السفارة، الذي بقي في باريس بعد انتهاء مدة خدمته، وسألته، بصوت خافت:

- ما هو رأي القيصر، بتحول بعض رعاياه عن المذهب الأرثوذكسي؟

وفي تلك اللحظة، خيم الصمت حولهما، والسؤال الذي وجهته لشخص بمفرده، سمعه الجميع. فاكفهرت الوجوه. وإلى قاعة الطعام، تلك، حيث يتجاور جلد الأرائك، الأحمر، مع السجاجيد والستائر الخضراء، دخل شبح «نيقولاي الأول» بكامل ملابسه الرسمية وحذائه الأنيق اللماع.

وقال السيد «كريستوف»:

- ولماذا كتمان ذلك وإخفاؤه: فالقيصر غاضب بسبب ذلك، فهو يعتبرنا كخونة، تقريباً. وهو يرفض أن يتفهم، كيف أننا، حيال الخيار بين الانصياع لأوامره والانصياع لأوامر ضمائرنا، فإننا لم نتردد لحظة في الاختيار!

فتأثرت «صوفيا» تماماً بصراحة وصدق الجواب. وأخذت تتأمل أولئك الناس الوقورين، الهادئين الذين تبدو عليهم مسحة الحزن وهي متفهمة مأساتهم. وتساءلت:

- ولكن العودة إلى روسيا، ليست ممنوعة، بالنسبة لكم؟

فأجابها السيد «كريستوف»:

- كلا، ليست ممنوعة بالتحديد، ومع ذلك، فلو عدنا، فإن استقبالنا، سيكون، على الأرجح، متحفظاً وجافاً، بل وحتى عدائياً...

وقالت امرأة شابة، حامل، نظرتها بلون زرقة السماء، معلقة على ذلك:

- ولماذا العودة؟ فنحن بخير، ومرتاحون تماماً، في فرنسا! فقال السيد «غريبوف»:

- شريطة ألا يخرب أولئك الشياطين الأتراك، العلاقات القائمة بين بلدينا.

كان له لحية صغيرة مدببة كفرشاة الرسام، وعلى صلعته بدت بضع شعرات، لا يزيد عددها عن الثماني.

والكاهن، الذي كان عشية ذلك اليوم، قد أجرى مقابلة مع عضو مهم في مجلس الشيوخ، طمأن الجميع: فالسلم لن يتعكّر بسبب قضايا المشرق. هذا وإن كان الأسطول الإنكليزي الذي يرسو عادة بالقرب من جزيرة مالطة، قد انضم إلى الأسطول الفرنسي الراسي بالقرب من مضيق الدردنيل وأن الروس أصبحوا على مسافة بضعة كيلومترات من حدود

«مولدافيا» على ضفة نهر «البروت» فإن التسوية الودية للمشكلة، لم تكن في أي وقت، أقرب منها اليوم.

وأضاف السيد «كريستوف»:

- لا ينبغي أن ندع تأرجح الترهات الدبلوماسية يسحرنا ويخدعنا، وهبوط أسعار العملات في «البروصة» ليس سوى مناورة للقضاء على صغار المستثمرين والموفرين. ويبدو أن بعضهم قد أفلسوا ودمروا تماماً، خلال عشر دقائق!

فسرت «صوفيا» لأنها عملت بنصيحة الأستاذ «بوليه» الذي نصحها بعدم المضاربة في سوق العملة «البورصة». ومن المؤكد أنه كان من الممكن أن تخسر كل ما تملكه. وبعد تناول الحلوى، انتقل الجميع إلى الصالون ليتناولوا القهوة، على الطريقة الفرنسية. كان يوجد هناك زهور في أواني ومزهريات حمراء، وصفائح ملونة من الخزف ترصع السقف، كوى ومرايا زينها دون مهارة تذكر أحد زملاء الرسام «بوشيه»، سجاجيد عجمية، وخزائن زجاجية ملأى بأشياء صغيرة، يعلوها الغبار، سجف وستائر من الحرير الصيني، وكل هذا، يغمره النور الأصفر، المنبعث من عشرة مصابيح مزودة بمنظم للضوء. واقتادت السيدة «غريبوف» «صوفيا» جانباً، إلى قرب إحدى النوافذ، لكي تسألها عن «يوري ألمازوف» الذي لم تكن تهتم به كثيراً، لأنها بالكاد كانت تعرفه. ثم تناولت الفنجان الفارغ من يدي «صوفيا» وضعته على منضدة صغيرة، وقالت متأوهة:

- إنه وضع غريب جداً أن يكون أحدنا روسياً، بقلبه وعاطفته، كاثوليكي المذهب، ويعيش في فرنسا دون أن يستطيع التخلي عن روسيا! وبعض أبناء وطننا يقيّموننا ويحكمون علينا بقسوة. وآمل، أن تكوني أنت، يا سيدتي متفهمة لنا.

وبشيء من الجهد، قالت «صوفيا»:

- بالتأكيد! وهل مضى زمن طويل على اعتناقكم المذهب الكاثوليكي؟

- تسع سنوات، وكنا، أنا وزوجي نعاني من وسواس وأزمة ضمير مخيفة. وقد ساعدتنا السيدة «سوتشين»، وكذلك الأب المحترم «غاغارين»...

وبينما كانت تتكلم، ظلت «صوفيا» تراقب بطرف عينها الكاهن العجوز الذي كانت تحيط به حلقة من أفراد الرعية، الذين يقدرونه ويجاملونه.

ولاحظت السيدة «غريبوف» نظرتها، وسألتها، فجأة:

- أكنت تفضلين أن تري كاهناً أرثوذكسياً، على مائدتي؟

فارتعشت «صوفيا» وتمتمت:

- كلا! ولماذا؟

ولكنها فكرت، أنها كانت، بالفعل، ربما شعرت بمزيد من الارتياح لو أن كاهناً أرثوذكسياً، روسياً، ملتحياً، قد استقبلها بين هؤلاء الروس، المبعدين عن بلادهم.

٥

مع اقتراب فترة العطل والإجازات الصيفية، استولت على الباريسيين حمى الحفلات والسهرات الاجتماعية، كما لو أن كل ربة بيت، قبل سفرها إلى الريف، إلى قصر العائلة القديم، أو إلى منتجع المياه المعدنية، كانت مهتمة تماماً ومتمسكة بأن ترد، بأسرع ما يمكن على الدعوات التي كانت قد لبتها، خلال تلك السنة. وأقامت «ديلفين دوشارلاز»، في منزلها. حفلة استقبال كبرى، شارك فيها عازف على «البيانو» إحدى المغنيات، ومنشد للأشعار. وأجرى فيها يا نصيب خيري. كما أقامت «صوفيا» من جهتها، أيضاً، حفلة، كانت تتوقع أن يحضرها نحو خمسين شخصاً، وأتى إليها مائتان، جميعهم، بالطبع مدفوعين بالرغبة بأن يروا أين تقيم هذه الهاربة التي نجت من السجون القيصرية، وكيف تعامل أصدقاءها. ومن الدقيقة الأولى، إلى الأخيرة، كانت تشعر بأنها تتعرض لفحص، تجتازه بهدوء. كانت قد استأجرت خدماً، لتلك الليلة، وتشعر بالقلق لأن الحلة الرسمية لكل منهم، بدت لها قديمة، وقد فقدت رونقها. كان هنالك، تزاحم حول مائدة المأدبة: فهل كمية المشروب والثلج والمرطبات كافية؟ وأكثر من عشر مرات، وبخت بعض الخدم الذين كانوا يتباطؤون بتقديم الشطائر والحلوى. ومع مراقبتها خفية لأعمال الخدمة، كانت تتنقل من مجموعة إلى أخرى، متظاهرة بأنها متحمسة ومهتمة جداً بالأحاديث المتنوعة، تزجي ثناء هنا ومديحاً هناك، تتلقى مثلهما، وتكثر من توزيع الابتسامات حتى تعب فكاها من جراء ذلك.

والأميرة «ليفين» التي تكبدت عناء المجيء، إكراماً لها، هنأتها على جمال منزلها وعلى روعة حفلتها، وظلت هناك إلى آخر الوقت، وكانت بين الأخيرات اللواتي غادرن المنزل، وكان هذا دليل على النجاح.

وبعد انصراف مدعويها، أخذت «صوفيا» تتفقد بأناة وصبر صالونها الذي بدا مشوشاً، تسوده الفوضى، فعلى غطاء المدفأة كؤوس وصحون وسخة، وكذلك على حافة النوافذ، وعلى الأسكملات الجميلة المرصعة بالأصداف. عادت إلى غرفتها، وبدأت كتابة الرسائل، إلى: «داريا فيليبوفنا»، و «ماري فرانتزيف» و «بولين أنانكوف».

- وكانت وهي تثرثر وتتحدث مع صديقاتها المقيمات في روسيا، قد خلعت ثوباً استعارته، وعادت إلى ذاتها الأصلية. وإن كانت لم تتلق أي جواب من «فيرديناند وولف» فقد كتبت له رسالة أخرى، لترسلها إلى برلين. وقد تجرأت هذه المرة، على أن تؤكد له، في العبارة النهائية، أن «ذكراه تتّسم بالمحبة والمودة». وظلت فترة طويلة تتقلب في سريرها، ولا تستطيع النوم، متوترة الأعصاب، تشعر بضيق بالتنفس، وهي تفكر بجرأة ذلك الاعتراف.

وفي اليوم التالي، فاجأتها «ديلفين» في الصباح الباكر، وهي لا تزال تصلح زينتها. وأكدت لها أنه لا حديث في المدينة إلا عن الحفلة التي أقامتها «السيدة أوزاريف، الفاتنة». وتبينت «صوفيا» الإطراء والتملق في حديث صديقتها، ولكنها تقبلتهما منها. ومع توسيعها لدائرة معارفها وعلاقاتها، كانت تزداد دهشة من أن أبناء وطنها، ليس لديهم معلومات صحيحة عن روسيا. والذين حصلوا على أكثر وأفضل المعلومات، هم الذين قرؤوا قصة: «رحلة كوستين» وهؤلاء كانوا يعتقدون أن موسكو تظل مدفونة تحت الثلوج طوال تسعة أشهر كل سنة، ولا يعرفون «بوشكين» إلا لأن فرنسياً، هو البارون «جورج دي هيكرين دانتيس» قتله بالمبارزة، قبل ست عشرة

سنة، وعلاوة على ذلك، فإن هذا الأخير موجود حالياً في باريس، حيث يلمع نجمه ويرتفع رصيده السياسي. والفارس المتألق، الذي حرم روسيا من أعظم شاعر فيها، كان قد أصبح عضواً في مجلس الشيوخ، في نظام الحكم الإمبراطوري. واقتُرح على «صوفيا» أن تتعرف عليه، فرفضت، منحازة بالفطرة، وبصورة لا شعورية للجانب الروسي، في هذا الخصام.

وبالمقابل، فقد اعتبرت أن التعرف على بعض المشاهير المتفوقين، في المجالات الفنية، الفلسفية والأدبية، الذين يتحدث عنهم، جميع من تعرفهم، والتقرب منهم، هو بمثابة تكريم لها. وقد التقت في منزل السيدة «أغولت» بـ «ليتريه» الذي كان بشع الشكل، وعالماً كبيراً، لدرجة أنها لم تجرؤ على أن تتبادل كلمتين معه، وفي منزل السيدة «سويتشين» العجوز القصيرة القامة، واللطيفة التي ترتدي فستاناً بني اللون وتغطي رأسها بوشاح من «الدنتيلا»، وتتعطر بعطر البنفسج، حصل لديها انطباع بأن الكمال الأخلاقي الذي تتمتع به ربة البيت، كان يحث جميع معارفها والمقربين منها، أن يبدوا كالملائكة. وفي منزل «جول سيمون» أصغت إلى «هيبوليت كارنو» وهو يقسم على ثبات قناعاته بنظام الحكم الجمهوري. وهكذا فإن «فافسور» إذن لم يكذب: فالآمال المعلقة على النظام الجمهوري تظل كامنة في قلوب البعض، الذين يتذكرون أيام سنة ١٨٤٨ الحلوة والجميلة. ومع ذلك، فإن هذه البيئة التي لاحظتها والتي كان ينبغي أن تفرحها، وتدخل السرور إلى قلبها، تخلت عنها بلا مبالاة. فقد بدا لها أن نابضاً قد تحطم في داخلها وأنها فقدت ملكة التجاوب مع متطلبات السياسة. ومع ذلك، فإنها عادت إلى صالون الأميرة «دوليفيين»، وحدثتها عن وضع «فافسور». فوعدتها الأميرة بأن تستخدم نفوذها لدى الكونت «دوموروني» كي يعمل على الإسراع بإخلاء سبيل السجين. ومن سوء الحظ، فقد كانت الشرطة قد اكتشفت، بعد ذلك بثلاثة أيام، أي بتاريخ ٥ تموز

«يوليو» مؤامرة على حياة الإمبراطور. وقد تحدثت جميع الصحف عن إلقاء القبض على اثني عشر عضواً في جمعية سرية، في دار «الأوبرا» أثناء عرض إحدى المسرحيات، الذي كان يحضره الإمبراطور وزوجته. وقالت الأميرة «دوليفيين» لـ «صوفيا» إن الوقت غير مناسب للتوسط لمصلحة صديقها الذي تريد مساعدته.

كانت «دوليفيين دوشارلاز» تستعد للسفر إلى «فيشي»، وكان بعض معارف «صوفيا» قد وقع اختيارهم على «تروفيل»، على «ايتروتا» أو على «بياريتز» لقضاء فصل الصيف هناك. وكان يبدو أن البقاء في باريس أثناء فترة الحر، يعتبر دليلاً على سوء التصرف.

وبشكل مفاجئ، خلت الأحياء الراقية والجميلة، من ساكنيها، وغزا القرويون وسكان الريف، شوارع المدينة. وأخذت المسارح تعلن عن عرض مسرحيات هزلية سخيفة، وعن مسرحيات مأساوية أخرى تعرض فيها مشاهد تجعل مشاهديها يذرفون الدموع، وهي من النوع الذي يقدم لعامة الشعب. وعندما تشتد حرارة الجو، كان الرجال ينتظمون في صفوف أمام كوى مسابح «دولينيه» على نهر السين. ولم يكن مرقص «مابيل»، و «قصر الزهور» يتسعان لجميع الرواد. وفي «المسرح الإمبراطوري» كان الطلاب وذووهم يشاهدون التمثيليات الصاخبة، التي تتحدث عن انتصارات نظام الحكم «القنصلي» و «الإمبراطوري».

وبتاريخ الخامس عشر من آب «أغسطس» وبمناسبة عيد مولد الإمبراطور جرى عرض عسكري. وأطلقت الأسهم النارية. و «صوفيا» التي ظلت منزوية في صالونها، كانت تسمع خلال فترة طويلة، صخب وضجيج الجماهير المبتهجة.

ويوم السبت، الواقع في ٢٠ آب «أغسطس» سافر الإمبراطور والإمبراطورة إلى «دييب» في قطار خاص، والعاصمة التي كانت تكويها

أشعة الشمس الحارة، دخلت في حالة من السبات والخمول. وأخذت «صوفيا» تفكر بالذهاب بالعربة، إلى غابات بولونيا، لكي تتمتع بالهواء الطلق، بالجو اللطيف، في ظل أشجار تلك الغابات الجميلة، عندما أخبرها الخادم بقدوم السيدة «فافسور»: فبعد عدة تأجيلات ناجمة عن الروتين وعن الأسلوب السيئ الذي تتبعه إدارة السجن، حصل أخيراً زوجها على إذن بالخروج، في اليوم التالي، وهو يوم الأحد.

وقد هيأ أصدقاؤه، على عجل، حفلة تقام تكريماً له، في مكتبته الكائنة في شارع «يعقوب». فوعدت «صوفيا» بأنها ستذهب إلى هناك، واقترحت أن تأخذ معها بعض أطباق الطعام، الجاهزة، وبعض المشروبات، ولكن «لويز» المعتزة بكرامتها كربة بيت ناجحة، أكدت لها أنها ليست بحاجة لأي شيء.

وبالفعل، فإن «صوفيا» عندما دخلت، في اليوم التالي، إلى المكتبة، وجدت الطاولة الكبيرة الكائنة فيها، يسترها غطاء ظريف، وذاخرة بكثير من اللحوم الباردة وبالسلطات المنوعة، وبعدة زجاجات من الخمر. وكان أكثر من ثلاثين شخصاً، متلاصقين، وقد غص بهم ذلك المكان الضيق. لم يكن بينهم كثير من النساء، أربعة أو خمسة فقط. وكان الرجال، في مجملهم، بملابس تنم عن الفقر، وقد أطلقوا لحاهم، ويتكلمون بلهجة حادة وبصوت قوي. وفي وسط ذلك الحشد، وعبر الهرج والمرج، كان «فافسور» يتصدر المكان، وقد شمر عن ساعديه، وبدا العرق يتلألأ على وجهه، وفي عينيه فرحة تفوق الوصف. ومنذ أن رأى «صوفيا» لم يترك لها فرصة لأن تقول أي شيء. فقد رفع صوته، لكي يسمعه الجميع، وأخذ يروي لهم، ماذا فعلت في فرنسا، أولاً، وفي روسيا، بعد ذلك، من أجل قضية الجمهورية. ولو صدقناه، لكانت، هي التي نقلت فكرة المطالبة بالحرية، إلى «سان بطرسبورغ»، وأن حركة التمرد التي حصلت هناك في

كانون الأول «ديسمبر» هي من عملها، وهي التي دبرتها، وحتى في السجن، فهي لم تكف عن الدعوة إلى النضال ضد القيصر. وكان الشباب، من حولها ينظرون إليها، ويتأملونها وكأنها كانت شخصية تاريخية، ويرون فيها إحدى جدات الثورة، وعلى الرغم من احتجاجها القوي ضد المبالغة في هذا المديح، فإن الأسطورة كانت قد انطلقت. وبينما كان رواد صالون الأميرة «دوليفين» يبدون إعجابهم بها لوفائها لزوجها، ولشدة تعلقها به. كان إعجاب الحاضرين هنا بشجاعتها وبإخلاصها السياسي، قد بلغ الأوج. وفي هذه الحالة، كما في الأخرى، كان الناس مخطئين بشأنها. وهذه السمعة، بل هذه الشهرة، التي تبدو لها أنها مغتصبة ولا تستحقها، لم تكن تستطيع تقبلها. وبعد أن ضحكت قليلاً، تمنت لو تتوارى وتختفي عن الأنظار. ولكن الحاضرين أخذوا يستجوبونها آنذاك، ويصغون إلى أبسط عبارة تتفوه بها بانتباه وتقدير يفوقان الوصف: ما هو رأيها في مستقبل نظام الحكم القيصري؟ هل تعتقد أن فرنسا يمكن أن تتقدم، دون حدوث أي هزات أو أحداث، نحو نظام حكم ديمقراطي؟ وكان لديها رغبة قوية، بأن تقول لهم بأنها لا تعرف عن ذلك أكثر مما يعرف سائلوها، وأنها، علاوة على هذا، قد تعبت وملت، من الترديد غير المجدي، للأحاديث السياسية.

ولكنها لم تشأ أن تجرح شعور أصدقاء «فافسور» الذين كانوا كلهم اشتراكيين مخلصين وصادقين. وبالحقيقة، كانت قناعاتهم تشبه كثيراً قناعات الشباب الذي شاركوا في مؤامرة «بيتراشيفسكي». فبالنسبة لأولئك ولهؤلاء، لم تعد الفكرة المهمة والأساسية، هي تحقيق التحرر والليبرالية، اللذين نجما عن الثورة الفرنسية، بل هي إيجاد رابطة شعبية، من أجل تقاسم هبات وخيرات الطبيعة. وتعطشهم للمساواة وللعدالة، واحتقارهم لمختلف أنواع التمييز، التي لا تنجم عن المواهب والكفاءات،

كل ذلك أدى بهم مباشرة إلى أن يحلموا بمجتمع متسق ومتماثل، لا يملك أحد فيه شيئاً، ويستفيد كل فرد فيه من عمل الجميع. والنضال ضد الاستبداد والحكم الفردي، الذي مارسه سابقوهم، أصبح بالنسبة لهم نضالاً ضد التملك والملكية. ويستندون بذلك إلى المبادئ التي نادى بها: «هيرزين»، «فورييه»، «برودون» وآخر، يدعى «كارل ماركس» لم تكن «صوفيا» قد سمعت به، قبل ذلك أبداً. ولأنهم كانوا يتحمسون في مناقشاتهم، فقد سألت «صوفيا» «فافسور» إذا لم يكن يخشى، أن يقوم البواب، وهو، بالتأكيد، يسترق السمع، بالوشاية بهم. فأجابها بزهو واعتزاز، بأن ما يقال في محله، بين جدران أربعة، لا يمكن أن يعتبر جريمة تنسب له. فأعجبت بكونه، مع استنكاره لنظام الحكم، فهو يثق بالشرطة، إلى درجة يعتقد معها أنه محمي بواسطة قاعدة اللعبة.

كانت «لويز» تتجول بين المدعويين، وترجوهم أن يتناولوا ما يشاؤون من الطعام والشراب. ولعدم وجود مقاعد لجميع الحاضرين، كان الكثيرون منهم يأكلون ويشربون وهم يقفون مستندين على الرفوف المثقلة بالكتب. وكان الدخان ينبعث من المصابيح البترولية في جو خانق. وتيار هواء ضعيف أخذ يدخل من فتحة نصف دائرية في أعلى الباب، مفتوحة على الشارع. و «صوفيا» وقد أزعجتها حرارة الجو، وهي جالسة قرب الطاولة، فتحت مروحتها، وأخذت تحركها أمام وجهها. وكانت تحيط بها أعمدة من البنطلونات. وفجأة، عبر الأصوات المتعالية والمتنافرة، دوت أربع دقات قوية، قرعت على الباب.

فصاح «فافسور»، فرحاً:

- إنه هو!

وسحب المزلاج، فتح درفة الباب، وأدخل رجلاً ضخم الجثة، وهو يبتسم. كان القادم الجديد يرتدي «ريدنفوت» خضراء اللون. نزع قبعته، وأخذ

يصافح الأيدي التي امتدت نحوه. ويبرز جبينه العاجي العريض، فوق عينين صغيرتين مصابتين بقصر النظر، شوهت شكلهما نظارة ضخمة. ولحية كثيفة كالسحابة تحيط بذقنه.

كان يشبه معلماً جلفاً وقاسياً من الذين يعملون في الأرياف. واقتاده «فافسور» نحو «صوفيا» وأعلن بلهجة جادة ورائعة:

- أقدم لك «برودون»! أنت تعرفين من هو، وأريد أن يعرف من أنت!

وأعاد من جديد، «البرودون» مديح تلك التي كانت، كما قال، المشيرة والمرشدة لمتمردي كانون الأول. واضطرت لأن ترجوه أن يصمت ويكف عن هذا المديح، وقد انزعجت مما أضفى عليه من مبالغة وتفخيم. وأثناء ذلك كان المدعوون الآخرون قد شكلوا حلقة حولهما. ولتغيير مجرى الحديث، سألت «صوفيا» «برودون» ماذا كان يكتب آنذاك.

فأجابها، قائلاً:

- أكتب عن أمور كثيرة! تاريخ الديمقراطية، ملاحظات، ورؤوس أقلام، لوضع دراسة عن نابليون..

كان يبدو ضجراً، شارد الذهن. وعندما سأله شاب أرعن طويل الشعر، بلهجة فيها شيء من الوقاحة عن «علاقاته الجديدة في السلطة».

أجابه، متذمراً:

- ليس هنالك ما أشكو منه، فقد تركوني وشأني..

- والسبب في ذلك واضح، فأنت كما يقال عنك، قد أعلنت عن خضوعك، وتأييدك لنظام الحكم الحالي!

فرد عليه «برودون»، مغتاظاً:

- معلوماتك مغلوطة، أيها الشاب! فلأنني لا أكن أي تقدير، لـ «لويس نابليون»، فأنا لا أرغب بمخاصمته بصورة علنية. وهو بعجزه وبعدم كفاءته، سيخدم أهدافنا، بشكل أفضل مما نستطيع، نحن، أن نخدمها

بموهبتنا وكفاءتنا. وبمحاولتنا تنحيته عن الحكم، قبل أن تكتشفه، وتكرهه الجماهير الواسعة، فنحن نجعل منه ضحية، بل شهيداً، وسلطة من يخلفه في حكم البلاد، سوف تصبح أشد قوة وصرامة، وعلى النقيض من ذلك، إذا تركناه يسيء إلى نفسه، ويقترف الأخطاء والأكاذيب، بصورة متوالية، ويتعثر من خطأ إلى خطأ آخر، سنضمن الفوز، بالتأكيد!

فانبرى مراهق آخر، وسأله بلهجة فيها شيء من التحدي والاستفزاز:

- وهكذا، فأنت ترى إذن أنه من العبث الرغبة بالبقاء في السجن أو في المنفى، وأنه لا جدوى من ذلك، بدافع الوفاء للمثل العليا الديمقراطية؟!

- تماماً! فجميع الذين يرفضون العفو، حمقى، وأنا، من جهتي، لم أتردد لحظة واحدة في قبول الحرية التي عرضت علي! وأنا، في ظاهر الأمر، أتصرف بشكل جيد، وأنشر بموافقة الحكومة. وانتظر الساعة، التي ستنهار فيها، وتهوي من تلقاء نفسها هذه الدمية «الأمعة» التي دفعت إلى مسرح الحكم بواسطة انقلاب الثاني من كانون الأول «ديسمبر»...

- هذا مفهوم للثورة، بورجوازي جداً!

- وماذا في ذلك؟ أنا أريد بالفعل إجراء المصالحة بين الطبقة البورجوازية «الوسطى» والطبقة العمالية، الأجور ورأس المال، في شيوعية بلا حقد ولا كراهية.

وأريد أن أعيد إلى المجتمع بمشاركة اقتصادية الثروات التي ذهبت منه بمشاركة اقتصادية أخرى. وأريد أن أحرق الملكية بنار هادئة، خوفاً من أن تعادلها قيمة صوفية وروحانية معينة، لو حدثت مذبحة ذهب ضحيتها أصحاب الأملاك وهذا الحديث الذي يتسم بالاعتدال، أوقع الحاضرين في حيرة.

وقال «فافسور»:

- أنت حر بأن تعتقد أن نظام الحكم الإمبراطوري سينهار وينتهي مع الزمن من جراء الفساد والتعفن، ولكني، أنا، لم أعد أستطيع الانتظار.

ومن جيل إلى جيل آخر، يؤجل بعض المنظرين العقلاء والحذرين، إلى ما بعد، أي إلى وقت آخر في المستقبل، القيام بالعمل الحاسم. ويبدو لي أنه لو اتحد بعض الرجال الشجعان لقلب نظام الحكم...

فهز «برودون» كتفيه العريضين، وقال:

- لن أكون معكم في هذا المشروع. فالعنف السياسي أصبح مفهوماً بائداً. والاشتراكية بحاجة لاقتصاديين، وليس لجزارين!

- إذن، لو دعاك الإمبراطور، غداً للتشاور، وتبادل الرأي معه، فإنك ستذهب لمقابلته؟

- من دون شك! وبما أنه يدعي محبة التقدم الاجتماعي، فيمكنني تشجيعه على أن يحسّن بألف إجراء خيّر وكريم، مصير وأوضاع الناس الفقراء. وسأعمل بطريقة أجعله فيها يأخذ على عاتقه جانباً من برنامجنا، وبذلك فإنه سيختلف مع الأحزاب القديمة، ويدب الشقاق والفرقة بينه وبينها. وباختصار، فإني سأستخدمه للتحضير لقيام الحكم الديمقراطي، وتحقيق الديمقراطية!

فقال له «فافسور»:

- أنا معجب بك، وبآرائك، ولكني لو دعيت غداً للتشاور مع نابليون الثالث، فربما ذهبت، ملبياً دعوته، ولكني سأخبئ قنبلة تحت ذيل معطفي!

فقهقه الجميع، ضاحكين، وهدأت الأعصاب المتوترة، وتبدد الانزعاج الذي اعترى بعض الحاضرين. ثم أشار أحدهم إلى إمكانية نشوب الحرب. فصرح «فافسور»:

- ستكون هذه أمنيتنا الكبرى!

فصاحت «صوفيا» غاضبة:

- كيف يمكنك أن تقول ذلك؟!

فرد عليها «فافسور»، قائلاً:

- ولكن، ماذا في ذلك، يا صديقتي العزيزة، فكري قليلاً!

فالحرب ستشكل اختباراً مصيرياً، بالنسبة لنابليون الثالث، فبعد أن يرسل جيشه، إلى الشيطان، إلى جهنم، بالقرب من تركيا، لن يكون لديه كثير من الناس لكي يحموه، في حالة حدوث ثورة شعبية! وكل ثوري حقيقي يجب أن يأمل ويتمنى أن تتشب الحرب وتحتدم المعارك في المشرق! ولكن، لسوء الحظ فإن الدبلوماسيين منهمكون في تسوية الأمور. وفرنسا تضيف الماء إلى نبيذها، وروسيا تضيفه إلى الفودكا، التي تشربها. ولإشغال قادة جيشنا وجنرالاته، فسيكتفي بمتابعة تهدئة الأمور في الجزائر. وأبناء «القبائل» الشجعان، يتابعون تقديم أنفسهم للقتل، لكي يتحقق المجد لـ «مكماهون» والجمهور، عندما يطالع الصحف، سيتأكد من أن قوة الإمبراطورية لا تقهر!

وسخرية «فافسور» التي تتسم بالمرارة، أزعجت «صوفيا»، أكان هذا بتأثير التقدم في السن؟ - لقد كان لديها انطباع، بأن أي فكرة سياسية لا تستحق أن تراق من أجلها قطرة دم. وفيما مضى، كان اختيار الوسائل لا يربكها كثيراً، عندما كانت الغاية تبدو لها سليمة وعادلة.

أما اليوم، فهي تبدو كمصابة بمرض العطف على الجنس البشري.

فهل كان «برودون» بحسه السليم والقوي، هو الوحيد هنا، الذي يستطيع أن يفهمها؟ وها هو قد صمت. واستغرق في التفكير، مستاءً، ومنزوياً في لحيته. وأخذ «فافسور» وأصدقاؤه، عند ذلك، يتحدثون عن المبعدين إلى لندن. وبعد ذلك أخذوا يروون، ويتبادلون حكايات غريبة ومضحكة عن سجن «سانت - بيلاجي». وفتح قليلاً الباب المؤدي إلى القسم الداخلي في المكتبة، واصطفت رؤوس عدة أطفال في فتحته. وأخذوا يتابعون، بعيون جاحظة، لعبة الأشخاص الكبار، دون أن يتمكنوا من

فهمها. وأعادتهم أمهم إلى الداخل، بعد أن أعطت كل واحد منهم قطعة من اللحم المشوي. وبعد ذلك بقليل، قال «برودون» إن زوجته مريضة، وقد وعدها أن يعود، في وقت مبكر إلى المنزل، وانصرف مسرعاً.

وحالما أغلق الباب، تعالت الأصوات، كما يحدث في أحد الصفوف المدرسية، بعد انصراف المراقب. وبدأ واضحاً أن هذا الرجل الذكي والقوي كان يزعج الآخرين في رغبتهم بالجنون الثوري. وأخذ بعضهم يناقشون فرص القيام بالاعتداء على نابليون الثالث. وأخذت «صوفيا» تراقب «فافسور» الذي بدا مبتهجاً. بريق الفرح يشع من عينيه. وليس هناك أي شك بأنه من أولئك الثائرين، المتمردين على الدوام، الذين يبدو أي نظام سياسي، بالنسبة لهم، غير مقبول ولا يستطيعون تحمله.

ولو أصبحت فرنسا، غداً، مطابقة لما يرغبه اليوم، لوجد ذريعة، لينتقل من جديد إلى صفوف المعارضين، فهو لا يشعر بالسعادة إلا في الاغتياب والتشهير، والتآمر والكراهية. وفي وسط هذا الجو المخيف، والتهديد بالموت، كانت «لويز» تتجول، تذهب وتجيء، مبتسمة، تقدم الحلوى والمرطبات. وأرادت «صوفيا» بدورها أن تستأذن بالانصراف: فقد شعرت بصعوبة بالتنفس. فتوسلت إليها «لويز» أن تبقى بضع دقائق أخرى: إذ إن مأذونية «أوغستان» تنتهي عند منتصف الليل. ويمكن أن يرافقه الجميع، سوية، إلى السجن.. وكانت بادية التأثر في توسلها، وفيما بذلت من جهد، بحيث أن «صوفيا» اقتنعت ووافقت على البقاء.

ولم يكن قد بقي في المكتبة سوى ثمانية أشخاص، عندما أعلن «فافسور»، بعد أن ألقى نظرة على ساعته.

- لقد حان موعد ذهابي، يا أصدقائي! وقد وعدت بذلك!

فأطفأت «لويز» المصابيح، وخرجت المجموعة الصغيرة إلى الشارع. وصعد «أوغستان» وزوجته إلى عربة «صوفيا». وتوزع المدعوون الآخرون

على عربتين. وانطلقت القافلة الصغيرة، خبباً. وكانت حوافر الخيل تهز قطعاً في مدينة نائمة. كانت جميع النوافذ مظلمة، ولكن من بعيد كان يبدو، أحياناً، ضوء شاحب من أحد المصابيح. وظلال العربات كانت تنسحب، متخذة أشكالاً مختلفة على الجدران التي بدت بلون القمر. وفي بعض الأحيان كانت تبدو على تلك الجدران، عبارات كتبت بالفحم: «يعيش باربيس!» أو «يسقط بونابرت!» ونزلوا من العربات في زاوية شارع «المفتاح»، متأخرين، خمساً وعشرين دقيقة. ولم يكن ذلك بالأمر الخطير. وكان هنالك خفير نائم وهو واقف في محرسه.

وعانق «فافسور» زوجته، ربت على أكتاف أصدقائه، وقال: متأوهاً:

- «أنتم، يا من تدخلون إلى هنا، اتركوا جانباً كل الآمال!»

فأخذوا يواسونه ويشجعونه:

- هيا! تشجع! لن تبقى هنا زمناً طويلاً!

- عندما تخرج من السجن، سنقوم بأعمال عظيمة!

وسألته «لويز»:

- أمتأكد، أنت، أنك لم تنس شيئاً؟

فتنشط، وقرع الباب بقوة، ثم ضم ذراعيه على صدره، في وضعية رجل ينتظر بسكينة وهدوء، قدوم الجلاد. وفتحت الكوة. وسأل صوت أجش:

- ماذا تريد؟

فقال «فافسور»:

- أنا عائد إلى السجن.

- ما اسمك؟

- «فافسور، أوغستان - جان - ماري».

- انتظر لحظة!

وابتعد الحارس، فهو، دون شك، سيراجع سجله.

فقال «فافسور» حانقاً:

- لولا القليل، لرفض أن يستقبلني!

وانقضت دقيقتان. وفتحت نافذة في الطابق الثاني من المنزل المجاور، وأفرغ أحدهم «طشتاً» على بلاط الشارع. وعاد الحارس، وقال:

- موافق، هيا ادخل!

ودار الباب على محوره، فاجتاز «فافسور» العتبة، مرفوع الرأس.

٦

كان لدى مصلحة البريد في روسيا نزوات غريبة، وتصدر عنها تصرفات لا يمكن تفسيرها: فبعد عدة أشهر من الانقطاع والصمت، تلقت «صوفيا» فجأة، رسالة من «فاسيا فولكوف» يعتذر فيها عن كونه يجيبها على رسالتها، بالنيابة عن أُمّه التي كانت طريحة الفراش، لأنها مصابة باليرقان:

«.... لا شك بأنك ترغبين بالحصول على بعض أخبار «كشتوفكا»؟! إيه! لقد أصبح «ابن أختك» غريب الأطوار، تماماً: ولم يعد وارداً زواجه من ابنة الحاكم. وهكذا، تكون الفتاة قد نجت بأعجوبة! وعلاوة على ذلك، فإن لدي انطباعاً، بأنه لن يتزوج أبداً. وملكيته تقوم مقام الزوجة بالنسبة له.

وفكرة سلطته على أرضه وعلى الساكنين عليها، تسكره وتدوخه، وتكاد تؤدي به إلى جنون العظمة. وهل تصدقينني إذا قلت لك إنه أمر بدهن بيوت الفلاحين كلها باللون الأبيض الناصع، وعلى كل بيت، رقم باللون الأسود، وإن فلاحي كل قرية يرتدون قمصاناً مختلفة الألوان: «قمصان زرق لفلاحي «شتكوفو»، وخضر لفلاحي «بولوتنوي»،... الخ» وإنهم يذهبون إلى العمل، على قرع الطبول، تحت أمرة بعض «السواقين» المسلحين بالهراوات، وباختصار، فإن الملكية بكاملها، اتخذت طابع ميدان المناورات العسكرية، المزارع فيها هي الثكنات، والفلاحون هم الجنود. وكل هذا كان يمكن أن يبدو مضحكاً وحسب، لو لم يكن

كثير من هؤلاء البؤساء، ضحايا لهذه النزوة! ولكن، لاحظي أنهم لا يشكون ولا يتذمرون، بسبب ذلك: فهم يحصلون على طعام جيد، وعلى سكن مناسب، ومطمئنون بأنهم لن ينقصهم شيء في المستقبل... وقلت بالأمس لأمي كم أنا سعيد لأنك لم تشهدي هذا التنظيم العسكري والتجنيد الذي فرض على فلاحيك.

ولأنك كنت ستعجزين عن منعه، فكان من المحتمل أن تقعي فريسة المرض.. أنا أحلم بحياتك في باريس، عاصمة الفكر والأناقة. ولا بد من أنك لا تجدين دقيقة تخلين فيها إلى نفسك.. هنا، الحياة رتيبة تماماً، كأحد تلك الأنهار العريضة، الروسية، التي تعرفينها. وأيامي، عبارة عن تثاؤب طويل ومتكرر. حتى المطالعة لم تعد تستهويني ولا تعنيني. وأتبادل، بين الصباح والمساء، أربع جمل عادية ومبتذلة، مع أمي. آكل أكثر مما ينبغي، وأشرب دون أن أشعر بالعطش...

بالأمس، هبت عاصفة هوجاء.. وفرسنا السوداء نفقت وهي تضع مولودها.. ومحصول البطاطا، الأخير، كان ممتازاً...»

كانت «صوفيا» وهي تقرأ تنتقل من عالم إلى عالم آخر. وشيئاً فشيئاً عاودتها مشاغلها واهتماماتها السابقة: مصير الفلاحين العبيد، الحصاد وجني المحاصيل، خطورة الأضرار التي يسببها البرد. وكانت، كما لو أنها وقد أوشكت على التأقلم في فرنسا، تنفست نفحة من الهواء الروسي. وشعرت فجأة بالنقمة على تلك البلاد البعيدة لأنها لا تدعها تنساها بسهولة. وأي علاقة لها الآن مع جماعة «كشتنوفكا»؟ «سيرج» «أنتيب»، السائق «دافيد» و «زوي» الوصيفة، «داريا فيليبوفنا»، «فاسيا»: أشباح، إنهم ليسوا سوى أشباح! ووضعت نظارتها، وأعادت الرسالة إلى مغلفها. وقد تزايد اضطرابها. والفرح الذي شعرت به في البداية، تحول إلى كآبة عقيمة. وبدلاً من أن تخرج لتتنزه، كما كانت قد خططت، فقد بقيت في المنزل،

تستعيد الذكريات، تفتح الأدراج وترتب بعض الأوراق القديمة المصفرة. فما هذه البقية الغريبة من الفواتير، والمصدقات الإدارية، وجوازات السفر، وبرامج المسارح، والرسائل المنسية، كل ذلك يترك وراءه حياة بشرية! لم يكن «سيرج» قد كتب لها، ولا مرة واحدة، بعد مغادرتها روسيا، ولكن حوالاته المالية كانت تصل بانتظام، لا غبار عليه. كما أنها لم تصلها أيضاً أي رسالة جديدة من سيبيريا.

وكون بريد «متمردي كانون الأول» تحتجزه الرقابة، فهذا ما كان ليمنع «ماري فرانتزيف»، التي تحميها وظيفة والدها المرموقة من المراسلة مع فرنسا. وكيف كان يعيش «فيرديناند وولف»؟ وتصورته «صوفيا» في غرفته الصغيرة متحدثاً مع أحد المرضى، وهو يكتب له الوصفة. فشعرت بسعادة غامرة: فهي محبوبة عن بعد، وإلى الأبد. وظلت هكذا، حتى المساء، ترتب وثائق لا فائدة منها. وعند الساعة التاسعة، وقد سئمت من كل ذلك الماضي الذي حركته بالمذراة، تناولت عشاءها المؤلف من أطعمة خفيفة، وهي تجلس قرب النار التي تشتعل في المدفأة.

كان شهر أيلول «سبتمبر» رطباً وبارداً. وكان قد عاد الكثيرون من الباريسيين من المصايف التي أمضوا فيها إجازاتهم. ووصلت «ديلفيين»، وقد تجددت قواها بتأثير مياه «فيشي» المعدنية، وأرادت أن تستأنف على الفور نشاطها في الحياة الاجتماعية.

فرافقتها «صوفيا» إلى حفلة رقص، تنكرية، أقامها أحد أصحاب السفن الأغنياء، في حيّ «بورت - سان - مارتان»، بعد الانتهاء من عرض إحدى المسرحيات. كان المدعوون يرقصون على المسرح على أنغام فرقة موسيقية، يرتدي أفرادها ملابس رجال الإطفاء. وبين اللوحات القماشية التي رسمت عليها حدائق، على الطريقة الفرنسية كان ينتقل ويتمايل الراقصون، وقد تنكروا بأزياء غريبة، ومتنوعة، ووضعوا على وجوههم

أقنعة ترمز إلى نماذج لا تحصى من الشخصيات، والناس العاديين. وكانت «صوفيا» تجلس في إحدى الشرفات، مسرورة بهذا المشهد الذي يسوده الهرج والمرج. وأعجبت بكثير من المدعوات اللواتي من دون جميلات في نظرها كانت عيونهن تبرق في ثقوب الأقنعة. أعناقهن مستديرة وطويلة تلفت الأنظار وأقدامهن رشيقة، سريعة الحركات. ومع تقدمها بالسن أصبحت أكثر فأكثر تأثراً بجمال النساء. فنضارة وجه وفتنة لفتة أو حركة، تثير اهتمامها وجاذبيتها. وأي مخلوق يكون في بداية حياته يجذبها بشكل لا يقاوم، ويستدعي منها الدعم والعون. وحتى أولى تباشر الصباح، لم تشعر بتعبها. وعندما غادرت القاعة بصحبة «ديلفين»، كان أصحاب الدكاكين يفتحون أبواب دكاكينهم، وبعض ربات البيوت يمشين مسرعات في الشارع. وعند أبواب المطاعم، كان منظفو الشوارع يكنسون القمامة ويحملونها في طنابرهم، وبدا فيها كثير من أصداف المحار، وفي السماء بدا ضوء وردي اللون أخذ ينساب على أسطحة المنازل، بين مداخن المدافئ، السوداء. وكانت العربة تسير بسرعة في شوارع باريس التي كانت لا تزال مستغرقة في نومها، وقد تراكمت فيها الأوساخ. وكانت «صوفيا» تفكر، بمتعة وسرور، كيف ستستلقي على سريرها. وكانت تعتقد أنها ستظل منهكة طوال الأسبوع، ولكنها في اليوم التالي، ذهبت مسرعة إلى مسرح «الجيمناز» لكي تشاهد تمثيلية «لوبريسوار» وهي مسرحية قروية، من تأليف «جورج ساند»، وبعد ذلك بيوم، ذهبت إلى «المسرح الفرنسي» حيث شاهدت مسرحية هزلية - راقصة لموليير، بعنوان: «le mariage forcé» «زواج بالإكراه»، وأعجبت بها كثيراً، لسهولة وبساطة نصها وحوارها، ومهارة الممثلين وظرفهم. وفي ندوة المسرح، كان الرواد يتحدثون بغيظ، عن رحيل الممثلة، الآنسة «راشيل» التي دعاها القيصر للعمل في المسرح الإمبراطوري في «سان بطرسبورغ» حيث ستشارك في التمثيل أثناء تقديم

مائة مسرحية، ستعرض هناك، وكانوا يتهامسون بأنها ستتناول لقاء ذلك، أربعمائة ألف فرنك من صندوق الإمبراطور، الخاص.

ومن هذه الأحاديث والإشاعات، لم يسترع انتباه «صوفيا» سوى أمر واحد، وهو: «إذا كان القيصر قد استدعى الآنسة «راشيل» إلى روسيا. فهذا يعني أن الحرب لن تنشب في القريب العاجل ومع ذلك، فبعد انقضاء فترة ساد فيها الهدوء، عادت الصحف لنشر الأخبار المثيرة والمزعجة: فتركيا متشددة في موقفها. ومؤتمر «أولموتز» الذي حضره القيصر وحلفاؤه البروسيون، والنمساويون، لم يسفر عن شيء. وبدا أن تجنب حدوث العاصفة، يحتاج إلى معجزة، والمعجزة وحدها يمكنها أن تمنع وقوعها. ومع ذلك، لم يكن رأي الكونت «كيسيليف» القائم بأعمال السفير الروسي في باريس، متشائماً إلى هذا الحد، ولا يتفق مع هذا التوقع. وكانت «صوفيا» قد استمعت إلى حديثه، في إحدى الأمسيات، في صالون الأميرة «دوليفين»، فكان يبدي تفاؤلاً يبعث على السرور والاطمئنان. ولم تكد «صوفيا» تشعر بالراحة والاطمئنان بسبب الحديث الذي سمعته من تلك الشخصية العالية المقام، حتى قرأت في صحيفة «لي ديبا»: «المناقشة أو الجدل» أن الأعمال العدائية، قد بدأت بين الروس والأتراك.

وفي مطلع شهر تشرين الثاني «نوفمبر» نشرت الصحف نداء القيصر «نيقولاي الأول»، الذي يرد به على إعلان تركيا الحرب: فهو يطلب فيها من العلي الأعلى، أن يبارك أسلحته في عملها «من أجل القضية العادلة والمقدسة» التي دافع عنها على الدوام «أجداده التقاة».

وعلى الرغم من هذا النداء والإعلان فيه عن العقيدة الدينية، فقد ظل الروس المقيمون في باريس يتشبثون بالأمل بأن لا شيء سيعكر صفو العلاقات بين وطنهم وفرنسا. وقالت الأميرة «دوليفين» «إن أسباب هذه الحرب ودوافعها هي أسخف من أن يدعمها ويؤيدها بلدان متحضران.

وبماذا يتعلق الأمر، بالواقع؟ بالقدر الأكبر أو الأقل من الحماية التي يمكن أن تمنح من قبل القيصر لبعض الكهنة الذين لا يتبعون مذهب فرنسا ولا مذهب إنكلترا! ومن أجل هذه المسألة التي لا تعنيهم بشيء، هل ستعمد إنكلترا وفرنسا إلى سفك دماء أبنائهما؟...» وكان بعض المعلقين الأكثر جدية، يلفتون النظر إلى أن فرنسا إذا كانت غير معنية مباشرة بهذه القضية، فإن إنكلترا، من جهتها كانت تتطلع بغيرة وحسد إلى ازدهار وتوسع التجارة الروسية، وتغلغل الروس المتزايد، وتدخلهم في منطقة حوض الدانوب، في آسيا الوسطى، وفي الشرق الأقصى.

و «صوفيا» التي كانت، نادراً ما تقرأ الصحف، فيما مضى، أصبحت تشتريها كلها الآن، وتنزعج كثيراً من تناقض الأخبار التي تنشرها هذه الصحف.

وفي اشتباك حصل في «أولتنتيزا»، على نهر الدانوب، يقال أن جيش الأمير «غورتشاكوف» الروسي، مني بهزيمة دامية أمام الجيش التركي، بقيادة «عمر باشا»، وبالمقابل، قام الأميرال «ناخيموف» بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني «نوفمبر»، على رأس ست بوارج وسفن حربية كبيرة، باقتحام مدخل مرسى «سينوب» ودمر، خلال ساعة واحدة أسطولاً عثمانياً كبيراً. وهذه العمليات الأولية، التي قام بها كل من الطرفين، بقوة وغيظ، دلت على أن الحرب ستكون مدمرة وطويلة الأمد. وأخذ الرأي العام، في باريس، شيئاً فشيئاً، ومع مرور الوقت، يعلن عن عدائه لروسيا. وفي الأوساط الراقية والحسنة التفكير، كان الناس يقدرون أن موقف فرنسا في قضية «الأماكن المقدسة»، مستوحى من فكرة دينية عالية المستوى و «فيكتور هوغو» في كتابه: «les châtiments»: «العقوبات» الذي عبر الحدود خفية إلى روسيا، يصف «نيقولاي الأول» بالطاغية، وبمصاص الدماء، ويرثي للشعب الروسي الخاضع لسلطته ولإرادته.

كان الجو بارداً جداً، و «صوفيا» كأنها في غربة في هذا الشتاء الداكن المرمد، وتكون هذه أول مرة منذ ثلاثين سنة، ربما لن ترى الثلج في عيد الميلاد، وكان يبدو لها أن الأعياد، إذا مرت هكذا، فإنها تفقد سحرها وشاعريتها. فهي معتادة تماماً على تقاليد بلاد الشمال، وعلى شجيرات الصنوبر المزينة باللعب وبالشموع، لدرجة أنها تأسف لعدم مبالاة الباريسيين بهذه التقاليد. فهم لا يفكرون إلا بقداس منتصف الليل، بهدايا العيد وبالحفلات الراقصة. وفي الأحياء الأنيقة، أخذت المخازن تتنافس في معروضاتها. والناس يمرون ببعضهم وعلى وجوههم سيماء الفرح والبهجة. ولكن أين السر الخفي - النصف - مسيحي، والنصف وثني - المكون من الجليد، من الأساطير، ومن الحميمية العائلية، التي تتسم بها أعياد الميلاد، هناك؟ وفي كثير من الأحيان، أثناء مشاويرها في المدينة كانت ترفع نظرها نحو النوافذ، وتحزن لأنها لا تلمح عبر الستائر الرقيقة، الشجيرة الداكنة والمخروطية الشكل، التي كان يحلم بها جميع أطفال روسيا. وتبادر إلى ذهنها، أن ميلاد السيد المسيح لن يحتفل به في «كشتنوفكا» إلا بعد اثني عشر يوماً، بسبب الاختلاف بين التقويمين: الغريغوري واليوليوسي.

«أي الفرق بين التقويم الغربي والتقويم الشرقي، وهو معروف عندنا، بأنه ثلاثة عشر يوماً». وفي ذلك الوقت، تقوم ربات البيوت، في جميع المدن وجميع القرى، الأرثوذكسية، بتحضير المآكل التي لا لحم فيها ولا دهن، للأسبوع الأخير من الصوم الكبير. ورافقت «ديلفين» لحضور قداس منتصف الليل، ولكنها رفضت السهر معها، وظلت يوم عيد الميلاد، وحدها، في المنزل تحيط بها الكتب.

وفي اليوم التالي، كانت لا تزال في السرير، عندما أحضرت لها «فالنتين» على صينية، طعام الفطور، وبريدها. وكانت إحدى الرسائل

صادرة عن «توبولسك». ففتحتها «صوفيا» بيدين مرتجفتين. أيمكن أن تأمل أفضل من هذه الهدية، في آخر السنة،

كانت الرسالة من «ماري فرانتيزيف» فمرت بنظرها، بسرعة على مقدمتها، ثم وقع نظرها، وكأن حدثاً خفياً قد جذبها، إلى سطر في وسط الصفحة: «عزيزنا الدكتور وولف».. وفيما بعد، كلمة: «مات». فشعرت «صوفيا» بصدمة هزت دماغها. فلا يمكن أن تكون هنالك علاقة بين عنصري هذه الجملة. فعادت إلى الوراء، والغم يملأ قلبها، وقرأت: «عزيزنا الدكتور وولف، الذي قام بكثير من الأعمال الخيرية، في محيطه، وفي الأماكن المجاورة له، توفي يوم ١٤ أيار «مايس» الماضي. وقد قضت على جسمه الذي أنهكه وأضناه التعب، الحمى الدماغية. كان يعمل أكثر مما ينبغي، ولا يحتفظ بساعة، ليرتاح فيها، طوال النهار، وبالنسبة لنا، جميعاً، فقد شكل رحيله، خسارة مخيفة» وردت «صوفيا» رأسها على الوسادة، وبدا لها، خلال بضع ثواني، أنها تسبح في فضاء واسع، مقفر، كئيب وقدسي. وكان جسمها كله كأن كارثة قد حطّمته. وشعرت بالمرارة في حلقها. وأخذت الدموع توخز عينيها. كانت تلهث وترتجف. وعضت شفتيها وأدمتهما. واندفعت، بشك مفاجئ نحو مكتبها، فتحت درجاً، تناولت منه رسالة «فيرديناند وولف» وتأملتها، وهي شاردة الذهن، عبر نظارتها: عندما تلقتها، في شهر حزيران «يونيو»، كان قد فارق الحياة. وإلى ميت، إنما كانت قد كتبت جواب رسالته، بكل بهجة وسرور، وبكل أمل، وبغنج ودلال أيضاً! وإنما إلى ميت، كانت قد وجهت الاعتراف المقنع، بمحبتها له! وإلى ميت، كانت قد كتبت، في الفترة الأخيرة، أيضاً، لتحدثه عن زياراتها وعن مشاريعها! وكانت تقول في سرها: «مسكين! يا له من مسكين!» وكم أنا مغفلة! فلو أني بقيت بقربه، وساعدته، وسهرت على صحته، ربما كان لا يزال حياً، اليوم؟! وأخذت

تتصوره، وهو يعاني من حشرجة الموت، وحيداً، على سريره الحديدي الصغير في الغرفة المعتمة، السيئة الإضاءة، وهل ناداها، في هذيانه؟ ولكم كانت تود أن تعرف آخر فكرة خطرت على باله. ثم رضخت، منصاعة للأمر الواقع: فما جدوى ذلك؟ وأخذت الذكريات المختلفة، والتي لا رابطة بينها، تتوارد على ذاكرتها: موقف مألوف لـ «فيرديناند وولف»: رأسه منحنٍ نحو كتفه، طاقيته المخملية مشدودة على مؤخرة عنقه، ابتسامته التي تنم عن الشك، يداه النحيلتان اللتان تركت الأحماض أثرها عليهما... وبهدوء وبطء، أخذ وجه الطبيب، يتغير شكله، ويبدو أكثر شباباً وفتوة، ويصبح وجه «نيقولا»، وهذا التحول لم يدهش «صوفيا» فـ «فردیناند وولف» هو «نيقولا»، هذا ما تبادر لذهنها، وقد حصل لديها انطباع بأنها تفكر بسرعة كبيرة، وأنها ليست تماماً في حالتها العادية والطبيعية. فمن حزن إلى حزن، ومن حداد إلى حداد، أخذت المساحة الحساسة في روحها تتقلص وتضيق. وقريباً يمكن ألا يبقى لها منها، حتى ما يكفي من الوعي، لكي تتألم.

وأمضت كل صبيحة نهارها في السرير، فاترة الهمة، تعاني من الذهول. وعند الظهر، ساعدتها «فالنتين» على ارتداء ملابسها. وتناولت طعام الغداء، بصورة تلقائية، على منضدة صغيرة، في الصالون. وكانت قطرات المطر تنزلق وتنساب على زجاج النافذة. ولم يكن هنالك ثلج، وربما لن يتساقط الثلج أبداً، بعد ذلك الحين. وشربت ثلاثة فناجين قهوة شديدة السواد والمرارة. وتوقفت نظرتها على اللهب الذي يتراقص في المدفأة. وكانت تدور هناك قصص عجيبة عن الفروسية، شخصياتها الشرارات، وأطرها قصور ذهبية، أرجوان، وفحم ينتشر منه الدخان.

وبينما هي مستغرقة في تأملاتها وأحلامها، دخل «جوستان» وقال لها:

- السيد «فافسور» طلب مني أن اسأل سيدتي فيما إذا كانت تستطيع استقباله.

فبدرت من «صوفيا» حركة تنم عن الضيق. كانت تحب أن تبقى لوحدها، منفردة مع همها. ولكن، من المؤكد أن «أوغستان» قد حصل على مأذونية لقضاء بضع ساعات خارج السجن، بمناسبة الأعياد. ولذلك فهي لا تستطيع أن ترفض استقباله.

وقالت، بلهجة تنم عن الضجر:

- أدخله.

واتخذت هيئة مناسبة لمقابلته.

ومن العتبة، صاح، «فافسور»:

- انتهى كل شيء! وها أنا حر طليق! هدية الإمبراطور، بمناسبة رأس السنة، للمساجين، وهم يستحقونها!

كان وجهه الذي بدت عليه أمارات الشيخوخة، يطفح بفرحة غامرة تحت شعره الكثيف الأشيب والمشعث.

فقالت «صوفيا» بحماسة مصطنعة:

- هذا رائع، فمساعينا كلنا، لم تذهب عبثاً وبلا جدوى. ومتى أخلي سبيلك؟

- صباح اليوم، وكما ترين، فأول زيارة أقوم بها، هي لك!

- أنا متأثرة جداً بذلك! وأتصور سعادتك باللقاء بزوجتك وبأبنائك! والآن، يقتضي الأمر أن تجعل المسؤولين ينسونك!

فقطب «فافسور» حاجبيه، وقال من زاوية فمه:

- يقتضي الأمر، على الخصوص، تهيئة المستقبل. وقد أتيت الآن لأحدثك بشأن العمل. وأنت تعلمين أن أصدقاءنا جاهزون للعمل!

فسألته بجفاء:

- أي أصدقاء؟ أي عمل؟!

فجلس قرب المدفأة، بسط يديه نحو اللهب. وكانت أرنبة أنفه، ذقنه وشفته العليا، وقد غمرها الضوء الآتي من الأسفل، تبدو لامعة كالنحاس أخذ يحرك أصابعه بهدوء، عبر الحرارة المنبعثة من المدفأة. وقال:

- لقد حان الوقت لإسقاط «قيصر الكرنفال» وموكب المساخر، هذا! وتتشكل الآن منظمة، ستضم جميع الجمهوريين المخلصين. وقد فكرت بك، على الفور لكي تنضمي إليها...

فتنهدت وقالت له:

- أنا متعبة، يا «فافسور» ألم تسمع ما قاله لكم «برودون» فمن الأفضل ترك الأحداث تأخذ مجراها، والأوضاع تتدهور وتنهار من تلقاء نفسها...

فقفز واقفاً على قدميه، وأخذ يمشي في كل الاتجاهات، بخطوات رشيقة، كخطوات مالك الحزين، وهو يحدّق في جوانب الغرفة بنظرات مدمرة. وقال:

- لقد تجاوزنا مفاهيم وأفكار «برودون» التي عفا عليها الزمن، فهو ليس سوى داعية، وليس تقنياً. ولو ترك وشأنه لظل يدور حول نفسه في حلقة من المبادئ والشعارات التي تثير الإعجاب. وصانعو الثورة الحقيقيون، ليسوا أولئك الذين يحلمون، بل أولئك الذين يجازفون بحياتهم في مشاريع تتصف بأقل قدر ممكن من المثالية. وأصدقاؤك «متمردو كانون الأول» لم يترددوا في استخدام السلاح. ولماذا نكون، نحن، أقل شجاعة من الروس؟ ولكننا لن نرتكب خطأ البدء بالعصيان والتمرد العسكري، فقبل مهاجمة الحكم الإمبراطوري، يجب القضاء على الإمبراطور وإزاحته، وهذا أمر سهل: يمكن قتله في ميدان سباق الخيل، إلقاء قنبلة عليه في دار الأوبرا. نسف قطاره الخاص، عند قيامه بإحدى رحلاته الرسمية.

ولدي بعض الأصدقاء الكيميائيين الذين يستطيعون عمل قنابل ومتفجرات جهنمية!...

استمعت إليه، في بداية الأمر، بدهشة شديدة، ثم عصف بها الغضب حيال هذا القدر الكبير من التطرف والتعصب: القتل، دائماً القتل، وإثارة الجماهير العمياء، وقلب سلطة، لإقامة سلطة أخرى مكانها، لن تكون في الممارسة، وبعد التجربة أفضل من سابقتها.. كانت قد اكتفت وملت من هذه اللعبة العبثية والدامية، التي يتلف ويبلي أفضل الرجال ذكاءهم فيها! وعلاوة على ذلك، فكيف، ولماذا يحدثها في السياسية، في الوقت الذي علمت فيه برحيل صديقها الوحيد؟ وهذه الوفاة ذكرتها بميتات أخرى، لن تنساها ولا يمكن أن تشفى منها أبداً، ومن أعالي حزنها، كانت ترى «فافسور» وهي تنظر إليه، وكأنه مهرج مخيف، تافه ومسيء. وكل ما كان يقوله بدا لها سخيفاً، ينم عن البلادة والغباء. فيما لو قورن بالأحزان، وبدواعي الحداد التي تنهال عليها باستمرار. ومتى سيفهم إذن، أن ما هو مهم في الحياة، ليس «نابليون الثالث» أو «نيقولا الأول»، بل أناس لن يذكر التاريخ أسماءهم ولن يحتفظ بها، أناس بسطاء، شرفاء، يثيرون الإعجاب، كانوا يدعون: «فيرديناند وولف»، «نيقولاي أوزاريف»، و «نيكتيا»؟...

وتبادر إلى مسامعها، وهي تلفظ، بصوت هادئ:

- «فافسور» أن حكاياتك لم تعد تهمني ولا تعنيني بشيء أبداً.

فابتعد قليلاً، ونظر إليها بقسوة:

- عفواً؟... ماذا تعنين بقولك هذا؟

- لقد تجاوزت سن المؤامرات، والمعارك!...

فصرخ:

- آه! كلا! ليس لك الحق بأن ترفضي! ليس أنت التي تفعلين ذلك! فجميع أولئك الذين ماتوا في روسيا في سبيل القضية ذاتها يدفعونك إلى الأمام. ونحن بحاجة لمن يحمل العلم. وماضيك يؤهلك للقيام بهذه المهمة. وإن أردت أم لا، فستكونين معنا ومن جماعتنا، بل لقد سبق لك أن كنت معنا!

- إذا شاركت معكم، فلكي أدعو إلى التسامح.

فقال، هازئاً:

- هل إقامتك الطويلة في سيبيريا جعلتك تحترمين إلى هذه الدرجة النظام القائم؟

- ربما كان ذلك. فكثير من الناس عانوا وتألموا وماتوا أمامي، عبثاً ودون جدوى، لدرجة أن السياسية أصبحت الآن تثير قرفي واشمئزازي!

- عندما تتكلمين هكذا، فأنت تؤيدين الحكم الفردي الاستبدادي! أيمكن أن تؤيدي نابليون الثالث، وتقفين ضد الشعب؟!

- أنا أؤيد السلام والنسيان في أعقاب حياة خربت وبددت عبثاً، ودون جدوى.

فأحنى رأسه، وقال:

- إني منذهل وحائر!

فرثت «صوفيا» لحاله، بسبب خيبة الأمل التي سببتها له، وتمتمت:

- لا ينبغي، يا «فافسور»، أن تفعل ذلك، فأنت ترفعني أكثر مما ينبغي، وتضعني في موقع لا أستحقه، وفي ذلك شيء من السخفّ دعني أعيش أيامي الأخيرة، وبقية عمري، ليس حسب رغباتك، بل حسب الوسائل المتاحة لي.

خلال الصمت الذي خيم بعد ذلك، انهارت قطعة حطب في المدفأة. وظل «فافسور» ساكناً، يمد نحو النار وجهاً، هو وجه رجل مسن مسكين، مستغرق في التفكير. وفجأة حدج «صوفيا» بنظرة غاضبة، وقال بسرعة وبعنف شديد، وكأنه يبصق عليها:

- كان يجب علي أن أتوقع هذا! فأنت لست سوى امرأة! ثم خرج وصفق الباب. فتناولت «صوفيا» رسالة «ماري فرانتزيف» وأعادت ببطء شديد، قراءة المقطع الذي تتحدث فيه عن وفاة «فيرديناند وولف».

٧

كانت السفن المصطفة عند مدخل المرسى، قد أطلقت النار، جميعها في وقت واحد، وعلى جوانبها انتشرت سحب من الدخان الأبيض. وعلى البعد، في المدينة المنتشرة منازلها على أحد المرتفعات أخذت بطاريات المدفعية الساحلية ترد عليها، بشكل ضعيف. وكان الحريق قد شب في أحد المستودعات. وفي الجهة اليسرى انفجر مستودع للبارود، وانطلقت منه في الجو الشظايا المشتعلة، في وسط البخار الكثيف المنتشر. وكانت هذه الصورة التي نشرتها صحيفة «ليلوستراسيون» قد أدهشت «صوفيا» وللمرة الثانية، أعادت قراءة تلك الأسطورة: «قصف ميناء أوديسّا». ولم تكن تستطيع أن تتقبل هذا الوضع المخيف الناجم عن حالة الحرب التي نشبت بين روسيا وفرنسا. كان قد مضى شهران على الوعد الذي قطعه الدبلوماسيون للعسكريين! والأمر الذي كان يبدو مستحيلاً، قد حصل بشكل طبيعي جداً: وبتاريخ ٧ شباط «فبراير» ١٨٥٤، أغلق الكونت «نيقولا كيسليف» وجميع موظفي السفارة الروسية، حقائبهم، واستقلوا القطار. وإذا كان رحيلهم قد حصل بصورة هادئة وسرية. فإن رحيل أفراد الجالية الروسية الصغيرة، لم يتم بالطريقة نفسها. ولأنهم اعتبروا بين عشية وضحاها، مواطني دولة معادية، كان عليهم، هم أيضاً أن يغادروا البلاد، ويعبروا حدودها. وقد أحدث الفراق بينهم وبين المجتمع الفرنسي، مشاهد مؤثرة ومحزنة. وقد فضل الكثيرون منهم عدم العودة إلى بلادهم، بل الإقامة في أقرب مكان من فرنسا، تتاح لهم الإقامة فيه، بانتظار أن تسنح لهم الفرصة للعودة إليها.

وهكذا، فبعد أن لجأ رعايا «نيقولاي الأول» إلى بلجيكا وإلى ألمانيا، وإلى سويسرا، استمروا في مراسلة أصدقائهم الباريسيين، ويشكون في رسائلهم من قسوة حرب لم يرغب أحد من الطرفين بأن تنشب بين الدولتين. والأميرة «دوليفين» بعد أن حاولت الحصول، بواسطة الكونت «دوموروني» على حق البقاء في منزلها الكائن في شارع «سان - فلورانتان»، اضطرت هي أيضاً، إلى الرحيل، والإقامة في «بروكسيل». ويقال أنها من هناك، كانت لا تزال تحاول التأثير على مجرى الأحداث، بالكتابة يومياً، إلى باريس، إلى «سان بطرسبورغ» وإلى لندن.

ورحيل جميع أولئك الروس، أربك «صوفيا» وأزعجها قليلاً، والحقيقة هي أنها وإن كانت، منذ بعض الوقت لم تعد تختلط بهم، ولكن كونها كانت تستطيع في أي وقت أن تلتقي بهم في أحد الصالونات، وتستمع إليهم وهم يتكلمون بالفرنسية بلكنتهم السلافية، كان يتيح لها نوعاً من الطمأنينة المعنوية. وقرأت بصورة تلقائية قصة العملية الباهرة التي قام بها الأسطولان، الإنكليزي والفرنسي، ضد ميناء «أوديسا» وتجاوزت بريد باريس، ومرت بسرعة على الأحاديث الأدبية. وانكبت على قراءة مقالة تروي بالتفصيل الطريقة التي تم فيها إعلان الحرب في الأساطيل المشتركة الراسية في البحر الأسود: «عندما دقت الساعة، معلنة الثانية عشرة، ظهراً، بدت على سواري السفن عبارة: «الحرب ضد روسيا»! ورفعت أعلام الدول المتحالفة على سواري جميع السفن الحربية. وامتزجت الصيحات التي رددت ثلاث مرات في الأسطول الفرنسي. «يحيا الإمبراطور»، بالهتافات المدوية التي أطلقها البحارة الإنكليز، وبدا التنافس قوياً بإظهار الحماسة لهذا الحدث المرغوب تماماً»!

فبدت على شفتي «صوفيا» ابتسامة تتسم بالكآبة. وكانت أكاذيب هذه الصحافة الوطنية تثير اشمئزازها: «حدث مرغوب تماماً»! وأخذت

تتساءل من قبل من؟ ومن هو الذي يرغب به؟ كان من غير المحتمل أن يكون البحارة الفرنسيون الشجعان راغبين به، وهم الذين سيذهبون غداً وبعد غد للمجازفة بحياتهم، في سبيل الدفاع عن حقوق «الباب العالي»! وتأملت في الصورة المنشورة بجانب المقالة، البحارة وقد اصطفوا وقوفاً على ظهر السفن لتحية الإعلان عن بدء المعارك الحربية المقبلة. وكانت الأعلام الفرنسية والإنكليزية والتركية، ترف في الهواء، جنباً إلى جنب. وكان الثلج الكثيف ينهمر من السماء الملبدة بالغيوم الداكنة، على بحر هائج، أمواجه متلاطمة. فطوت «صوفيا» الجريدة، ووضعت نظارتها جانباً، والتفتت نحو النافذة: ربيع حزين، السماء تمطر، وأغصان الأشجار، السوداء، التي لم تكد تتفتح أوراقها، تسقط منها قطرات المطر، على أرض الحديقة. كانت «ديلفين» قد وعدتها بأن تمر عليها في نحو الساعة الخامسة.

ومن جديد، ستتحدثان عن الحرب. وبالطبع، فمنذ أن قطعت العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا وروسيا، لم تعد «صوفيا» تتلقى نقوداً من «ابن أختها». وكان بإمكانه أن يستمر بإرسال النقود لها، بواسطة شخص ثالث يقيم في بلاد محايدة، ولكنه، من دون شك، كان سعيداً جداً، بحصوله على هذه الذريعة، لكي يكف عن مساعدتها. وعندما حرمت من ذلك المورد، أجرت حساباتها، فتبين لها أن ما بقي لديها من نقود يكفيها لتأمين معيشتها طوال سنة بكاملها، وحتى ذلك الحين، يحتمل أن تكون الحرب قد انتهت، وكان هذا، على الأقل، ما يقال في الصالونات، التي كانت لا تزال ترتادها، بدافع من العادة. وحيث كانت أخبار مسارح العمليات والمعارك، لا تمنع الناس من الاهتمام بالأزياء وبالتزين، وبالطاولات الدوارة والمتحركة التي يفترض أن حركاتها تنقل حديث الأرواح، وعن نتائج سباق الخيل. وكان حسن التصرف يقضي حتى بتحاشي اغتياب الروس وعدم

ذمهم. وكانوا يعتبرونهم أعداء شرفاء، ولكن «صوفيا» كانت تتوقع أن يندفع عليّة القوم في المجتمع الراقي، عاجلاً أم آجلاً، في موجة الحماسة الوطنية. وهي لا تستطيع أن تنسى أن شعب باريس قد رافق على مسافة ثلاثة فراسخ «اثني عشر كيلو متراً تقريباً» وهو يغني أفواج الجنود الذاهبين إلى الالتحاق بقطعاتهم في الجيش. والأسقف «سيبور» أذاع منشوراً رعوياً، جاء فيه: «الحرب هي إحدى الضرورات، التي ينتج عنها، بالتأكيد، بعض الخير»! والمسارح أخذت تعرض تمثيليات تتفق مع المناسبة، حيث يبدو فيها الخصم مدحوراً ومهاناً.

ففي مسرح معين تعرض مسرحية «الروس» وفي مسرح آخر تعرض تمثيلية: «القوزاق» أو: «اللقاء عند نهر الدانوب وأيضاً: «الروس كما يصفون أنفسهم» وهذه التمثيلية الهزلية لم تكن سوى اقتباس فظ، لمسرحية: «ريفيزور» للأديب الكبير «غوغول». وفي كل يوم، كانت تنشر مقالات الهجاء والذم، في الصحف، بحق «بلاد الجلد بالسوط»، وكذلك الصور الكاريكاتورية للسخرية «بالقيصر الدموي» و «بأتباعه النبلاء الأغنياء والمنحرفين». ونشر «أدريان بولادان» مؤلفاً بعنوان: «روسيا في ذيل الكون والكاثوليكية». وقد لاحظت «صوفيا» في الفترة الأخيرة، أيضاً، عند مرورها في جادة الإيطاليين، في واجهة «المكتبة الجديدة» وجود كتيب، نشرته إدارة تلك المكتبة، يحمل هذا العنوان: «الحقيقة عن الإمبراطور نيقولاي» دون أن يذكر عليه اسم مؤلفه، بل اكتفي بكلمة: «روسي»، وعندما سألت «صوفيا» صاحب المكتبة، أسر لها، وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى أن وراء هذا الاسم المستعار يختبئ السيد «أليكسندر هيرزين» فاشترت «صوفيا» الكتيّب، وقرأته بسرعة، واحتفظت منه بالمرارة التي يحدثها النظر إلى مشهد عمل سيئ. فمع مشاطرتها «هيرزين» معاداته للقيصر، فقد أسفت لكون المؤلف تجرأ على رفع صوته، أبان الحرب،

لتأييد أولئك الذين يغتابون بلاده ويحقرونها، في باريس وفي لندن. وفكرت بأن في ذلك، خيانة، لا تكفي أي نوايا سياسية لتبريرها. والموقف الوحيد اللائق الذي يجدر بالمنفي أن يتخذه، هو التزام الصمت. ولاحظت «صوفيا» أنها منذ بعض الوقت، قد نسيت وجود صحيفة «ليلّوستراسيون» على ركبتيها، وأنها تتألم، وهي جاحظة العينين، لكونها لا تستطيع أن تؤيد تماماً وبصورة كلية، لا الفرنسيين ولا الروس. وكل عبارة ساخرة وكل شتيمة توجه للروس، كانت تجرحها بعنف في أعز ذكرياتها. وكانت قد شعرت بالغيظ نفسه، في الماضي، عندما كان عمها ينتقد فرنسا، بدافع المشاكسة. ولكنها آنذاك، لم يكن أمامها سوى منتقد واحد. بينما، تنطلق اليوم، أُمّة بكاملها، في حمى وجنون التشهير والتحقير. وهذه الحرب، التي يحاول البعض الإشادة بمبرراتها، وإذكاء نارها، بالتحدث عن الأعمال البطولية التي تحصل إبانها، كانت تتصف بنظرها بفظاعة الحرب التي يقتتل فيها الأخوة. وحتى ذلك الحين، لم يكن الأمر يتعلق إلا بعمليات ومعارك حربية، تقع في أماكن بعيدة وعلى ضفاف نهر «الدانوب»! فكيف ستكون الحال، لو وضع الأسطولان: الفرنسي والإنكليزي، خطتهما موضع التنفيذ، وقاما بمهاجمة روسيا من الشمال، عبر بحر البلطيق؟! وحصلت مذبحة رهيبة عند أبواب «سان بطرسبورغ»!...

كانت مستغرقة في تأملاتها، ولم تشعر بمرور الوقت، عندما وصلت «ديلفين». قدمت لهما «فالنتين» الشاي، على منضدة صغيرة في الصالون. و «ديلفين» كعادتها، كان معها كثير من الحكايات والأخبار: الآنسة «راشيل» التي سحرها النجاح الذي حققته في روسيا، قدمت استقالتها من «المسرح الفرنسي». وانتخاب صاحب الغبطة، الأسقف «دوبانلوف» للمجمع العلمي، أصبح مؤكداً على ما يقال. ويتحدث الناس عن تسيير قطارات للنزهة والترفيه بين باريس والقسطنطينية. والزي أصبح يعتمد من جديد

على الدنتيلا والألوان الزاهية... وكانت «صوفيا» تصغي لأحاديثها، تبتسم مؤيدة ما تقوله صديقتها، شاردة الذهن، ولاهية لبعض الوقت عن همها الرئيسي. وفجأة بدا الجد على سيماء «ديلفين» وأخذت تتحدث عن مشروع كانت قد ذكرته لـ «صوفيا» فيما مضى: فهي تريد أن تنظم حفلة يانصيب في منزلها، يرصد ريعها لمساعدة عائلات جنود جيش الشرق. وقالت:

- بعيد عيد الفصح، ستكون أفضل فترة مناسبة لإقامة تلك الحفلة، وسأدعو إليها مجتمعاً متألقاً جداً! ويجب، من كل بد، أن تكوني من أعضاء اللجنة التي تتولى الإشراف على إدارتها وتنظيمها!

فقالت لها «صوفيا» متوسلة:

- آوه! كلا، يا «ديلفين»! أنت تعلمين أني لم أعد أرغب بالمشاركة بالنشاطات الاجتماعية!

- مع أنك، على العكس من ذلك، يجب أن تحاولي الإكثار من المشاركة والظهور في المجتمعات!

- ولماذا؟

- لكي تنفي بعض الشائعات التي تدور حولك، وتنتشر في كل مكان، لدرجة أن كثيراً من الناس أصبحوا يتصورون أن مودتك للروس جعلتك تنسين أنك فرنسية!

فاحمر وجه «صوفيا» وتمتمت:

- هذا أمر شائن!

فقالت لها «ديلفين» وهي تقضم قطعة بسكويت:

- صدقيني تماماً، إذا قلت لك، إني في كل مرة، اسمع شيئاً من هذا القبيل، فإني أتولى الدفاع عنك. ولكن السمعة لا يمكن إنقاذها، بمجرد الكلام، وحده.

فقالت لها «صوفيا»:

- أنا، بالفعل تعيسة جداً، وأشعر بالحزن بسبب هذه الحرب. وأتمنى أن تنتهي بأسرع ما يمكن وأياً كانت نتائج معاركها، فلن يكون هنالك، في نظري، وبالنسبة لي، لا غالب ولا مغلوب!

فأرسلت «ديلفين» تنهيدة تنم عن اللوم، وقالت لها:

- هذه أمور ينبغي ألا تتحدثي بها أمام أحد، يا «صوفيا»!

- أنت لا تستطيعين أن تفهميني!

- على أي حال، فإن حياتك الروسية قد انتهت، وعدت نهائياً إلى بيننا. ويجب عليك أن تحاولي مجاراتنا في انطلاقاتنا!

- حتى ولو كنتم مخطئين؟

- نعم، يا «صوفيا».

وخيم صمت ثقيل، كانت «صوفيا» تشعر خلاله، حتى قرارة نفسها بالإحساس، باستحالة مشاركتها في كل ذلك.

واستأنفت «ديلفين» الكلام:

- اليانصيب الذي سأنظمه ليس عملاً سياسياً، بل هو عمل خيري. وأنت في مساعدتك لي لن تتخلي عن أفكارك ومبادئك، أو تتنكرين لها. وسيكون هنالك كثير من الأعمال ينبغي القيام بها: تلقي الهبات المادية، بيع البطاقات... وجائزتي الكبرى، ستكون بطاقة للحصول على صورة لـ «وينتير هاليتر»... وشيئاً فشيئاً، أخذت «صوفيا» تتأثر بحماسة «ديلفين» وهي لم يسبق لها أبداً أن استطاعت مقاومة طلب ينم عن صداقة وعن عزيمة وتصميم. ولذلك، قالت لها:

- إيه، حسناً، ليكن ذلك! سأكون معك.

★★★

رتبت «ديلفين» الأمور بشكل جيد: فوق المنضدة التي وضعت عليها الهدايا والجوائز - ساعات صغيرة، «بوابيج» مطرزة آلات موسيقية، علب

للتبغ وللنشوق... علقت لافتة تحمل هذه العبارة: «المجد لجيشنا العامل في المشرق». وكان هنالك صور من الكرتون المطلي بالألوان تمثل، بالحجم الطبيعي، جنوداً يقفون وقفة الاستعداد، ويستندون على أعمدة الصالون. وكانت الكوى والنوافذ مزدانة بالأعلام الفرنسية، التركية، والإنكليزية. وقد ضمت إلى بعضها. وعلقت صورة كبيرة لنابليون الثالث أمام مرآة المدفأة، وعلى جانبي المائدة وضع مدفعان صغيران، استعيرا من مخزن أحد بائعي العاديات. وعلى منصة عالية، وقفت فتاة ازدان شعرها بالشارات الوطنية المثلثة الألوان، وأخذت تخرج البطاقات من سلة تحملها بيدها. وكان السيد «سمسون» أحد الممثلين العاملين في المسرح الفرنسي، هو الذي يعلن الأرقام الرابحة بصوت جمهوري يقصف كالرعد، أثناء سحب اليانصيب، ولكن لم يكن أحد يصغي إليه، لأن الناس لم يأتوا لكي يحصلوا على دمية أو هدية بسيطة، بل لكونهم من طبقة معينة، ويريدون الالتقاء مع بعضهم في جو احتفالي راقٍ. حتى أنه كان يبدو لهم أنه من غير المناسب أن يبدي أحد منهم مزيداً من الاهتمام بالأشياء المعروضة. وكان هناك جميع سكان ضاحية «سان - جيرمان» وبدت «صوفيا» مندهشة من ضوضاء الأحاديث، وهي تقف بين بعض أعضاء مجلس الشيوخ، الذين يرتدون ملابسهم الرسمية - بزة زرقاء اللون، مطرزة بخيوط ذهبية، سروال من «الكزمير» الأبيض، وسيف معلق في الزنار - خوارنة بدينون، مورّدو الوجوه وحليقو الذقون، ضباط متصلبو القامات، كقضبان الفولاذ بلحاهم المدببة الصغيرة وشواربهم الممسدة بدهون الشعر، أدباء، علماء، تجار كبار، بالألبسة الرسمية السوداء «الفراك» وربطات العنق البيضاء، ونساء من كل نوع، فيهن الشابات والعجائز الجميلات والقبيحات، بالتنانير المنتفخة والأوشحة المتعددة الألوان، بأكاليل وزينات للشعر من الزهور الاصطناعية، تفوح منهن رائحة عطرية حلوة المذاق،

وأصواتهن تدوي بنبرات حادة. وفي وسط هؤلاء الناس، بدت «ديلفيين» بفستان عسلي اللون وهي تتذوق نجاح مشروعها. كانت تتنقّل باستمرار، تنادي كثيراً من الأشخاص، دون تكليف، باسمهم الأول، وتجمع بين الأزياء والمسرح والحرب وأعمال البر والإحسان، في ثرثرة وأحاديث ظريفة وسريعة، قليلة الأهمية. وفي إحدى اللحظات، وبينما كانت تقف بالقرب من «صوفيا» تشكلت حلقة حولهما واحتجزتهما. وكان هنالك ملازم في الحرس، مزهو ببزته الرسمية الجديدة، أخذ يشرح لفتاتين مرحتين، كم هو متشوق للذهاب مع فوجه إلى الموقع الذي تنشب فيه المعارك.

ومما قال:

- يجب علينا أن نمحو عار الهزيمة التي منينا بها سنة ١٨١٢. والدرس الذي لم يعطه نابليون الأول للروس، سيعطيهم إياه نابليون الثالث!

كان له وجه طفل، فوق بزته الزرقاء، المزخرفة بالشرائط الحمراء، وصدارته البيضاء وكتافتيه المذهبتين.

وقالت «ديلفيين» لـ «صوفيا»:

- أعرفك على الفيكونت «دوكايولي»

فقرع الأرض بكعبيه، وانحنى بطريقة عسكرية.

ولم تستطع «صوفيا» أن تقاوم رغبتها بممازحته، والسخرية من تشوقه للحرب، وحماسته العدوانية، وقالت له، وهي تبتسم:

- أنت أصغر سناً، أيها السيد، من أن تغذي مثل هذا الحقد ضد الروس!

فرد عليها، قائلاً:

- لدي ذكريات أهلي، كميراث، أيتها السيدة!

فهزت برأسها بحركة تعرف أنها لطيفة وجذابة:

- لن ينتهي أي نزاع أبداً، إذا ظل الأبناء يفكرون كما كان يفكر آباؤهم.

- في زمن الحرب، يجب على الجندي أن يكره عدوه لكي ينتصر عليه!

- يكره من؟ ومن هو عدوه؟ القيصر، الشعب الروسي، أم الفلاحين الذين يقيمون هناك؟..

فاضطرب الفيكونت «دوكايولي» وقطب حاجبيه الدقيقين والشقراوين، وقال:

- جلالة الإمبراطور حدد لنا واجباتنا، أيتها السيدة، وأنا أطيع وأنصاع لتعليماته، ولا أناقشها.

فصاح رجل عجوز، قمري الوجه، سبق لـ «صوفيا» أن التقت به عدة مرات في بعض الصالونات:

- أحسنت الإجابة، أيها الملازم!

ثم التفت نحوها، وأضاف بحدة واضحة:

- كيف يمكنك، أيتها السيدة أن تسيئي بأحاديثك إلى معنويات أحد حماة الوطن، والمدافعين عنه؟

فسألته:

- وهل في تذكيره بالمشاعر الإنسانية إساءة إلى معنوياته؟

- تماماً! ففي زمن الحرب، يجب أن يكون لدى الناس أفكار واضحة، وقاطعة كحد السيف!

- وغبية، بلهاء كقنابل المدفع!

فانتفض العجوز، احمر وجهه، وقال:

- أيتها السيدة، إذا كنت لا تعرفينني، فأنا أعرفك. والمحن، التي يقال أنك تعرضت لها في سيبيريا، كان ينبغي أن تجعلك بصورة مزدوجة فرنسية!

فصاحت:

- ولكني فرنسية! مثلك، وربما أكثر منك، أيضاً!

فهمس أحدهم، من وراء ظهرها، معترضاً:

- لا يبدو عليك ذلك!

وقال شخص آخر:

- لقد رحل السفير الروسي، ولكنه ترك لنا سفيرة!

فانتابت «صوفيا» موجة من الغضب الشديد. وصعد الدم إلى وجنتيها، وأخذت تقلب نظراتها بين الوجوه العدائية المحيطة بها.

فشدت «ديلفين» على يدها، وهمست في أذنها:

- عزيزتي، هذا أمر بسيط، لا يؤبه له!.. أرجو أن تهدئي!..

وكان صوت «سمسون» الجمهوري، يعلو على الضوضاء، معلناً:

- البطاقة ذات الرقم ١٨٧ تربح تمثالاً صغيراً من البرونز يمثل تضحية الشاب «بارا». والبطاقة التي تحمل الرقم ١٢ تربح «علبة أشغال»..

واستدارت «صوفيا» متجهة نحو الباب. وعلى طريقها أخذ الناس يبتعدون، كرهاً وعلى مضض. بينما كانت تفكر: «وأقول إني في فرنسا! في فرنسا، وفي بلدي!» وترغرغت دموع الغضب في عينيها، وعبر غشاء من تلك الدموع التي شوهت الرؤية لديها لمحت اللافتة:

«المجد لجيشنا، العامل في المشرق» وبعض النباتات الخضر، والأعلام.. ولحقت بها «ديلفين» وأمسكتها:

- لا يمكن أن تذهبي الآن؟! إنه سوء تفاهم بسيط! بل إنها حماقة!..

فقالت، وهي تئن، متذمرة:

- كلا، دعيني! لقد أخطأت بمجيئي! وأنت ترين جيداً أن مكاني ليس هنا!

وتخلصت منها، واندفعت مسرعة في الرواق، حيث كان بعض الخدم الناعسين، يحرسون مجموعة كبيرة من المعاطف.

٨

أخـذت الـصحف تتغنـى بالنـصر: فلـم يكـد الجـيش الفرنـسي بقيـادة الماريـشال «سـانت - أرمـان»، والجـيش الإنكليـزي بقيـادة اللـورد «ريغـلان» ينزلان في «غاليبولي» وفي «فارنا» حتى أرغموا الروس على فك الحصار عن «سيليستري» والانسحاب من المقاطعات الدانوبية. ولكن، لسوء الحظ، فإن الكوليرا والتيفوس أخذا يوهنان عزيمة الجنود وشجاعتهم. ومع حلول فصل الصيف اشتد القلق. وبتاريخ ١٥ آب «أغسطس» احتفل بعيد نابليون باهتمام وتفخيم، أكثر من العام السابق، في غياب الإمبراطور الذي كان يقوم برحلة في المقاطعات الجنوبية: فدوت طلقات المدافع، وأقيمت صلوات الشكر، ونظّمت سباقات الزوارق والسباحين على نهر السين، وكذلك سباق السيارات العامة المزينة بالأعلام المثلثة الألوان، بالنسور المذهبة وبباقات الزهور. وقدمت جميع المسارح عروضها بصورة مجانية للجمهور. وقدم مسرح «لابورت - سان مارتان» تمثيلية عن «سشاميل» العدو اللدود والـذي لا يقهـر، والخـصم القـوي لـ «نيقـولاي الأول». وقـدم الـسيرك الإمبراطوري تمثيلية إيمائية عسكرية عرض فيها رفع الحصار عن «سيليستري» ومقتل «موسى باشا» المشهور، الذي كان يقاتل بشجاعة حققت له المجد. وفي كل مكان كان المسلمون يكرمون، والروس ينبذون ويحتقرون. وعند الساعة الخامسة، بينما كانت «صوفيا» منزوية في حديقتها، أثناء الاحتفالات الوطنية، رأت منطاداً كبيراً يرتفع في الجو، حاملاً لافتة، كتب عليها: «تركيا، إنكلترا، فرنسا».

وفي اليوم التالي، قرأت في الصحف بتأثر بالغ النداء الذي وجهه الإمبراطور إلى جيش الشرق. كثير من الباريسيين كان أبناؤهم يخدمون في ذلك الجيش!

ومما كتبه آنذاك، أحد الصحفيين: «إنهم مكللون بالغار ويحققون المجد، ولكن معاناتهم وآلامهم شديدة» ثم نشر خبر ركوب الجيش الفرنسي والإنكليزي السفن من جديد، والانتقال إلى «أوباتوريا» وحصول المعارك الأولى في شبه جزيرة «القرم». وبتاريخ ٢٠ أيلول «سبتمبر»، قام الحلفاء بهجوم بطولي، واحتلوا مرتفعات «الألما». وبعد ذلك، مباشرة بدأ حصار «سيباستوبول». وكانت الأخبار الكاذبة تتوالى بكثرة. فذات يوم يقال أن القلعة قد احتلت، وأن القيصر يطلب الصلح، وفي اليوم التالي، يقال أنه لم يتغير شيء، وأن الخصوم يتمركزون صامدين وجهاً لوجه، وأن الحرب سيطول أمدها... ومنذ المشادة التي حصلت أثناء حفلة اليانصيب، أخذت «صوفيا» ترفض كل الدعوات. وعندما كانت «ديلفين» تأتي لتراها، كانتا تتحاشيان، باتفاق مشترك، التحدث في السياسية، وأخذ ينتج عن ذلك بينهما نوع من الضيق، يشبه التكتم.

وذات صباح، بينما كانت «صوفيا» تستعد للخروج، أتى «جوستان» إلى غرفتها، وأخبرها بأن هنالك سيدين يريدان التحدث إليها. وبدا شارد النظرات، وقد خفض كتفيه.

فقالت له، وقد بدت عليها الدهشة:

- إني لا أنتظر أحداً، فهل سألتهما عن اسميهما؟

- لم أعتقد أن علي أن أفعل ذلك، يا سيدتي..

- إيه، لقد أخطأت! اذهب وافعل ذلك!

- ولكنهما، يا سيدتي... قالا لي إنهما من رجال الشرطة..

فشعرت «صوفيا» بالخوف: ماذا يريدون منها أيضاً؟

وقالت له باختصار:

- أدخلهما إلى الصالون.

كانت قد وضعت قبعتها على رأسها، وبعد أن فكرت بأن تنزعها، غيرت رأيها، فبظهورها هكذا أمام زائريها، تثبت لهما أنها كانت تهم بالخروج، وأنهما قد أزعجاها.

ووجدتهما يتمشيان في الصالون، يداهما وراء ظهريهما، وعيونهما تتفحص كل شيء. والتفتا نحوها، فبدا لها منظرهما مضحكاً. كان أحدهما نحيلاً، طويل القامة، والآخر قصير القامة وبديناً. وكل منهما يرتدي معطفاً طويلاً، داكن اللون، وأزراره مبكلة حتى العنق. وتكمل هذا الهندام قبعة عالية، وهراوة في يد كل منهما. وقبل أن تلفظ «صوفيا» أي كلمة، قال لها أكبرهما، بلهجة جافة:

- لدينا أمر بتفتيش منزلك، أيتها السيدة.

وأطلعها على ورقة، تحمل في أعلاها عبارة: «إدارة الشرطة» فرأت «صوفيا» اسمها مكتوباً بحروف ضخمة في وسط الورقة. وعليها ختم وبعض التواقيع، للدلالة على أنها ورقة رسمية. فظلت لحظة معلقة في الفراغ، عاجزة أن تفهم ماذا يحدث معها ولا أن تحدد ماذا يجب أن تقول لكي تدافع عن نفسها. وأخيراً صاحت، بأعلى صوتها:

- هذا مستحيل، أيها السيد! فماذا ينسب لي؟ وعلى ماذا يلومونني؟

- ستعرفين ذلك في الوقت المناسب. والآن، أرجوك أن تدعينا نعمل.

واتجه أحد الرجلين نحو المكتب، بينما اتجه الآخر نحو الخزانة. ولم تفكر «صوفيا» بعد ذلك، بالاحتجاج على أي شيء. فهي تعرف، بالخبرة والتجربة، أنه لا جدوى من التكلم بصورة معقولة مع شرطي مكلف بتنفيذ أمرٍ ما.

وسألها الرجل:

- أين المفاتيح؟

- لا حاجة لك بها، أيها السيد، فكل شيء مفتوح.

وأدخلا ساعديهما في الأدراج، إلى المرفقين، وأخذا يحركان الأوراق ويقلبانها بخفة مهنية. وكانا كأنهما يلمسان بشرة «صوفيا» بكل أصابعهما. وتجمدت قرفاً واشمئزازاً من هذا العمل. فها قد عاد كل شيء في فرنسا، ليصبح كما في روسيا تماماً. وهنالك حتمية إدارية ذات وجه بليد تلاحقها من فترة في عمرها إلى فترة أخرى. ومن بلاد إلى بلاد أخرى. وفجأة، لمحت بين يدي الشرطيين، رسائل «نيقولا» ورسائل «فيرديناند وولف» وكذلك رسائل «بولين أنانكوف» و «نتاليا فونفيزين»..

وكانت قد أعادت قراءتها عدة مرات، ورتبتها منذ بعض الوقت لكي تحتفظ بها على سبيل الذكرى. ففار دمها، وغمغمت:

- دعوا هذه، أيها السيدان! إنها رسائل شخصية!

ودون أن يكترث الشرطي القصير والبدين بما قالت، وضع رزمة من تلك الأوراق في جيبه، وأعطى مثلها لزميله، وقال:

- سترد لك، بعد الاطلاع عليها، والآن، دلينا على الطريق لننتقل إلى غرفة أخرى...

فتبعاها وفتحا جميع الأبواب، وفتشا كل الخزائن، وقلبا الملابس وهزا الفساتين، ودقّا على الجدران، وتفحصا الكتب في المكتبة. وبعد أن سجل الشرطي الطويل والنحيل، بعض الكلمات في دفتره الصغير، قال لها:

- تفضلي باللحاق بنا.

فسألته:

- إلى أين؟

- إلى مفوضية الشرطة.

فشعرت بالرعب يعصف بقلبها: سوف يلقون عليها القبض، وستسجن، ولكن، لماذا؟ وكونها برئيه تماماً، بدلاً من أن يجعلها تطمئن، أثار قلقاً غامضاً في نفسها. وفي الدرجة من العبثية واللا معقولية، التي وصلت إليها، كان يخيل لها، أنها كان يمكنها أن تدافع عن نفسها، بشكل أفضل، لو أنها كانت تشعر بأنها قد ارتكبت جريمة محددة، وقالت:

- ولكني قلت لكما، وأكرر القول، بأني لم أفعل شيئاً.

وبدلاً من أن يرد أحدهما عليها، أمسكها الشرطي القصير والبدين، من ذراعها، وشدها، فانتفضت، وتخلصت بحركة عنيفة. وفي غرفة الانتظار، وقف «جوستان» و «فالنتين» منذهلين، ينظران إليها، تمر، بين شرطيين، كأنها لصة ألقيا القبض عليها. فقالت لهما:

- الأمر بسيط جداً! سأعود بعد قليل!

وبذلت جهداً لكي تبتسم، بدافع من الجرأة والكبرياء. كانت العربة تنتظرها في وسط الباحة، فصعدت إليها دون أن يساعدها أحد على ذلك، وجلس أحد الشرطيين على المقعد، بجانبها، بينما جلس الآخر بجانب السائق. وطوال زمن مسيرة العربة، لم يوجه لها جارها أي كلمة. وكانت وهي محتجزة في صندوق العربة مع هذا الرجل المجهول، الذي تفوح منه رائحة الخمر والتبغ، تشعر بأنها تكاد تختنق. وعند كل ارتجاجه، كانت تلمس مرفقه أو ركبته. وأخيراً، اهتزت العجلات بقوة، عندما اجتازت العربة قناة عميقة.

باحة مقر قيادة الشرطة مبلطة، وبدت الممرات الطويلة المعتمة تغص بالمراجعين أو ببعض المجرمين. وكان هنالك عمال يرتدون القبعات، وبنات يرتدين القبعات الملونة، ومباصق بيضاء اللون، وأبواب مزودة بمصاريع زجاجية، وبعض اللوحات واللافتات. وعندما اجتازت «صوفيا» هذا العالم الموحش، تذكرت أن «نيقولا» أتى ليبحث عنها في هذا المكان نفسه،

عندما ألقي القبض عليها، بطريقة الخطأ. وقد حصل ذلك سنة ١٨١٥، قبل زواجهما بفترة قصيرة. كان يرتدي بزته الرسمية، يوم كان ملازماً في الحرس الليتواني. ويومها تأثرت كثيراً بما أبداه نحوها من قلق ومحبة. أما اليوم، فلن يسرع أحد للبحث عنها أو لحمايتها. ولا تستطيع الاعتماد إلا على نفسها. فماذا قال، عند ذلك، لما رآها؟

وقال الشرطي القصير البدين، وهو يدفع أحد الأبواب:

- ادخلي!

فدخلت إلى غرفة، جدرانها مطلية باللون الأخضر الباهت، وعليها رفوف تغص بالملفات المغلفة بالورق المقوي. وكان يجلس بجانب مكتب من خشب السنديان رجل بارز الجبهة والفكين. وحول خديه تدلى عارضان منفوشان كالصوف، دب فيهما الشيب. رفع نظره نحو «صوفيا» وبدا فجأة كضفدع ينصت ويسترق السمع. ووضع الشرطيان الرسائل والأوراق التي صادراها، على منضدته. فصرفهما بإيماءة من رأسه. وعندما أصبح لوحده مع «صوفيا» عرفها على نفسه، قائلاً إنه المفتش «مارتينيللي» ودعاها إلى الجلوس أمامه على كرسي من القش.

فقالت له:

- سيدي، أنا منذهلة، ولا أفهم لماذا...

فأوقفها عن الكلام، بإشارة من يده، وقال لها:

- ستفهمين، يا سيدتي، كل شيء، ولكن قبل ذلك، علي أن ألقي عليك بعض الأسئلة: كنيتك، اسمك، تاريخ ولادتك...

وبينما كانت تجيبه، لم يكن يبدو أنه يصغي إليها، فمن الواضح أنه كان يعرف مسبقاً كل ذلك. ولاحظت أن هنالك، في إحدى زوايا الغرفة، موظفاً أحدب الظهر، يجلس على أسكملة أمام مقرأ صغير. أخذ يدون بريشته المرتعشة، أي كلمة تتلفظ بها. وفجأة، انحنى «مارتينيللي» إلى الأم، وسألها:

- الأموال التي تؤمنين بها معيشتك، تأتيك من روسيا، أليس كذلك؟

فأجابته:

- نعم، وهل هذا مخالف للقوانين؟

- أبداً! ومع ذلك، إذا كانت معلوماتي صحيحة، فإن وضعك لم يكن مرموقاً في تلك البلاد، إذا إن زوجك كان قد أدين لانتمائه إلى جمعية سرية. وبدلاً من أن تستنكري عمله، وتتنصلين منه، لحقت به إلى سيبيريا.

- أيمكن أن يكون هنالك نية، أن ينظر من جديد، في فرنسا، بقضية «متمردي كانون الأول»؟

- كلا، ولكن ذلك يقدم لنا بعض الأدلة.

- عن أي شيء؟

- عن معتقداتك وآرائك السياسة.

فصاحت، غاضبة:

- هذا غير معقول! فنحن في حرب مع روسيا، وأنتم تلاحقونني بشكوككم، في حين أني إحدى ضحايا الحكم الإمبراطوري الروسي!

فهل أنتم تحت أمرة «نيقولا الأول» أم تحت أمرة «نابليون الثالث»؟ فابتسم «مارتينيللي»، وتغير شكل وجهه المطاطي، وأصبح عرضه أكثر من طوله، واتسع، في الأسفل، على قاعدة ياقة بيضاء. وقال:

- هنالك تمييز يفرض نفسه، يا سيدتي! فعلى صعيد السياسة الخارجية، نحن، بالطبع، ضد الروس، ولكن على صعيد السياسة الداخلية، فإن مصالحنا واهتماماتنا وهمومنا، تتفق مع مصالحهم واهتماماتهم وهمومهم. ونحن، مثلهم، نناضل ونعمل على المحافظة على الأمن والنظام، وعلى حماية شرعية الحكم، والدفاع عنها. وكونك اعتبرت محرضة ومثيرة للمشكلات في «سان بطرسبورغ» فهذا لا يشكل شهادة وتوصية حسنة بالنسبة لك، في نظر شرطة باريس. بل على النقيض

من ذلك! فأنت قادمة من هناك تحملين مجموعة خطيرة من العادات والنوايا التخريبية. وتحيط بك أسطورة..

فقالت «صوفيا» في سرها، وقد استردّت بعض الأمل: ها هو أخيراً، قد أوضح كلامه، وتبين لي ماذا يقصد، ولذلك قالت له:

- أنا لا أخرج، من المنزل إلا نادراً. ولا أقابل أحداً!

ولا أشتغل بالسياسة، ولا أهتم بها أبداً!..

- ومع ذلك، فقد سمعك الناس تتحدثين علناً بأحاديث مثبّطة للعزائم، لكي لا أقول إنها ضد فرنسا، ومعادية لها!

ففكرت، على الفور، بأن بعض المخبرين قد نقلوا بصورة مشوهة، ما قالته في منزل «ديلفيين» فشعرت بالقرف والاشمئزاز، من تلك الحرية الزائفة، التي لا تتفق أبداً مع الحرية الحقيقية التي كانت تتوقع أن تجدها تسود في فرنسا. وقالت:

- في روسيا، كنت أتهم بأني جاسوسة فرنسية، وفي فرنسا أتهم الآن بأني جاسوسة روسية!

فضم «مارتينيللي» يديه على بطنه، وانسابت من بين جفني عينيه، المنتفخين، نظرة حادة، وقال:

- استبدلي كلمة «روسية» وكلمة «فرنسية» بكلمة «ثورية»، فتفهمين، عند ذلك، كل شيء.

- ولماذا: «ثورية» وليس «جمهورية»؟

- اعذريني إذا كنت لا أميز جيداً الفرق بينهما!

فقالت له:

- الثورة وسيلة، أما الجمهورية فهي هدف وغاية.

- ونظام الحكم الإمبراطوري؟

فلم تجب

واستأنف الكلام:

- وبالمناسبة، ألست على علاقة مع شخص، يدعى «فافسور»؟ فتبادر إلى ذهنها: «ها نحن قد وصلنا إلى بيت القصيد!، وتمتمت:

- بلى.

- وقمت بزيارته في سجن «سانت - بيلاجي»، ثم في مكتبته، وفي بيته، الكائنين في شارع «يعقوب».

- هذا صحيح.

- لقد ألقي عليه القبض، للتو، ونحن نتهمه بالمشاركة في مؤامرة على حياة الإمبراطور. وأعتقد أنك لست مطلعة على شيء من ذلك.

فقالت «صوفيا»:

- على الإطلاق، لست مطّلعة على شيء من ذلك!

وشعرت بضعف ينتابها في القلب.

- ألم يقترح عليك الدخول في المؤامرة؟

- كلا.

- ومع ذلك، فأنت تمثلين رمزاً حياً ومثالياً، بالنسبة له ولرفاقه!

- لا بد أنه قد أدرك أني أصبحت معادية لأفكاره!

وهل صرحت له بذلك؟

- نعم، على ما أعتقد.

- لقد حدثك إذن عن مشروعه؟

فاحمر وجهها، وتمتمت:

- أبداً، إنه لم يحدثني عن شيء، بصورة واضحة ومحددة.

- ولكن، بصورة عابرة.. وبكلمات مبطنة؟..

- ربما حصل ذلك، ولكني لم أعد أتذكر منه شيئاً...

فأصلح «مارتينيللي» جلسته على أريكته، وقال لها:

- سيكون من مصلحتك أن تحدثيني بصدق وبصراحة.

- وأنا أفعل ذلك هكذا.

- كلا، يا سيدتي.

فارتعشت «صوفيا»: لقد عادت حلقة الاتهامات لتحيط بها، في حين أنها اعتقدت أنها نجت وتخلصت منها، بعد مغادرتها روسيا. وتصورت نفسها وهي تقاد إلى المحاكم، لتقف كمتهمة أما القضاء، وقد أربكتها وأفحمتها شهادات الزور، التي قدمت ضدها، ثم يزج بها في السجن، وتنفى. وهذه المرة، لن يكون من أجل اللحاق بزوجها، إنها ستتخلى عن كل شيء. فماذا يربطها بـ «فافسور»؟ وأي قاسم مشترك يقوم بينهما؟ كانت تكرهه، وتدين أسلوبه السياسي الذي يتسم بالعنف وبالمغامرة. وهي لم تعد تعيش إلا من أجل العادات والتقاليد التي تتسم بالهدوء والسكينة، وتريد أن تحيا في ظلهما، بعد أن تقدمت بها السن، في دفء البيت الذي عادت إليه.

وقالت له، مؤكدة:

- أقسم لك، إني لا أعرف شيئاً، يزيد على ما قلته لك!

وخجلت من اضطراها للدفاع هكذا عن نفسها. فلماذا ينبغي أن يكون، في معظم الحالات، ثمن الأمن والسلامة، هو، المذلة والإهانات؟

وغمغم «مارتينيللي» بلهجة، حاول أن يلطف من حدتها:

- قولي لي من الذين كانوا مشتركين معه في المؤامرة، وأنا أخلي سبيلك، على الفور!

فهزت كتفيها:

- لا أستطيع، لأني لو حاولت أن أفعل ذلك، لكان علي أن اخترع وألفق!

- سأرشدك، وأساعدك على ذلك: «أنطوان لاكروا»، «مارسيل بييدوفير»، «جورج كلوس»...

- لم اسمع بأحد من هؤلاء!

- و «برودون»؟ لقد التقيت به في مكتبة «الراعي الصالح» الكائنة في شارع «يعقوب»؟

- فعلاً!، هذا صحيح.؟

- وماذا قال:

- لم يقل شيئاً معقولاً جداً.

- أي باختصار، كان الجميع متفقين على أنهم مسرورون بالنتائج الأولى التي حققها نظام الحكم؟

- لم أقصد ذلك، يا سيدي، فقد كان لدى جماعة منهم بعض الأفكار الاشتراكية، القوية والمتقدمة، ولكنهم عرضوها بصورة هادئة وموضوعية، دون جلبة أو عنف. ولو أن الإمبراطور نفسه سمعهم، لما رأى في ذلك أي سوء أو شر.

- هذا لا يتفق مع ما نقل إلي!

- إيه! عليك أن توافق إذن، لمرة واحدة، على الأقل، أن المعلومات التي نقلت إليك كانت مغلوطة!

كانت قد تماسكت، واستردت روعها، شيئاً فشيئاً. إذا إن خبرتها المتعلقة بالاستجوابات، ساعدتها على السيطرة على الموقف. فمر «مارتينيللي» بظاهر يده على وجهه، وبدا متعباً بسبب عناد «صوفيا» وأدركت أن مستقبلها يتأرجح في رهان بين الخير والشر خلف ذلك الجبين الضخم. وكانت لا تزال حرة طليقة. وبعد دقيقة؟ أخذت دقات قلبها تدوي حتى في فكيها. وتناول «مارتينيللي» ببطء رسائل «نيقولا» عن المنضدة، وفتحها الواحدة بعد الأخرى، وفكرت بعبارات وكلمات الحب التي كانت تمر تحت عيني هذا الضابط الذي يبدو وكأنه يحرس إحدى السجينات. وسألها:

- ممن هذه الرسائل؟

- من زوجي.

- وهذه؟

- من صديق لي في سيبيريا.

- هو، أيضاً، احد متمردي كانون الأول؟

- نعم، يا سيدي.

واستمر في قراءة الرسائل. وكان يدخل من النافذة ضوء خافت، وريشة الموظف لا تزال ترسل صوتاً كالصرير، وهي تتزلق على الورق. ورائحة الغبار الرطب تفوح من أرضية الغرفة، الخشبية، الخشنة. وفجأة، دفع «مارتينيللي» كدسة الرسائل نحو «صوفيا»:

- خذي هذه!

فدستها في حقيبة يدها، وكانت الرزمة ضخمة، بحيث اضطرت إلى ترك الحقيبة مفتوحة قليلاً.

وقال، بعد ذلك"

- سأرى إذا كان هنالك مجال للانتهاء من هذه القضية، والآن، أنت حرة!

فشعرت بارتياح غمر صدرها. ومع ذلك، فهي تعرف أن الشرطة لا تتخلى بسهولة عن شكوكها. فإذا كان هذا المفتش قد أطلق سراحها وتركها تذهب، فذلك، بالتأكيد، لكي يراقبها عند بعد، ويحاول أن يعرف المزيد عن الناس الذين تخالطهم. كان الموظف قد توقف عن الكتابة. ونهضت، فرافقها المفتش إلى الباب، مبدياً لها الكثير من المودة.

اجتازت جحيم الممرات، الرتيب. كان بعض رقباء الشرطة يثرثرون وهم يقفون في الباحة. وكانوا كلهم، بشواربهم ولحاهم الصغيرة المدببة، يشبهون نابليون الثالث. ومرت عربة السجن تحت قوس المدخل، محدثة جلبة

قوية، وتوقفت أمام درج أحد البواب. وفي شارع القدس، انبهرت «صوفيا» بالأنوار، وبالضجيج، وابتسمت للحياة التي استعادت مجراها الاعتيادي. وعلى «الجسر الجديد» التفتت لكي ترى فيما إذا كان أحد يتبعها. ولكن، كان هنالك كثير من الناس، حول البسطات والمعروضات. وكانت جميع الوجوه متشابهة، تختلط ببعضها بحيث لا يمكن التمييز بينها: الذين يعملون في قص شعر الكلاب، المنظفون، المبيضون، صانعو الملاعق، باعة القبعات والشرائط، وبائعو سم الفئران، وأقراص الحلوى، وكل هؤلاء يتبارون ويتنافسون في الصياح والمناداة على مبيعاتهم، لجذب الزبائن والمشترين. فأسرعت في السير، لكي تتخلص من تلك الجلبة وذلك الازدحام. وظل القلق يساورها. ولكنها حاولت نبذه، فمنذ زمن طويل لم يساورها هذا الشعور، بأنها ملاحقة. حتى في روسيا، وخلال الأشهر الأخيرة، كان يحصل معها أن تنسى أنها مشبوهة. كان «جوستان» و «فالنتين» ينتظرانها في البيت، وقد اعتراهما القلق بسبب غيابها. فقالت لهما:

- كان ذلك مجرد خطأ!

فتظاهرا بأنهما صدقاها. وأثناء غيابها، كانا قد رتبا غرفتها، والأماكن الأخرى، ولم يتركا أثراً لمرور الشرطة، وللتفتيش الذي قاما به في المنزل. وأخذت «صوفيا» تنظر إلى المفروشات وقطع الأثاث، من حولها، وهي مسرورة وممتنة. كما ينظر المرء إلى بعض أصدقائه وهو يلتقي بهم، بعد أن تعرض لحادث كاد يودي بحياته.

واقترحت عليها «فالنتين» أن تساعدها على خلع ملابسها، لكي تأوي إلى سريرها. فقالت لها «صوفيا» بحيوية:

- ولماذا، فأنا لست متعبة، أبداً.

وصرفت الخادمة، ثم جلست على إحدى الأرائك، وأعصابها، التي ظلت متوترة لفترة طويلة، انهارت وتخلت عنها، واعترتها هزة وأخذت ترتجف،

وتمنت لو أنها تستطيع أن تذرف الدموع، ولكنها لم تتمكن من ذلك. وفكرت أنها لو كانت أصغر سناً لاستطاعت أن تدافع عن نفسها بشكل أفضل من الانفعالات ومن الخوف. وهل لأنها كاد يُزج بها في السجين، قد أصبحت مهتمة ومشغولة البال إلى هذا الحد بمصير «فافسور»؟ كانت تدينه وترثي له في آن معاً. فهو مجنون ومستنير. تدفعه فكرة ثابتة متسلطة عليه، فهو لا يمكن أن ينتهي به الأمر، بطريقة أخرى. وقد سبق لها أن حذرته، ولكنه سخر منها آنذاك: «لست سوى امرأة»! وهذه الصرخة كانت لا تزال تدوي في رأس «صوفيا». وأخذت تفكر بكلّ أولئك، الذين ضحوا بحريتهم وبأمنهم، وبأسرهم، في سبيل مبدأ أو قناعة سياسية كما فعل «فافسور». ومن المؤكد أن هؤلاء الرجال كان في دمهم حب الأعمال والمشاريع العظيمة، والميل الشديد إليها. ولكن في تسع مرات من عشرة لم يؤد هياجهم، والنشاط الذي يقومون به إلى شيء. وأفضل عمل خير يحصل في العالم، يمكن أن يأتي عن طريق المبادرات المتواضعة، اليومية والنسائية وهي، بالذات، متى كانت أكثر فائدة ونفعاً لنظرائها من بني البشر؟ أعندما كانت تنتشي عجباً بالنظريات السياسية العنيفة، عندما كانت في باريس؟ أم عندما كانت تكتفي بالعناية بفلاحي «كشتنوفكا»؟ وإنما هناك، في مجال البؤس والجهل، كان يمكنها أن تقوم، بشكل أفضل. بواجباتها وأن تثبت وجودها، وتحقق ذاتها، بالشكل الأمثل ولكن «سيرج» عارضها، ووقف حائلاً دون تنفيذ مشاريعها. وبسببه، اضطرت إلى التخلي عن ممارسة حياة حافلة بالنشاط، كان من الممكن أن تجعلها فخورة، ومعتزة بنفسها، وحلمت خلال لحظة، بالسعادة التي كان يمكنها أن تتيحها لأولئك الناس البسطاء، لو لم يكن موجوداً هناك ليمنعها من القيام بذلك. وهذا أمر مؤسف. فالطريق كانت مقطوعة، ولا يمكن السير عليها، وكان ينبغي التفكير بشيء آخر. وفجأة، تذكرت «لويز» وشعرت

بالقلق بشأنها. فهذه البائسة، لا بد من أن تكون في أسوأ حالات الحزن والإحباط. وعلى الفور، تبدد تعب «صوفيا» وزال. فاعتمرت قبعتها، وارتدت معطفها، وخرجت إلى الشارع. فوجدت «لويز» في المكتبة، دامعة العينين، وبقربها امرأة بدينة ومسنة - هي أمها، دون شك - أخذت تواسيها وتربت على يديها.

بينما أخذ الأولاد يلعبون بالخذروف خلف منضدة المكتبة. ورفعت «لويز» نحو «صوفيا» نظرة مبللة بالدموع، وقالت.

- آه! يا لسوء حظي العاثر! مع أنه كان قد وعدني، بأنه هذه المرة، سيكون عاقلاً ومتروياً!

٩

وإن كان جانب الاتهام قد عجز عن تقديم الأدلة على وجود مؤامرة ضد الإمبراطور، فقد حكم على «أوغستان فافسور» بالسجن الفعلي لمدة خمس سنوات، يقضيها في سجن: «بيل ايل» حيث كان قد احتجز هناك العديد من المعتقلين السياسيين. و «لويز» التي أفقدتها رشدها هذه المصيبة الجديدة، اعتادت أن تقوم بزيارة «صوفيا» عدة مرات في الأسبوع، لتحدثها عن حزنها، ولتطلب منها النصيحة والمشورة، ولتقرأ لها الرسائل التي تتلقاها من زوجها: لم يكن يتذمر أو يشكو كثيراً، من النظام المتبع في السجن، ويمتدح كثيراً رفاقه، ويذكرهم بالخير، ويؤكد أن قناعاته ومبادئه الجمهورية قد ازدادت رسوخاً في هذه المحنة، ويتحدث كيف يقضي أوقات فراغه، فهو يشتغل في الأرض، ويدرس الموسيقا.

وكانت «لويز» تقول وهي تتنهد وتتأوه:

- يبدو لي أنه أكثر سعادة وهو في السجن مع رجال من حزبه، وعلى شاكلته، منه وهو معي، في المكتبة!

كانت هيئتها تنم عن صفات شعبية وبسيطة، وهذا ما كان يسلي «صوفيا» يواسيها ويريحها من أكاذيب الناس في هذا العالم البالغ التعقيد. وكانت وحدتاهما تتوافق في لقاءات هادئة وعذبة: فهما تتناولان الشاي سوية، وبعد ذلك تنصرف «لويز» إلى الثرثرة عن أمور وأشياء كثيرة، تافهة ولا أهمية لها، أمام «صوفيا» التي تصغي إليها، وهي منكبة على عملها، في «البساطة» التي تنسجها. ولم تأت «ديلفين دي

شارلاز» ولا مرة واحدة لتعكر عليهما صفو خلوتهما. فهي، دون شك لم تكن تسمح لنفسها، في وضعها الحالي، أن تستمر بمعاشرة ومخالطة امرأة مشبوهة سياسياً. وعلاوة على ذلك، فقد حذت حذوها جميع الصالونات الراقية والمحترمة. وكانت «صوفيا» سعيدة لأنها لم تعد تدعى إلى أي منها، حتى ولا إلى أي مكان آخر. فقد كانت قلة النقود لديها تضطرها إلى الإقلاع عن جميع الزيارات والنشاطات. وحتى لو أنها أرادت الخروج، لما استطاعت أن تدفع ثمن الملابس والزينة التي تسمح لها أن تظهر بالمظهر اللائق الذي يتفق مع وضعها ومع الطبقة التي تنتمي إليها. ومن وقت لآخر، كانت «لويز» تصطحب معها أحد أطفالها، فيقبع في إحدى الزوايا ويأخذ في تصفح أحد الكتب المصورة. وفي غضون ذلك، كانت أمها تعنى بالأطفال الآخرين، وتسهر على حراسة المكتبة. كان الزبائن قليلين جداً، والأرباح زهيدة، ولكن كان ينبغي المحافظة، بأي ثمن، على استمرار حركة البيع، وقد حاولت «صوفيا» أكثر من مرة، ، مساعدة «لويز» ولكن هذه، كانت في كل مرة، ترفض عرضها، قائلة بأن لديها بعض المدخرات، وأن كرامتها تقضي بألا تكون مدينة بشيء لأحد. وعند وصولها، كانت تقول:

- اليوم، كان هنالك من يلاحقني.

أو:

- لا أدري ماذا حصل للجاسوس الذي يراقبني، فانا لم أره صباح اليوم!

و «صوفيا»، هي أيضاً، كان هنالك جاسوس يراقبها، ويتبع خطاها، وكانت قد ألفته واعتادت عليه، وكثيراً ما كانت تحييه بإيماءة من رأسها عندما تفاجئه عند منعطف الشارع. وفي اليوم التالي، كان يستبدل بآخر، يمكن معرفته بسهولة كالأول، بملابسه الخاصة، وهيئته التي تنم عن المكر والمراوغة. فهم يهتمون بها كثيراً في مديرية الشرطة. ولكنها، كان

لديها إحساس، أن هؤلاء السادة سيملون، يوماً بعد يوم من مراقبتها. والأمر الأساسي والمهم، هو أن تنتهي الحرب، بأسرع ما يمكن!

ومع ذلك، فقد طال أمد حصار «سيباستوبول»، مثيراً من هذا الجانب ومن الجانب الآخر أعمالاً بطولية عجيبة. ويروى أنه كانت تحصل بعض مظاهر المجاملات بين الخصمين المتحاربين، بحيث إن الجنود بعد أن يكونوا قد تقاتلوا حتى الموت خلال ساعات طويلة، يستغلون فترة من الهدوء، لكي يثرثروا ويتبادلوا الأحاديث الودية فيما بينهم، وليتبادلوا أيضاً بعض الهدايا البسيطة. وفي كل مرة، كانت «صوفيا» تسمع بعمل من أعمال البطولة والفروسية، قام به ضابط روسي، كانت تتأثر كثيراً، من جراء ذلك. ولكم كانت تود أن تجعل أبناء وطنها يشاطرونها التقدير الذي يوحي لها به أعداء فرنسا الحاليون. وكثيراً ما كانت تروي إلى «لويز» ذكرياتها عن إقامتها في سيبيريا. وعندما كانت تلفظ اسم «نيقولا»، أو اسم «فيرديناند وولف»، كان إيقاع دقات قلبها يتغير. وكانت «لويز» تصغي لها، خاضعة وراضية، فاغرة فمها، ومحملقة بها كما يفعل الطفل الصغير، وتبدو هكذا، فاتنة في جهلها وبساطتها، وعندما لا تأتي خلال يوم أو يومين، كانت «صوفيا» تستاء، وتشعر بالملل، ثم تتساءل: «لماذا تعلقت بهذه المرأة البسيطة؟ فأنا لا أعرف شيئاً عنها، أو أن ما أعرف عنها، قليل جداً، ولا أشعر حتى أني أنا التي اخترتها! وهي ليست موجودة هنا إلا لكي تقيني من الشعور بالدوخة والدوار حيال الفراغ الذي أعيش فيه، وأعاني منه...» ويوم السبت، ٣ آذار «مارس» بينما كانتا تتناولان الشاي سوية، أحضر «جوستان» الصحف، وبدت على وجهه تعابير التأثر والحزن المصطنع، وقال همساً.

- أما سمعت سيدتي بالنبأ؟ لقد مات القيصر!

فصاحت «صوفيا»:

- ماذا تقول؟!

وتناولت صحيفة «المرشد العام» التي قدمها لها على صينية صغيرة. كان الخبر منشوراً على الصفحة الأولى في الزاوية التي تحمل عنوان: «غير رسمية» فشعرت «صوفيا» بفرحة غامرة انتشرت في كل أعضاء جسمها، وحتى قراره نفسها، ويقال أن القيصر قضى نحبه على أثر أصابته بنوع من الشلل في رئتيه. والحقيقة هي أن الهزائم التي مني بها جيشه في شبه جزيرة القرم لا بد من أنها قد أنهكت جسمه وقضت على مقاومته ومناعته. فما هي النتائج السياسية التي سيتمخض عنها هذا الحدث؟ «صوفيا» من جهتها أحبت أن تعتقد أن الحرب ستتوقف، وتضع أوزارها، بعد رحيل الذي كان المحرض الرئيسي على نشوبها. وشرحت وجهة نظرها، هذه لـ «لويز»، التي أصغت إليها وهي تشرب الشاي، بجرعات صغيرة، متلاحقة. وللمرة الأولى، أحنقت «صوفيا» هذه السلبية التي بدت في ابتسامة «لويز» اللاهية.

وبعد انصراف المرأة، ألفت «صوفيا» نفسها وحيدة في الصالون، بين الصحف المدعوكة والمبعثرة، وبدأت تدرك عند ذلك أن «نيقولا الأول» قد رحل عن هذا العالم. وهكذا، فإن هذه الكتلة الرخامية الصلبة التي لا تتزعزع، قد اختفت، هي أيضاً وزالت من الأفق. فكم من الرجال عانوا وتعذبوا، بسبب الأخطاء التي ارتكبها؟! فقبل الأمس، دفن «متمردو كانون الأول» وهم أحياء في سيبيريا، وبالأمس، قضي على جماعة «بيتراشيفسكي»، واليوم، أتى دور الجنود الذين يضحى بهم في «سيباستوبول»! وكل ذلك بناءً على أوامر وإرادة هذا الطاغية وذكائه القاسي والمحدود، وافتقاره للشفقة والرقة، والعاطفة، قد دمر على مدى ثلاثين سنة، مصير ملايين المخلوقات. وهي، نفسها، سُحقت حياتها وشوهت بسبب عجرفة وقسوة سيد روسيا. ومن الذي يستطيع أن يبكيه، فيما عدا بعض المنافقين من أفراد حاشيته، الذين منحهم الثروة والجاه؟

فمن بحر البلطيق إلى المحيط الباسيفيكي، ومن المحيط المتجمد الشمالي، وحتى الحدود الجنوبية، لا بد أن الشعب الروسي، في كل مكان، يتنفس الصعداء، ويطلق تنهيدة الارتياح. وفكرت بأنه، على الأخص، في سيبيريا، إنما سوف يستقبل هذا الحداد الوطني، بفرحة عارمة، ولكن، لسوء الحظ، فإن أكثرية المحكومين السياسيين، ماتوا وهم ينتظرون العفو: «نيقولا» مات منذ أكثر من عشرين سنة، و «فيرديناند وولف» منذ ما يقرب من سنتين. وتصورت من بقي منهم على قيد الحياة، مجتمعين عند هذا أو عند ذاك من رفاقهم، في «ايركوتسك»، في «توبولسك» أو في «كورغان» للتعليق على الحدث، وهم يجلسون حول «السماور»: «مسّارة بين هياكل عظمية»!

ومن المؤكد، أن القيصر الجديد: «ألكسندر الثاني» سيعفو عنهم، ويقال عنه أنه مثقف، متسامح، صادق وصريح، وتذكرت تأثرها الشديد، عندما لمحته، وكان لا يزال أميراً شاباً، ولياً للعهد، لطيفاً وخجولاً، أثناء زيارته لبلدة «كورغان» سنة ١٨٣٧. وإشارة الصليب التي رسمها أمام متمردي كانون الأول، أثناء الصلاة من أجل المنبوذين... فهو سيطلق سراح المساجين السياسيين، وسيعقد الهدنة، إلا إذا أحاط به رجال السوء، وعلى ألا يكون قد احتفظ بمستشاري والده! وأسفت لأنه لا يوجد إلى جانبها شخص روسي، لكي تتبادل معه الآراء والأفكار. إذ إن الفرنسيين لا يستطيعون أن يفهموها. فبالنسبة لهم، كان موت «نيقولا الأول» قضية تتعلق بالسياسة الخارجية، بينما كان موته، بالنسبة لها، يعتبر قضية عائلية.

وأمضت ليلة، من أسوأ الليالي، وفي الأيام التالية، أخذت تترصد بنفاد صبر متزايد، سير العمليات الحربية، ولكن إذا كانت الصحف تكثر من الحديث عن وفاة «نيقولا الأول» وعن الأثر الحسن المتوقع لوفاته، فلم يكن

يبدو أنّ وريثه، على عجلة من أمره، لوضع حدٍ للحرب. وليس هنالك أي شك بأنّ «ألكسندر الثاني، كان ينتظر أن يتوج إمبراطوراً، في الكرملن، لكي يتخذ قراراً، على هذه الدرجة من الأهمية. وهذا الانتظار يمكن أن يدوم عدة شهور! وفي الوقت، كان يقتصر العمل في روسيا، على استبدال القادة. وفي معسكر الحلفاء، قام نابليون الثالث والإمبراطورة بزيارة انكلترا، تأكيداً لأهمية الاتفاق الفرنسي - الانكليزي وللإشادة بهذا الاتفاق. وعند عودتهما، نجا الإمبراطور من الإصابة برصاصات أطلقها عليه شخص أراد أن يقتله في جادة «الشانزيليزيه، فأخذت جميع الصحف تشكر العناية الإلهية وتمجدها، لنجاته من الموت. وكانت «صوفيا» وهي تقرأ المديح الذي توجهه الصحافة للعاهل، يمكنها أن تعتقد أنها في روسيا. والحقيقة هي أنّ الفرنسيين لديهم ما يبرر اعتزازهم برئيسهم، لأنّ الحكومة كانت تنفذ بنجاح الأعمال الحربية، والمشاريع العمرانية السلمية، في آن معاً، والمجهود الذي كان يبذل حول «سيباستوبول» لم يكن يمنع أو يعيق أعمال الهدم، وإعادة البناء التي تجري في العاصمة، ولا الحفلات التي كانت تقام تكريماً للجيش، أو للملوك الأجانب الذين يزورون فرنسا. وفي كل جهة كانت تقام الورشات، تشاد الأبنية بالحجارة المنحوتة. واستمرت أعمال البناء في متحف «اللوفر» الجديد، وفي الوقت نفسه، استمر العمل أيضاً في شارع «ريفولي» من أجل إيصاله إلى أمام دار البلدية. وشيدت المنازل، والمباني الضخمة المكونة من ستة طوابق، على جانبي شارع «ستراسبورغ». ولكن في جادة «الشانزيليزيه» إنّما كان العمال يعملون بمزيد من الهمة والحماسة، لإنجاز إشادة قصر الصناعة، حيث كان سيقام المعرض العالمي، سنة ١٨٥٥، وبتاريخ ١٥ أيار «مايس»، تخلّص المبنى، أخيراً، من كافة الاسقالات التي كانت تحيط به، وعند ذلك، قام العاهلان بزيارته. ولم تكن الصحف تتحّدث إلا عن الأشياء العجيبة

والغريبة، التي سيقوم بعرضها في ذلك المكان، عشرون ألف عارض، بينهم الفرنسيون والأجانب. وروسيا، نفسها، دعيت لإرسال منتجات زراعتها ومعاملها، ولكنها رفضت هذا العرض «بسبب ظروف الحرب».

و «لويز» التي أثارتها كثيراً، البيانات والتقارير التي تنشرها الصحف، ألحت على «صوفيا» بوجوب القيام بزيارة المعرض سوية. فذهبتا إليه في صبيحة أحد الأيام، وكادتا تختنقان بسبب الازدحام الشديد، هناك. وكان تيار المتسكّعين والمتفرجين يدفعهما أمام الواجهات والمعروضات، بحيث أنه لم يكد يتاح لهما الوقت لكي يلمحا الأشياء، بسرعة وعن بعد. وفي الجناح الفسيح الذي يغص بالزوار، وتتعالى فيه أصواتهم ومناقشاتهم، وارتفعت فيه درجة الحرارة، بسبب أشعة الشمس التي تنصبّ مباشرة من الكوى الزجاجية، كانت الأقمشة الصوفية، متجاورة مع الخزفيات، والمفروشات، وقطع الأثاث المزينة بصفائح البرونز، تجاور الحلي والمجوهرات الظريفة والدقيقة. وبدت بعض أسماء البلدان البعيدة: الولايات المتحدة، مصر، اليونان، الصين»... مكتوبة على لافتات وعلى لوحات ضخمة...

فالعالم بأجمعه أبدى صداقته لفرنسا. ولم يلاحظ غياب روسيا. وكانت «صوفيا» تود أن تجوب كل المعرض، لكي تتفرج على جميع معروضاته، ولكنها بعد ساعتين من التجول النشيط، عبر الزحام والغبار، شعرت بالتعب، وجلست على أحد المقاعد. وفي تلك اللحظة اكتشفت «لويز» هناك أحد معارفها، بالقرب من قسم الرياش الفاخر: وهو شاب، بلباس سيئ، ظريف الوجه الذي بدا تحيط به لحية خفيفة شقراء، تشبه الدنتيلا، وقد بدا عليه أنه يتوقع منها أن تلاحظ وجوده هناك. وقدمته إلى «صوفيا»، وعرفتها عليه قائلة أنه يدعى «مارسيال لوفوا»، وأنه فنان يعمل في رسم اللوحات، وهو صديق لـ «فافسور». فتذكرت «صوفيا» أنها التقت به في

مكتبة «الراعي الصالح» مساء اليوم الذي اجتمع فيه هناك جميع رفاق «أوغستان». وعرض على السيدتين أن يرشدهما، عند زيارتهما لملحق الفنون الجميلة. وعند هذا العرض، أشرق وجه «لويز»، وبدت عليه فرحة مشبوهة بعض الشيء، إذا إنها بدت فجأة متحمسة لمشاهده اللوحات المرسومة تبعاً للفن الحديث. وصاحت:

أوه! نعم، هيا بنا، إلى هناك!

فوافقت «صوفيا» وهي تضحك في سرّها، من هذا التحول. ومن كل الجهات، كان الناس يتدفقون، مندفعين إلى القاعات التي عرض فيها زعماء «المدرسة الفرنسية» لوحاتهم. وكانوا يقفون مندهشين أمام لوحة: «المحظية المستلقية» من عمل السيد «أنجريس»، ولوحة «مذبحة سيّو» للفنان: السيد «دولاكروا» ولوحة: «البازار التركي الكبير» للرسام السيد «دوكاميس»، أو لوحة: «عمود التشهير» للسيد «غليز». وكانت تعليقات جمهور الزائرين تثير «مارسيال لوفوا» وتغيظه، الذي كان يتقدم، متنقلاً من لوحة إلى أخرى، ويداه في جيوبه، والاستياء بادٍ في عينيه. فهو يدّعي أنه من أنصار المذهب «الطبيعي» في الرسم، ولا يشيد إلا برسّامين، لم تسمع بهم «صوفيا» أبداً وفي منتصف الزيارة، انتهى إلى القول: «كل هذا كريه ومنفر! » فالتفت نحوه بعض الأشخاص، بغيظ، ونظروا إليه شزراً. فقال:

هيا بنا! ولنخرج من هنا، فمن الأفضل لنا أن نذهب إلى أحد المقاهي، وهناك سأوضح لكما فن الرسم الحقيقي! فوافقت «لويز» في الحال، بحماسة شديدة، جعلت أزهار قبعتها تهتز. ولكنّ «صوفيا» كانت متعبة جداً، وفضلت أن تعود إلى البيت.

وفي اليوم التالي، عندما أتت «لويز» لزيارتها، سألتها عن أخبار «مارسيال لوفوا».

فأجابتها «لويز»!

لقد انزعجت منه، وشعرت بالملل، لكثرة ما حدثني، طوال الأمسية، عن الفن والفلسفة. وقد أحسنت صنعاً بعدم بقائك! ومع ذلك، فإنّ «لويز»، اعتباراً من ذلك اليوم، أخذت تولي مزيداً من العناية لملابسها ولزينتها. ومع حلول فصل الصيف، أصبحت تحاول أن تبدو ظريفة وأنيقة. وأخذت زيارتها إلى «صوفيا» تتباعد فيما بينها. لأنها، بالطبع، كانت مشغولة في أماكن أخرى. وأخذت «صوفيا» تفكر بـ «فافسور» وترثي لحاله، ولكنها لم ترَ أنّ لها الحق، بأن تشي بالمذنبة أو أن توبخها على عملها. وكان هذا الغرام الوقتي والعابر، يبدو لها سخيفاً ومضحكاً، بجانب الغم الذي ينتابها، بمزيد من الشدة كل يوم، عندما تطالع الصحف. والتعليقات التي تتسم بالتكلف والمغالاة، والتي كانت تثيرها، في جميع الصحف، زيارة الملكة «فيكتوريا» لباريس، والحفلات الموسيقية في قصر «التويلري» وعروض المسارح الباريسية، لم تكن تتوصل لإخفاء واقع وحقيقة الوضع المخيف الناجم عن الحرب. ومن وقت لآخر كان يصدر بيان موجز، يذكر فيه أنّ إجلاء الجرحى عن ميادين القتال قد تحسن، أو أنّ عدد القتلى، في الجانب الفرنسي، ليس كبيراً جداً. وبالطبع، فإن الروس، من جهتهم، كانت خسائرهم أضخم. وكان الذين يقعون منهم في الأسر يعترفون أنّ ليس هنالك أحد، في «سيباستوبول» يؤمن، في الوقت الحاضر، بإمكانية تحقيق النصر. كانوا يقاتلون ويموتون لإنقاذ السمعة والشرف، واحتلال موقع «ماملون فير» قضية «تشيرنايا»، الهجوم على برج «مالاكوف» وراء هذه الأسماء، والعبارات العادية والمبتذلة، كم تكدّست أكوام من الجثث؟! «كل شيء يتم كما ينبغي، وكل شيء يسير على ما يرام، ونحن نتقدم! » هذا ما كان يبرق به الجنرال «بيلسيه» القائد الجديد لجيش الشرق، إلى وزير الحربية. وكانت الصحف المصورة تنشر صوراً مرعبة، تمثل معارك يجري فيها القتال مجابهة بالسلاح الأبيض، يشتبك فيها الجنود جسماً بجسم، بين الدخان الناجم عن الانفجارات والذي

يتصاعد متخذاً شكل القنبيط، كانت وجوه «Des Zouaves»: «الزواويين أي الجنود من أبناء المغرب العربي» تنم عن النبل والشجاعة، تحت «حطائطهم» البيضاء، وكان للروس خطوم النمور. وبشكل مفاجئ، بتاريخ ١٠ أيلول «سبتمبر» نشرت صحيفة «المرشد العام» في صفحتها الأولى، برقية، جاء فيها: «كورابيلنايا والقسم الجنوبي من «سيباستوبول» لم يعد لهما وجود. فعندما رأى العدو احتلالنا الصامد لبرج «مالاكوف»، قرر إخلاء الموقع والانسحاب منه، بعد أن دمر ونسف بالمتفجرات والألغام كل دفاعاته».

وفي اليوم التالي تأكد احتلال «سيباستوبول»، فأمر الإمبراطور بإقامة صلاة الشكر في كاتدرائية «نوتردام»، بينما أخذت جميع المسارح تقدم عروضها، بصورة مجانية، للجمهور. وقدمت التحية لهذا النبأ بفيض غامر من الحماسة والبهجة. وقالت «صوفيا» في سرها، إنّ القيصر، بعد هذه الضربة القاصمة، سوف يلقي السلاح. وفكرة اقتراب نهاية الحرب، وحلول السلم والأمان، جعلتها ترضى عن فرحة الجماهير الجنونية، بالاستيلاء على «سيباستوبول» وعن اعتبار الجماهير لهذا الاستيلاء أنه بمثابة انتصار عظيم. ولكن كم يلزم من الوقت للفرنسيين وللروس لكي ينسوا الدماء التي سفكت؟! وخصص يوم الثالث عشر من أيلول «سبتمبر» لراحة الشعب، لكي يعبر في هذا اليوم عن فرحته بالنصر. وطلب «جوستان» و «فالنتين» من «صوفيا» الأذن بالخروج للمشاركة في تلك الفرحة. فمنحتهما إياه عن طيب خاطر، وهي تشعر بالسعادة لبقائها لوحدها في المنزل. وكان الضجيج يتعالى في كل مكان. وفي وقت متأخر من النهار، أتت «لويز» مورّدة الوجه، مشعثة الشعر، وقد كشفت عن رأسها، وبدت ملابسها مدعوكة، وأخذت تروي لـ «صوفيا» أنها حضرت عرضاً مسرحياً في دار الأوبرا، على خلفية مكونة من لوحة تمثل «سيباستوبول» وأنّ أحد المغنين أنشد قصيدة تكريماً للجيش الفرنسي، وإشادةً بأمجاده.

كان ذلك جميلاً جداً! جعل الدموع تطفر من عيني! وصحت مع كل الناس! وهذا المساء ستقام حفلة تطلق فيها الأسهم النارية. والسيد «مارسيال لوفوا» له صديق يسكن بجانب دار البلدية، ومن نوافذ منزله يمكن مشاهدة تلك الأسهم، بسهولة، وبصورة جيدة، ألا تريدين أن تأتي معنا؟

فشكرتها «صوفيا» ورفضت وهي خجلة بعض الشيء لعدم مجاراتها لهذه المرأة الصغيرة، المتحمسة. وطارت «لويز» على أجنحة الوطنية والحب. فقد كان الاستيلاء على «سيباستوبول» واحتلالها، ذريعة أضافية، بالنسبة لها، لكي تخدع زوجها، وتخونه.

١٠

يوم الأحد، ٣٠ آذار «مارس» ١٨٥٦، الساعة الثانية، بعد الظهر، دوّت المدافع في ميدان «الأنفاليد»، معلنة توقيع معاهدة السلام، فمنذ أكثر من شهر، والمحادثات تدور في باريس بين مندوبين مطلقي الصلاحية من البلدان المتحالفة ومن روسيا، وكانت الجماهير تنتظر هذا النبأ، متوقعة صدوره بين يوم وآخر. والأعلام ومصابيح الزينة، وكل شيء كان جاهزاً في جميع المنازل، وعلى الفور، ظهرت كلها، على الواجهات وفوق الأبواب. وبأمر من «صوفيا»، أسرع «جوستان» فزيّن مدخل المنزل. وهذا الحدث الذي حصل بعد مولد الأمير الإمبراطوري بأسبوعين، دفع الحماسة والفرحة الشعبية إلى الأوج. وخرجت «صوفيا» إلى الشارع، فشاهدت تجمعاً أمام إعلان ألصق حديثاً: «مؤتمر باريس. وقعت معاهدة السلام، اليوم عند الساعة الواحدة، في مقر وزارة الخارجية»... فشعرت بتأثر شديد، وقالت في سرها إنّ سعادتها لا سبيل لمقارنتها مع سعادة الناس المحيطين بها، لأنها، هي سعيدة ومبتهجة، في آن واحد من أجل فرنسا ومن أجل روسيا. وهذه السعادة المزدوجة الناجمة عن محبة مزدوجة أثارت لديها الرغبة بالبكاء. كان باعة الصحف يتدافعون من حولها. وبالقرب منها، جندي، بُتر ذراعه، أخذ يضحك عبر لحيته الشقراء، وامرأة ترتدي ملابس الحداد، تستند على كتف زوجها، الذي رفع قبعته بحركة مسرحية. وكانت الأجراس تقرع، ويدوي رنينها، على البعد، فأسرعت «صوفيا» في العودة إلى المنزل، كما لو أنها كانت تخشى أن تتبدد فرحتها وسعادتها بين الجماهير المحتشدة...

وتميزت الأيام التالية، بحصول الاستعراضات وحفلات الاستقبال الرسمية. وروي عن نابليون الثالث أنه كان لطيفاً، بشكل خاص مع الكونت «اليكسي أورلوف»، ممثل روسيا. ومن الجانبين بدت رغبة واضحة بإعادة وصل ما قطعته ومزقته الحرب. وحالما تم التصديق على معاهدة الصلح، تبادل القيصر والإمبراطور برقيات التهنئة الأخوية، وفتحت السفارة الروسية أبوابها، منتظرة عودة السفير، الكونت «كيسيليف» والكونت «مورني» الذي عين سفيراً، فوق العادة، لفرنسا في روسيا، أخذ يستعد للسفر إلى «سان بطرسبورغ» حيث تم استئجار قصر «فورونتزوف - داشكوف» ليكون مقراً للسفارة الفرنسية، هناك وحتى قبل انتهاء الحرب، كانت الأميرة «دي ليفيين» قد حصلت على الأذن بالعودة إلى باريس، وإلى الإقامة في مسكنها الكائن في الطابق الأول من بناء يقع في شارع «سان - فلورانتان». وشيئاً فشيئاً، أخذ يعود إلى باريس، روسيون آخرون ويبدون فيها، على استحياء، وجلين، في حين أنّ أصدقاءهم الفرنسيين استقبلوهم بالترحاب، وبالأحضان.

وتلقت «صوفيا» زيارة مفاجئة وغير متوقعة، من «ديلفين» التي قالت إنها تعتمد عليها تماماً لمساعدتها في حفلة الاستقبال التي ستقيمها قريباً:

هذا غير معقول! إننا لم نر بعضنا منذ زمن طويل! وسيحضر هذه الحفلة كثير من الناس الذين تعرفينهم، وهم يسألونني دائماً عنك وعن أخبارك!

وحيال هذه العودة المفيدة، استنتجت «صوفيا» أنها لم تعد امرأة منبوذة، يتهرب منها الجميع، وعلاوة على ذلك، فهي منذ بعض الوقت، كانت تستطيع الخروج، دون أن يلاحقها أو يراقبها أحد. وبعد أن أهملتها الشرطة، وتركتها وشأنها، فمن الطبيعي أن تسترد الحظوة لدى الناس الشرفاء. وذهبت، بدافع الفضول وحب الاطلاع إلى حفلة الاستقبال التي أقامتها «ديلفين»، وعادت منها وهي منذهلة بتألق الزينات، وتفاهة

الأحاديث. كانت فقد فقدت عادة الإعجاب بهذه العروض الباذخة من الأناقة، والاستماع إلى اغتياب الآخرين وذمهم، وإلى الأقوال الفارغة من أي معنى. كان زي فستانها قديماً. ولهذا السبب فقد تضايقت في هذه الحفلة. وبهذه المناسبة، كان عليها أن تجدد هندامها، ولكن، وإن كانت المراسلات البريدية مع روسيا قد عادت، إلى طبيعتها العادية، كما كانت في سابق عهدها، فإنها لم تعد تتلقى نقوداً من «ابن أختها»، وقد كتبت، بهذا الشأن إلى عميد الطبقة الأرستقراطية وإلى حاكم «بسكوف»، ولكن دون جدوى. أكان عليها أذن أن تكتب، من أجل ذلك، إلى «سيرج» مباشرة؟ إنها لم تستطع أن تقرر ذلك! ومن البدهي أنه وجد الأمر سهلاً ومريحاً، أثناء الحرب بعدم إرسال النقود، لدرجة أنه سيتابع الامتناع عن إرسالها، الآن. وهي تأنف أن تطالبه باستحقاقها وأن تهدده بإقامة دعوى عليه. لأنها، في قراره نفسها، لم تكن تشعر في أي يوم، بأن لها الحق بهذه النقود، التي تأتيها من عمها «والد زوجها» الذي تكرهه. وكونها تتلقى بطريقة مّا، المساعدة من شخص متوفى، فقد كان هذا الأمر، يزعجها كثيراً، بخاصة بعد أن فقدت «نيقولا». وبعد كل حساب، فإن «سيرج» هو الخلف الوحيد لمشيل بوريسوفيتش» ووريثه الشرعي، وإليه يجب أن تعود ملكية «كشتوفكا» بكاملها، وأي إجراء أو ترتيب مناقض لذلك، ليس سوى لعبة حصلت بواسطة الكتابة... وهل خدعها وسخر منها؟ إنها لم تشعر بسبب ذلك بأي إهانة أو مذلة، وكل ما عليها أن تعمله الآن، هو أن تقرر البحث عن وسائل تأمين معيشتها، في الوقت الحاضر. وتصورت الوضع، بكل برود: فأبسط وسيلة هي تأجير الطابق الأول في المنزل. ولأنّ متطلباتها متواضعة، فهي تستطيع العيش بالمبلغ الذي سيأتيها من أجرة هذا الطابق. وعند الحاجة، يمكنها أن تعطي دروساً باللغة الفرنسية، بالتاريخ وبالجغرافيا، كما فعلت في «توبولسك». وكان احتمال وقوعها في الفقر،

وإمكانية اضطرارها للعمل، كل هذا لم يكن يخيفها. وعندما تفكر في ذلك، كانت تسترد همتها السابقة، واستغنت عن عربة الأجرة، ومنحت «جوستان» إجازة مؤقتة، فاستاء من ذلك، وأخذ يساوم بشأن الأجرة، وأخذت «فالنتين» تبكي، متوقعة أن يأتي دورها، فتصرف من الخدمة أو تمنح إجازة. فطمأنتها «صوفيا» ووعدتها بأنها لن تتخلى عنها إلا في حالة الضرورة القصوى، وكانت آنذاك، تقول في سرها، لو أنّ «سيرج» رآها مرتبكة هكذا أمام خدمها، لضحك كثيراً. ففي هذه الفترة الأخيرة كانت تفكر كثيراً بابن أختها. وعندما كانت تتذكره، تتصوره وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، ونظرته تنم عن الكراهية والحقد. وحتى «لويز» لم تكن تأتي لتسلّيها، فهذه المرأة الشابة التي شغلتها غرامياتها الآثمة، لم تعد تذكر الطريق إلى شارع «غروتنيلّ»، والحقيقة، هي، لو أنها أتت، لتضايقت «صوفيا» وانزعجت من استقبالها.

فبعد أن أصبحت المصارحة بينهما مستحيلة، فعن أي شيء يمكنهما أن تتحدثا؟

وذات صباح، سلمت «فالنتين» لسيدتها رسالة، تحمل على مغلّفها العنوان الرسمي لعميد الطبقة الأرستقراطية «نقيب الأشراف» في «بيسكوف» ففتحتها «صوفيا» بخشية وتخوف، مسحت عدسات نظارتها اليدوية، وقرأت:

«سيدتي، من واجبي، أن أخبرك، وأنا أسف جداً، أنّ «ابن أختك» «فلاديميروفيتش سيدوف» توفي يوم السابع من شهر شباط «فبراير» الماضي، في ظروف مأساوية، فقد حدثت اضطرابات في المملكية، وأراد أن يخطب في الفلاحين ليعظهم ويهدئهم، ولكنهم انقضوا عليه وقتلوه بكل نذالة. وبالطبع، فقد ألقي القبض، فوراً، على الأشقياء، وحوكموا وأرسلوا إلى سيبيريا. وانقطاع الاتصالات البريدية أثناء الحرب، منعني من اطلاعك

بسرعة على ما حدث، فأرجو أن تعذريني على ذلك، وبموجب الترتيبات التي وردت في وصية «ميشيل بوريسوفيتش أوزاريف... فإن وفاة «سيرج فلاديميروفيتش» تجعل منك الوارثة الوحيدة للملكية والأوراق الثبوتية التي تؤيد هذا الواقع، أرسلت إلى قنصلية روسيا، العامة، في باريس، التي ستحيلها، بدورها، إلى وزارة الخارجية الفرنسية، ولا شك في أنّ هذه الوزارة سوف تستدعيك لتسلمك إياها. فهل من حاجة لأقول لك، إني بالاتفاق مع الحاكم، أقمت وكيلاً في «كشتوفكا» للإشراف على استثمار أراضيك بانتظار القرارات التي عليك أن تتخذيها، بهذا الخصوص؟»...

وحتى الانتهاء من قراءة الرسالة، كان لديها إحساس بأنها ليست مستيقظة تماماً. وجو الكابوس الذي هربت منها بمغادرتها روسيا، عاد فأحاط بها. وهذا الانطباع بانتمائها إلى عالم غير معقول، يخشى فيه من جميع أعمال العنف، وحيث يرتبط السادة والعبيد، باتفاقية غريبة من القسوة، وحيث تتغذى الثروة والبؤس، أحدهما من الآخر، وحيث تدخل أرواح الأموات إلى بشرة وأجسام الأحياء، وعندما كان «سيرج» يأمر بجلد فلاحيه، كان يعلم أنّ كل جلدة ستحسب عليه، كان يعلم ذلك، ولم يكن يستطيع أن يمتنع بأن يظل أكثر قسوةً، كما لو أنه كان متعجلاً لرؤية حدوث النكبة المؤلمة التي ستؤدي بحياته. وسحر وإغراء الهاوية. كان جميع سادة «كشتوفكا» يغوصون فيهما، الواحد تلو الآخر. فهنالك لعنة قد حلّت بالعائلة. وهذه الفكرة الوهمية، كانت تزعج «صوفيا» وتغيظها، فكانت ترفضها وتستبعدها تارة، ثم تسلم بها، تارة أخرى وكانت تفكر بـ «سيرج»، وقد تشوّه وجهه، ونزف دمه، وبالفلاحين الذين أبعدوا إلى سيبيريا، وبالفوضى، وتشوش الأذهان لدى الفلاحين في القرى، وأخذت تمشي في كل الاتجاهات، عبر الصالون الفسيح، لكي تعمل على تهدئة أعصابها. وفجأة، قالت في سرها، إنها كانت قد اتهمت «ابن أختها» بتسرع

وبلا روية. وبموته تحت ضربات فلاحيه، فقد برهن على أنّ والده يمكن أن يكون مات، بالطريقة نفسها. والآن، رغم كل شيء، عليها أن توافق على أنّ العبيد، عندما يغضبهم سيدهم ويحرجهم، إلى ما لا نهاية، عند ذلك ينفذ صبرهم، ويعمدون إلى قتله. وماذا بعد ذلك؟... كانت الشكوك التي تحوم حول «سيرج»، أثقل من أن تزيلها هذه الحجة وحدها. فإن كان هو قاتل أبيه، أم لا، فإن هذا لا يغير شيئاً في أخطائه بحق الفلاحين. وهي لن تشفق وتحزن عليه، بعد كل ما شاهدته، بأم عينها، في «كشتوفكا»! فما العمل، للحصول على المزيد من المعلومات عن ظروف جريمة القتل؟ والأفضل هو أيضاً الذهاب إلى القنصلية العامة الروسية.

أوصلتها العربة بسرعة إلى المبنى ٣٣، في حي «فوبور - سان - هونوررية» واجتازت باحة مغطاة بالرمل، وصعدت على درج تغطية قبة زجاجية. فاستقبلها الحاجب في أعلى الدرج، وسألها عما تريد، ثم أحالها إلى محضر كان يقف هناك. كانت القنصلية والسفارة في المبنى نفسه، وكان عاليهما سافلهما، فبعد غياب سنتين، أخذ الموظفون يعملون على ترتيب الأمور، وإلى العودة للإقامة في هذا المقر. كان هنالك صناديق من الخشب الأبيض العادي، وأكداس من القش في قاعة الانتظار الفسيحة كالباحة. وأخذ بعض العمال يثبتون السجاد الأحمر على درج الاستقبال الخاص بالسفارة. وعندما وصلت «صوفيا» إلى الطابق الأول، كان عليها أن تنتظر، لكي يستأذن لها المحضر، بالدخول. فعاد بسرعة، وشرح لها بفرنسية ركيكة، بأنّ السيد القنصل العام لم يكن هناك، ولكن سكرتيره الخاص، السيد «سكريابين» يسره كثيراً أن يستقبلها.

وكانت تعتقد أنها ستقابل شخصاً مهماً، متقدماً في السن، ولكنها وجدت نفسها أمام شاب قصير القامة، نضر الوجه وأشقر الشعر، جالس تحت صورة كبيرة للقيصر «ألكسندر الثاني».

ويبدو أن هذا أول منصب يشغله «سكريابين» في السلك الخارجي، لأنه بدا كالنشوان لجلوسه في هذا المكتب الفخم، حيث يستقبل إحدى السيدات. وعندما ذكرت له «صوفيا» الهدف من زيارتها، ابتهج كثيراً: فقبل يوم واحد، بالضبط، كان قد تلقى تقريراً عن القضية. وسر أيضاً باستطاعته أن يبرهن، في الحال، على كفاءته. وبسرعة قام بتمثيل حركة الدبلوماسي المثقل بالعمل، وأخذ يفتش في المحفوظات والأوراق الكثيرة، واكتشف أخيراً الوثيقة المطلوبة، وبعد أن تذكر أنّ الموضوع يتعلق بمقتل أحد الأشخاص، تظاهر بالجدية والحزن، وأكد أنّ «سيرج فلاديميروفيتش» قد فارق الحياة في السابع من شباط «فبراير» الماضي. وقال، وهو يتنهد:

إنها حادثة مؤلمة تماماً!

فسألته «صوفيا».

وكيف حصلت؟

حسب ما جاء في التقرير الذي بين يديّ، فقد أراد «سيرج فلاديميروفيتش سيدوف» أن يفرض على فلاحية العمل في الليل، لتنظيف الطريق الذي يخترق الملكية، من الثلوج المتراكمة فيه. فرفض الفلاحون الانصياع له. فذهب، ممتطياً حصانه لملاقاتهم، فحصلت بينه وبينهم مشادة. فتجرأ الأشقياء على رفع أيديهم على سيدهم.. أنا آسف، يا سيدتي لذكر هذه التفاصيل المؤلمة!... واسمحي لي، على كل حال، أن أقدم لك تعزيتي الخالصة!...

ولقي أبداء هذه الشفقة فراغاً كبيراً في قلب «صوفيا»، لدرجة أنها شعرت بالانزعاج. فلم يكن من طبعها أن تتظاهر بالحزن، عندما تكون متمتّعة بالهدوء التام، ومع ذلك، فقد كان عليها أن تنقذ المظاهر، لذلك شكرته، وقالت:

من أي قرية كان القتلة؟

من قريتي «كرابينوفو» و «شتكوفو».

وهل تعرف بالضبط، من هم الفلاحون، الذين أدينوا.

نعم، انتظري لحظة...

وقرأ ستة أسماء، مدونة في التقرير. فلم تعرف أحداً منهم، وهذا الأمر أراح بالها.

واستأنف الموظف الكلام:

والآن، عاد النظام إلى نصابه واستتب الأمن، مثلما، جاء في رسالة نقيب أشراف «بيسكوف» الذي لا بد أن يكون قد أرسلها لك، وشرح فيها هذا الموضوع. وقد عين وكيل لإدارة ملكيتك والإشراف على العمل فيها. فلديك أذن الوقت الكافي للتفكير، قبل أن تقرري أي شيء بشأنها.

فنظرت «صوفيا» إليه، مندهشة وحائرة: فلم تكن تصدق تماماً حتى تلك اللحظة أنها أصبحت المالكة الوحيدة لملكية «كشتوفكا»: كل تلك الحقول، وكل تلك القرى، وكل أولئك الفلاحين! ماذا ستعمل بهم، الآن، وهي تقيم في فرنسا؟ فهل ستحرر العبيد؟ بالتأكيد، إنها ستفعل ذلك، ولكن، إذا تحرروا بين عشية وضحاها، بعد حياة طويلة أمضوها بكاملها في الانصياع والطاعة، فهم سيكونون بحاجة ماسة لها، لا رشادهم والسهر عليهم ومساعدتهم، وتعليمهم كيف عليهم أن يتصرفوا ويمارسوا حياتهم الجديدة، ومصيرهم المقبل. وهل تترك الأمور على حالها، أو في وضعها الراهن، وتكلف أحد الوكلاء بإدارة شؤون ملكيتها، على أن يرسل لها إيراداتها؟ كان تقديرها واحترامها للعمل الإنساني وللعمل الذي يقوم به بنو البشر، أجل وأعظم من أن يسمح لها بأن تعتبر «كشتوفكا» مجرّد مصدر للربح المادي. ولأنه كان يستحيل عليها أن تقوم، هي، بنفسها بالإشراف على فلاحيها وعلى أراضيها، وإدارة شؤون الملكية كلها، فهي تفضل أن

تبيعها. وسيكون فلاحوها أكثر سعادة تحت إشراف وإمرة سيد آخر، من أن يعملوا تحت رقابة وكيل يعاملهم بقسوة وبرود، ويتلقى أجرته منها. وربما كان يجب عليها أن تذهب إلى روسيا لتنفيذ هذه العملية؟ إيه، حسن! وماذا في ذلك؟ فرحلة كهذه لا تخيفها. فهي ستذهب، وستعود... وعندما وصلت في تفكيرها إلى هذه النتيجة، أخذت تتساءل فيما إذا كانت عملية البيع ممكنة، في حالة الوراثة الحالية؟ أليس هنالك تفاصيل شرعية وقضائية ينبغي مراعاتها والتقيد بها؟ وعندما سألت «سكريابين» عن ذلك، طمأنها تماماً بأن لا شيء يعيق تصرفها بالملكية التي ورثتها، حالما تعلن رغبتها عن التصرف بها، ومع ذلك، فهو ينصحها بشأن سفرها إلى روسيا، أن تؤجله، وتنتظر انتهاء أعياد واحتفالات التتويج التي ستبدأ، بتاريخ ٢٦ آب «أغسطس» المقبل. وقال:

إنه حدث كبير الأهمية في روسيا، لدرجة أن البلاد بكاملها تستعدّ له، بحماسة شديدة، منذ الآن. ومن أعلى وأكبر حاكم، إلى أصغر وآخر معلم في أي مدرسة، لم يعد يولي باله واهتمامه إلى عمله. ولذلك، فإنك ستبيعين ملكيتك، في ظروف وشروط سيئة للغاية، في الوقت الحاضر، والأفضل أن تنتظري انقضاء هذه الفترة التي تعم فيها الأفراح في كل مكان!...

فاقتنعت بأنه محق فيما يقول، وليس هنا لك ما يدعو إلى العجلة والتسرع. وهنأها، وهو يرافقها مودعاً، لأنها اختارت الحل المعقول: وهو حل البيع. وأضاف، قائلاً:

تعلمين أنه إذا لم يكن صاحب الملكية موجوداً فيها ليديرها ويشرف على استثمارها وإدارة الأعمال فيها، فمن الأفضل أن يبيعها، لاسيما وأن ملكيتك، حسب ما لدي من معلومات، تشكل ثروة كبيرة. ولكن، لا تدعي التجار يغشونك، تمسكي بالسعر الذي يناسبك. وعودي لمقابلتي من أجل الحصول على التأشيرة. فهي ستمنح لك، خلال ثمانية وأربعين ساعة.

وبينما كان يتكلم، شمّت «صوفيا» في الرواق، رائحة طبق من الطعام الروسي، آتية من مطبخ ما، كائن في مكان بعيد: إنه لحم مفروم معطر بالشمرة ومغمور بالقشدة، دون شك. وتشوشت أفكارها. وقبل «سكريابين» يدها. ولأنّ المحضر كان مشغولاً في مكان آخر، فرافقها خادم يرتدي حلة زرقاء، عبر الدرج الكبير، إلى غرفة الانتظار. ونظرت إليه خلسة: كان له، تحت «باروكته» البرشاء، وجه قروي سيبيري، بارز الوجنتين، أفطس الأنف.

وعند خروجها من مقر القنصلية العامة، شعرت أنها في غربة، كما لو أنها وصلت من رحلة طويلة. وأمامها، شمس ساطعة تضفي على قارعة الطريق اللون الأبيض، وتثير ألوان الفراشات في زينات النساء. وأحاط بها صخب المدينة، دون أن يلهيها عن أفكارها. واجتازت ميدان «الكونكورد» يتعقبها جميع فلاحي «كشتوفكا».

وفي صباح اليوم التالي، وجدت في بريدها رسالة من «داريا فيليوفنا»، تروي لها، على وجه التقريب، ما سبق لها أن عرفته: «لم أشأ أن أكتب لك عن هذا الموضوع، قبل أن يبت بهذه القضية، ويصدر الحكم بشأنها، خوفاً من الوقوع في الخطأ. والآن، وقد أصبح «ابن أختك «وليرحمه الله» في باطن الأرض، وقتلته «وليغفر لهم الله» حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة، فإني لا أستطيع مقاومة الرغبة بأن أقول لك بأنّ هذا الحادث قد أثار اضطرابنا، أنا وابني. إنها قصة فظيعة! أتدرين أن الفلاحين قد أسقطوه عن ظهر حصانه، ثم خنقوه، وأغرقوه في النهر، بعد أن دفعوه إليه عبر حفرة الجليد؟ و «السواقون» الذين كان يعول عليهم من أجل حمايته والدفاع عنه، وقفوا يتفرجون، مكتوفي الأيدي، فهم أيضاً، أصبحوا يكرهونه، في نهاية الأمر. ومع ذلك فإنه كان يدفع لهم أجوراً سخية. وهذه الحادثة، حرمتني من النوم ليلتين متتاليتين! ومنذ أن نشبت الحرب، أحدث الفلاحون

عدة فتن، وقاموا بكثير من أعمال التمرد و العصيان، في المنطقة، حتى في «سلافينكا» فإنهم يشربون المسكرات ويرفعون أنوفهم. فيا لها من فترة محزنة! والوكيل الذي عين للإشراف على ملكيتك، رجل من الطراز الأول. وهو ألماني. وبرأي «فاسيا»، فإنك تستطيعين أن تثقي به. والآن، وقد استقريت في باريس، فإن منزلك في «كشتوفكا» لا يثير لديك، دون شك، أيّ اهتمام! وكل الناس، هنا يظنون أنك سوف تبيعين هذه الملكية الجميلة، وهذا الأمر يحزنني كثيراً، لأننا، أنا و «فاسيا» كما تعلمين، نحب كثيراً أن تظلي جارتنا! ونحن نتحدث عن ذلك أحياناً، في سهراتنا! ولكني وأقول هذا فيما بيننا، أعتقد أنك محقة، وعلى صواب، في بيعها، لأن مستقبل الملكيات العقارية الكبيرة مظلم للغاية، والزراعة لم تعد تعطي شيئاً، والفلاحون أصبحوا كسالى، وأصبح من الصعب السيطرة عليهم. وفي كل مكان يشعر الناس بانعدام الأمن، وبنقص في السيولة النقدية. ويروى أنّ قيصرنا الجديد - وهو كالملاك في لطفه وأريحيته - مصمم بقوة على تحرير العبيد، خلال السنوات القليلة المقبلة، وهذه نية نبيلة، تأثر منها، وفرح بها «فاسيا» كثيراً. وهو يقول إنّ ذلك سيكون فجر عهد جديد، بالنسبة لروسيا، وتحقيقاً لأمنيات وآمال أصدقائه. فليستجب له الله! ولكني، من جهتي، فأنا أخشى من أنّ فلاحينا، عندما يتحررون، لا يعرفون كيف يجب أن يتصرفوا لإدارة شؤونهم، ومن حدوث الضرر والاضطراب في اقتصاد البلاد. وستقولين لي: «هذا مبرر إضافي آخر لبيع كشتوفكا» إيه! نعم، أنا هكذا، أتكلم ضد مصلحتي، وأياً كان قرارك، فأملي كبير بأنك سوف تأتين للبت بهذه المسائل، في مكانها، وأن نراك، لأن لقاءنا بك وإن كان لبضعة أيام، سيخفف الحزن الذي أشعر به، عندما أفكر أنّ شخصاً غريباً ربما سيحل مكانك، ويقيم في «كشتوفكا» بدلاً منك! »...

١١

انتشر بسرعة، في الصالونات، خبر الميراث الذي آل إلى «صوفيا» وفرحت بذلك «ديلفين» كأنها هي بالذات التي حصلت عليه. فلم تعد تفارق صديقتها، وتحاول أن تقدم لها المشورة والنصيحة حول كل شيء من ذلك، إنه يجب إجراء بعض الإصلاحات في المنزل، وشراء مفروشات جيدة ومتميزة، وتجديد الستائر، وطلاء الجدران، واستئجار بعض الخدم. و «صوفيا» التي كانت قد تلقت للتو متأخر إيرادات الملكية، رفضت إنفاق مبالغ كبيرة، قبل أن تبيع «كشتوفكا». وكان يخيل لها أنها يمكنها تأجيل هذه الترتيبات كلها إلى أن تعود من روسيا، وحتى، لقد بدا لها، أن ذهنها سيكون آنذاك أكثر حرية وصفاء، للبت بهذه الأمور. ومع ذلك، فقد وافقت على شراء وخياطة بعض الفساتين، وبعض الملابس الأخرى - على أن تكون مناسبة للسفر وليس للاستقبالات. و «ديلفين» التي كانت تحضر كل التجارب والبروفات التي تجريها عند الخياطة قالت لها، وهي مستسلمة ليدي الخياطة، أمام المرآة:

- أنت مخطئة، بإرجائك إصلاح منزلك وتجميله، إلى ما بعد عودتك، لأنّ الأعمال من هذا النوع يستغرق انجازها زمناً طويلاً. ويجب من كل بدّ أن تكوني، أنت ومنزلك، على استعداد تام، من أجل فصل الشتاء!

فقالت لها «صوفيا»:

- لن يكون الضرر كبيراً؛ فيما لو تأخرت في ذلك بضعة أشهر!

- بلى، يا عزيزتي فأنت لا يمكنك بعد اليوم أن تسمحي لنفسك بإهمال النشاطات الاجتماعية والبقاء في مؤخرة المجتمع!

فصاحت «صوفيا»:

- دعك من ذلك! فأنا أعيش بعيدة عن كل شيء، ولا أحد يهتم بي...

- أنت مخطئة بما تقولين! فالزمن قد تغير! ووضعك الآن أصبح جيداً، ويعد بأنه يصبح متميزاً واستثنائياً، لا مثيل له... وبما أنه لم يبدر من «صوفيا» أيّ ردّ فعل، انحنت «ديلفين» نحوها وتابعت بصوت خافت، كمن يدعو إلى التواطؤ والدخول في مؤامرة: إن علاقاتك بروسيا، من جهة، وبفرنسا من جهة أخرى، تؤهلك بشكل طبيعي تماماً، للقيام بدور الوساطة بين هذين العالمين. والأميرة «دولفيين» أصبحت عجوزاً متعبة. ولم تعد تستقبل أحداً، ولم يعد أحد يصغي إليها. وأنا أرى أنك مؤهلة تماماً لتحلي محلها!

فقهقهت «صوفيا» ضاحكة:

- إنك تمزحين، دون شك! فأنا ليس لدي لا الوزن والأهمية، ولا الميل لهذا النوع من العمل!

- فيما يتعلق بالوزن والأهمية، فأنت لا تقدرين نفسك حق قدرها! أما الميل، فستشعرين به، وهو يأتي بالتدريج، شيئاً فشيئاً! أفلا تحبين أن تؤثري على آراء بني وطنك، بشأن علاقاتهم مع روسيا؟

فهزت «صوفيا» كتفيها. وأخذت الخياطة وهي تجثو على السجادة، تشكو من أنها لم تعد تستطيع العمل في هذه الأوضاع. ولفتت «ديلفين» نظرها إلى أنّ الكم مسطح وواسع جداً، في أعلاه، ثم صاحت وهي ترف بجفنيها:

- آه! يا «صوفيا»! لكم أود أن أستطيع إقناعك! فأنت لن تعمدي بعد كل ما قمت به، وبعد الحياة الحافلة التي عشتها، إلى إهمال القضايا

العامة، وعدم الاهتمام بها! وكنت أتحدث بذلك، منذ بضعة أيام، مع السيدة «أنغولت»، وقد أيدت رأيي تماماً، وهي تعتبر...

وظلت «صوفيا» تتحدث هكذا، زمناً طويلاً، مشيدة بكفاءة وإمكانات المرأة الاجتماعية، التي يستمد منها الرجال البارزون الإيحاءات والأفكار التي تساعدهم في أعمالهم ومهماتهم، وهم يدخنون السجائر ويحتسون المشروبات، فأي استخدام تقوم به «صوفيا» لثروتها، أفضل من تكريسها لإنشاء منتدى ثقافي وفكري فرنسي - روسي، في قلب باريس؟

وقالت الخياطة:

- أرجوك، يا سيدتي أن تستديري إلى هذه الجهة. هل أصبح الكم يناسبك الآن؟

فاستدارت «صوفيا» وأبدت لها مرآتها صورة امرأة تقدمت بها السن، تتخلل شعرها الأسود خيوط فضية اللون، جبينها بارز، حاجباها رفيعان، عيناها سوداوان تنبعث منهما نظرات حادة، أنفها نحيف وأقنى، ذقنها نحيلة ومربعة الشكل، وقد ضمت شفتيها بشكل يعبر عن قوة نسوية. وقد ضم قامتها فستان بني اللون. عليه نقاط بيضاء، وبدا واسعاً في أسفله.

فقالت للخياطة:

- نعم، إنه حسن، هكذا.

وأخذت تفكر: «أأحتل مركزاً في المجتمع الباريسي، وأحاول أن أتحدث له عن روسيا، واشرح أحوالها للفرنسيين. ولم لا؟ والأموال التي ستأتيني من بيع «كشتوفكا» سوف تتيح لي أن استقبل كثيراً من الناس. وسأفرض نفسي على المجتمع، وأصبح، أخيراً نافعة أقدم الفائدة لمن حولي! وشعرت بصدمة أوقفتها عن تأملاتها.

فمن جديد، صدمتها فكرة بيع الملكية، وبدت مترددة حيالها: فهل تستطيع أن تتخلى إلى ناس غرباء عن تلك الأرض الطافحة بالذكريات،

وأن تساوم على أسعار وثمن الفلاحين العبيد - كذا من الروبلات بالرأس، كما تباع الماشية - فهل ستكون لديها القوة لتفعل ذلك؟ وقالت لنفسها: «ومع هذا فلا بد من القيام بهذه العملية. ووفاة «سيرج» لم تغير شيئاً، وليس لدي شيء ولا أحد اهتم به في تلك البلاد، ولا حتى أولئك العبيد، فهم لا يحبونني وقد برهنوا لي على ذلك. وأنا لم أعد أشعر أني قادرة على مساعدتهم والاهتمام بشؤونهم، فيما لو تحرروا كما كنت أرغب القيام بذلك، أو لم يتحرروا. فالعائق قد زال بعد فوات الأوان. ولا يمكن إضرام نار حبّ، قد خمدت. فقط لو أن طفلي ظل على قيد الحياة، لكان لدي من أترك له هذه الملكية كميراث، ولكن، عندما سأرحل عن هذه الدنيا، ماذا سيحصل لها؟ وليس هنالك أحد يخلفني في التصرف بها. أن هذا مزعج ومخيف! آه بسرعة، بسرعة ولينته كل شيء، ولا أريد أن أسمع، بعد الآن شيئاً عن «كشتوفكا»! وانحنت نحو «ديلفيين» التي كانت تراقبها، وهي جالسة على أريكتها، وهمست في أذنها:

- أنت تنظرين بعيداً، ومشروعك مهم وكبير! ولكن ربما كنت محقة وعلى صواب، فيما قلت! ولكم أحب أن أكرس نفسي بإخلاص، للعمل على إنجاز هذا التقارب بين الشعبين، الذين أعرفهما، كليهما جيداً! وبخاصة بعد تلك الحرب الدامية! وسنتحدث عن ذلك عند عودتي من الرحلة..

فنهضت «ديلفيين» وأمسكت يديها الاثنتين، وقالت لها:

- إني مسرورة جداً، برؤيتك هكذا، من جديد، قوية العزم ونافذة البصيرة، كبيرة الثقة بالمستقبل! وهذا الفستان يليق بك، ويناسبك بشكل عجيب!

فبدت البهجة على وجه الخياطة: فهاهما أخيراً تتحدثان بلغتها، وعن عملها واقترحت إضافة طبقة رقيقة جداً على ذيل الفستان، الأسفل. عند ذلك احتدم النقاش بين النساء الثلاث.

★★★

الحماسة التي لاقتها احتفالات التتويج، وبشرت بها في روسيا. بدت شيئاً فشيئاً تصل إلى فرنسا لتشملها أيضاً. وكانت الصحافة الباريسية تتحدث بسرور وإسهاب عن الاستعدادات التي تجري في كل مكان، لتلك الأيام التي ستقام بها الاحتفالات التي لم يسبق لها مثيل، وعن الزينات الضخمة التي شملت كل أحياء موسكو، وعن الترتيبات الخاصة بالموكب الإمبراطوري، وعن تنفيذ بعض الطقوس الدينية الأرثوذكسية. والصحف نفسها التي دعت إلى الحرب، بشدة وحماسة ضد «المتوحشين» أخذت الآن تبدي التعاطف والمودة نحو الأخلاق النبيلة والرائعة التي يتحلى بها هذا الشعب العظيم، وتكيل المديح لألكسندر الثاني، ولشخصيته الفذة. وكان الكونت «مورني» شخصياً، هو الذي سيرأس الوفد الفرنسي للتهنئة وللمشاركة في تلك الاحتفالات. وهذا التكريم، على ما يقال، قد حظي بتقدير كبير في «سان بطرسبورغ».

وفي اليوم التالي للتتويج، قرأت «صوفيا» في صحيفة «المرشد العام» برقية جعلتها تضطرب، فبين الإجراءات التي ذكرت في البيان الذي أعلنه القيصر الجديد، بمناسبة اعتلائه العرش، ذكر مراسل الصحيفة، ما يلي «يُعفى بشكل تام ونهائي عن واحد وثلاثين من متآمري سنة ١٨٢٥، الذين لا يزالون مبعدين، ويقيمون في سيبيريا، وهكذا، إذن تكون قد انتهت عقوبة «متمردي كانون الأول»! بعد أن أمضوا في السجن، مع الأشغال الشاقة، وفي المنفى، ثلاثين سنة، سيحصلون على الحق بالعودة إلى الأماكن التي أمضوا فيها طفولتهم السعيدة. وأعادت «صوفيا» عدة مرات، قراءة هذه الأسطر المطبوعة بحروف صغيرة، واغرورقت عيناها بالدموع، وهي تتذكر أصدقاءها.

وبعد مرور بعض الوقت، تلقت رسالة من «ماري فرانتزيف» تؤكد لها فيها هذا النبأ:

«لم نكن نعرف شيئاً، بعد، عن هذا النبأ، في سيبيريا. ولكن «ميشيل» أحد أبناء «آل فولكونسكي»، كان في موسكو، أثناء الاحتفال بتتويج القيصر. فكان هو، الذي كلفه الإمبراطور، بمبادرة لطيفة منه، أن يحمل قرار العفو إلى «المتمردين» فانطلق كالمجنون، ولم يمض سوى خمسة عشر يوماً، ليقطع الطريق الطويل. وعندما وصل إلى منزل ذويه، لم يكن يستطيع الوقوف على ساقيه من شدة التعب، وكان يلهث ولا يستطيع الكلام. وتصوري فرحة أصدقائك آنذاك! وهي فرحة قد شابها الحزن بسرعة، مع ذلك فبعد أن تقدمت بهم السن، كان يصعب عليهم تغيير عاداتهم. وأخذوا يستعدون، وهم يتهدون لمغادرة بلاد عرفوها جيداً، إلى وطن، لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً بشكل واضح ومؤكد. وعلاوة على ذلك، فقد منعوا من الإقامة في موسكو أو في سان بطرسبورغ. والصحف تتحدث عن ٣١ محكوماً! ولكن، بالحقيقة لم يبق منهم سوى ١٩. والذين لديهم أولاد فرحوا، بدافع من الروح العائلية، أن يكون التكريم والحرية، قد ردّا إليهم. أما الآخرون، وأقول لك هذا، فيما بيننا، فيمكنهم، عن طيب خاطر، الاستغناء عن هذا العفو، الذي أتى متأخراً، وبعد فوات أوانه.

ولكنهم يشعرون أنهم ملزمون معنوياً وأخلاقياً بقبول العفو الذي منح لهم، ويبكون عندما أحدثهم عن رحيلهم. وأنا أيضاً، تعيسة جداً. فكيف سأصبح، وماذا سيحل بي، عندما يصبحون بعيدين؟... فهنالك أحداث، أقرب عهداً، وأكثر مأساوية، أخذت تدفع قصتهم إلى الموقع الثاني. فبعد حرب «القرم» ونتائجها الدموية، فقد تراجع الماضي الذي نهتم به أكثر من قرن! فكيف أمضيت تلك السنين الصعبة والكريهة؟ وما هو شعور الفرنسيين، اليوم، نحونا؟..»

فأجابت «صوفيا» بحرارة على هذه الرسالة. كما كتبت أيضاً إلى «بولين أنانكوف» وإلى «ماري فولكونسكي» لكي تهنئهما على

اقتراب عودتهما إلى روسيا. وفي اللحظة التي أغلقت فيها المغلف الأخير، استغرقت في حلم من أحلام اليقظة، فهدأت يداها عن الحركة، وشردت نظراتها في المدى البعيد. كان هنالك مصباح، مزود بعاكس للضوء، ينير المكتب. وخلف النوافذ المظلمة، كانت تهب وتعصف رياح الخريف. وحسبت، بأنها بعد تسعة أيام، تكون قد سافرت. وهذه المرة، ستغير خطة الرحلة ومسارها: سوف تستقل القطار من باريس إلى «ستيتين» عن طريق «كولونيا» و «برلين». ومن «ستيتين»، ستسافر بحراً، في سفينة بخارية إلى «سان بطرسبورغ». وهذه، حسب أقوال الخبراء أفضل وأيسر طريقة للقيام بهذه الرحلة الطويلة. وهي لن تحتاج أبداً لأكثر من شهر، لتسوية قضيتها وإنهائها في «بسكوف» وبعد أن تتخلص من «كشتنوفكا» ستشعر أنها أصبحت أكثر خفة ورشاقة وأن عبئاً قد أزيح عن كاهلها! وعادت إلى التفكير بالتغييرات التي قررت إجراءها في منزلها الكائن في شارع «غرونيل»: فإلى جانب الصالون الكبير، المفروش على الطراز القديم، سيكون لديها صالون آخر، صغير، ذو طابع عصري وحديث، مزود بمقاعد منجدة بقماش حريري، وبمغسلة جدارية من البورسلين، وبأريكة «صوفا» وبمساند مزدانة بالشرائط والشرابات وبستائر كثيفة، وسجف متعددة الحواشي والطيات. وكانت قد اختارت الألوان الأساسية لتلك المجموعة: الوردي والرمادي اللؤلؤي. ويقال أن هذين اللونين، من الألوان التي تحبها وتفضلها الإمبراطورة. ولكن، ألن يبدو ذلك باهتاً؟ وتواردت على ذهنها الأفكار والهموم، بصورة متلاحقة. وفجأة، خيل لها أنها تستقبل في منزلها، في باريس «آل فونفيزين» «آل أنانكوف» و «آل فولكونسكي»، وجميع أصدقائها الذين تعرفت عليهم في سيبيريا. كانوا ينظرون إليها بحزن، دون أن يتفهموها.

وتذكرت جملة من التوراة، كان بعض «متمردي كانون الأول» يرددونها فيما مضى بإعجاب ورضى: «إن ضوء العادلين والمنصفين، يمنح الفرح. ومصباح الأشرار سينطفئ». وقد انطفأ مصباح الأشرار بموت القيصر. ولكن أين فرح العادلين والمنصفين؟ لقد أصبحوا أكثر شيخوخة وتقدما في السن، من أن يفرحوا، لقد أضاعوا كل شيء بسبب فكرة معينة، وسيضيع ويفقد آخرون بعدهم، كل شيء، من أجل لا شيء، من أجل لا شيء! والجو كان يطفح بالأحلام الكبيرة التي تلاشت، وبالمشاريع الخيرة والنبيلة، التي أجهضت. ولكن ربما كانت هذه الرغبة الملحة والمصرة على تغيير وجه العالم، هي بالذات سمة الإنسان، في المشهد الخارق للطبيعية والهائل، الذي يمحو فيه كل جيل الجيل السابق، وحيث يبدو كل شيء، ينبغي استئنافه والعودة إلى العمل به، على الدوام؟ وربما كانت الحاجة إلى الشغف والحماسة إلى عمل ما، أكثر أهمية من حاجة الإنسان ليكون سعيداً؟! وربما لم يكن هنالك حياة بددت، أفسدت، وضيعت، سوى تلك التي انقضت بروية وتعقل؟

وليس لأحد الحق بأن يشكو ويتذمر، طالما أنه يرى أمامه طريقاً سالكة ومفتوحة. والجهد أن تكلل بالنجاح أم لا، فهو يجزي ويكافئ الذي قام به. وإذا كان الأمر هو كذلك، فمن الذي يستطيع أن يؤكد أن «متمردي كانون الأول» قد قاتلوا، وهزموا عبثاً، ودون جدوى، وأن «نيقولا» لم يعش حياته؟

ونهضت «صوفيا»، مدفوعة بكل هذه الأفكار المتناقضة. فتحت درج إحدى الخزانات الصغيرة، تناولت منه بعض الرسائل القديمة، وصورة صغيرة ضمن قلادة جميلة. فأخذ تراودها ذكريات عذبة: ضابط شاب، معادي، يدخل إلى الصالون، طويل القامة وأشقر، أسنانه بدت بيضاء في

وجه لوحته الشمس. أخذ ينظر إليها باحترام وإعجاب. ومن تلك السنين الجميلة، لم يبق أكثر مما يبقى من الخط المقوس الذي ترسمه في الجو حجر قذفها أحد الأطفال. وضمت يديها على صدرها. كانت الريح تصفق درفة إحدى النوافذ.

فتذكرت بعض ليالي «كشتنوفكا»، والضجة المخيفة التي تحدثها الأشجار حول المنزل. والممشى الذي تحيط به من الجانبين أشجار الصنوبر المغطاة بالثلج. ورنين أجراس إحدى العربات، الآتي من بعيد...

وبعض الأصوات المرحة، وهي تنادي «سيدتي! سيدتي! هناك من هو قادم إلى المنزل!...» ومنذ زمن طويل لم ينادها أحد: «bourynia»[1].

قرعت «فالنتين» الباب، وبدت مبتسمة وهي تحمل، على صينية كوباً من المرق. فأشارت لها «صوفيا» أن تقترب. كل شيء كان هادئاً جداً في حياتها! فهل كانت هذه، حقاً نهاية المعارك؟

★★★

على الرغم من اعتراض «صوفيا» واحتجاجاتها، فقد أصرت «ديلفين» على مرافقتها إلى محطة «الشمال». ولأنهما وصلتا قبل موعد انطلاق القطار بثلاثة أرباع الساعة، فقد لجأتا إلى قاعة الانتظار، الخاصة بركاب الدرجة الأولى. وجلستا صامتتين، جنباً إلى جنب، بانتظار موعد السفر.

كان الوقت مساءً وضوء الغاز الأبيض، ينهمر من بعض المصابيح المعلقة في مكان عالٍ. وفي كل لحظة، كان يفتح الباب، ويدخل مسافرون جدد: رجال، على رؤوسهم قبعات عالية سوداء كبواري المدفأة، نساء متدثرات بمعاطفهن، أطفال هادئون متعقلون، تزين

١- Bourynia: السيدة النبيلة الروسية -المترجم

ملابسهم الشرائط الملونة. وخدم بأحذيتهم ذات الطيات وقبعاتهم المضفورة أيضاً بالشرائط، يحملون الحقائب والسلال التي تحوي زوادة العائلة. وبعد أن أجلس الرجال أبناءهم على المقاعد، تجمعوا حول بعضهم لكي يتحدثوا ويدخنوا، مرتاحي البال، أمام مدفأتين ضخمتين، كانتا تضفيان على هذا المكان الخاص بعبور المسافرين، طابع قصور عصر النهضة. وفي كل مكان، يحل الحديد المطروق محل الخشب الأجوف والمخروط، ومحل الجص. وعبر منور مزود بألواح زجاجية، بدت بعض القاطرات تتحرك وتناور مرسلة بخاراً كثيفاً. وكانت الأرضية الخشبية تهتز كما يحدث في المطاحن. ومع كل انطلاقة صافرة، كانت النساء ينتفضن قلقات.

وكانت «ديلفين» تضع أمام فمها وأنفها منديلاً، بسبب رائحة الفحم الحجري. وعندما لم يبق عليهما أن تنتظرا سوى خمس وعشرين دقيقة، أخذت تكرر لـ «صوفيا» التوصيات والنصائح التي أوحت لها بها صداقتها وخبرتها.

وآتى مستخدم ليخبر المسافرين بأنه قد حان وقت الصعود إلى حافلات القطار. فخرجتا، وانضمتا إلى المسافرين الذين كانوا يتدافعون على رصيف المحطة، وهناك لم يكن يبدو أي تمييز بين الطبقات. كانت الرؤوس المضطربة، تتدافع كلها في اتجاه واحد، كما تتدافع التفاحات عندما تسقط من السلة. وعلى ضوء مصابيح الغاز لمحت «صوفيا» صفاً من العربات، كان بعض العمال يتفقدون عجلاتها، وقاطرة يتصاعد الدخان الكثيف من مدخنتها. ومستخدماً أخذ يصيح في مكبر للصوت:

- المسافرون إلى «كولونيا»، إلى «برلين» وإلى «ستيتين»!..

كان المطر ينهمر على زجاج المنور، المائل، وأخذت هبات الريح تلفح وجهي المرأتين. ومشى أمامهما حمّال يحمل الحقائب وساعد «صوفيا» على الصعود إلى الحافلة. وأزعجتها تنورتها المصنوعة من القماش القاسي، والضيقة بعض الشيء عند الصعود على المرقاة.

وبعد أن أخذت مكانها في الحافلة، انحنت على فتحة البوابة. كانت «ديلفين» لا تزال واقفة على رصيف المحطة. وقد خبأت يديها في كميمة من الفرو لتدفئتهما. ووجهها النحيل المغطى بالمساحيق، الذي بدا كوجه المومياء، في إطار من شرائط قبعتها، الملونة. وبدت كأنها عجوز عمرها مئة سنة!

وقالت لـ «صوفيا»:

- عديني بأنك ستعودين بأقصى سرعة.

- نعم، نعم، بالطبع!

- تعلمين أني مساء يوم ٢٥ تشرين الثاني «نوفمبر» سأقيم حفلة موسيقية في منزلي!

- لن أنسى ذلك أبداً!

- إذن، إلى اللقاء القريب!

- إلى اللقاء القريب!

كانت كل منهما تبتسم للأخرى، وتلوحان بهدوء بيديهما المخبأتين في قفازيهما. ولكن القطار لم ينطلق بعد. وعقرب الدقائق يتحرك ببطء على ميناء الساعة المعلقة فوق الرواق الغربي. وأخيراً انطلق صفير حاد. فتحركت الحافلات واصطدمت ببعضها، تشدها قوة جبارة عمياء. ومر ببطء صف طويل من الوجوه المجهولة أمام «صوفيا» ورأت «ديلفين» وهي تبتعد، ملوحة بمنديل صغير أبيض. بينما كان الناس يصيحون:

- إلى اللقاء! إلى اللقاء! رحلة سعيدة! إلى اللقاء قريباً!

وصاحت «صوفيا»!

- إلى اللقاء، قريباً!

ولكنها، في قراره نفسها، كانت تعرف آنذاك أنها لن تقوى على بيع فلاحيها، وليس لديها الجرأة كي تفعل ذلك، وأنها ستعيش بقية أيامها، وتنهي حياتها في «كشتوفكا».

منشورات دار علاء الدين
سلسلة روايات نور العادلين
من تأليف هنري ترويّا

١- رفاق شقائق النعمان.

٢- النبيلة الروسية.

٣- مجد المهزومين.

٤- سيدات سيبيريا.

٥- صوفيا أو نهاية المعارك.

من منشورات دار علاء الدين

- ابنة الكاتب

..................هنري ترويا

- ألوشا

..................هنري ترويا

- ذكريات غيشا

..................آرثر غولدن

- زنوبيا ملكة تدمر - رقص الآلهة

..................أ. ب. دانييال

- قليل من حرارة الشمس في الماء البارد

..................فرانسواز ساغان

- ٩٩ فرنكاً

..................فريدريك بيغبيدير

- نوافذ على العالم

..................فريديريك بيغبيدير

- أرخبيل غولاغ

..................الكسندر سولجنيتسين

- مساء ذبول الوردة

..................اردال أوز

- خبز فوق الماء

..................اروين شو

- قرب النهر أبكي

..................باولو كويلهو

- بؤس الشيطان

..................بريم ستوكر

- أخوية اليقظانين

..................جاك اتلي

- مشاهد من حياة كهنوتية

..................جورج اليوت

- هيجان محاكمة وقتل لوركا

..................جوزيه لويس دي فيلالونغا

- إيفا

..................جيمس هادلي شيز

- النطع

..................جينكيز إيتماتوف

- مرآة الحبر مختارات

..................خورخي لويس بورخيس

- الحجلة لعبة القفز بين المربعات

..................خوليو كورتاسار

- تذير بالشر

..................دافيد سلتزر

- فصل الراحة

..................غور فيدال

- عودة الإنسان

..................ف. م. دوستويفسكي

- ويدوم الحب ثلاث سنوات

..................فريديريك بيغبيدير

- الأرواح الرمادية

..................فيليب كلوديل

- حفيدة السيد لنه

..................فيليب كلوديل

- لعبة حب مجنون

..................كريستين أوربان

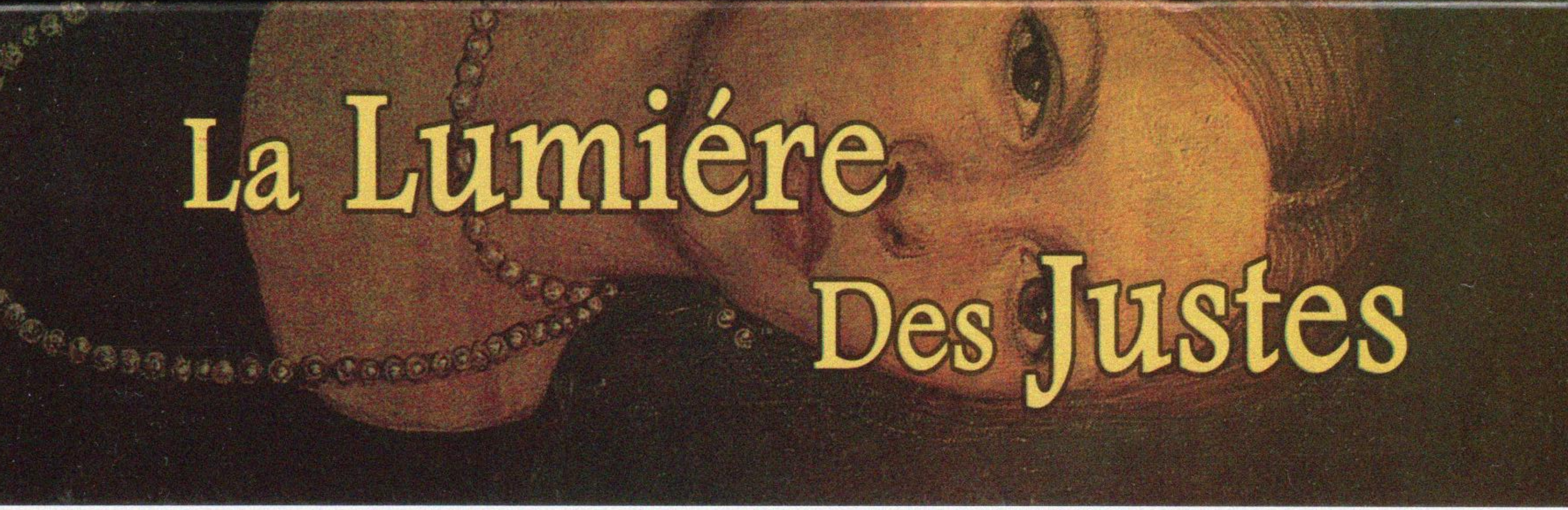
La Lumiére
Des Justes

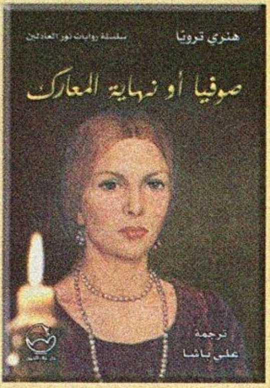

صوفيا أو نهاية المعارك

في هذا الجزء من العمل يصل بنا هنري ترويّا بملحمته الأدبية الرائعة إلى نهاية الرحلة التي امتدت أحداثها نصف قرن تقريباً، امتزج فيها الأدب بالتاريخ، والحلم بالواقع والثقافة بالسياسة، ليبني صرحاً أدبياً شامخاً نابضاً بالحياة، بكل أبعاد الحياة، مُطلاً على مساحات واسعة، ومتوقفاً في محطات تاريخية تعجُّ بالأحداث الجِسام عبر مسيرة الإنسان الصّعبة، وصراعه من أجل الحرية، مؤكداً أن ما هو مهمٌ ليس الملوك والقياصرة، بل أناس لن يذكر التاريخ أسماءهم ولن يحتفظ بها، أناس بسطاء يثيرون الإعجاب.

هذه الرواية بحبكتها المعقدة وبغناها الفكري وبأسلوبها الفنّي الراقي تمثّل نموذجاً مميزاً ومثيراً للرواية العالمية.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سوريا - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy

علي مولا